يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ ﴾ [الشمس]

إذن : لما اختار الضلال ووجده الله تعالى ضالاً حكم عليه أزلاً بأنه ضالّ ، وجاء الواقع كما حكم الحق سبحانه ، وكما علم الله منه . لذلك قلنا : إن الملائكة تظلّ تتعجَّب حينما يروْنَ واقع الحياة وفْق ما كتب فى اللوح المحفوظ فيقولون : نِعْم الرب .

معنى ﴿ أَفَرَأَيْتَ .. ۝٢٣ ﴾ [الجاثية] يعنى : أعلمتَ سَواء أكنتَ رأيت بعينك أو لم تَرَ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾ [الفيل] أى : ألم تعلم ، لأن رسول الله وُلد فى هذا العام ولم يَرَ حادثة الفيل .

وقوله تعالى : ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ۝٢٣ ﴾ [الجاثية] معنى ختم يعنى : ضرب وطمس ، وهنا جمع كل وسائل الإدراكَ فى النفس الإنسانية ، الأذن التى تسمع آيات الله تسمع بلاغة كلام الله ووعده ووعيده ، والبصر الذى يرى الآيات الكونية ويتأملها ويستدل بها على خالقها ومُبدعها ، والقلب محل الاعتقاد .

وما ختم الله على كل هذه الوسائل إلا لأن صاحبها أحبَّ الكفر وارتاح إلى الضلال ، فأعانه الله على ما يحب ، وختم على هذه الجوارح حتى لا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان ، وكيف يؤمن مَنْ لا يسمع كلام الله ولا يرى آياته فى الكون ولا يميل قلبُه إلى لذة الإيمان بالله .

لذلك قال فى ختام الآية : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ۝٢٣ ﴾ [الجاثية] لا أحد يملك هدايته كما قال فى موضع آخر : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ

من هادٍ ﴿٣٣﴾ [غافر]

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

هـذا إنكـار منهم لليـوم الآخـر ، ولكن الحق لا بدّ وأنْ يظهر فى (فلتات) الألسنة ، فـوصفهم للحياة الـتى يعيشونها بأنهـا دنيا دليل واعتراف منهم بأن هناك حياة أخرى أشرف وأعلى من هذه .

كما جاء فى قولهم : ﴿ لا تُنفقوا علَىٰ مَنْ عند رَسُـول اللَّه .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فيعترفون أنه ﷺ رسـول الله مع أنهم مُعادون له كافرون بدعوته .

وقولهم : ﴿ نَمُوتُ ونَحْيَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية] يقصدون نموت نحن ويحيا أبنـاؤنا من بعدنا ، وهذا لأنهم لا يؤمنون بالحياة بـعد الموت ، فالحياة التى يقصدونها هى امتداد أبنائهم من بعدهم .

﴿ ومَـا يُهلكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجـاثية] أى : الزمن هو الذى يميـتنا ، ومعلوم أن الزمن ظرف للأحداث ، وهو مـخلوق لله تعالى لا يميت ، إنمـا الذى يميتُ هو الله ، وفى الحديث القدسى : « لا تـسبُّوا الدهر فأنا الدهر[1] » أى : خالقه ومالكه .

﴿ ومَا لَهُم بذَٰلكَ منْ علْمٍ إن هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية] وما دام

(١) أخرجـه البيهـقى فى شعب الإيمـان من حديث أبى هريرة (حـديث ٥٠١٤) أنه قال : « لا تسبوا الدهر . قـال الله عز وجل : أنا الدهر الأيام والليالى أجددها وأبليـها وآتى بملوك بعد ملوك » . وقد أخرجـه مسلم (حديث ٤١٦٩) من حديث أبى هريرة « لا تسـبوا الدهر فإن الله هو الدهر » .

ليس لهم علم بذلك ، فلماذا يُعـاقبهم الله ؟ قالوا : يعـاقبهم لأنهم ردُّوا العلـم الذى جـاءهم من ربهـم على ألسنـة الرسل ﴿ إنْ هم إلاَّ يظنُّون ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية] ما هم إلا يظنون أى فى قولهم : ﴿ ما هِى إلاَّ حياتُنا الدُّنْيا نموتُ ونحيا ومَا يُهْلكُنا إلاَّ الدَّهْرُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ[1] إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِـَٔابَائِنَا إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

لم تستقم للكافـرين حـجة واحـدة ، بل كانـت لهم حجج كـثيرة يسوقونها للتملص من الإيمان بالله ورسوله وقرآنه ، لذلك نجدهم عندما تُتلى عليهم آيات الله أى : آيات القرآن نجد لهم حججاً كثيرة متنوعة .

يقول تعالى : ﴿ وإذَا تُتلَىٰ عَلَيهِمْ آيَاتُنا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مثْلَ هَـٰذَا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال]

وفى آية أخـرى يقول : ﴿ وإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لقَاءَنَا ائْت بقُرْآنٍ غَيْر هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس]

فهم يطلبون طلبين . الطلب الأول : يريدون قرآناً غير الذى أنزله الله . والطلب الثانى : أنهم يريدون تبديل آية مكان آية . وهم قد طلبوا

(١) قال الزمخـشرى : « فإن قلت لم سـمَّى قولهم حجة وليس بحـجة ؟ قلت : لأنهم أدلوا به كما يُدلى الـمحتج بحجتـه وساقوه مسـاقها فسمُـيت حجة على سبـيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . كأنه قـيل : ما كـان حجتـهم إلا ما ليس بحـجة . والمراد نفى أن تكون لهم حـجة البتة » [نقله القرطبى فى تفسيره (٦٢٢٣/٩)] .

حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير .

وكما طعنوا فى القرآن وأرادوا تبديله وتغييره طعنوا فى رسول الله الذى أُنزل عليه هذا القرآن ، فقالوا : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) ﴾ [سبأ]

حجج تتلوها حجج ، ومقصدهم أن لا يؤمنوا ، و هم يعلمون أن كل حججهم ساقطة لا أساس لها ، وقد يسأل سائل : إذا كان الله يسوق حججهم فى عدة آيات من قرآنه ، فلماذا يقول فى آية سورة الجاثية ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا .. (٢٥) ﴾ [الجاثية]

فلماذا حصر حجتهم هنا بـ (ما كان) و (إلا) ؟

ولو تأملنا كل الحجج السابقة سنجدها مجرد (تلاكيك) لأنْ لا يؤمنوا ، ولكن حجتهم الرئيسية التى كانت أصيلة فيهم وفى تفكيرهم هى أنهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث بعد الموت .

لذلك قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا .. (٢٥) ﴾ [الجاثية]

وقد قال الحق سبحانه ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) ﴾ [الدخان]

وكان منهم من أمسك عظاماً بالية فى يده وفركها حتى أصبحت

رماداً ويتطاير ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء]

لقد كانوا يستبعدون البعث بعد الموت ، لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خلق الإنسان ، ولو أحصينا تعداد العالم لوجدناه يتزايد فى الاستقبال ويقل فى الماضى ، وهكذا إلى أن نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل وهو آدم وحواء ، فمن أين أتيا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بد أن يفكروا فيها .

ولقد رد عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) ﴾ [يونس]

إن الله سبحانه هو وحده القادر على ذلك ، فكيف تقلبون الحقائق لأنكم تعرفون الواقع وتُكذِّبونه كذباً متعمداً ؟

هؤلاء ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا .. (٢٥) ﴾ [الجاثية] أى : إذا تُتْلى عليهم آيات القرآن (بينات) واضحات الدلالة .

﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الجاثية] يعنى : لم يجدوا حجة يحتجون بها على عنادهم وإنكارهم ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا .. (٢٥) ﴾ [الجاثية] أى : الذين ماتوا إن كنتم صادقين .

وهذا طلب يدل على إفلاسهم وعنادهم ، فليس عندهم منطق ولا حجة تبرر هذا العناد .

لذلك ردَّ الله عليهم بقوله :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٢٦) ﴾

أى : قُلْ لهم يا محمد ﴿ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. (٢٦) ﴾ [الجاثية] أى : فى الدنيا ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ .. (٢٦) ﴾ [الجاثية] بعد البعث والنشور ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [الجاثية] لا شكَّ فيه ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الجاثية] فنفى عنهم العلم .

إن علمهم قاصر عن أنْ يدرك حقائق الأمور ، فكما أن الخلق آية من آيات الله فكذلك الموت آية من آيات الله نراها ونلمسها كل يوم ، وما دُمْت تصدق بآية الخلق وآية الموت وتراهما ولا تشك فيهما .

فحين نقول لك إن بعد هذه الحياة حياة أخرى فصدِّق ، لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التى تحكم أنت بصدقها يجب أن تؤدى إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وها هى المقدمات بين يديك صادقة .

﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ .. (٢٦) ﴾ [الجاثية] أى : يعطى المحى ما يُحييه قوة يؤدى بها المهمة المخلوق لها ، والإحياء الأول فى آدم حين خلقه ربه وسوَّاه ونفخ فيه من روحه ثم أوجدنا نحن من ذريته .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

فكفركم لا حجةَ لكم فيه ولا منطق ، فقضية الإحياء من عدم والخلق قضية لا تحتمل الجدل ، فأين كان آدم قبل أن يخلقه الله ،

وأين كنتم ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان] أى : لم يكن له وجود .

فقضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها ، فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم ، ولم يدَّعِ أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه .

وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. (٢٦) ﴾ [الجاثية] فإن أحداً لا يشك فى أنه سيموت ، فالموت مُقدَّر على الناس جميعاً ، والخَلْق من العدم واقع بالدليل ، والموت واقع بالحسِّ والمشاهدة .

ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشرى بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه قرَّبها لنا بشىء مشاهد .. كيف ؟ فالحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة فى الخلق لم نشهدها ، ولكن الموت شىء مشهود لنا جميعاً .

وما دام الموت مشهوداً لنا ، فالحق سبحانه يأتى به كدليل على مراحل الخلق التى لم نشهدها ، فالموت نقض للحياة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٢٦) ﴾ [الجاثية] فالجمع هنا أى بعد البعث والإعادة والإحياء من الموت ، إنه يوم الجمع ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٧) ﴾ [الشورى]

أى : تُخوفهم من هذا اليوم وهو يوم القيامة ، والجمع فى هذا اليوم يكون من عدة وجوه : البعث حيث يجمع بين الجسم والروح ، ويجمع الملائكة فى الملأ الأعلى بالبشر ، ويجمع الظالم والمظلوم ، والتابع والمتبوع .

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ

فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

هنا أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، أفاد قصر ملكية السموات والأرض على الله وحده لا شريك له : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجاثية] تقوم القيامة كأنها كانت نائمة وقامتْ ، وأبهم الساعة لننتظرها فى أيِّ لحظة .

فالإبهام هنا كما قُلنا عَيْن البيان ، لأنه يجعلنا دائماً على استعداد لها ، كما أبهم الله تعالى أجل الإنسان ليستحضره دائماً فى أيِّ وقت ولا يغفل عنه ، ومَنْ لا يملك لنفسه البقاء طرفة عيْن جدير ألاَّ يغفل عن آخرته ويحذر أنْ يأتى أجله وهو على معصية الله .

فمَنْ مات على شيء بُعث عليه[1] خاصة إذا كان الموت لا ينتظر أسباباً ، فالموت من دون أسباب هو السبب ، مات لأنه يموت وقد حان أجله ، وقد تنبه الشعراء لهذا المعنى فقال أحدهم[2] :

فِى المَوْتِ مَا أعيا وَفِى أسْبَابِه ... كُلُّ امرىءٍ رهْنٌ بطَىِّ كِتَابِه

(١) أخرجه الحارث فى (البُغية) باب : من مات على شيء بُعث عليه (١٢) حديث (٣٢) عن فضالة بن عبيد الأنصارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من مات على مرتبة من هذه المراتب بعثه الله عليها يوم القيامة » .

(٢) الشاعر هو أحمد شوقى ، أمير الشعراء ، ولد ١٨٦٨ م وتوفى ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً .

أَسَدٌ لَعَمركَ مَنْ يموتُ بظُفْرِه ... عندَ اللقاءِ كَمَنْ يموتُ بنَابِه

إنْ نامَ عنْكَ فأىُّ طَبٍّ نافعٌ ... أَوْ لم يَنَمْ فالطبُّ من أذْنابِه[1]

نعم يدخل غرفة العمليات فلا يخرج منها ويكون الطب هو سبب موته . إذن : الحق سبحانه يبهم لحكمة وهدف . ومن رحمته تعالى بخَلْقه أنه لما أبهم الساعة جعل لها علامات تنبِّه الغافل حتى لا تُفاجئ الناس .

من رحمته بنا أن جعل لها علامات صغرى وعلامات كبرى ، هذا حنان من الله على خَلْقه : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجاثية] أى : المستمرون فى الباطل ، وكلمة (يخسر) من الخسارة التى يقابلها المكسب ، وهذه مسألة يعرفها التجار ، فكل تاجر يريد المكسب أى : الزيادة على رأس المال .

إذن : كل عمل من الأعمال يجب أنْ يُحسبَ من حيث المكسب والخسارة ، فالكافر فى الدنيا يظن أن عمله يعود عليه بالمكسب فى الدنيا ، لكن سيُفاجأ يوم القيامة حيث انتهى وقت العمل أنَّ عمله عاد عليه بالخسران .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران]

ومعنى الخسارة هنا أن يجد أن كل أعماله ذهبتْ هباء منثوراً

(١) الأبيات من قصيدة لأحمد شوقى ، عدد أبياتها ٥٥ بيتاً من بحر الكامل .

دون فائدة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

لذلك لما سُئلنا عن أصحاب الاختراعات والابتكارات التى خدمت البشرية ويسَّرتْ على الناس حركة الحياة ، وخففتْ آلام المتألمين : كيف بعد هذا كله يدخلون النار ؟

قلت : نعم ، لأنهم عملوا هذه الأعمال لخدمة الإنسانية ولم يكُنْ الله فى بالهم ، لذلك أخذوا أجورهم من البشرية تكريماً وتخليداً لذكراهم وتمجيداً لهم ، فعملوا لهم التماثيل وألّفوا فيهم الكتب .. الخ .

إذن : لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة ، ولو عملوا لله لوجدوا الأجر عند الله ، لأن الأجير لا يطلب أجره إلا ممنْ عمل له .

لذلك سيُفاجأ الكافر بهذه الحقيقة ، هذه المفاجأة نفهمها من قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] فُوجىء بإله لم يكُنْ فى باله ، أو كان مُنكراً له كافراً به .

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾

أى : يوم القيامة ترى كل أمة جاثية ، من الفعل جثا جثواً أى : برك على ركبتيه ، أو قام على أطراف أصابعه ، وهذا وضْع الخائف الخاضع الذليل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾ [مريم]

وقريب منه الفعل جثم جثوماً أى : لزم مكانه أو لصق بالأرض ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) ﴾ [هود]

إذن : فالموقف موقف عصيب ، موقف رعب وهَوْل وهلع بحيث لا يتمكن الناسُ من القعود على مقاعدهم فيقعدون على رُكَبهم ، فإنْ اشتدَّ الهول وقفوا على أطراف أصابعهم ، وهى وقفة مَنْ ينتظر الخطر والهول ، أما القعود الطبيعى فيُمكِّن الإنسان مقعدته من الأرض ويكون فى حال الاطمئنان .

وفرْقٌ بين القعود والجلوس وإن كانت المحصلة واحدة ، إلا أن القعود يكون بعد الوقوف . نقول : كان قائماً فقعد ، أما الجلوس فيكون من حال الاضطجاع . كان مضطجعاً فجلس .

إذن : هنا مسألة فلسفية : القعود يكون من وضع أعلى وهو القيام ، والجلوس من وضع أدْنى وهو الاضطجاع ، والجلوس أو القعود يضمن للإنسان الراحة حيث يكون معظم جسمه على الأرض فيرتاح على خلاف القائم مثلاً فتحمله قدماه .

لذلك إذا وقفتَ مدة طويلة تتعب وتبادل بين قدميك فى الوقوف ، ثم يزيد الحمْل على القدمين إنْ أضفت إلى القيام المشى ، ثم يزيد إذا أضفتَ على المشى شيئاً تحمله ، وهكذا .

فإذا تعب الإنسانُ فأول شىء يضع الحملَ الذى يحمله ليخفّف الحمل على القدمين ، ثم يتوقف عن المشى ليقلّل المجهود ، ثم يقعد، وبعد ذلك يضطجع فيلقى بكل جسمه على الأرض ، وهذا الوضع يضمن منتهى الراحة للبدن .

لكن هذا التصوير القرآنى فى جاثية أو جاثمة لا يدل على الراحة، إنما يدل على الخضوع والذلّة والانكسار وشدة الخوف الذى يجعل الإنسان والعياذ بالله يلتصق بالأرض ، أو يجثو على ركبتيه من شدة الخوف .

فالحق سبحانه يُصوِّر هذا الموقف تصويراً لفظياً يُشعرك بفظاعة الموقف وشدة كربه ، ولك أنت أنْ تتخيل الموقف ، وأنْ تأخذه تجربة مررت بها بالفعل فى موقف رهيب ينشغل فيه كل امرىء بنفسه .

فالقيامة قامت ، قامت يعنى : لن تقعد والأمة جاثية ، الكل المؤمن والكافر ، الكل جَاث ينتظر ما سيحدث ، لا أحدَ هنا فوق القانون (مفيش جستنة) فالفزع والهول يَغشى الجميع ، والكل ينتظر كلمة الحق .

﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ[1] كِتَابِهَا .. (٢٨) ﴾ [الجاثية] فنسب الكتاب إلى الأمة ، لذلك وقف المستشرقون عند هذه الآية يعترضون ، لأن الحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ .. (٢٩) ﴾ [الجاثية]

فمرة أسند الكتاب إلى الأمة ، ومرة أسنده إليه سبحانه ، ولو

(١) كلمة (كتابها) هنا تعنى معانى عدة ، منها :
- تُدعى إلى حسابها . قاله يحى بن سلام .
- تُدعى إلى كتابها الذى كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر . قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد .
- تُدعى إلى كتابها المنزّل عليها لينظر : هل عملوا بما فيها ؟
- تُدعى إلى الكتاب وهو هنا اللوح المحفوظ . [ذكر القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره (٦٢٢٤/٩) .

نهموا عن الله ما وجدوا فى ذلك وجهاً للاعتراض .

فمعنى (كتابنا) أى : الذى طلبنا من الحفظة أنْ يكتبوه ليكون حجةً على صاحبه يوم القيامة ، فنقول له : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

وهو أيضاً كتابهم أى الذى كُتب عليهم فيه ، وسجّل فيه أعمالهم ، إذن : لكل لفظ معناه ودلالته ، ومعلوم فى أسلوب القرآن أنه يستعمل اللفظ هنا بمعنى وهناك بمعنى آخر .

والقرآن مُجمله يحتاج فى فهمه إلى تأمل وتدبّر وعلم بأسباب النزول وملابسات الآيات : اقرأ مثلاً قوله الله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥) ﴾ [النساء] السّفيه : هو الذى لا يحسن التصرف فى ماله ، لذلك لم يجعل له الشارع مالاً ، إنما المال فى حال السَّفه مِلْك لوليه .

لذلك قال ﴿ أَمْوَالَكُمُ .. (٥) ﴾ [النساء] مع أنها من حَقِّ هذا السفيه ، لأن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم[1] .

إذن : نأخذ مال السفيه ونحافظ له عليه حتى نأنس منه رُشداً فندفع إليه ماله ليتصرف هو فيه ، لذلك قال تعالى فى إعادته : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم[2] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. (٦) ﴾ [النساء] ونسبها

(١) رواه عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم » الحديث (٢٣٧١) سنن أبى داود ، والنسائى (حديث ٤٦٥٤ ، ٤٦٦٤ ، ٤٦٦٥) ولكن من حديث على بن أبى طالب .

(٢) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره أو بعلمه وفكره . فقوله : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. (٦) ﴾ [النساء] أى : علمتم وأدركتم إدراكاً . [القاموس القويم ١/٣٧] .

إليهم لأنها صارتْ ملكاً لهم ، ولهم حرية التصرف فيها .

وقوله سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجاثية] أى : يوم القيامة ﴿ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجاثية] فالجزاء من جنس العمل .

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ(١) مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله : ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية] أى : كتاب الأعمال ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية] معلوم أن النطق يكون باللسان لأنه وسيلة البيان الأولى ، واللسان هنا لسان الحال مع أن الكتاب فى الواقع يُقرأ ولا يَنْطِق ، لكن هذا الكتاب لشدة إظهاره للحق كأنه ينطق ويشهد على صاحبه .

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية] معنى نستنسخ نثبت ، أو نأخذ منه نسخة أخرى نعطيها لصاحب الكتاب ليقرأها وليطلع على ما قدّم فى دنياه .

كما نقول مثلاً : أصل وصورة ، فنعطيه صورة من كتابه ومن أعماله لتكونَ حجة عليه .

ومن معانى النسخ الإثبات الذى لا يترك شيئاً ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

(١) كنا نستنسخ : أى نكتبه ونكلف الملائكة أن يكتبوه لنحاسبكم به بدقة بغير زيادة ولا نقص . [القاموس القويم ٢/٢٦٢] .

عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق]

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ ﴾

ما دمنا بصدد الحديث عن كتاب الأعمال الذى يقرأه الإنسان ، فهذه الآية تتحدث عن النوع الأول وهو المؤمن الذى عمل صالحاً ، فأخذ كتابه بيمينه ووجده على أحسن صورة ففرح به وتباهى .

فهذه الآية أوضحها الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة]

وتأمل هنا كلمة ﴿ فِى رَحْمَتِهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الجاثية] فكأن الرحمة ظرف لهم يُدخلهم فيه ويعمُّهم به ، فالرحمة تغمرهم وتحيط بهم من كلِّ جانب ، فليس لهم هنا إلا الرحمة لأنهم شَقُوا فى الدنيا وتحمَّلوا أعباء العبادة والعمل الصالح وتقلَّبوا بين نعمة وشقاء ، ومكسب وخسارة ، وصحة ومرض ، أما هنا فلن يجدوا إلا رحمة الله تعمُّهم وتشملهم .

وكلمة ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الجاثية] دلتْ على أن الإيمان القلبى وحده لا يكفى ، بل لا بدَّ له من ثمرة ، وثمرة الإيمان

وفائدته أنْ توظفه لخدمة من آمنتَ به .

لذلك دائماً يقرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣) ﴾ [العصر] لأن الإيمان بالله وبالبعث والحساب والقضاء والقدر يجعل الإنسان على يقين من أنه محاسبٌ مسئول عن كلِّ تقصير .

وما دام أنك ستُسأل فلا بدَّ أنْ تكون يقظاً لا تستهين بالذنب مهما كان صغيراً ، ولا تزهد فى الخير مهما كان يسيراً ، فمَنْ كانت نهايته الحساب كان جديراً ألاَّ تُفلتَ منه هذه المسائل إلا سَهْواً أو نسياناً ، فالسهو والنسيان يجبرهما الاستغفار والتوبة .

وقلنا : من رحمة الحق بالخلْق أنْ شرع لهم التوبة مجرد مشروعية التوبة ، وفَتْح بابها للناس رحمة ، رحمةٌ بالمقصِّر المذنب ، ورحمة بالمجتمع الذى يَشْقَى بذنوب المذنبين .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ .. (٣٠) ﴾ [الجاثية] إشارة إلى دخول أهل الإيمان والعمل الصالح فى رحمته ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) ﴾ [الجاثية] الواضح المحيط بالنفع الكامل ، بحيث لا يتسرب إليه شىء يناقض الحق فى الرحمة . ثم فى المقابل :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ
فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ (٣١) ﴾

هؤلاء فى مقابل الذين آمنوا ، وهؤلاء يأخذون كتابهم بشمالهم ،

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) ﴾ [الحاقة]

إذن : جزاء هؤلاء النار ، لكن قبل أنْ يدخلوها لا بدّ أنْ يُعاتبهم أو يُؤنِّبهم هذا التأنيب ، ويُبيِّن لهم أنه لا عذرَ لهم فى عدم الإيمان ، فقد جاءتْهم الآيات البينات وجاءتهم الرسل فما قصّرنا فى حقِّهم ، وما تركناهم هَملاً ، ولم نأخذهم على غِرَّة ، وطالما دعوناهم وتحنَّنا إليهم .

ونلاحظ أن هؤلاء جمعوا بين الاستكبار عن الحق وبين الإجرام ، فالاستكبار يعنى ردَّ الحق وعدم قبوله من صاحبه الذى جاء به وهو الرسول ، ولَيْتَهم وقفوا عند هذا الحد وتركوا الناس فى حالهم إنما تجاوزوا ذلك إلى الإجرام ، وهو أن تهزأ بمَنْ آمن وتسخر منه .

وهذه المسألة شُرحَتْ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) ﴾ [المطففين] أى : سُخريةً واستهزاء .

ثم ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) ﴾ [المطففين] وهذا يدل على أنه وأهله فى الإجرام سواء ، وأن الفساد يعمُّ الجميع .

ونحن نرى هذا الصنف من البشر فى كلِّ زمان نراهم يسخرون ممَّنْ يصلى أو ممَّنْ يتشبَّه بسيدنا رسول الله ، ونسمع منهم كلمات السخرية مع أنهم يقرأون معنا هذه الآية .

---

(١) فكهين : الفكه الكثير المزاح والاستهزاء بالآخرين ، فكانوا يسخرون من المؤمنين ويتندرون بهم . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٨٨/٢] .

لكن الحق سبحانه يُطمئن أهل الإيمان ويقول لهم : لا تهتموا بهذا الذى ينالكم منهم فى الدنيا ، وانتظروا ما يحدث فى الآخرة : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] نقول : نعم يارب لقد جازيتهم بما يستحقون .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) ﴾

هؤلاء نوع آخر من المكذّبين بالبعث ، فالنوع الأول متيقن ومُصدِّق أنه لا يوجد بعْث ولا حساب ، وهؤلاء لم يصلوا إلى مرحلة اليقين ، إنما هم يظنون أن هناك بعثاً ، والظن أنْ ترجح شيئاً على شيء .

وسبق أن أوضحنا : أن النِّسَب خمسة : علم ، وجهل ، وشكٌّ ، وظنٌّ ، ووهم . الظن أنْ تغلب الشيء الذى تظنه . والوهم : أن تغلب الباطل .

فهناك شيء أنت تجزم به ، وشيء لا تجزم به ، وما تجزم به وتُدلِّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شيء ومن يقوله جازم به وهو غير واقع ، فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل على

عكس الجهل الذى هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين فى الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأى منهما ، لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هى شك أو ظن أو وهم ، فالظن هو ترجيح النِّسب على بعضها ، والشك هو تساوى الكفتين .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) ﴾

يعنى : ظهر لهم عملهم السيء فى الدنيا ﴿ وَحَاقَ بِهِم .. (٣٣) ﴾ [الجاثية] يعنى : أحاط بهم فلا يجدون منه مفراً ولا مهرباً ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) ﴾ [الجاثية]

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ﴾

هنا تأمل لطف الله ورحمته حتى بأعدائه والكافرين به ، فالفعل ﴿ وَقِيلَ .. (٣٤) ﴾ [الجاثية] مبنى للمجهول فلم يقُلْ قال الله ، فمن رحمته بهم ألاَّ يُواجههم بهذه الحقيقة ﴿ الْيَوْمَ .. (٣٤) ﴾ [الجاثية] أى : يوم القيامة ﴿ نَنسَاكُمْ .. (٣٤) ﴾ [الجاثية]

الحق سبحانه وتعالى لا ينسى ، فالمعنى نترككم فى العذاب مُهْملين ، ولا نلتفت إليكم بالرحمة ، كما يترك الناس الأمر فلا يخطر ببالهم ، لأنه لو خطر بباله ربما أخذتْه الرحمة بهم .

ثم يُبين الحق سبحانه علة هذا النسيان ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا .. (٣٤) ﴾ [الجاثية] يعنى : ننساكم فى العذاب كما نسيتم هذا

اليوم وكما تركتم العمل له ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ .. (٣٤) ﴾ [الجاثية] المأوى : هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ليرتاح من التعب ، أو يأمن من الخوف ، فما بالك إنْ كان مأوى هؤلاء النار ومُستقرهم ونهايتهم ، ماذا يكون حالهم ؟

وفوق هذا كله ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ﴾ [الجاثية] هذا قَطْعٌ للأمل فى النجاة ، وتيئيس لهم ، فهُمْ فى هذا المأوى لن يجدوا مَنْ يُخلِّصهم منه أو يعطف عليهم ويخفف عنهم العذاب ، بل بالعكس سيتبرأون منكم ويتركونكم فى العذاب ، بل ويسبقونكم إليه ، كما قال فى فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨) ﴾[هود]

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) ﴾

﴿ ذَٰلِكُم .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] أى : الذى نزل بكم وحاق بكم من العذاب ، سببه أعمالكم السيئة فى الدنيا ، فهو جزاء وفاقٌ ولم نظلمهم مثقال ذرة ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] أى : مهزوءاً بها ، فهم أنكروها وكذَّبوا بها وسخروا منها .

وكلمة ﴿ هُزُوًا .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] مبالغة فى الاستهزاء كما تقول: فلان عادل وفلان عدل . يعنى : هو العدل نفسه .

﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] أى : خدعتكم بزخرفها وبهجتها وبهرجها فعملتم لها ونسيتم العمل للآخرة ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا .. (٣٥) ﴾ [الجاثية] أى : من النار .

﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) ﴾ [الجاثية] من الفعل عتب ، والعتاب لا يكون إلا بين الأحبَّة ، لذلك قالوا : ويبقى الود ما بقى العتاب ، فإذا أسأتَ مثلاً إلى صديق لك فيأتى هو إليك ويُعاتبك ، ويريد أنْ يسمع منك اعتذاراً أو عذراً ليستديم مودتك ، لأنه لا يريد القطيعة بينكما .

فيُقال : استعتب فلان فأعتبه . يعنى : أزال سبب عتابه ، وهذه الهمزة تسمى همزة الإزالة ، قال الشاعر :

أمَّا العتَابُ فَبالأحبَّةِ أخْلَقُ ... والحُبُّ يصلُح بالعتَاب ويصْدُقُ(١)

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ عندما عاد من الطائف بعد أنْ آذاه أهلها جلس يناجى ربه : إنْ لم يكُنْ بك علىَّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكنه تذكر فقال : لكن عافيتك هى أوسع لى ، لك العتبى حتى ترضى(٢) .

يعنى : لك عندى يا رب ما أزيل به عتابك ، يعنى : لام على شىء ظنه تقصيراً .

إذن : أعتبه أزال عتابه ، مثل : أعجم الحرف يعنى أزال عُجْمته ، وتعرفون أن الحروف العربية كانت تُكتب أولاً بدون نقط اعتماداً على المَلَكة العربية الصافية التى تستطيع أنْ تستشفّ الحرف المراد ، فلما ضعُفَتْ هذه الملَكة عند الناس احتاجوا إلى النقْط لفهم المعنى المراد .

فالحق سبحانه يقول عن هؤلاء ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) ﴾ [الجاثية] لا يُقبل منهم عتاب ، ولا يُقبل لهم عذرٌ ، ولا يُقبل فيهم شفاعة ، فإنْ

(١) البيت من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الكامل .
(٢) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/ ١٥٠) والسهيلى فى الروض الأنف (٢/ ٢٣١) وابن القيم فى زاد المعاد (٣/ ٢٨) وابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٤٢٠) وهو مُساق فى خروج رسول الله إلى الطائف .

طلبوا إرضاء الله تعالى بأىِّ وسيلة تُرد ولا تُقبل ، حتى التوبة لأنها لا تفيد فى هذا اليوم .

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أولاً : كلمة (لله الحمد) جملة من مبتدأ وخبر قُدِّم فيها الخبر لإفادة قصر الحمد على الله وحده ، فالحمد واجب لله تعالى قبل كل شىء ، وواجب لله على أنه خَلَق من عدم وأمدَّ من عُدم ، وهدى الناس بآياته البينات إلى سبيل الحق .

الحمد واجب لله على قيومته ، وعلى المنهج الذى هدانا به ، وعلى دار الجزاء التى يثيب فيها المؤمن ويعاقب فيها الكافر ، الحمد واجب لله على أنْ أحيانا بروح منه أحيت مادتنا فى الدنيا ، وروح منه أحيَتْ قيمنا فى الآخرة .

لذلك خاطبنا ونحن أحياء فقال : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] فالمراد بالحياة هنا حياة القيم التى تمنحك الحياة الباقية الخالدة فى الآخرة .

﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : الحياة الحقيقية التى تستحق أن نعمل لها .

ومن نِعَمه تعالى التى تستوجب الحمد أنْ علَّمنا كيف نحمده سبحانه بهذه الكلمة الخفيفة على اللسان التى يستوى فى نُطْقها العالم والأمى . الكل يقول : الحمد لله . الكل يثنى على الله بلفظ واحد ، ولو لم تكُنْ هذه المساواة لَفَاز المتعلمون والبُلَغاء وأصحاب الفصاحة

والبيان وخسر الأمى الذى لا يحسن الكلام والعيى الذى لا يقدر على التعبير .

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ نبَّهنا إلى هذه المسألة ، حين قال فى الثناء على الله تعالى : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك »(١)

ومعنى ﴿ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ** .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الجاثية] أن الحمد حقٌّ لله دائم لا ينقطع ولا ينتهى ، لا من الحامد ولا من المحمود عليه .

ثم يأتى الحق سبحانه بالحيثية على الحمد لله ﴿ **رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿٣٦﴾ ﴾ [الجاثية] والرب هو المُربِّى والمالك والمعطى ، فكيف لا يُحمد ؟

﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذه حيثية أخرى لوجوب الحمد لله ، أنْ يتصف سبحانه بصفة الكبرياء ، والكبرياء هو العظمة والجلال والقهر ، وأيضاً الأسلوب هنا أسلوب قَصْر ﴿ **وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ** .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية] يعنى : له وحده ، وهذه من أعظم نِعَم الله علينا حتى لا نكون عبيداً لغيره .

فالله ما جعلك عبداً له إلا ليكفيك العبودية لغيره ، ولولا هذا

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (حديث ٤٤٨) أن عائشة أم المؤمنين قالت : كنت نائمة إلى جنب رسول الله ﷺ ففقدته من الليل فلمسته بيدى فوضعت يدى على قدميه وهو ساجد يقول : أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » . وكذا مسلم فى صحيحه (٧٥١) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٥) ، والترمذى فى سننه (٣٤٦٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الكبرياء لله تعالى لكنّا عبيداً لكل ذى قوة ولكل مَنْ نحتاج إليه ، حتى الحداد والنجار الذى يقضى لك مصلحة يمكن أنْ يستعبدك .

إذن : معنى ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية] كأنه يقول لك : اطمئن يا عبدى فلن تكون عبداً لغيرى ، فالعظمة والجلال والكبرياء لى وحدى وأنا لكم جميعاً ، والخلق كلهم عيالى ، وأحبُّهم إلىَّ أرأفهم بعيالى(1) .

ألسْنا فى المثل الشعبى نقول : اللى ملوش كبير يشترى له كبير ، كذلك الحق سبحانه مع المؤمنين به ، الذين يعبدونه وحده يكون فى جانبهم يُيسِّر لهم أمورهم ، ويقضى لهم حوائجهم ، يستعينون به فُيعينهم ، ويلجأون إليه فيحميهم ويؤيدهم . إذن : هذه الصفة لله تعالى تُعدُّ من أعظم نِعَمه على عباده .

والحديث القدسى يؤكد هذه الصفة لله تعالى وحده ، فقال سبحانه فى الحديث القدسى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمَنْ نازعنى واحداً منهما قذفتُه فى النار »(2) .

لماذا ؟ لأنه لم يخلق هذا الخَلْق ولا يُؤتمن عليه ، لذلك الإنسان لا يتكبَّر على الخَلْق إلا إذا حُجبت نفسه عن استحضار كبرياء الحق سبحانه ، إنما الذى يستحضر فى نفسه دائماً كبرياء الله يستحى أنْ

(1) أخرج نحوه من حديث عبد الله بن مسعود أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤/٢٣٧) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/٥١٩) وضعَّفه ، وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٥٧) .

(2) حديث قدسى ، أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٦٧) وكذا ابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٧٠٧٨ ، ٨٥٣٩ ، ٨٩٩١ ، ٩١٤٣ ، ٩٣٢٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

يتكبَّر ، وأنْ ينازع ربَّه فى هذه الصفة .

والكبرياء مادتها كبر تقال بفتح الباء للدلالة على الكبر والزيادة فى المادة ، وبالضم تدل على العظَم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف] فى حادثة الإفك .

والحق سبحانه أخبرنا أن من أسمائه تعالى الكبير ولم يَقُلْ الأكبر ، مع أن الأكبر تعطى ميزة على الكبير ، لكن جعلها الله تعالى صفة له فى شعار الصلاة ، فنقول : الله أكبر . لأنها تعنى أن الصلاة تخرج من الكبير إلى الأكبر ، وكأنه تعالى يريد أنْ يقول لنا : إن أعمال الحياة وحركتها شىء مهم وهو كبير لكن الله أكبر .

ولأهمية العمل والسعى فى حركة الحياة ترى أنه فى سورة الجمعة أخرجك من العمل لتؤدى الصلاة ، ثم بعد الصلاة أمرك بالعودة إلى السعى والعمل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

فأخذنا من قمة العمل وهو البيع ليعطينا الشحنة الإيمانية التى تُعيننا على الاستمرار فى مسيرة الحياة ، فلما انقضتْ الصلاة قال لنا : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

إذن : لا نحقر العمل لأنه عند الله كبير ، وبه قوام الحياة واستمرارها ، لكن إذا ما قُورن العمل والسعى بالصلاة فالصلاة أكبر وأهمّ وأعظم ، فإذا عُدْنا إلى التسمية نجد أن الله اختار لنفسه سبحانه الكبير لا الأكبر ، لأن الأكبر ما دونه كبير ، أما الكبير فما دونه صغير ، فكلُّ شىء دون الله صغير .

وقوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية] العزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ، والحكيم هو الذى يضع الشىء فى موضعه ، فصفة الكبرياء لله تعالى لا تعنى القهر والجبروت والفتونة بلا ضابط ، بل هو أيضاً سبحانه حكيم يُصرِّف الأمور وفق حكمة مطلقة .

والمتأمل فى سورة الجاثية يجد أنها بدأتْ بقول الله تعالى : ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الجاثية] وختمتْ أيضاً بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية]

وكأن السورة وُضعتْ بين قوسين من العزة والحكمة لله تعالى والكبرياء والحمد لله سبحانه ، ومن العجيب أن الأحقاف بعدها بدأتْ أيضاً بقول الله تعالى : ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الجاثية]

فكأن الله تعالى يؤكد على هذه الصفات ويُرسِّخها فى نفوس المؤمنين ليزيدهم اطمئناناً به سبحانه وبمنهجه .

وكأنه سبحانه يقول لهم : اطمئنوا ، فالذى أنعم عليكم قديماً بأنْ أوجدكم من عدم وأحيا مادتكم بروح منه ، ثم أمدَّكم بمقوِّمات الحياة واستبقائها وهداكم إليه بآياته التى تُحيى قلوبكم وتعطيكم الحياة الباقية يوم القيامة .

فهو سبحانه كما ضمن لكم الماضى يضمن لكم المستقبل ، فنعمه لا تُسلب ، وعطاؤه لا ينفد ، لأن له الكبرياء فى السموات والأرض ، فلا تُوجد قوة غيره سبحانه تنقض هذا الخير أو تمنعه عنكم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يجمع بين صفتى العزة والحكمة إنما ليقول لنا : انتبهوا إذا أصابتكم أحداثٌ تناقض هذه العزة فى مشوار الدعوة ، فاعلموا أنها ما حدثتْ إلا لحكمة .

فقد يقول قائل مثلاً : إذا كان الله عزيزاً لا يغلب ، فلماذا ترك رسوله لأهل الطائف يؤذونه ويسبُّونه ويقذفونه بالحجارة حتى أدموْا قدميه الشريفتين .

نقول : ابحثوا عن الحكمة ، فمن الحكمة المرادة لله تعالى حين يعلو الشر أنْ يُمحص أهل الخير ، وأنْ يُصفى قاعدة الإسلام بحيث لا يثبت عليه إلا الأشداء فى العقيدة الثابتون على الحق ، فلا يحيدون عنه ، فعلى أكتاف هؤلاء سيُحمل الدين وتنتشر الدعوة ، فلا بدَّ من التمحيص وتمييز المؤمنين من المنافقين .

تذكرون قصة الحديبية عندما ردَّ الكفارُ رسول الله والمؤمنين الذين جاءوا معه لزيارة البيت الحرام ومنعوهم من دخول مكة وهم على مَقْربة منها ، وقد وافق رسول الله ﷺ على العودة دون أنْ يدخل مكة ، ودون أنْ يعتمروا وعقد معهم صلح الحديبية .

لذلك غضب المسلمون وكادوا أنْ يخالفوا أمر رسول الله ﷺ بالعودة إلى المدينة ، حتى إن عمر بن الخطاب يجادل رسول الله يقول له : يا رسول الله ألسْنا على الحق ؟ يقول رسول الله : بلى ، يقول : أليسوا على الباطل ؟ يقول : بلى . يقول : فلم نعطى الدَّنية فى ديننا ، فيقول له الصِّديق : الزم غرزك يا عمر ، إنه رسول الله .[1] يعنى :

(١) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

الزم حدودك واعرف مركزك .

ذلك لأن المسلمين كانوا على شوق للبيت وتحمَّلوا مشقة السفر إليه حتى كانوا على بُعْد عشرين كيلو متراً من مكة ، وساقوا معهم هَدْيهم واستعدوا للعمرة فشقَّ عليهم أنْ يُمنعوا منها ، لذلك تململوا من قرار الرجوع .

حتى إن سيدنا رسول الله يقول لزوجته السيدة أم سلمة[1] رضى الله عنها : هلك الناس يا أم سلمة . فتقول : ولِمَ ؟ قال : أمرتُهم فلم يطيعوا ، قالت : يا رسول الله اعذرهم فقد جاءوا على شوْق للبيت، لكن اذهب يا رسول الله وافعل ما أمرك الله به ، فإذا رأوْك تفعل عرفوا أن الأمر عزيمة وفعلوا مثلك ، فطابت نفسُ رسول الله وذهب ففعل[2] .

فلما رآه القوم فعلوا مثله وهدأتْ نفوسهم إلى قرار رسول الله ، وعادوا إلى المدينة دون عُمرة ، وقبل أنْ يصلوا إلى المدينة نزل الوحى على سيدنا رسول الله يُبيِّن لهم الحكمة التى غابتْ عنهم ويُعطيهم الدرس فى أن العزة مقرونةٌ بالحكمة .

---

(١) أم سلمة : هى هند بنت سهيل القرشية المخزومية ، تزوجها رسول الله فى السنة الرابعة للهجرة ، ولدت عام ٢٨ قبل الهجرة (أى كان عندها ٣٢ سنة عند زواجها برسول الله) وتُوفيت ٦٢ هجرية عن ٩٠ عاماً . من أكمل النساء عقلاً وخلقاً . [الأعلام للزركلى ٨/٩٧] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٨١٥٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى ذكر صلح الحديبية ، وفيه أنه ﷺ قال لأم سلمة : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيتَ فلا تكلمنَّ منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون .

قال تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا[1] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[2] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

فالحكمة إذن فى منعهم من دخول مكة هذا العام ، لأن فيها إخواناً لهم آمنوا سراً وستروا إيمانهم ، فلو دخلوا معهم فى معركة لالتقى المؤمنون وجهاً لوجه ، ولقتلتُم إخوانكم وأصابتكم معرّة بسبب ذلك . يعنى : إثم أو سُبَّة وعار .

---

(١) معكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نحره . وعكفه : منعه وحبسه وكفَّه عن قضاء حاجاته . ومنه الاعتكاف أى ملازمة المسجد وحَبْس نفسه عليه للعبادة .

(٢) تزيَّل القوم : تفرقوا وزالوا عن مكانهم . ومعنى الآية : أى لو تفرق المؤمنون الذين يعيشون فى مكة ولو فارقوا أهلها لعذَّب الله أهل مكة بهزيمتهم أمامكم . [القاموس القويم ١/٢٩٤] .

سُورَةُ الأَحْقَافِ

سورة الأحقاف (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾

هذه واحدة من الحواميم السبع ، وهى السور التى بدأتْ بقوله تعالى (حم) ، وهى سبع سور مُتصلة فى القرآن الكريم أولها غافر : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ ﴾ [غافر] أى : العليم بما يصلحكم ، ولا تَخْفى عليه منكم خافية .

ثم فصِّلت : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ ﴾ [فصلت]

ثم الشورى : ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ﴾ [الشورى] ثم الزخرف : ﴿ حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾ [الزخرف] ثم الدخان : ﴿ حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ

---

(١) سورة الأحقاف سورة مكية ، عدد آياتها ٣٥ آية . روى العوفى وابن أبى طلحة عن ابن عباس أنها مكية . وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والجمهور . وروى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : فيها آية مدنية وهى قوله ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ۝١٠ ﴾ [الأحقاف] [قاله ابن الجوزى فى زاد المسير] .

الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الدخان] ثم الجاثية : ﴿ حم (١) تنزيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [الجاثية] ثم الأحقاف : ﴿ حم (١) تنزيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [الأحقاف] . وهى آخر الحَوَاميم .

ونلاحظ أن هذه السُّور تسير فى بدايتها على نظام واحد يؤكد على أن (حم) وغيرها من الحروف المقطّعة مُنَزَّلة من عند الله ، وهى وحْى يعلم الله مراده ، وهى فى التنزيل مثل باقى القرآن وباقى الآيات الواضحات ، لذلك مرة يقول ﴿ حم (١) تنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] أى : هى ذاتها مُنزلة .

وفى آية أخرى يقول : ﴿ حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الزخرف] يعنى : حم والقرآن الظاهر الواضح المعنى ، كلاهما تنزيل مُنزَّل من عند الله ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ (٣) ﴾ [الدخان]

ونحن نؤمن بأن كل هذه الآيات من عند الله الذى نعرف معناه والذى لا نعرف معناه . قلنا : لأن الله تعالى يريد أنْ يحرس كلَّ إيمان بمشهد ، فالإيمان لا يكون إلا فى الغيبيات ، ولا يكون الإيمانُ فى المُشَاهد لنا .

فمثلاً لا يصح أنْ نقول : نحن نؤمن بأننا نجلس الآن مع الإخوان فى مسجد الفردوس ونُلقى درساً ، لكن نقول : نؤمن بأن الله موجود ، بأن الجنة حَقّ ، ومن رحمة الله ولُطفه بنا أنْ يحرس الإيمان الغيبى بأمر مُشاهد لنأخذ من المشاهد لنا دليلاً على صدقه فيما غاب عنا .

إذن : هذه الحروف المقطّعة التى لا نعرف معناها نزلتْ هكذا لحكمة .

خُذْ مثلاً رحلة الإسراء والمعراج تجد فيها غيباً يحرسه مشهد ، كيف ؟ تعرفون أن سيدنا رسول الله ﷺ تعرّض لكثير من الأذى وضُيِّق عليه وعلى دعوته وعلى المؤمنين به ، وكان آخر ذلك فى الطائف حيث آذاه أهلها حتى شقَّ عليه ما يلاقى . وقلنا : إنه جلس يناجى ربه ويشتكى إليه قسوة هؤلاء ويطلب منه النُّصْرة .

بعدها جاء حادث الإسراء والمعراج ، وكأنه رحلة تخفِّف عن رسول الله ورسالة تقول له : يا محمد إنْ جفاك أهل الأرض فسوف أحتفل بك فى أهل السماء وأذهب بك إلى مكان لم يذهب إليه أحدٌ قبلك ، وأريك من آياتى ما لم يره أحد قبلك .

والمتأمل فى سَيْر هذه الرحلة يجد أن الحق سبحانه مهَّد بالإسراء للمعراج ، فجعل رحلة الإسراء آية أرضية وهى آية مشاهدة معروفة أبعادها وتفاصيلها ، وكثيرٌ من أهل مكة يذهبون فى هذه الرحلة من مكة إلى بيت المقدس ، ويمكن أن يقام عليها دليل عقلى لمن لا يؤمن بها ؟

لذلك لما كذَّبه قومه وقالوا : أتزعم أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً [1] ؟ ثم طلبوا من رسول الله أنْ يصف لهم بيت المقدس ، وأنْ يعطيهم علامات فى الطريق ، ولو كانوا على يقين من هذه الرحلة ما سألوا رسول الله ذلك .

فهم إذن يريدون تعجيز رسول الله ، لكن الله أيَّد رسوله وعرض أمامه صورة تفصيلية لبيت المقدس فأخذ رسول الله يصفه لهم ، ثم

(١) أورده البقاعى فى نظم الدرر [تفسير سورة الإسراء آية ١] ، وكذا السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٢٠٤) وعزاه لأبى يعلى وابن عساكر عن أم هانئ رضى الله عنها .

أخبرهم بالعير[1] التى لهم فى طريق التجارة ، وأنها بمكان كذا ، وفيها كذا كذا ، ولما وصلتْ قوافلهم التجارية وجدوها كما أخبر رسول الله .

إذن : أمكن إقامة الدليل على صدقه ﷺ فى رحلة الإسراء لتكونَ مقدمة للمعراج ، وهو رحلة سماوية لا يطلع عليها أحد ، ولا يمكن إقامة الدليل العقلى عليها ، لكن الذى خرق القوانين الكونية لمحمد فى رحلة الإسراء يمكن أنْ يخرق له القوانين فى رحلة المعراج .

إذن : جعل الغيب الذى يُقام عليه دليلٌ مقدمة للغيب الذى لا دليلَ عليه .

ثم إن كلمتهم التى اعترضوا بها على رسول الله لمَّا قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، هذه الكلمة نفعتنا فيما بعد ونردّ بها على دعاة التنوير والفلسفة الفارغة الذين يقولون إن الإسراء كان بالروح لا بالجسد .

فنقول لهم : لو كان الإسراء بالروح ما قال كفار مكة هذه الكلمة ، وما قالوها إلا لعلمهم أنه كان حقيقة بالروح وبالجسد ، وأن رسول

---

(١) أورده البيهقى فى (دلائل النبوة) (٢/٣٥٦) أن رسول الله قال : « ثم انصرف بى فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم فجمعه فلان فسلَّمت عليهم فقال بعضهم : هذا صوت محمد ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة ... إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم فجمعه فلان ، وإن مسيرهم ينزلون بكذا وكذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان ، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريب من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول الله . قال البيهقى : هذا إسناد صحيح .

الله ذهب إليها وقطع المسافات على وجه الحقيقة .

فالله تعالى يُنطق ألسنتهم بما يُؤيِّد الحق دون أنْ يشعروا ، وبما يثبت عنادهم وتغفيلهم كما فعل اليهود فى حادثة تحويل القبلة ، علم الله ما سيقولونه وأخبر به نبيه ﷺ : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا** .. (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وأعلن محمد ﷺ هذه الآية وتلاها على الملأ وتداولتها الألسنة ومع ذلك قالوها ، ولو كان عندهم قليلٌ من التعقل الدينى لا الدنيوى لتوقَّفوا عن قولها .

ومن ذلك أيضاً قولهم : ﴿ **لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ** .. (٧) ﴾ [المنافقون] فالحق ينطلق من ألسنتهم دون أنْ يشعروا به .

كذلك الحال فى آيات القرآن الكريم فيها مشهد وغيب ، فنأخذ المشهد دليلاً على صدْق الغيب ، نأخذ الآيات الواضحة المعنى دليلاً على الآيات ذات الحروف المقطَّعة التى لا نعرف معناها ونقف عندها ونقول : الله أعلم بمراده منها ، لكن هى حَقٌّ وهى من عند الله نزلتْ كما نزلت باقى الآيات لكن معناها غير واضح .

لذلك الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى هذه المسألة إشارة تفرق بين (حم) ﴿ **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** (٢) ﴾ [الزخرف] حم الآيات الغامضة التى لا تعرفون لها معنى ﴿ **وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** (٢) ﴾ [الزخرف] البيِّن الواضح المعنى .

فجعل الآيات الواضحات المعنى مبنية كلها على الوصل من أول بسم الله الرحمن الرحيم فى الفاتحة إلى ﴿ **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** (٦) ﴾ [الناس]

فالقرآن فى مُجْمله مبنىٌّ على الوَصْل إلا هذه الحروف المقطَّعة

الأربعة عشر فهى مبنية على الوقف ، فتقرأ : (ألف لام ميم) (حاميم) وكأن هذا الوقفَ إشارة من الحق سبحانه أنْ لا تأخذوا هذه الحروف على نفس نسَق القرآن فى النطق لأنها شىء آخر له خصوصية .

صحيح أنها جميعاً من معين واحد ، وكلها من عند الله لكن قفُوا عند هذه الحروف وأرجعوا معناها إلى مُنزلها سبحانه ، فقد استأثر بها لنفسه ليستديم إيماننا بالغيب ، وليصلنا دائماً به إيماناً وإسلاماً .

وسيدنا رسول الله ﷺ يشرح لنا هذه المسألة فيقول : « ولا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(١)] فكأن هذا الحرف وحده قائم بذاته له مدلول وله معنى يحسُن السكوت عليه ، وإلا لما بُنيتْ هذه الحروف على الوقف .

وطالما أنها مختلفة عن باقى آيات القرآن فى النطق ، فلا بدَّ أن لها خصوصية ، وأنَّ فيها أسراراً وكلّ ما بأيدينا أن نحوم حولها .

ونلاحظ أيضاً أن الحروف فى اللغة تنقسم إلى حروف مبنى وحروف معنى ، فالكاف مثلاً حرف مبنى يعنى يدخل فى بناء الكلمة ، ولا معنى له فى (كتب) لكنه حين ينضم إلى غيره يعطى معنى كتب .

أما الكاف فى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فالكاف هنا حرف معنى يفيد التشبيه ، كذلك الباء حرف مبنى فى (كتب)

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود . وكذا البيهقى فى شُعَب الإيمان (١٩٢٨) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٤٠١٢) .

وحرف معنى فى (بالله) لأنه يفيد القسم ، كذلك فى الحروف المقطَّعة فى أوائل السور هى حروف مبنى فى شكل نطقها ، لكنها حروف معنى عند قائلها الذى يعلم معناها .

وقد يُطلِع بعض عباده على هذه المعانى أو شىء منها فيفهمون منها معانى ، لذلك نقول فى تفسيرها : والله أعلم بمراده ، لأن حديثنا عنها مجرد اجتهاد ومحاولة للفهم .

وقلنا : إن هذه الحروف أربعة عشر حرفاً من حروف الهجاء الثمانية والعشرين ، يعنى أخذ نصف حروف المعجم ، ولكن أخذها بنظام محكم لا يمكن أن يأتى عَفْواً ، فأخذ من التسعة أحرف الأولى الألف والحاء وأخذ من التسعة الأخيرة سبعة وترك اثنين على عكس التسعة الأولى ، فلم يترك منها إلا الواو والفاء .

إذن : ليس لها نسق معين ، لكن هندسة مقصودة لغاية مقصودة ، ثم العشرة الباقية فى الوسط أخذ منها غير المنقوط ، وترك المنقوط ، فأخذ الراء وترك الزاى ، وأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين .

فإنْ قال قائل : كيف وإعجام الحروف أى نقطها لم يأتِ إلا فى عصر الدولة الأُموية .

نقول : ربُّها وقائلها الناطق بها يعلم ما تصير إليه ، فكلها داخلة فى العلم الأعلى ، لذلك نقف عندها ونأخذها بالكمال الذى وضعه قائلها فيها ، فهى كما قلنا مثل أسنان المفتاح التى تفتح لك ، فإذا تغيَّر المفتاح لا يفتح .

إذن : كل شىء فى القرآن وُضع بحكمة ، حتى فى القراءة سواء المتعلم الذى يعرف المعنى أو الأمى الذى لا يعرف تجد القراءة على نوعين قراءة تأمل وتعبد وقراءة استنباط ، وهذه ينبغى أنْ تُعملَ فيها عقلك .

وإنْ قرأت للتعبد فإياك أنْ تُعملَ عقلك ، وخذ الكلمة أو الحرف بمراد قائله منه ، وأنت حين تأتى بالمعنى الذى على قدرك سوف تحدد كمال الله وكمالاته التى لا تتناهى .

لذلك وجدنا أسرع الناس حفْظاً للقرآن هم الذين يقرأونه دون توقُّف عند معناه ، بل يقرأونه كما هو بفَهْم أو بغير فهم .

وقوله تعالى ﴿ تَنزِيلُ .. (٢) ﴾ [الأحقاف] أى : الذى نزّل حم نزّل ﴿ الْكِتَابِ .. (٢) ﴾ [الأحقاف] أى : القرآن ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [الأحقاف] وتأمل هنا الوصف بالحكمة ، فكل شىء نزل بحكمة حتى فى هذه الحروف التى لا نعرف لها معنى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ (٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٣) ﴾ [الأحقاف] يعنى : ما خلقتُ عبثاً ، إنما خلقتُ بنظام دقيق محكم لا يتغير ، وقلنا : (الحق) هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، كذلك خلقتُ لغاية ، لذلك انظر إلى السماء مثلاً ، خلقها الله من غير عَمَد .

وهى كذلك منذ خلقها الله ، وسوف تظل إلى قيام الساعة على هذا

الاستقرار ، وعلى هذا الثبات ، وعلى هذا الحق الذى خلقتْ به .

كذلك الشمس هى الشمس ما احتاجت إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار ولم يُصبها عطل ولا عطب ، لماذا ؟ لأنها خُلقتْ بالحق وبالعدل الذى لا يتغير أبداً ، لأنه بُنى من أساسه على الحكمة ، ولو بُنى هذا الكون منذ نشأته على غير الحكمة لأصابه العطب والخلل .

إذن : خلقتُ السموات والأرض من البداية على الحق ، حَقٌّ مطلق لم يسبقه باطل ولم يسبقه خَلْق آخر تم تعديله ، بل هو منذ نشأته الأولى كذلك ، كما سبق أنْ قُلْنا فى قوله تعالى وهو يحاور أعداء الإسلام ، فقال : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة]

فالأولى جعل ، جعلها الله سفلى ، أما الأخرى فهى بطبيعة الحال ومنذ البداية هى العليا ، لذلك لم يقُلْ : وجعل كلمة الله هى العليا ، لأنها لم تكُنْ أبداً دنيا فجعلها الله عُلْيا .

إذن : الباطل جعل ، والحق هو الحق ثابت منذ خلقه الله .

وقوله : ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٣) ﴾ [الأحقاف] يعنى : وقت معلوم هو يوم القيامة ، فهذا الخَلْق لم يخلقه الله ويتركه هملاً ، إنما لأجل محدود هو القيامة ، يوم يتغيَّر هذا الكون الثابت ، ويهدم كل ما فيه وينقض بناءه لبنةً لبنةً .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. (٤٨) ﴾ [إبراهيم] يوم تكوَّر الشمس ويضيع القمر ، وتهدم كل أسباب العيش على الأرض .

أما فى الآخرة : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر] فليس هناك شمس ولا قمر ، فأنت فى الدنيا تعيش بالأسباب ، أما فى الآخرة فتعيش بالمسبِّب سبحانه .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) ﴾ [الأحقاف] أى : منصرفون ، وقُلْنا الإنذار : التخويف من الشر قبل أوانه ، وهو مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده ولطفه بهم وحرصه على نجاتهم .

فالذى يحذرك من الشر قبل أنْ تقع فيه محسن إليك . إذن : من رحمة الله بالناس أنْ أرسل إليهم الرسل مُبشِّرين ومنذرين ، وأنزل إليهم الكتب وبيَّن لهم العاقبة ، لكن ماذا تفعل فيمَنْ أعرض وانصرف عن هذا الإنذار ولم يلتفتْ له ؟

لذلك فى سورة الرحمن جعل الحق سبحانه وتعالى الإنذار والتخويف نعمة من نعَم الله التى تستوجب الشكر ، فقال سبحانه : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ [١] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فالتخويف بهذه الألوان من العذاب نعمة ، لأنك حين تخاف من العاقبة لا ترتكب الفعل الذى يؤدى إليها ، كما يقولون فى الطب : الوقاية خير من العلاج ، كذلك البُعْد عن المعصية خير من مقاساة العقاب عليها .

(١) شواظ : الشواظ القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [لسان العرب ، مادة : شوظ] .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ [١] مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يثبت أن الذين اتخذوا من دون الله أولياء اتخذوهم بلا سابقة كمال أو سابقة نفْع ، فاتخذوا الأصنام آلهةً يعبدونها من دون الله وهم صانعوها بأيديهم .

لذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام قال لقومه : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) ﴾ [الصافات]

ومعنى ﴿ أَرَأَيْتُم .. (٤) ﴾ [الأحقاف] أخبرونى ، إنْ كنتم رأيتم فأخبرونى ﴿ مَاذَا خَلَقُوا .. (٤) ﴾ [الأحقاف] أى : هذه الآلهة المدَّعاة ﴿ مِنَ الأَرْضِ .. (٤) ﴾ [الأحقاف] وأتى بالأرض أولاً لأنها محلُّ إقامتهم ومسرح حركتهم ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ .. (٤) ﴾ [الأحقاف] أى : مشاركة مع الله فى عملية الخَلْق .

الحق سبحانه وتعالى هو الذى أعلن : أنا خالق السموات والأرض ، وهذا الإعلان سمعه هؤلاء المعاندون فهل عارضه أحد ؟ هل ادَّعى أحد أنه خلق هذا الكون ؟

إذن : لو كان لله شريك فى الخَلْق لأعلن عن نفسه ، والعقل يقول

(١) أثارة من علم : بقية من علم تُحفظ وتُروى . [القاموس القويم ١ / ٦] وأثرة العلم وأثارته : بقية منه تُؤثر أى تُروى وتُذكر . [لسان العرب – مادة : أثر] .

إن الدعوى تثبت لصاحبها ما لمْ يقُم لها معارض .

الحق سبحانه قال : لا إله إلا أنا ، ولا خالقَ غيرى ولم نسمع مَنْ يعارض هذه المقولة ، إذن : هى لله وحده لا شريك له ولا منازع .

ولو تأملتَ الخَلْق وما فيه من حكَم ودقائق لعرفتَ أنه خَلْق الله وحده ، ولا يقدر غيره على هذا الإبداع ، فالخالق سبحانه خلق الصغير وخلق الكبير ، خلق الضخم وخلق النحيف ومع ذلك تجد فى الصغير كلَّ خواصّ الكبير ، فالفيل يأكل ويتحرك ، والبعوضة تأكل وتتحرك .

بل ربما قدرتَ على الفيل ، ولم تقدر على البعوضة ، لذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] نعم هل تستطيع أنْ تسترد ما أخذتْه الذبابة من طعامك ؟ ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

ومن مظاهر العظمة فى الخَلْق أن الله خلق لنا هذه المخلوقات وذللها لخدمتنا ، ولولا أن الله ذلَّلها لنا ما قدرنا عليها ، تتعجب حينما ترى الطفل الصغير يقود الجمل ويحمل عليه الأشياء ، والجمل يطاوعه ، فى حين أنك لا تقدر على البرغوث ولا تسيطر عليه ، وقد يُؤلمك ويقضّ مضجعك طوال الليل ، لماذا ؟

لأن الخالق سبحانه ذلَّل لك هذا ولم يُذلل لك ذاك . إذن : العظمة فى الخلق التذليل ، لذلك قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

وأنت حين تتأمل خَلْق الله تجد العظمة فى كل شىء فى الكبير والصغير ، لذلك كان المعارضون ينتقدون الحق سبحانه فى أنه يتكلم عن البعوض والذباب والعنكبوت .

فردَّ الله عليهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] قالوا : ما فوقها فى الصغر لا فى الكبَر ، يعنى : الميكروبات والفيروسات ودقائق المخلوقات التى لا تُرى بالعين المجردة .

لذلك نجد الحق سبحانه يتحداهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ.. (٧٣)﴾ [الحج]

وقوله : ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَا .. (٤)﴾ [الأحقاف] أى : من قبل القرآن أخبركم بهذا ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ .. (٤)﴾ [الأحقاف] يعنى : بقية من العلم الذى يُؤثر عن السابقين ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤)﴾ [الأحقاف] فى دعواكم أنهم آلهة ، وأنهم شاركوا الحق سبحانه فى مسألة الخَلْق .

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ
لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ (٥)﴾

معنى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥)﴾ [الأحقاف] استفهام غرضه النفى . يعنى : لا أحد أشدُّ ضلالاً من هذا الذى يدعو من دون الله مَنْ لا يستجيب له ، لا الآن ولا فى المستقبل ولا يوم القيامة خاصة ، وهو يعلم أن إلهه الذى يدعوه لا يستجيب له .

الله سبحانه وتعالى هو المعبود بحقٍّ ، وهو الكبير المتعال ، لذلك الكافر حين يصيبه خير لا يلجأ إلى آلهته الباطلة ، فلا ينادى يا هُبل أبداً . لا يقولها فى وقت الشدة ، لأنه يعلم أن هُبل لا يسمعه ولن يجيبه ، وهو لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها فى هذه الحالة ، فتراه يلجأ إلى الله ويدعوه رغم أنه كافر به .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء] نعم ساعة الضيق يبحث عن الإله الحق الذى يملك له النفع ويملك له الضر ، فيقول : يا رب لكن ساعةَ يكشف الله عنه ضُرَّه يعود إلى كفره وعناده .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢)﴾ [يونس]

لماذا ؟ لأن الدين أصبح عند هؤلاء (فنطظية) آمنوا بإله لا منهجَ له ولا تكاليف ، لم يقُل لهم : افعل ولا تفعل ، لذلك كانت آلهة باطلة حتى فى التسمية ، لأن الإله هو المعبود المُطاع فى أمره ونهيه ، إذن : هذا كله كذب وضلال .

الحق سبحانه حين يُوضِّح لنا هذه المسألة أتى بها فى صورة هذه السؤال لنُجيب نحن ﴿وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥)﴾ [الأحقاف] فنقول : لا أحدَ أضلّ من هذا ، فيكون إقراراً منا وشهادة بهذا .

وقوله ﴿وَهُمْ .. (٥)﴾ [الأحقاف] أى : الآلهة المدَّعاة ﴿عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾ [الأحقاف] لا يدرون بمن يدعوهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ .. (٦)﴾ [الأحقاف] أى : يوم القيامة ﴿كَانُوا .. (٦)﴾ [الأحقاف] أى : الآلهة ﴿لَهُمْ أَعْدَاءً .. (٦)﴾ [الأحقاف] نعم فى هذا الموقف تظهر العداوة بين هؤلاء جميعاً ويتبرأ كل منهم من الآخر ، ويلعن بعضهم بعضاً ، قال تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ(١) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤)﴾ [الصافات]

هذا تصوير للحوار الذى يدور بين هؤلاء الظالمين وما يدور بينهم من لوم وعتاب ، حيث يلقى كُلٌّ منهم التبعة على الآخر ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ

(١) قال ابن الجوزى فى تفسير (زاد المسير) [سورة الصافات ٢٢] : فى أزواجهم أربعة أقوال :
أحدها : أمثالهم وأشباههم وهو قول عمر وابن عباس ومجاهد .
الثانى : أن أزواجهم المشركات . قاله الحسن .
والثالث : أشياعهم . قاله قتادة .
والرابع : قرناؤهم من الشياطين الذين أضلوهم . قاله مقاتل .

الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت]

وهذه هي حجة الشيطان يوم القيامة . يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقلنا : معنى ﴿ سُلْطَانٍ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم] يعني : حجة ، وهي نوعان : إما حجة تقنعك بأنْ تفعل ، أو قوة تُرغمك على أنْ تفعل ، وأنا ليس عندي لا هذه ولا هذه ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم] من أصرخ . يعني : نادى واستغاث . وأصرخه يعني : أغاثه .

إذن : يوم القيامة العداوة واضحة بين الظالمين والكافرين بين العابد والمعبود ، ومأواهم جميعاً في النار : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

البعض يُعلِّق على هذه الآية ، فيقول : كيف ومنهم مَنْ عبد عيسى عليه السلام من دون الله ، فكيف يكون عيسى حصبَ جهنم ؟ وهؤلاء غفلوا عن (ما) وهي لغير العاقل ، ولم يقُل : مَنْ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

معنى ﴿ بَيِّنَاتٍ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحقاف] يعني : واضحات ظاهرات ، ومع ذلك ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحقاف]

قالوا عن الحق ، فاللام هنا بمعنى (عن) ، أو أنهم بالغوا فبدل أنْ يواجهوا مَنْ آمن بالحق واجهوا الحقّ ذاته ، فقالوا : ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأحقاف]

وإبطال هذا الادعاء سهلٌ ميسور ، وهو أنْ نقول لهم : لو صدّقناكم في أنه سحر ، وأن محمداً سَحر به مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم كما سحرهم ، وتنتهي المسألة ؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾

بعد أنْ قالوا عن القرآن أنه سحْر سَحَر به محمد أصحابه فآمنوا به . قالوا : إنه افتراء افتراه محمد ، والافتراء هو الكذب المتعمد ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحقاف] قل لهم يا محمد ﴿ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحقاف]

يعني : لا تدفعون عني عذابَ الله إن افتريت عليه وكذبت في البلاغ عنه ، لذلك يقول سبحانه في آية أخرى تُوضح هذه المسألة : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة]

فكيف يكذب رسول الله على الله بعد هذه الكلمة ، وسيدنا رسول الله ﷺ

---

(١) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه . وقال ابن سيده : الوتين عرق لاصق بالصلب من باطنه أجمع يسقي العروق كلها الدم ويسقي اللحم وهو نهر الجسد . [لسان العرب مادة : وتن] وهو ما يُعرف بالشريان الأورطي .

حتى قبل بعثته عُرِف بين قومه بالصادق ، لأنهم لم يُجرّبوا عليه كذباً قط .

تعرفون قصة الصحابى الجليل خزيمة بن ثابت [1] مع رسول الله عندما اشترى رسول الله فرساً من يهودى اشتراه نسيء [2] الثمن ، وفى يوم لقيه رسول الله وأعطاه الثمن دون أنْ يكون بينهما شاهد على السداد ، فاستغل اليهودى هذه الفرصة وادعى على رسول الله أنه لم يُعطه ثمن الفرس .

فلما كلَّمه رسول الله قال : هَات لى شاهداً ، فقام خزيمة ، وقال : أنا أشهد يا رسول الله أنك أعطيتَهُ ثمن الفرس ، فبُهت اليهودى وظنَّ أن خزيمة كان موجوداً لكن لم يره .

بعدها استدعى رسول الله خزيمة ، وقال له : يا خزيمة ، ما حملك على أنْ قلتَ ما قلتَ ولم تكُنْ موجوداً ، ولم تشهد هذه المسألة ؟

فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أُصدِّقك فى خبر السماء وأكذِّبك فى عدة دراهم ؟ فتبسَّم رسول الله وأعطاه (نيشاناً) غالياً ، فقال : « مَنْ شهد له خزيمة فحسبه » [3] ومن يومها وشهادة خزيمة تعدل شهادةَ رجلين .

---

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصارى أبو عمارة ، صحابى من أشراف الأوس فى الجاهلية والإسلام ومن شُجعانهم ، كان مدنياً حمل راية بنى خطمة يوم فتح مكة . عاش إلى خلافة على بن أبى طالب وشهد معه صفين فقتل فيها . روى له البخارى ومسلم وغيرهما ٣٨ حديثاً . توفى عام ٣٧ هجرية [الأعلام للزركلى ٢/٣٠٥] .

(٢) ما وجدته فى هذا أنه أعرابى من بنى محارب وليس يهودياً والله أعلم . فهو سواء بن الحارث المحاربى وفد سنة عشر للهجرة ضمن وفد بنى محارب المكوّن من عشرة أنفس فأسلموا [الإصابة فى معرفة الصحابة ١/٤٧٦] وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : له صحبة .

(٣) أخرج هذا الحديث البيهقى فى السنن الكبرى (الجزء ١٠) بلفظ : « من شهد له خزيمة أو شهد عليه فهو حَسْبه » . وكذا ابن أبى عاصم فى (الآحاد والمثانى) (حديث ١٨٣٨) وكذا الحاكم فى مستدركه (٢١٤٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٦٤٢) وعندهم أن اسم الرجل هو سواء بن الحارث المحاربى .

وهذا (النيشان) انتفع به المسلمون فى مسألة جَمْع القرآن ، حيث كان جامعو القرآن لا يكتبون الآية إلا إذا وجدوها مُسجَّلة فى الرِّقاع ، وشهد على صحتها اثنان من العدول ، حتى جاءوا فى آخر سورة التوبة ، فوجدوا آية مكتوبة [1] وليس لها إلا شاهد واحد هو خزيمة ، فأخذوا بشهادته وحده ، لأن شهادته تعدل شهادة رجلين .

وتأمل أدب الحوار حتى مع المخالفين لرسول الله ومع الذين يتهمونه بالكذب اتهاماً صريحاً ، يقول لهم : ﴿ إِنِ افْتَرَيْتُهُ .. (٨) ﴾ [الأحقاف] وإنْ تفيد الشك ﴿ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. (٨) ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا تدفعون عنى عذاب الله ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ .. (٨) ﴾ [الأحقاف] بما تكثرون فيه الكلام والاتهام ، وادعاء أن القرآن مكذوب .

﴿ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) ﴾ [الأحقاف]

يرجع الأمر إلى الله ويُفوّض أمره إليه ، ويرضى بشهادته بينه وبين خصومه ، وشهادة الله هى شهادة الحق وشهادة الصدق .

لذلك شهد الله بها لنفسه سبحانه شهادةَ الذات للذات : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] وشهدتْ بها الملائكة ، شهادةَ مشهد ، وشهد بها أولو العلم شهادةَ استدلال ﴿ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨) ﴾ [آل عمران]

إذن : فى هذه القضية رسول الله لا يستطيع أنْ يأتى بشاهد على

---

(١) هى آية ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] قال أبان بن سعيد : استعرضت المهاجرين أسألهم عنها فلم أجدها عند أحد منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها فلم أجدها عند أحد منهم حتى وجدتها عند خزيمة بن ثابت فكتبتها . أورده الطبرى فى تفسيره (٦٠/١) وابن كثير فى مقدمة تفسيره (٢٨/١) .

صدقه فى تبليغ القرآن عن الله ، فيكتفى بأنْ يجعل الله شاهداً بينه وبينهم .

وهذا من أدب الحوار الذى تأدَّب به سيدنا رسول الله ، فهم يتهمونه بتعمُّد الكذب وهو يتودد إليهم ، وفى موضع آخر يرد عليهم فيقول الحق سبحانه على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

وقوله فى ختام الآية ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) ﴾ [الأحقاف] كأنه يتحنن إليهم ، ويستميل قلوبهم ، فرغم هذا الادعاء الكاذب فما يزال باب المغفرة والرحمة مفتوحاً أمامكم .

ثم يقول الحق سبحانه [1] :

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٥) سبب نزول هذه الآية فقال : (قال الثعلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصَّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين .
ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك ، فقالوا : يا رسول الله متى نهاجر إلى الأرض التى رأيتَ ، فسكت رسول الله فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا أدرى أخرج إلى الموضع الذى رأيته فى منامى أو لا ، ثم قال : إنما هو شىء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يُوحى إلىَّ) .

﴿ قُلْ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] أى : قُلْ لهم يا محمد ﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] البدع هو الشىء الجديد المستحدث الذى لم يسبق له مثال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ﴾ [الأنعام]

أى : خالقهما على غير مثال سابق ، نقول : فلان مبدع يعنى : جاء بشىء لم يسبقه أحد إليه .

والمعنى : ما جئتُ على سنة غير التى جاء عليها مَنْ سبقنى من الرسل ، أو ما كنتُ مبتدعاً ما أدعوكم إليه ، لستْ أول رسول يُقابَل بالتكذيب ويُواجَه بالكفر والعناد والاضطهاد ، بل سبقنى إلى ذلك كلّ الرسل السابقين ، أُوذوا وكُذبوا وصبروا حتى نصرهم الله ، كما قال تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فكانت سنة الله فى الرسل السابقين أنْ تتولى السماءُ تأديب المكذِّبين للرسل المعارضين لدعوة الحق ، أما فى رسالة محمد ﷺ فقد أمَّن الله محمداً وأمَّن أمته على أنْ يتولوا هم تأديب المكذِّبين للدعوة المصادمين لها ، وأن ينصروا الحق ، وأنْ يكونَ أهلاً له إلى قيام الساعة .

لذلك قال ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة » [1]

(١) أورده السخاوى فى (المقاصد الحسنة) ، وقال : قال شيخنا (أى ابن حجر العسقلانى) : لا أعرفه ولكن معناه صحيح . وكذا ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (١/ ١٠) وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١٢٦٧) وقال : قال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ . قلت : هو مما اشتهر على ألسنة الناس .

والمراد الخير فىَّ حصراً وفى أمتى نثراً ، بحيث يأخذ كل جيل أو كل واحد منهم جزءاً من هذه الخيرية .

وقوله :﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] أى : الآن لا أدرى لكن لعله يدرى فى المستقبل بما يُوحيه الله إليه ، كما حدث فى مسألة محاربة الكفار والجهر بالدعوة ، حين طلب بعض مَنْ أسلم مع رسول الله محاربة الكفار ، فكان يقول لهم ﷺ : ما أُمرت ، ما أُمرت .

فلما هاجر ﷺ إلى المدينة وافقهم على القتال . إذن : جهر بدين الله فى مكة ولم يحارب إلا فى المدينة ، وهنا حكمة ، فمكة كانت موطن قريش ومحلّ سيادتها ، وقريش كانت موضعَ اهتمام واحترام من كل قبائل العرب لمكانتها من بيت الله الحرام وخدمتها لحجاجه .

ولتوسط مكة طريقَ التجارة بين اليمن والشام فى رحلة الشتاء والصيف ، فكان لا بدَّ من مراعاة هذه المكانة لقريش ، وعدم إعلان الحرب عليها فى هذا الوقت .

وحين نقرأ مثلاً سورة الفيل : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ[1] (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ[2] (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ[3] (٥) ﴾ [الفيل]

(١) أبابيل : جماعات متفرقة لا واحد لها من لفظها . [القاموس القويم ١ / ٤] ولكن قال ابن منظور فى اللسان (مادة أبل) واحدها إبِّيل وإبَّوْل . وقال الزجاج : أى جماعات من هنا وجماعات من هنا . وقيل : طير أبابيل يتبع بعضها بعضاً إبيلاً . إبيلاً أى : قطيعاً خلف قطيع . [لسان العرب] .

(٢) السِّجيل : الطين المتحجر الصلب الشديد . [لسان العرب ، مادة : سجل] والبعض أخذه من التسجيل والكتابة بأنها حجارة مما كتب الله أنه يعذبهم بها . وقال الجوهرى : حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم . فجمع بين الأقوال كلها .

(٣) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢ / ٢٣] .

لو قلت : لماذا ؟ تجيبك سورة قريش : ﴿ لإِيلافِ[1] قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

يعنى : فعل الله هذا لمصلحة قريش ، ولتظلّ لهم المكانة والمهابة بين قبائل العرب ، ولتظلّ آمنة مطمئنة فى رحلة تجارتها بين اليمن والشام .

لذلك قال بعدها : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

والمعنى فى ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] يعنى: ما أدرى أيأمرنا الله أنْ نقاتلَ هؤلاء ؟ أم يأمرنا بترك مكة إلى مكان آخر نلتمس فيه نُصْرته ، لذلك بعدها أمرهم رسول الله بالهجرة إلى الحبشة ، وقال : « إنَّ فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد »[2] .

وكأن سيدنا رسول الله كانت عنده خريطة للعالم من حوله ، وفعلاً لما ذهبوا إلى الحبشة أكرمهم النجاشى ، ومنعهم حينما أرسلت قريش عَمْراً فى طلبهم ، فردَّ عَمْراً وردَّ هدايا قريش ، وآمن بمحمد ودعوته ، لذلك وكله رسول الله فى أنْ يُزوِّجه من أم حبيبة[3] ، ولما

(١) إيلافهم : اعتيادهم وتجهيزهم وتهيئتهم الذهاب فى رحلتى الشتاء والصيف . شتاء إلى اليمن وصيفاً إلى الشام .

(٢) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٢ / ٤) والسهيلى فى الروض الأُنُف (٢ / ٨٩) وابن هشام فى السيرة (١ / ٣٢١) من طريق محمد بن إسحاق أن رسول الله قال : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً » .

(٣) أم حبيبة هى رملة بنت أبى سفيان بن أمية صحابية من أزواج النبى ﷺ وهى أخت معاوية كانت من فصيحات قريش ومن ذوات الرأى والحصافة ، ولدت ٢٥ قبل الهجرة . زوَّجها إياها النجاشى ملك الحبشة وأصدقها من عنده أربع مئة دينار سنة ٧ هجرية (كان عمرها ٣٢ عاماً) توفيت ٤٤ هجرية عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣ / ٣٣] .

مات النجاشى صلى عليه رسولُ الله .[١]

والهجرة إلى الحبشة كانت مرحلة انتقالية يحتمى فيها المضطهدون من المسلمين عند هذا الرجل الذى لا يُظلم أحد عنده ، وحتى يأذن الله لرسوله فى الهجرة إلى المدينة ، حيث تأتى نُصْرة الإسلام وإعلاء كلمته هناك .

والحكمة أن الصيحة الأولى للدعوة كانت فى مكة ، أما نُصْرة الدين وتأييده فكانت فى المدينة ، ذلك لأن قريشاً كانوا سادةَ العرب وأصحاب السيطرة فى الجزيرة العربية .

ولو أن النُّصْرة جاءتْ فى مكة لَقالوا إنها بسبب سيادة قريش وسُلطتها التى تعدَّت الجزيرة إلى العالم من حولها ، فكانت الحكمة أن تكون الصيحة الأولى للإسلام فى أذن هؤلاء السادة تهزُّهم وتُقبِّح أفعالهم ، وتُبطل ما هم عليه من عبادة الأصنام .

لكن النُّصرة تُؤجل إلى المدينة لينتصر الدين بالمهاجرين والأنصار ، حتى لا يظن ظانٌّ أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان بمحمد ، بل إن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد .

وقوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾ [الأحقاف] انظر هنا إلى العظمة فى شخصية رسول الله ﷺ ، فهو يتكلم بما عنده كأنه يقول : « يرد علىّ فأقول : أنا لستُ كأحدكم ،

(١) عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخاكم النجاشى قد مات فقوموا فصلوا عليه . فقال : فقمنا فصففنا عليه كما يُصف على الميت ، وصلينا عليه كما يُصلى على الميت » . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣٩ ، ٤٤٦) والترمذى فى سننه (١٠٣٩) وصححه ، والنسائى فى سننه (٤/٧٠)

ويُؤخذ منى فاقول ما أنا إلا بشر مثلكم » .

إذن : سيدنا رسول الله لم يأتِ بشىء من عنده إلا فى المسألة التى لم يرد فيها حكم ، فإنِ اجتهد فى مسألة لم يردْ فيها حكم وأخطأ قبل أنْ يُعدِّل الله له ، وأنْ يُصحِّح له ولا يأنف من ذلك ، وهو الذى يخبرنا بهذا التعديل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ
فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠) ﴾

معنى ﴿ أَرَأَيْتُمْ .. (١٠) ﴾ [الأحقاف] أخبرونى أنتم إن كنتم شاهدتم ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ .. (١٠) ﴾ [الأحقاف] الجواب تقديره : ماذا يحدث لكم ؟ والجواب معلوم : إنْ كان هذا القرآن من عند الله ومع ذلك كفرتُم به فلن تنالوا إلا غضبَ الله فى الدنيا وعقابه فى الآخرة .

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ .. (١٠) ﴾ [الأحقاف] الشاهد الذى شهد على صدق القرآن ، وأنه من عند الله هو عبد الله بن سلام ، وهو أحد أحبار اليهود وأسلم وشهد لمحمد وللقرآن .

﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِ .. ⟨١٠⟩ ﴾ [الأحقاف] على مثل القرآن من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل ، فهو مثلها من عند الله يدعو إلى ما دعتْ إليه من عبادة الله وتوحيده ، فكما نزلت التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى نزل القرآنُ على محمد ﷺ ، وصفته ثابتة عندهم فى التوراة .

لذلك كان يقول عن رسول الله : والله لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لولدى ومعرفتى لمحمد أشد[(١)] . نعم عرفه من العلامات التى وردت فى كتبهم .

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ .. ⟨٨٩⟩ ﴾ [البقرة] أى : القرآن ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ .. ⟨٨٩⟩ ﴾ [البقرة] أى : من قبل نزول القرآن ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ⟨٨٩⟩ ﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنه سيسحب بساط السيادة والسلطة من تحت أقدامهم .

وقال أيضاً فيهم : ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. ⟨١٣⟩ ﴾ [المائدة] وإنْ كان لهم عذر فى النسيان فليس لهم عذر فى كتمان الكتاب وتحريفه ، بل كان منهم صنف ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ⟨٧٩⟩ ﴾ [البقرة]

إذن : اليهود نسُوا وكتموا وحرّفوا وبدّلوا ، لكن الحق سبحانه وتعالى لا بُدَّ أنْ يُوقعهم فى أشياء تدل على فعلهم وتكون منافذ للحق ،

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) : « قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض ينعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » .

فمثلاً فى مسألة الذبيح عارضوا وقالوا : الذبيح إسحق لا إسماعيل .

والرد على هذا الادعاء أنْ نقول لهم : إنْ كان الذبيح إسحاق ، فلِمَ شُرعتْ مناسك الفداء ورَمْى الجمرات هنا ، ولم تُشرع فى موطن إسحق .

وارجعوا إلى كتبكم أنتم ، ففى التوراة فى الأصحاح الرابع والعشرين قال الله لإبراهيم : يا إبراهيم اصعد بابنك الوحيد جبل المرية وقدِّمه قرباناً لله ، وهل كان إسحق وحيداً ؟

وفى الأصحاح الذى بعده مباشرة يقول : لقد وُلد إسحق وعُمْر إسماعيل أربعة عشر عاماً . إذن : كلامهم متناقض تماماً مع ما فى كتبهم ، وهذه منافذ للحق يُقيم بها الحجة عليهم .

وقوله : ﴿ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ .. ⟨١٠⟩ ﴾ [الأحقاف] أى : آمن هذا الشاهد فى حين استكبرتم أنتم على قبول الحق ، وسبق أن ذكرنا قصة إسلام عبد الله بن سلام ، وأنه أتى النبى ﷺ وقال : يا رسول الله لقد أُشربَ قلبى حُب الإسلام ، ولكن اليهودَ قومٌ بُهْت[(١)] ، فإذا علموا ذلك قالوا : فىَّ ما ليس فىَّ ، فاسألهم عنى قبل أنْ أسلم .

فلما اجتمعوا عند رسول الله سألهم : ماذا تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : هو سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وابن حَبْرنا ومدحوه . عندها قال : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : بل كذاب وكذا وكذا ، فضحك ابنُ سلام وقال : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟[(٢)]

---

(١) البهت والبهتان : الباطل والكذب . وبهت الرجل فهو بهّات أى : قال عليه ما لم يفعله .
[لسان العرب بتصرف - مادة : بهت] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٨٢ ، ٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وأحمد فى مسنده (١١٦١٥ ، ١٣٣٦٥) والنسائى فى سننه (٨٢٥٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) ﴾ [الأحقاف] هذه الكلمة حلَّتْ لنا إشكالاً وبيَّنتْ معنى الهداية ، لأن البعض يقول : إذا كان الله قد حكم على الكافر بالكفر ولم يهْدِ القوم الظالمين فلِمَ يُعذّبهم ؟

وهذه مغالطة ، ولو كان السؤال منطقياً لأكمل الصورة ، فقال : ولِمَ يثيب الطائع وقد كتب له الطاعة ؟

وسبق أنْ أوضحنا فى هذه المسألة أن الله تعالى هدى الجميع هدايةَ دلالة وإرشاد ، وهذا القسم يشمل المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فقد دلّ الله الجميع وبيَّن لهم الطريق المستقيم ، فمن أخذ بهذه الهداية وسار على نورها استحقَّ من الله المزيد .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] وهذا النوع هو النوع الثانى من الهداية ، وهى هداية المعونة والتوفيق .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا يهديهم هدايةَ معونة ، لذلك قال عن ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .. (١٧) ﴾ [فصلت] أى : هديناهم هدايةَ دلالة وإرشاد فاستحبُّوا العمى والضلال وفضّلوه على الهدى فأعانهم الله عليهم ، كما أعان أهل الهدى على هداهم .

وتذكرون المثل الذى ضربناه سابقاً لتوضيح هذه القضية قلنا : لو أنك سألتَ رجل المرور مثلاً عن الطريق فدلَّك عليه فأخذتَ بقوله وشكرتَه فإنه يزيدك إرشاداً ، وربما ذهب معك حتى يُوصِّلك إلى غايتك .

إذن : الحق سبحانه لا يهدى القوم الظالمين بسبب ظلمهم ، ولا يهدى القوم الفاسقين بسبب فِسْقهم ، ولا يهدى القوم الكافرين بسبب كفرهم .

وقبل أن نتجاوز هذه الآية ينبغى أنْ نذكر هنا أن عبد الله بن سلام قبل أنْ يعلن إسلامه سأل رسول الله عن أشياء ثلاثة ، أراد بها أنْ يستوثق من صدق رسول الله ، فقال له : ما شرط الساعة أو علامتها ؟ قال : نار تخرج من قِبَل المشرق فتحشرهم إلى المغرب .

قال : ما أول ما يأكل أهل الجنة ؟ قال : زيادة كبد الحوت ، قال : متى ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومتى ينزع إلى أمه ؟ أو : متى يأتى الولد ومتى تأتى الأنثى ؟ قال ﷺ : إذا سبق ماءُ الرجل نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماءُ المرأة نزع الولد إلى أمه[1] .

وهذه المسألة الأخيرة أثبتها العلم الحديث وأثبتتها الأبحاث ، ودلَّتْ على الإعجاز فى الحديث النبوى الشريف وعلى صدقه ﷺ ، ذلك لأن الرجل والمرأة شركة فى عملية الإنجاب .

البعض يتصور أن العملية الجنسية هى التى تأتى بالولد ، لا فما هى إلا إثارة تُمكِّن الرجل من إخراج الميكروب المنوى ، أما ماء المرأة فلا دخْلَ له فى الإنجاب ، كيف ؟

لأن البويضة التى تحتضن الميكروب ، لها مواعيد تنزل فيها بصرف النظر عن العملية الجنسية ، فهى موجودة إذن بطبيعة الحال ، فإنْ صادفت وجودها عملية جنسية تسابق ماءُ الرجل إليها وهى فى مكانها . إذن : لا دخْلَ للبويضة فى تحديد النوع كما أثبت العلم الحديث .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (حديث ١٣٣٦٥) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام قال لرسول الله أول هجرته إلى المدينة : إنى سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبى ، فسأله عن الشبه وعن أول شىء يأكله أهل الجنة ، وعن أول شىء يحشر الناس . وكذا أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٧٥٤٦) .

وإذا فهمنا المعنى اللغوى لكلمة (سبق) تأكدنا من موافقة الحديث النبوى للعلم ، فالسبق يعنى انطلاق المتسابقين من مكان واحد ، فنقطة الاندفاع واحدة إذن .

نفهم من هذا أن التسابق بين الحيوان المنوى الذى يُمثّل الذكورة والحيوان المنوى الذى يُمثّل الأنوثة ، فأيهما سبق كان النوع له ، وعليه فدوْر المرأة أنها حاضنة لما يُلقيه الرجل .

صحيح أن القرآن جاء كتابَ عقائد ومنهج وتشريع ، وهو أيضاً كتابُ إعجاز يمسّ الكونيات بقدر ما تتسع له العقول ، وخصوصاً أنه نزل فى أمة أمية ، وهل بالله كان من الممكن أنْ يُقال فى هذه الأمة إن الأرض كروية ، لو قلنا هذا فى هذا الوقت لقالوا : كذب .

لذلك يأتى القرآن بهذه الحقائق الكونية يُغلفها ليُؤجل فهمها إلى أنْ تنضج العقول وتستطيع إدراك هذه الحقائق ، ويترك للزمن وأحداثه أنْ يشرح هذه الآيات ، فإذا ما توصّلنا إليها وجدنا لها دليلاً ونصاً من كلام الله .

وهل فهم العرب الذين استقبلوا القرآن معنى قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً(١) وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨)﴾ [النمل] ؟ الجبال نراها فى الواقع ثابتة مستقرة ، فمعنى مرورها أنها تدور بدوران الأرض.

ونقرأ : ﴿يُكَوِّرُ(٢) اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ .. (٥)﴾

(١) تحسبها جامدة . أى : قائمة ساكنة . وهى تمر مر السحاب . أى : وهى تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التى تُسيِّرها الرياح . قال القتيبى : وذلك أن الجبال تجمع وتسير وهى فى رؤية العين كالقائمة وهى تسير .

(٢) يكور الليل على النهار : أى يُدخل هذا على هذا ، وأصله من تكوير العمامة وهو لفُّها وجمعها، وكورت الشمس جُمع ضوؤها ولُفّ كما تُلفّ العمامة . [لسان العرب - مادة : كور] .

[الزمر] إذن : الأرض شبه كرة تدور . أعطانا الحق سبحانه هذه المعانى مغلقة حتى لا تفاجىء الناس فينصرفوا عن القرآن .

فهذا الكون كله بآياته الكونية هو الذى يشرح لنا معنى قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت] والسين كما تعلمون تدل على الاستقبال .

وهذا يعنى أن هذه الآية سيظلّ معناها قائماً وله مددٌ من الآيات إلى قيام الساعة ، بحيث تتجلى الآيات وفقَ ما يتناسب وعقول الناس وتطوّر علومهم وإمكاناتهم .

وقد شرح القرآن الكريم مسألة خَلْق الإنسان ، وشرح معنى كلمة الرسول ﷺ « إذا سبق ماءُ الرجل .. » واقرأ قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ [القيامة]

والنطفة هى الميكروب الذى يحمل الذكورة أو الأنوثة ، والمنىُّ هو السائل الذى يعيش فيه هذا الميكروب ، والمنى من الرجل لا من المرأة . وهذا ما أثبته العلم ، لذلك سماه العلماء X Y ، X يعنى : الاثنان من الرجل .

ثم يقول الحق سبحانه (١) :

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٢٣٨) : اختُلف فى سبب نزولها على ستة أقوال ، منها :
- أن أبا ذر الغفارى دعاه النبى ﷺ إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا فبلغ ذلك قريشاً فقالوا : غفار الحلفاء لو كان هذا خيراً ما سبقونا إليه ، فنزلت هذه الآية . قاله أبو المتوكل .
- أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه : لو كان دين محمد حقاً ما سبقونا إليه . قاله أكثر المفسرين . حكاه الثعلبى . وقال مسروق : إن الكفار قالوا : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه اليهود . فنزلت هذه الآية .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

القائل هنا الذين كفروا . قالوا لمن ؟ للذين آمنوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا .. ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف] أى : الإسلام ﴿مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ .. ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف] وللعلماء ملحظ فى هذه الآية يتوقف على معنى كلمة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف]

فمَنْ أخذها بمعنى اللام اعتبر هذا القول مواجهة من الكافرين للمؤمنين ، فقالوا لهم وهم حضور : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه هكذا بتاء الخطاب ، ومن اعتبر اللام بمعنى (عن) المؤمنين يعنى : وهم غائبون عن مجلس القول : لو كان خيراً ما سبقونا إليه .

فكأن السياق عدلَ عن الحرف (عن) إلى (اللام) ليعطينا المعنيين : معنى الإيذاء فى المواجهة ، والإيذاء فى الغَيْبة ، ويجمعهما فى نصٍّ واحد .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف] الإفك : هو أقبح الكذب ﴿قَدِيمٌ﴾ يعنى : معروف ومعهود منذ القِدَم . أى : عند الأولين .

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِن قَبْلِهِ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] من قبل القرآن ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً .. ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] يعنى : فى زمنه وحال كونه إماماً وقدوة يهتدون به ويؤدى إلى رحمة مَنْ تمسَّك به .

﴿وَهَٰذَا .. ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] أى : القرآن ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] أى : للكتب السابقة كما جاءتْ من عند الله ، وقبل أنْ تُحرَّف أو تُبدَّل ، وفى موضع آخر بيَّن سبحانه أن القرآن جاء مُصدِّقًا لهذه الكتب ومهيمناً عليها جميعاً ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا .. ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] بلسان عربى ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا .. ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] يُخوِّفهم عاقبة ظلمهم ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف] والبشرى : الإخبار بالخير قبل أوانه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾

هذه الآية لها نظير فى سورة فُصّلت : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]

نعم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف] فأىُّ خوف يُصيبهم ، وأىّ حزن ينزل بهم وقد قالوا هذه الكلمة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ .. ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف] وهى لُبُّ العقيدة ثم لم يقولوها كلمةً جوفاء ، إنما قرنوها بالعمل بمقتضى هذا الإيمان .

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. (١٣)﴾ [الأحقاف] أى : على أوامر العقيدة ونواهيها ، ومعنى الاستقامة : السير على الطريق المستقيم الذى رسمه لك مَنْ آمنتَ به .

وهذه الاستقامة تُصلح لك حركة حياتك وحركة الآخرين معك ، والاستقامة بمفهوم الهندسة هى أقصر الطرق التى تُوصِّلك إلى غايتك .

لذلك قلنا : إن الهدى مطيَّة تحملك وتُوصِّلك ، الهدى ليس عبئاً على صاحبه بل أنت حِمْل عليه ، يقول تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥)﴾ [لقمان] فهم يعتلون الهدى وهو يحملهم .

إذن : مَنْ نطق بهذه الكلمة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ .. (١٣)﴾ [الأحقاف] ثم استقام عليها فى حركة حياته ضمن الله له عدم الخوف وعدم الحزن ، ولم يُؤجله إلى الآخرة ، بل جعله بُشْرى تُبشِّرهم بها الملائكة فى آية فُصِّلت : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت]

أى : تتنزَّل عليهم ساعة الموت تُبشرهم وتُطمئنهم ، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، الخوف توقُّع أمر يُؤذى ويضرّ ، والحزن الفجيعة والألم لفقد شىء محبوب ، فهم فى أمن من هذا وذاك . وما دام الأمر كذلك فلا تخافوا من أعدائكم فلن ينالوا منكم شيئاً أبداً .

لذلك كان عندهم قضية يقولونها لأعدائهم بشجاعة : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]

يعنى : إنْ تواجهنا فى قتال فنحن ننتظر أحد أمرين ، إما أنْ

ننتصر عليكم ونكسر شوكتكم ونُذلكم ، وإما أنْ نُقتل فنظفر بالشهادة، فنحن رابحون على أىِّ حال ، أما أنتم فننتظر أنْ يُصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، لذلك دخل المسلمون على هذه المسألة بثقة ويقين لا يخالطه شكّ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٤)﴾

قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ .. (١٤)﴾ [الأحقاف] إشارة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، فالحق يُحدِّثنا عن جزائهم وعاقبة إيمانهم واستقامتهم ، فهم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. (١٤)﴾ [الأحقاف] أصحابها إما مالكوها ، وإما أنها مصاحبة لهم وهم مصاحبون لها ، يعنى : بينهما علاقة وُدٌّ وتفاهم ومَيْل ، كلٌّ منهم يميل إلى الآخر ويشتاق إليه .

والصاحب هو مَنْ تصطفيه من خلق الله ممَّنْ توافق أخلاقه أخلاقك ، وطباعه طباعك ، وسلوكه سلوكك . فهؤلاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اختاروا الجنة واختارتهم واتخذتهم أصحاباً وأصفياء .

وقد ورد أن الجنة تشتاق إلى أهلها وتنتظرهم وتسأل عنهم[1] ، كما أن النار تشتاق إلى أهلها وتنتظرهم . ولا غرابةَ فى ذلك ، فكلٌّ مخلوق له لغته التى يعبر بها ، حتى الجمادات .

وقال تعالى : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور] فكلّ يُسبح بلغته هو أنت لا تفهمها لأنه لا يتحدث بلغتك ، إنما الذى خلقها أعطاها لغة خاصة تتفاهم بها مع جنسها .

(١) مما ورد فى هذا حديث رسول الله الذى أخرجه الترمذى فى سننه (٣٧٣٢) عن أنس بن مالك « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : على وعمار وسلمان » .

والقرآن يُخبرنا أن النملة تكلمتْ مع بنى جنسها وتفاهمتْ معهم ، وسمع سليمان كلامها وشكر الله أنْ أعطاه نعمة الفهم عن هذه المخلوقات ، لذلك صوَّبنا مقولة : إن الحصى سبَّح فى يد رسول الله .

فهذه ليستْ ميزة لأن الحصى مُسبِّح بطبيعة الحال ، فهو يُسبِّح حتى فى يد أبى جهل ، لكن الصواب أنْ نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده .

﴿ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا .. (١٤) ﴾ [الأحقاف] لأن نعيم الجنة باقٍ خالد لا ينتهى ولا يُنغصه ما يُنغص نعمة الدنيا ، فلا يفوتك ولا تفوته ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ [الأحقاف] قالوا : هذا الجزاء أهو حَقٌّ للعبد ؟ أم هو تفضل من الله ؟

قالوا : الجنة تفضل من الله ، والعمل ما هو إلا سببٌ لا ثمنٌ لدخولها ، لأن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع لنا الشرائع إنما شرعها لمصلحتنا ولسلامتنا واستقامة أمور حياتنا على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة .

فنحن نجنى ثمرة العمل الصالح ونسعد به فى دنيانا ، ومع ذلك يثيبنا الله عليه بثواب الآخرة دون أنْ يعود منه شىء على الله تعالى ، ودونَ أنْ ينتفع منه بشىء . إذن : دخول الجنة زيادة وتفضّل من الله .

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ [الأحقاف] فيه لفتة : ما هو العمل ؟ العمل انفعال الجارحة لمهمتها ، فاليد تتحرك واللسان ينطق والعين ترى وهكذا ، لكن لو تأملتَ العمل تجده على قسمين : قول وفعل ، فأخذ اللسانُ وحده شطر العمل ، وأخذتْ باقى الجوارح الشطر الآخر ؛ ولذلك : يقولون ، ويفعلون ؛ ولأن بالقول بلاغ المنهج الذى تنفعل له الجوارح طاعة أو معصية .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ[1] ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أمرناه بذلك وألزمناه به ، والوصية أن تطلب ممَّنْ توصيه عملاً خيِّراً يفيده فى حياته وآخرته ، ويعينه على آداء مهمته ، لذلك تجد معظم الوصايا بالأمور المهمة تأتى فى أخريات العمر ، وكأنه يقول لأهله ولمن يوصيه : الحقوا خذوا منى نتيجة تجاربى فى الحياة .

وهذه المادة أتت فى القرآن بلفظ : وصَّى وأوصى . وصى تفيد تكرار الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ..(١٥) ﴾ [الأحقاف] وفى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ .. (١٣٢) ﴾ [البقرة]

أما أوصى فهى للتعدية ، كما فى قوله تعالى على لسان المسيح عليه السلام : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾ [مريم] فهى مثل أنزل ونزَّل ، أنزل أى مرة واحدة ، ونزَّل يعنى تباعاً .

---

(١) الفصال : الفطام لأن الطفل به ينفصل عن أمه . [القاموس القويم ٢/٨٣] . ومعنى أن حمله وفصاله ثلاثون شهراً ، أى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً . [لسان العرب – مادة : فصل] .

وكلمة ﴿الإنسان ..(١٥)﴾ [الأحقاف] وهو الموصَّى تفيد الإطلاق والعمـوم أى الإنسان علـى إطلاقه من آدم إلى قـيام السـاعـة فى اسم جنس تقـابل فى الخلق المـختـار كلمة الجن ، نقـول : الإنس والجن ، الإنس يعنى الإنسان من الأُنس . يعنى : يأنس بعضنا إلى بعض .

أما الجن فلا أُنْسَ بيننا وبينه ، لأننا لا نراهم ولا نـتفق معهم فى الطبيـعة ، قـال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

إذن : هذه الوصـيـة مُـوجّهـة من الحـق سبـحـانه للناس كـافـة وللإنسان عـمومـاً ، فتشـمل المؤمن والكافر ، والكبـير المكلف والطفل دون التكليف ، فإنْ فعل بالوصية يُثاب عليها ، وإنْ تركها لا يُعاقب .

يمكن أنْ نقيـس هذه المسألة على الصـلاة ، ففى الحـديث الشريف قال ﷺ : « مُروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »(١) .

إذن : الأمر منكم وكـذلك العقوبة منكم أيضـاً ، لأنه ما يزال دون سِنِّ التكليف الشرعى .

والصـلاة فى هذه السنِّ تدريب له وتعـوّد ليرتاد ويألف الصـلاة منذ صـغَره فـيشب عليـها ، حـتى إذا بلغ التكليف كـانت سهلة عليه ومعتادة عنده .

وكلمـة (الوالديـن) أى : الأب والأم ، وهمـا السـبب المـبـاشـر للوجود ، لأن هناك سبباً غير مباشر ، وهو الوجود الأعلى الذى أوجد

(١) أخـرجه أبو داود فى سننه (٤١٨) عن عبـد الله بن عـمرو بن العـاص ولفظه : « مـروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سـنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشـر ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع » .

آدم وحواء ، وهذا الوجود كان عن عدم ، أما وجودنا نحن بالتناسل ، فكان عن سبب وهو (الوالدان) .

ولبقـاء النوع وعمارة الأرض ربط الله تعـالى - ولحكمة عـملية - الإنجابَ بأقـوى غرائز الإنسان وأقوى لذة عنده ، كـيف ؟ قالوا : أنت حين تـنظر إلى منظر جميل تستـمتع به عينُك أو تشمّ رائحة طيـبة يستمتع بها أنفُك . كذلك حين تأكل أكلة مُحبّبة إليك .

إذن : كلّ جـارحة من جـوارحك لها مـتعة خـاصة ، أمـا العملـية الجنسيـة فتُحدث لذة ومـتعة تستوعب الـجوارح كلها ، وتشارك فـيها الجوارح كلها ، لذلك شـرع الله الغُسْلَ بعدها لاشتراك جـميع الجوارح فى هذه العملية ، وأيضاً لأنك تغـفل فى هذه الأثناء عن الله فاستوجب ذلك الغسل .

وأيضاً لأن الحق سبحانه وتعـالى علم أن الأولاد يُمثلون عبئاً على الأهل ومشـقـة فى التـربية والإنفـاق والسعى عليهم ، لـذلك أقسم الله بهذه المسألة فقال : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) ﴾ [البلد]

ولولا أن الله ربط الإنجاب بهذه اللذة لربما زهد فيـها كثير من الناس ، ترونَ المرأة كم تعـانى من آلام الحمل والولادة ، حتى أنهـا تقول توبة لن أعود ، ثم تنسى آلامَها ومقاساتَها وتحِنّ من جديد للحمل .

إذن : ربط الإنجـاب بهذه اللـذة لحكمة ، لكن الـعجـيب أن الناس تسرف فيها وتبالغ وتخرجها عن حدِّها فتجعل اللذة هى الأصل .

ونحـن نرى الحيوانات مثلاً تمارسـها لبقاء النوع فقط ، لذلك ساعة يأتى الفحل للأنثى يشمّها أولاً ، فـإنْ وجدها حاملاً لا يقربها ، وهـى

أيضاً لا تُمكّنه من نفسها ، والعجيب أننا نعيب الحيوانات ونقول : شهوة بهيمية .. سبحان الله !!

ثم إننا نلاحظ في هذه المسألة أن طفولة الإنسان هي تقريباً أطول فترة طفولة إذا ما قُورنت بباقي المخلوقات ، فالحيوان مثلاً يلد ثم تُرضع الأم ولدها ، وبعد فترة الرضاعة لا تعرفه ولا تهتم به .

أما في الإنسان فهو طفل حتى سنِّ البلوغ ، اقرأ : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ [1] .. (٥٩) ﴾ [النور] ذلك لأن الإنسان مرتبطٌ ومكلّف تكليفاً أعلى من الحق سبحانه ومطلوب منه أنْ يأتمر بأمره ، وأنْ ينتهي عن نَهْيه .

إذن : طبيعة الإنسان وتكريمه بصلته بالله جعلتْ فترة تربيته طويلة تناسب مهمته في الحياة . انظر مثلاً إلى البقرة تلد فينزل ولدها يتحرك وينفض عن نفسه البلل ، ثم يقف بعد دقائق ثم ينهض واقفاً ، ثم يجري حولها كل هذا في ساعة من الزمن .

أما الولد عندنا فيستطيع الجلوس مثلاً بعد عدة أشهر ثم يحبو ثم يقف ثم يمشي بعد سنة أو أكثر ، بل وعندنا مَنْ يمد فترة الطفولة لأبنائه إلى سن ٢٥ سنة ، وهو في حكم الطفل يعوله وينفق عليه ولا يُحمِّله المسئولية .

والتوصية بالوالدين وردتْ في القرآن في أربعة مواضع مقرونة بعبادة الله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦) ﴾ [النساء] وقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ

(١) حلم الصبي يحلم حُلماً : أي بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١ / ١٦٩] . أي : بلغ أن يحتلم والاحتلام الجماع ونحوه في النوم . والمحتلم : البالغ المدرك . [لسان العرب - مادة : حلم] .

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٨٣) ﴾ [البقرة]

وفي سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] وفي سورة الإسراء : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

هذه أربعة مواضع يأمر فيها الحق سبحانه الأولاد بالإحسان إلى الوالدين ، ويقرن هذا لأهميته بعبادة الله وكأنهما في الميزان سواء ؛ لأن الوالدين كما ذكرنا هما سببُ الوجود المباشر ، وبرّهما والإحسان إليهما تمهيد وتدريب يُذكّرك بالسبب الأعلى لوجودك ، وهو الخالق سبحانه وتعالى .

وهذه الوصية يلزمنا الله بها حتى إنْ كان الوالدان كافرينْ كما قلنا في وصية عامة ، يقول تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت]

وقال سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] فإذا كان الله تعالى يُوصينا بالوالدين حتى إنْ كانا مشركين لأنهما سبب الوجود المباشر ، فما بالك بسبب الوجود الأعلى سبحانه ؟

وقد اعترض بعض المستشرقين هنا وقالوا : القرآن يقول : ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] وفي آية أخرى يقول : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

فرأى تعارضاً بين الآيتين ، وهذا ناتج عن عدم فهم اللغة وعدم الإلمام بأساليبها وأسرارها ، فهناك فرْق بين الود والمعروف . الود منشؤه الحب والعاطفة القلبية ، أما المعروف فجميلٌ تصنعه مع مَنْ تحب ومع مَنْ تكره .

والحق سبحانه حينما يأمرنا ببرِّ الوالدين إنما ليعطينا دُرْبة ورياضة على أن تبرَّ مَنْ خلقك وخلقهم ، وهو الموجِد الأعلى سبحانه .

وكلمة (إحساناً) مصدر أحسن . والإحسان فى الشرع أنْ تصنع من الخير والمعروف فوق ما فرض عليك ومن جنس ما فُرِض عليك ، وهذا المعنى شرحه لنا الحق سبحانه فى سورة الذاريات :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

ثم يصفهم ويعطينا حيثيات الإحسان : **﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾** [الذاريات]

وواضح أن هذه المسائل الثلاثة المذكورة ليست فرضاً على المسلم ، بل هى زيادة من جنس ما فرض عليه ، ألاَ تراه يقول فى الأموال : **﴿حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾** [الذاريات] لكن عندما يتحدَّث عن فريضة الزكاة يقول **﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤)﴾** [المعارج]

فالحق المعلوم هو الزكاة الواجبة ، لكن (حق) هكذا مطلقة ، فهى للصدقات التى تخرج زيادة على الفريضة ، ومَنْ يقدم هذه الزيادة فى

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والهجيع : طائفة من الليل . [لسان العرب - مادة : هجع] .

الطاعة تدخله فى دائرة الإحسان التى هى أعلى مراتب العبادة .

كذلك الحق سبحانه يأمرنا ببرِّ الوالدين والإحسان إليهما ، لأن لهما فضلاً علينا فى الإيجاد وفى التربية وفى الإنفاق ، فيجب أنْ نعطيهم أكثر مما يستحقون ، وحين تعطى أكثر مما يجب عليك فأنت مُحسن إليهما .

إذن : الأمر فى بر الوالدين لا يتوقف عند الواجب الضرورى إنما يتعداه إلى مرتبة الإحسان .

لذلك الحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن حَقِّ الوالدين يقول : **﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا (٢٣)﴾** [الإسراء] وأف : اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر ، وهى تدلّ على الضيق .

فاحذر أنْ تقول لهما هذه الكلمة أو تتأفف منهما خاصة حال كبرهما عندما يُردَّان إلى أرذل العمر ويكونان فى أمسِّ الحاجة للحنان والرعاية .

ففى هذه السنِّ يعود الإنسان إلى الطفولة مرة أخرى ، فيحتاج مَنْ يحمله ويُقعده ويؤكله ، وربما حدث منه ما يدعو إلى التأذِّى ، فإياك أنْ تتأذى منه فى هذه الحالة .

ربما ارتعشتْ به قدماه فوقع على الأرض أو كسر (فازة) مثلاً ، فاحذر أنْ تظهر له ما يؤذيه ، واعلم أنك مُثابٌ على هذا ، وأنه مُدَّخر لك ودَيْن سيُؤدَّى ، ومَنْ برَّ والديه برَّه أبناؤه .

ويكفى أنك حين تبره وتتحمل أذاه تفعل ذلك وأنت تتمنى موته ، وقد فعل معك أكثر من هذا وكان يتمنى لك طول العمر .

وفى ضوء هذه العلاقة بين الآباء والأبناء نفهم حديث سيدنا

رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب ، مَنْ استطاع منكم الباءة[1] فليتزوج ، فإنه أغضّ للبصر ، وأحصن للفرج[2] » .

فالزواج المبكر فوق أنه عصمةٌ لصاحبه هو أيضاً ، كما قال العربى : أقرب طريق لإنجاب أب يرعاك فى طفولة شيخوختك ، حيث يصير الولد فى هذه الحالة فى منزلة الأب الذى يرعى ولده .

وفى موضع آخر قال الحق سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨) ﴾ [العنكبوت] وفرْق بين حُسن وإحسان ، فالإحسان أن تفعل معهما فعلاً حسناً ، أما الحُسن فهو مصدر هذا الفعل واسم هذه العملية التي تقوم بها ، كما تقول فلان عادل ، وفلان عدل . يعني : بلغ الغاية في تحقيق العدل حتى جعلته هو والعدل شيئاً واحداً .

إذن : الحُسن أبلغ من الإحسان ، وردُّ الإحسان بأحسن منه مبدأ إسلامى ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء]

والحق سبحانه لم يأت بحيثية : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨) ﴾ [العنكبوت]

وإنما قال بعدها : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. (٨) ﴾ [العنكبوت] يعنى : حتى فى وضع المخالفة العقدية حفظ لهما هذا الحق وأكدّ ووصّى على برِّهما على أحسن ما يكون

(١) الأصل فى الباءة المنزل ثم قيل لعقد الزواج باءة لأن من تزوج امرأة بوَّأها منزلاً ، والباءة : النكاح والتزويج . [لسان العرب - مادة بوأ] .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧٧ ، ٤٦٧٨) ومسلم فى صحيحه (٢٤٨٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

البر : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت]

وفى الآية الأخرى قال : ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان]

قالوا : لأن الآباء على قسمين : أب يكون فى حاجة إلى ولده ليعيش ، وأب لا يحتاج لولده يعنى : غنى بنفسه ، فمَنْ كان فى حاجة فعليك أنْ تصاحبه بالمعروف يعنى : تُعينه وتقيم حياته إقامة كريمة ، ومَنْ كان غنياً بنفسه فهو وشأنه ، ومردُّ الجميع إلى الله .

وهنا فى الآية التى معنا لم يقل حُسْناً ولا إحساناً ، بل ذكر حيثية الوصية فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] فحدَّد هنا مُدة الحمل مع الرضاعة جملة واحدة ، وفى آية أخرى قال عن الرضاعة وحدها : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

إذن : كلّ آية أخذتْ لقطة ، وبجمع الآيتين أمكننا أنْ نحلّ بعض الإشكالات فى مسألة مدة الحمل ومدة الرضاعة .

فقد رُوى أن سيدنا علياً رضى الله عنه دخل على سيدنا عمر وعنده امرأة يريد أنْ يقيم عليها حد الزنا لأنها ولدت لستة أشهر وهى فى بيت زوجها ، والمشهور عندهم أن مدة الحمل تسعة أشهر .

فقال على : على رِسْلك يا ابنَ الخطاب ، ثم قرأ عليه هذه الآية : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] وقال فى الآية الأخرى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

وبطرح العامين من الثلاثين شهراً يكون من الجائز أنْ تكون فترة الحمل ستة أشهر ، وهى أقل فترة ممكنة للحمل .

لذلك قال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[(١)] ، نعم لأن علياً رضى الله عنه اشتُهر بالعلم والفتوى ، لأنه دخل الإسلام وهو صبىّ ، وشرب من معين النبوة منذ صغره ، فكانت ثقافته من بدايتها ثقافة إسلامية ، فكأن الخميرة الثقافية عنده منذ صِغَره إسلامية ، فى حين كان غيره أصحاب ثقافة جاهلية .

ومن فقه الإمام على وإلمامه بمسائل الشرع لما انتقل سيدنا رسول الله إلى ربه عز وجل ، اجتمع المهاجرون والأنصار فى السقيفة ، ودارت بينهما مناقشات كُلٌّ يريد أنْ تكون له الخلافة بعد رسول الله ، وتطلَّع الأنصار إلى ذلك ، ثم قالوا : منا أمير ومنكم أمير .

فلما بلغ ذلك سيدنا علياً قال : لم تُحسنوا حجاجهم . قولوا لهم أى للأنصار : ألم تسمعوا قول رسول الله « إذا ملكتم فاستوصوا بالأنصار خيراً[(٢)] » إذن : لو كانت الإمارة فيهم لم تكُنْ الوصية بهم .

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (٤٥٧/١) والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : « إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن . وذلك بعد أن قال له علي : بل إنه يضر وينفع ، أليس يشهد يوم القيامة لمن قبَّله ؟

(٢) ما وجدته فى هذا أن أبا بكر الصديق خاطبهم فى السقيفة فقال : قال النبى ﷺ : « أوصيكم بالأنصار خيراً » ولو كان لكم من الأمر شىء ما أوصى بكم » . [أحكام القرآن لابن العربى ٤٠٤/٢] و [١٤٦/٤] قال « لو كان لكم فى الأمر شىء ما رأيتم أثرة ولا وصَّى بكم » .

ومن المسائل الطريفة التى كانت بين على وعمر أن علياً دخل عليه فوجده مُغْضباً ، فقال : ما أغضبكَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : سألتُ حذيفة : كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟ فقال : أصبحتُ أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .

فضحك علىّ وقال : صدق يا أمير المؤمنين ، فقال : أتقولها يا أبا الحسن ؟ قال : نعم ، هو يعنى : أصبح يحب ماله وولده ، وقرأ :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن]

ويكره الحق ، يعنى : الموت ، ومَنْ منَّا يُحبه يا أمير المؤمنين ، ويصلى بغير وضوء . يعنى : يصلى على النبى ﷺ .

وله فى الأرض ما ليس لله فى السماء . أى : له زوجة وولد[(١)] .

والعجيب أنْ نسمع فى زماننا مَنْ يُقلل من شأن هؤلاء ، بل ويريد أنْ يلغى شخصيات أبى بكر وعمر وعلى من تاريخنا .

ثم نلاحظ أيضاً فى هذه الآية أن الحق سبحانه قال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : كارهة أو على مشقة ، وفى الآية الأخرى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان]

والوهَن أى الضعف نتيجة الحمل والولادة ، أما الكراهية لهذه المسألة فتأتى من أن النساء لها طبائع مختلفة ، فمنهن مَنْ تحب هذه

---

(١) أورده صاحب « التحرير والتنوير » (١٥ / ١٣٢) قال : ذكر ابن عطية أن عمر قال لحذيفة : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق ، فقال عمر : ما هذا ؟ فقال : أحب ولدى وأكره الموت ، ومثله جاء فى المحرر الوجيز (٣٦٦/٦) .

العملية ، ومنهن مَنْ تكرهها لكن تطيع زوجها وهى كارهة ثم تتحمّل بعد ذلك مشاقّ الحمل والوحم ثم آلام الوضع ، وبعد الولادة تنشغل بالمولود وتحنو عليه .

فى حين ينشغل الوالد بالسَّعى وطلب الرزق ، لذلك يغلب على الرجل العقلانية وعلى المرأة العاطفة كلّ حسب مهمته فى الحياة .

لذلك يخطىء البعض فى فهم حديث النبى ﷺ عن المرأة وأنها خُلقَتْ من ضلع أعوج ، وأعوج ما فى الضلع أعلاه فإنْ رُحْتَ تقيمه كسرته ، وكسْرها طلاقها[١] .

وحين نتأمل هذا الحديث نجد اعوجاج الضلع لحكمة ، لأن الضلوع خُلقَتْ لتصون أثمن وأهم جهازين فى الجسم هما القلب والرئتان ، ولو كان الضلع معتدلاً ما أدَّى هذه المهمة .

وهل نقول مثلاً عن الخطاف أنه أعوج ، أو أن اعوجاجه عَيْب فيه ؟ أبداً لأن طبيعة عمله ومهمته تقتضى أنْ يكون على هذا الشكل ، إذن : شبّه رسول الله ﷺ المرأة بالضلع ، لأن مهمتها العطف والحنان .

الحق سبحانه لمَّا وصانا بالوالدين أتى بحيثيات الوصية بالأم ، ولم يذكر شيئاً من حيثيات الوصية بالأب ، قالوا : لأن دور الأم جاء فى زمن ليس للطفل فيه إدراك يدرك به دور أمه وفضلها فى مرحلة الحمل والولادة والرضاعة .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٠٨٤ ، ٤٧٨٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٧٠ ، ٢٦٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خُلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » .

أما دور الأب من الإنفاق والرعاية فيأتى فى زمن الطفلُ فيه مدركٌ لجميل والده ، فاهم لدوره فى تربيته والقيام على أمره ، لذلك احتاج الولد أنْ نُذكِّره بدور أمه وفضلها ، لأنه غير مدرك له ، أما دور الوالد فهو يعرفه .

وما دُمْنا بصدد الحديث عن دور الوالدين فى التربية فلا بدّ أنْ نذكر قولَ الحق سبحانه : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] فهذه الآية تعطينا منهج التربية العام لكل الأطفال .

فالوالدان استحقا هذه الوصية لأمرين أنهما سببُ الوجود المباشر الذى يُذكِّرك بسبب الوجود الأعلى ، وهما يقومان بالتربية فيُذكِّرانك بالمربِّى الأعلى سبحانه .

فالله ربّ ومُربٍّ ، خلقنا من عدم وأمدَّنا من عُدْم ، فهو الذى ربَّانا وأمدنا بأسباب التربية . إذن : الوصية بالإحسان إلى الوالدين تُعطينا دُرْبة على الإحسان فى علاقتنا بالله خالقنا ومُربِّينا .

ثم نفهم من هذه الآية أيضاً أن التربية وحدها سببٌ وحيثيةٌ للإحسان ، فقد يُربِّى الطفل غير والديه فيكون لمَنْ ربَّاه فضل عليه يستوجب الإحسان لأنه قام بشطر العملية .

فالوالد والوالدة لهما فضل الإيجاد ، والمربِّى له فضل التربية وله نصف الثواب ، وهذه المسألة تُشجِّع على كفالة الأيتام وتربيتهم ابتغاء وجه الله .

فمَنْ مات أبوه فالمجتمع كله أبوه ، لذلك قال ﷺ : « أنا وكافل

اليتيم كهاتين في الجنة »[(١)]

لأن الأب لو مات وترك أولاداً إذا لم يجدوا من المجتمع مَنْ يرعاهم ويكون لهم والدا بدلاً عن والدهم ، إذا لم يجدوا هذا نشأ عندهم حقدٌ على باقى الأولاد وحقد على المجتمع كله ، وربما تعدَّى ذلك إلى التمرد على الله الذى كتب عليهم اليُتْم .

وكلمة ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] تعنى أن التربية لها وقت هو وقت الصِّغَر ، لذلك أذكر أننى دُعيت لإلقاء محاضرة بعنوان . تربية الشباب ، وكانت فى إحدى جامعاتنا لكن قبل أنْ أبدأ المحاضرة قُلت : أستأذن السيد مدير الجامعة فى تغيير عنوان المحاضرة لأن الشباب لا يُربَّى ، الشباب طاقة تُستغل فى حركة الحياة ، الشباب تربَّى بالفعل .

فلو قُلْنا تربية الشباب كان هذا العنوان غير صحيح ، بل تربية الطفولة أو النشء ، لأن الطفولة هى العجينة التى تقبل التشكيل دون أنْ تعترض ، أما الشباب فقد تم تشكيلهم ، لذلك يعترضون ولهم (تتنيحة) حين تُوجه له نقداً أو توجيهاً .

لكن الشباب الموجودين بالجامعة قالوا : نحن رُبِّينا خطأ فاستأنفوا تربيتنا من جديد . فقلت لهم : إذن فاستأنفوا معنا طفولتكم

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٣) من حديث أبى هريرة ، وتمام الحديث : وقال بأصبعيه السبابة والوسطى . ومعنى السبابة : لأنه يسب بها الشيطان حينئذ وفى رواية (السبَّاحة) لأنها يُسبَّح بها فى الصلاة فيشار بها فى التشهد لذلك . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٠/٤٣٦) .

وتقبلوا التوجيه والنقد دون أن تعترضوا ، كونوا مثل المريض بين يدى الطبيب يقبل ما يقول دون مناقشة .

ومن أخطائنا فى التربية أننا نطيل فترة الطفولة عند أولادنا ، فالأسرة تظل تحتضن الابن وتُنفق عليه حتى سنِّ العشرين والخامسة والعشرين . لذلك فاقنا الغرب فى هذه المسألة ، فالولد عندهم حين يصل سِنَّ البلوغ يستقل عن أسرته وينفق على نفسه حتى لو كان أبوه مليونيراً .

وبذلك كثُرتْ الأيدى العاملة ، وقلَّتْ البطالة ، وزاد الإنتاج ، وهذه كلها وسائل للتقدم نفتقدها نحن ، ولم نتمكن حتى الآن من استغلال طاقات الشباب .

إنك لو ذهبتَ إلى عاصمة من عواصم الغرب فلن ترى هناك الشباب يملأ الشوارع والنواصى ، ولن تجد (قهاوى) تمتلىء بالعاطلين ، لكن تراهم فى وقت الراحة يخرجون كالجراد لتناول الغداء ، لكن الخطأ الذى وقعوا فيه أنهم عمَّموا هذا الحكم على الفتى والفتاة .

وكلمة ﴿ رَبَّيَانِي .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] للمثنى يعنى : الوالد والوالدة، فلكلٍّ منهما دوره فى التربية ، فالأب يجلب ، والمرأة تدبر وتقوم على شئون بيتها .

فهما إذن شركاء فى هذه المسألة ، ووجود المرأة بصفة عامة فى البيت يجعل تأثيرها أقوى من تأثير الرجل فى عملية التربية ، لذلك حينما نهتم بالتربية النوعية نعطى الولد ما يناسبه ، ونعطى البنت ما يناسبها .

لذلك يجمل بنا الآن أنْ نذكر وصية الأم العربية لابنتها ، وهى تُجهِّزها للانتقال إلى بيت الزوجية ، فتقول لها : أىْ بُنية إن الوصية لو تُركت لفضل أدب لتركت لذلك منك ، ولكنها تنبيه للغافل ومعونة للعاقل .

أىْ بُنية ، إنك غداً تفارقين البيت الذى فيه نشأت والعش الذى فيه درجت[1] إلى بيت لم تألفيه ، وقرين لم تعرفيه ، فَكونى له أَمَة يكُنْ لك عبداً .

أىْ بُنية ، لو أن المرأة استغنتْ عن الرجل لغنَى أبويها وعدم حاجتها إلى غيرهما لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلِقْن ، ولَهُنَّ خُلِق الرجال .

أىْ بُنية احفظى عنى عَشْر خصال تكُنْ لك ذخراً : أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالقناعة وحُسْن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإنَّ تواتر الجوع مَلْهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة فالاحتراس لماله والإرعاء على حَشَمه وعياله .

ومِلاك الأمر فى المال حُسْن التقدير ، وفى العيال حُسْن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصِنَّ له أمراً ولا تُفشِنَّ له سراً ، فإنك إن خالفتِ أمره أوغرتِ صدره ، وإنْ أفشيتِ سِره لم تأمنى غدره .

(١) درجتِ : مشيت مشياً ضعيفاً ودبًا . [لسان العرب – مادة : درج] .

ثم إياك والفَرح بين يديه إذا كان مُهتماً[1] أو الكآبة بين يديه إذا كان فَرِحاً .

هذه وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم أُناس[2] بنت عوف بن مُحلِّم الشيبانى ، وهذه الوصية كانت قبل الإسلام ، ومع ذلك فيها من الآداب والنصائح ما إنْ أخذت به الزوجة فى عصرنا الحاضر لحُلَّتْ معظم المشاكل الأسرية التى تمتلىء بها المحاكم اليوم .

ولو ربّتْ كلُّ أم ابنتها على هذه الآداب لانصلح حالنا ، لكن الواقع أننا تركنا هذه النصائح وغفلنا عن العمل بها فى بيوتنا ، بل وتركنا البيوت للخادمات ، وتركنا التربية لغير أهلها حتى صِرْنا إلى ما نحن فيه .

وقوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[3] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] هذا طور آخر من أطوار الحياة هو طور البلوغ ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أى : بلغ الغاية فى اكتمال الجسم والقوة والعقل .

ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ

(١) مُهتماً : أى أصابه الهمّ والغم والاستياء . وقد يكون بمعنى الاهتمام بالأمر وجعله شغله الشاغل .

(٢) هى امرأة الحارث بن عمرو . أراد أبوها أن يئدها (يدفنها حية) ثم قال : دعها لعلها أن تلد أناساً فسميت أم أناس . (الإكمال) وهى أم الحارث بن حجر وهند بنت حجر . (الأغانى للأصفهانى ٤/٣٦٤) .

(٣) أوزعنى : أى رغّبنى ووفِّقنى من أوزعته بكذا أى : جعلته مولعاً به راغباً فى تحصيله . الألوسى فى روح المعانى (فى تفسير الآية) وقال ابن عباس : أى ألهمنى .

حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف] وقال فى سيدنا موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

إذن : بلوغ الأشُدّ والاستواء واكتمال البدن والجسم والقوة واكتمال العقل هو بداية إلقاء الحكمة وهو بداية التكليف ، فلو كلّف قبل البلوغ ثم طرأ عليه البلوغ ومرحلة المراهقة وما تفعله من تغيرات بالجسم ربما يقول العبد : لقد طرأ علىَّ تغيرات لم تكُنْ فى بالى عند الإيمان بك ؛ لذلك أجّل العملية كلها حتى سنّ البلوغ ، وهو منتهى النضج .

ومنتهى النضج فى الإنسان أنْ يصيرَ قادراً على إنجاب مثله ، كذلك الحال فى الثمار مثلاً ، قلنا : إن البطيخة لا تحلو للأكل إلا إذا استوى لُبُّها واسودّ بحيث إذا زرعتَه يعطيك نباتاً جديداً ، فإذا أكلتَ هذه ضمنت لك وجود غيرها .

لكن إذا حلت ولبُّها غير مُستو أكلتها ثم تزرع اللب فلا ينبت ، إذاً هنا حكمة لبقاء النوع .

لذلك يقول تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] كلمة (ينعه) أنك تضمن أنْ تأتى بشجرة جديدة . كما أنك تلاحظ فى الشجر المثمر أنك إذا لم تقطف الثمار تقع هى بطبيعتها .

ومن حكمة الخالق سبحانه وعجائب الخلق أنك فى مرحلة النمو وقبل سِنّ البلوغ تجد أن عملية النمو تتم بحساب وإعجاز محكم ، فأشياء فى الجسم تنمو ومثيلاتها فى الجسم لا تنمو .

خذ مثلاً الشعر ينمو ونقصه من حين لآخر ، أما شعر الحاجبين مثلاً والرموش فلا ينمو ، كذلك العظام تنمو بنمو الطفل إلى أنْ يبلغ الأشُدّ ، فى حين أن الأسنان وهى أيضاً عظام تقف عند شكل معين ولا تنمو ، ولو كانت تنمو كنمو باقى العظام لصارتْ مثل ناب الفيل .

إذن : المسألة ليستْ كما قلنا (ميكانيكا) إنما هى (هندسة) من مبدع هذا الكون سبحانه .

﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] لأن سنَّ الأربعين هى السنّ التى ينبغى أنْ يقف الإنسان عندها ويحاسب نفسه ويُصحِّح مساره .

سنّ الأربعين هو قمة النضج العقلى ، وهى أيضاً بداية الانحدار نحو النهاية ، لذلك يلفت الحق سبحانه نظرنا إلى الأربعين بالذات لنقف ونتدارك ما كان .

كلمة ﴿ أَوْزِعْنِي .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : ألهمنى وأعنّى وقوِّنى ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] بداية من نعمة الإيجاد ، ونعمة السلامة والعافية ، ونعمة الإسلام ، ونعمة التوفيق للطاعة ، ونعمة أن جعلت لى أباً وأماً قاما على تربيتى .

ثم يُعدّى الشكر إلى الوالدين ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] لأن النعمة عند الوالد نعمة عند ولده ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أى : وفّقنى وأعنّى على العمل الصالح .

والعمل الصالح هو الاستقامة بتنفيذ الأمر واجتناب النهى فيما ورد فيه نصّ ، أما ما لم يرد فيه نصّ فلَكَ الحرية تفعل أو لا تفعل .

﴿ تَرْضَاهُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] يعنى : بأنْ يكون هذا العمل وفق المنهج الذى شرعتَ ، أو ترضاه فتقبله ، أو تثيبنى عليه .

﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ..﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] دعاء بأنْ يجعل صلاحه ممتداً فى ذريته ، أو أننى يا رب أسرفتُ على نفسى وقصَّرْتُ ، ولا أريد ذلك لذريتى ، أريد لها الصلاح الذى لم يتحقق لى .

وهذا مبدأ معروف أن الأب يحب أنْ يتدارك ما فاته فى حياته يُحقِّقه فى حياة أولاده ، وذريته من بعده ، يريد أنْ يحقق فيهم الكمال الذى لم يصل هو إليه ، لذلك يكون الإنسان سعيداً لو تفوّق ولده عليه .

وتأمل الفعل ﴿ وَأَصْلِحْ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] تجده يتعدّى بنفسه ، فلماذا ذكر (فى) فقال ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ..﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] ولم يقل : وأصلح لى ذريتى ؟ ما الضرورة لذلك ؟ الأسلوب هنا كأنه جعل الذرية ظرفاً للإصلاح ، وظرفُ الإنسان قَلْبه .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « ألا إن فى الجسد مُضغة إذا صلُحَتْ صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] إذن : عدّاها بـ (فى) ليجعلها ظرفاً ومظروفاً .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ومسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ... » الحديث .

وقوله : ﴿ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] التوبة باب مفتوح إلى آخر العمر ، لكن ينبغى ألاّ تُؤخر وألاّ نغفل عنها إذا كنا أسرفنا على أنفسنا ، لكن البعض منا تأخذه الدنيا وتنسيه نفسه فيؤخر التوبة والتصالح مع ربه إلى هذه السن .

لذلك ورد فى الأثر : « إن الله يجرى يده على وجه العبد بعد الأربعين إنْ لم يتب فيقول : أمَا آنَ لهذا الوجه أنْ يستحى » .

وفى معنى حديث آخر يقول : « مَنْ بلغ الأربعين ولم يكُنْ خيره أكثر من شرِّه ، فليجهز نفسه - والعياذ بالله - لجهنم »[1] .

لماذا ؟ لأنك أخذتَ راحتك فى شبابك ، وأشبعتَ رغبتك ممّا تريد ، لكن إذا وافيتَ الأربعين فاستحِ أنْ تعصى الله بعدها ، واستحِ أن تؤجل التوبة وأنت لا تضمن عمرك بعدها .

وكلمة ﴿ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف] تعنى : أن العطل أو التقصير لم يكُنْ فى العقيدة ، إنما فى تنفيذ مطلوب العقيدة فى الأحكام .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

---

(١) أخرج أبو الفتح الأزدى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً : « من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار » [ذكره الألوسى فى تفسيره الأحقاف ١٥] . وكذا ذكره السيوطى فى الدر المنثور . قال ابن الجوزى فى [الموضوعات] (١/١٧٨) : هذا حديث لا يصح عن رسول الله . وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (٢٣٤٤) .

وكلمة ﴿أُولَـئِكَ .. (١٦)﴾ [الأحقاف] إشارة لمن سبق ذكرهم وأوصافهم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا .. (١٦)﴾ [الأحقاف] المشهور عن الفعل تقبل أنه يتعدَّى بمَنْ ، كما جاء فى قول سيدنا إبراهيم : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا .. (١٢٧)﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. (٢٥)﴾ [الشورى]

إذن : يتعدى مرة بـ (من) ومرة بـ (عن) ولكلٍّ معنى ، فقوله تعالى ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا..(١٦)﴾ [الأحقاف] يعنى : أن التوبة تحمل عنك عبءَ المعاصى وثقلها ، لأنها تزحزحها عنك .

لذلك قال ﴿عَنْهُمْ ..(١٦)﴾ [الأحقاف] لأن مجىء حرف مكان حرف لا بدَّ أن له حكمة ، وأنه يضيف معنى لا يعطيه الحرف الآخر ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة فى قول الحق سبحانه : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] ورأينا كلّ المفسرين يقولون : (على) هنا بمعنى : مع الكِبَر .

وبتأمل الآية نجد (مع) حرفان و (على) ثلاثة أحرف ، فلماذا عدل القرآن عن (مع) وجاء بـ (على) ؟ كيف يترك السهل فى حرفين إلى الثلاثة ؟

ولما نتأمل مسألة كِبَر سيدنا إبراهيم نجد أن المعيّة التى تفيدها (مع) لا تكفى ، فالمراد حرف يعطى المعية المتغلّب عليها ، فالكِبَر موجود مع سيدنا إبراهيم ومصاحب له ، لكنه كِبَر مُتغلَّب عليه بقدرة الله .

فكأن طلاقة القدرة علَتْ على قانون الكبر ، وخرقتْ الناموس فجاء إسماعيل على هذا الكبر ، وهذا المعنى لا يقوم باستخدام (مع) بل (على) .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)﴾ [الرعد] فكأن الذنب يقتضى العقوبة ، لكن مغفرة الله علَتْ على العقوبة وتغلّبت عليها . إذن : حينما يستخدم حرفاً مكان حرف فلا بدَّ أنه يضيف معنىً لا يضيفه الحرف الأول .

إذن : ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا .. (١٦)﴾ [الأحقاف] حملنا عنهم عبء ما كان قبل التوبة ، وفى موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذا المعنى : ﴿فَأُولَـئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ..(٧٠)﴾ [الفرقان] حتى قال أحدهم : والله لقد أسفتُ أنِّى لم ارتكب الكبائر ، لأن الله كان سيُبدلها حسنات ، وهذا خطأ ، فمَنْ يدريك أنك ستعيش حتى تتوب ؟

وقوله : ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ .. (١٦)﴾ [الأحقاف] أى : نعفو عنها ونتسامح ﴿فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ .. (١٦)﴾ [الأحقاف] سبق أنْ قلنا : أصحاب الجنة يعنى بينهم وبينها مصاحبة أو صداقة ، أو أصحابها يعنى المالكين لها .

لكن هنا يقول ﴿فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ .. (١٦)﴾ [الأحقاف] فكأن هؤلاء الذين نتحدث عنهم فى وسط الجنة ، وأهل الجنة محيطون بهم ، فهم فى المركز ، هذا الفهم جاء من معنى (فى) هنا ، لكن لماذا استحقّ هؤلاء أنْ يكونوا فى الوسط وفى المركز وأهل الجنة حولهم ؟

قالوا : لأن الذى ألِفَ المعصية ثم يذهب إلى الطاعة تشقّ على نفسه بعد أنِ استهوى المعصية وارتاضَ عليها ، فهو يجاهد نفسه للاستمرار على الطاعة ، على خلاف مَنْ لم يُجرب المعصية ، فالطاعة عنده طبيعية لا تحتاج إلى مجاهدة كالأول ، لذلك يعاملهم الله بهذا التساهل وهذا الفضل فيُبدِّل سيئاتهم حسنات ، وهذا منتهى الكرم .

ثم يُطمئنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾ [الأحقاف] فكأنهم لا يُصدِّقون أن الله يعاملهم بكلِّ هذا الفضل ، فيُذكِّرهم أن هذا وعد الله ، ووَعْد الله وعد صدق لا يُخلَف أبداً ، ولا يوجد مَنْ ينقضه أو يفسخ هذا الوعد .

والحق سبحانه يعطى عباده كلّ هذه التسهيلات والإغراءات ، فيقبل توبة التائبين ويعفو عن المسيئين ، ويُبدِّل سيئاتهم حسنات ، لا لنجاة التائب وحده ، وإنما لنجاة المجتمع كله ، فلو لم تشرع التوبة لشَقِيَ المجتمع بكلِّ عاصٍ سُدّ فى وجهه بابها ، ولاستشرى الشر وساد .

﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ
وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) ﴾

القرآن الكريم أعطانا عدة لقطات للوالدين مع الأولاد ، وهذه اللقطات تختلف باختلاف الأحوال ، ولأهمية هذه العلاقة بين الوالد

والولد قرنَ اللهُ الوصية بالوالدين بعبادته سبحانه ، وأعطاها نفس الأهمية والقداسة .

فقال سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء] لأن الوالد والولد هما الخلية الأساسية لبناء المجتمع ، فإذا صلحتْ صلُح المجتمع ، وإذا فسدتْ فسد المجتمع ، وصلاح هذه الخلية يقتضى منا أن نعلم منزلة الوالدين ، وأنهما السبب المباشر فى الوجود فلهما حَقُّ السَّببية فى الإيجاد ، يعنى : لولاهما ما وجد الولد .

وحين نبرهما ونحترمهما تكون دُرْبة لنا على تعظيم واحترام المُوجِد الأول سبحانه والأصل الأصيل فى المسألة .

لذلك جاءت هذه الوصية عامة ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، فالحق يُوصى بالوالدين حتى إنْ كانا كافريْنِ ، لأنه تعالى ربُّ الجميع يتكفل بالجميع حياة ورزقاً وإقامة ، لأنه عبده وصَنْعته .

وقُلْنا : يجب أنْ نلحظ الفرق بين الألوهية والربوبية : فالربوبية عطاء وتربية ، والألوهية تكليف وتعبُّد بطاعة الأمر واجتناب النهى .

فهو أيضاً عطاء ، لكن عطاء تكليفى بافعل ولا تفعل ، عطاء لأن فائدته تعود على العبد ولا ينتفع الله منها بشىء ، ولا تزيده طاعة الطائعين صفةً لم تكُنْ له سبحانه ، ولا تسلبه معصية العاصين صفةً ثابتة له سبحانه .

فالله له صفات الكمال المطلق قبل أنْ يُوجد هذا الخلق ، لذلك نرى الإنسان حين يحزبه أمر لا يقدر عليه من أمور حياته يقول : يا رب ، فيدعو بصفة الربوبية يعنى يا رب ، يا من تتولى رعايتى وتربيتى خُذْ بيدى وأعنِّى .

لكن إذا أراد أنْ يستعين على أمر تكليفى لله تعالى يقول : يا الله ، يعنى يا إلهى ، يا مَنْ كلَّفتنى أعنِّى على طاعتك فيما كلَّفتنى .

إذن : الحكمة من التكليف لا تعود على الله إنما تعود على المكلَّف ، والحق سبحانه يريد مجتمعاً مؤمناً صالحاً يبنى ويُعمر ، ويكون على أحسن حال ، كما تحثّ ولدك الصغير على المذاكرة وتقول له : إنْ نجحت سأشترى لك عجلة أو بدلة ، فأنت تريد له الخير ولن تنتفع أنت بما ستشتريه له .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميّتكم ، وإنسكم وجنّكم ، وشاهدكم وغائبكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم .. اجتمعوا فى صعيد[1] واحد ،

---

(١) الصعيد هى الأرض المستوية . وقال الشافعى : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذى غبار فأما البطحاء الغليظة والرقيقة والكثيب الغليظ فلا يقع عليه اسم صعيد وإن خالطه تراب أو صعيد . [لسان العرب] .

فسألنى كلُّ واحد مسألته فأعطيتُها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخلَ البحر .

ذلك أنِّى جواد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشيء إذا أردته أنْ أقول له : كُنْ فيكون »[1] إذن : حظ التكليف صلاح المكلف .

وقد أوضحنا هذه المسألة فى بيان معنى قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ⑤ ﴾ [البقرة] فكأن الهدى دابة ومطيّة تحمل المهتدى وتُوصِّله إلى غايته التى يسعى إليها ، فالهدى ليس حِملاً وليس ثقلاً على صاحبه إنما مُعين له .

والآية التى معنا ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا .. ⑰ ﴾ [الأحقاف] تعطينا لقطة للوالدين حينما يكونان مؤمنَين والولد غير مؤمن ، وتصور لنا حرص الوالدين على نجاة الولد ، كما رأينا مثلاً فى قصة سيدنا نوح وولده .

وهذه الآية نزلتْ فى عبد الرحمن بن أبى بكر[2] وكان أبواه قد أسلما ، وأبَى هو أنْ يسلم ، فكانا يدعوانه إلى الإيمان بالله والإيمان

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٩) وابن ماجه فى سننه (٤٢٤٧) وأحمد فى مسنده (٢٠٤٠٥ ، ٢٠٥٦٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

(٢) يُكنى أبا عبد الله . وقيل : يكنى أبا محمد ، وهو شقيق عائشة زوجة النبى فأمه هى أم رومان بنت الحارث . شهد بدراً وأحداً مع قومه كافراً . صحب النبى فى هدنة الحديبية . قال أهل السيرة : كان اسمه عبد الكعبة فغيَّر رسول الله اسمه وسماه عبد الرحمن [الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٢٤٨/١] .

بالبعث ، فيقول لهما : أين فلان ؟ وأين فلان ؟ ممَّن ماتوا فى السابقين[١] .

ثم أسلم عبد الرحمن بعد ذلك وحَسُن إسلامه . وإنْ كانت هناك روايات عن السيدة عائشة أنها نفَتْ ذلك ، وقالت : إنما نزلت الآية فى شخص آخر وذكرتْ اسمه[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ.. (١٧) ﴾ [الأحقاف] أى : اذكر الذى قال لوالديه ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا ..(١٧) ﴾ [الأحقاف] و (أفّ) اسم فعل

---

(١) قول أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق . قاله ابن عباس والسدى وأبو العالية ومجاهد . وقيل : بل هو عبد الله بن أبى بكر . نقله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٢٤٦) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٨) : « من زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسُن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه » .

وقال الزجاج : كيف يقال نزلت فى عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول بعدها : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ .. (١٨) ﴾ [الأحقاف] أى العذاب ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين ، فالصحيح أنها نزلت فى عبد كافر عاق لوالديه .

(٢) قال عبد الله بن المدينى : إنى لفى المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين (يقصد معاوية) فى يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : أهرقلية ؟ إن أبا بكر والله ما جعلها فى أحد من ولده وأحد من أهل بيته ولا جعلها فى معاوية إلا رحمة وكرامة لولده . فقال مروان : ألست الذى قال لوالديه : أف لكما ؟ فقال عبد الرحمن : ألست ابن اللعين الذى لعن رسول الله ﷺ أباك . وسمعتهما عائشة رضى الله عنها فقالت : يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ، كذبتَ ما فيه نزلت ولكن نزلت فى فلان بن فلان (وفى رواية : ولو شئت أن أسمى الذى أنزلت فيه لسمَّيته) . ثم انتحب مروان ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها فجعل يكلمها حتى انصرف . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٤/١٥٩] .

مضارع بمعنى أتضجر ، يقولون : فلان يتأفف . يعنى : يقول أف ويُظهر الضيق والضجر من شىء قذر أو مُنتن أو فعل لا يعجبك .

وقوله ﴿ لَّكُمَا ﴾ دلَّ على غضبه منهما لأنهما يُلحان عليه .

فقال ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا .. (١٧) ﴾ [الأحقاف] أنتما ليس بعيداً عنكما .

لكن لماذا يتأفف ؟ قالوا : لأن الوالدين يُلحان عليه أنْ يؤمن وهو لا يريد الإيمان ، فلما أكثرا عليه تأفّف ، وقال : ﴿ أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ .. (١٧) ﴾ [الأحقاف] يعنى : أُبعث بعد الموت ، والهمزة هنا استفهام للتعجب أو الإنكار فهو ينكر البعث .

ثم يأتى بالدليل الذى يؤيد وجهة نظره ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى .. (١٧) ﴾ [الأحقاف] أى : مضتْ القرون ومات كثيرون ممَّن سبق ، ولم أرَ أحداً منهم قام من قبره .

لكن من قال أن البعث سيكون فى الدنيا ، البعث موعده الآخرة بعد أنْ يموت الجميع ولا يبقى إلا الله .

لكن الوالدين بعد أنْ سمعا هذا الكلام ، ولمسَا هذا التصميم على الكفر لم يجدا مُنقذاً سوى الله فتوجها إليه : ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ ..(١٧) ﴾ [الأحقاف]

وهذا تصوير لطبيعة الوالدين وشدة حرصهما على نجاة الابن ، فهما يتضرعان ويُلحان على الابن أن يؤمن ، وأنْ يذوق حلاوة الإيمان التى ذاقاها .

وكلمة ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ .. (١٧) ﴾ [الأحقاف] حَثٌّ له على أنْ يؤمن ، أو الويل لك إنْ لم تؤمن ، ونلاحظ هنا أن الفعل يستغيث يتعدى بالباء

فيقول : يستغيث فلان بالله ، فلماذا حذف الباء وعدّى الفعل بنفسه فقال : ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ .. (١٧) ﴾ [الأحقاف]

قالوا : هذا يدل على أنهما أمام أمر صعب ، وأمام قلب قاس متحجر معاند ، لا يقبل الدعوة ولا يستجيب لنداء الوالدين ، ولا يُقدِّر مشاعرهما .

لذا توجَّها إلى الله مباشرة أنْ يهدى هذا الولد ، وأنْ يشرح صدره ، وأن يلين هذا الطبع القاسى ، ليسمع ويطيع وينجو ، لذلك قلنا : لا تجد إنساناً يحب لك الخير كما يحبه لك والدك ، يحب أنْ تكون أحسن حالاً منه ، وهذه لا تتوافر إلا فى الوالد والولد .

إذن : أمام هذا العناد ليس أمام الوالدين إلا التوجّه إلى الله مُقلّب القلوب ومُسبِّب الأسباب ، فما ضاقتْ به أسباب الخَلْق دَعْهُ للخالق سبحانه ، فالقلوب بين أصبعين من أصابعه سبحانه يُقلِّبها كيف يشاء .

وسبق أن قلنا ذلك فى قصة أم موسى لما قال الله لها : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلا تَخَافِى وَلا تَحْزَنِى .. (٧) ﴾ [القصص] بالله أتقبل أم تخاف على ولدها أنْ تلقيه فى البحر ؟

تقبل أنْ تنجيه من موت مظنون بموت مُحقَّق ؟ لكنها آمنتْ وصدقتْ ونفذت ، لأن الله قَلَبَ قلبها ، ووارد الرحمن لا يعارضه ولا يعطله وارد الشيطان ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

وهذه المسألة حدثتْ مع فرعون ، فحال الله بينه وبين قلبه وما

يريد ، فهو يبحث عن الأطفال ويقتلهم ، ومع ذلك جاءه طفل فى صندوق مُلْقى فى البحر ، وعلى هيئة مريبة تدعو إلى الشك ، ومع ذلك استقبله واحتضنه وربَّاه وصدَّق امرأته لما قالتْ عن الولد ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص]

إذن : هذا غباء ، ممَّنْ ؟ من فرعون الذى ادَّعى الألوهية وقال للناس : أنا ربكم الأعلى .

ثم لما نتأمل القصة نجد دلالات أخرى لغباء هذا الرجل ، فقد قال له السحرة : إن زوال مُلْكك سيكون على يد طفل يُولَد من بنى إسرائيل ، فما دُمْتَ قد صدَّقت بهذه النبوءة ، فلماذا تقتل الأطفال ؟

إذن : أقدار الله لا بدَّ أنْ تتحقق ، وأنْ يُهيء لها أسبابها ، وهذا هو معنى ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ .. (١٧) ﴾ [الأحقاف] يقولان : يارب أنت قادر على كل شىء وأنت فوق الأسباب ، وليس لنا حيلة مع هذا الولد ويعز علينا أنْ نتركه على كفره فيهلك .

وقد علّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نلجأ إلى الله ، فكان إذا حزبه أمر يعنى : غلبه وضاقتْ عنه أسبابه قام إلى الصلاة(١) ليقف بين يدى ربه ، فيحلّ له كل شاقٍّ ويُهوِّن كلَّ عسير .

وكلمة ﴿ آمنْ ﴾ يعنى : انطق بالشهادة واعترف بأن الله إله واحد . ومادة (أمن) لها فى القرآن معان متعددة ، تقول : آمنتُ بالله . وهذا الفعل مُتعدٍّ بالباء يعنى : شهدتُ وصدّقتُ ، وآمنتُ له :

(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) وحزبه أمر : أصابه . أى نزل به هم أو أصابه غم واشتد عليه .

صدقته كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ..** ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف] يعنى : مُصدِّق ، وأمنته يعنى أعطيته الأمان .

وقولهما : ﴿ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ..** ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف] يؤكدان له هذه الحقيقة ، وما دام حقاً فسوف يحدث ولا مفرَّ منه ، لأن الله إله واحد لا شريك له ، ولا أحدَ ينقض هذا الوعد أو يعارضه ، وهو سبحانه القادر القوى الذى يملك إنفاذ ما وعد به .

لذلك قال تعالى فى شأن الساعة : ﴿ **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿١﴾ ﴾ [النحل] هكذا بالفعل الماضى ، لأن وَعْد الله يستوى فيه الماضى والحاضر والمستقبل ، فهو سبحانه خالق الزمن ومالكه والمتصرِّف فيه ، فيعبر عن المستقبل بالماضى لأنه يعلم أنه لا توجد قوة تعارضه .

إذن : فالقيامة التى ستأتى فى المستقبل أتتْ بالفعل وهى حادثة لا شكَّ فيها ، لذلك يتصرف فى الكون بشهادته سبحانه لنفسه ، فأول مَنْ آمن آمنَ اللهُ بذاته سبحانه ، فقال : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ..** ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فقد شهد الله لذاته قبل أنْ يشهد بذلك أحدٌ من خلقه ، وكأنه سبحانه بهذه الشهادة يقبل على كل شىء يريده وهو يعلم أنه لن يتخلف ، وما هى إلا كُنْ فيكون .

كذلك سيدنا رسول الله يشهد لنفسه بالرسالة قبل أنْ يشهد بها أحد ، ففى رواية أن سيدنا جابر بن عبد الله كان عليه دَيْن لرجل يهودى ، ووعده حين يثمر النخل أنْ يجز نخله ويقضيه دَيْنه ، فلما جاء أوان الثمر (خاب) ولم يُعط الثمر المرجو منه ، وعجز جابر عن السداد .

فذهب بعض إخوان جابر وحكوا القصة لرسول الله ﷺ ، فبعث لليهودى وقال له : أنظِرْ جابراً حتى يقضى ما عليه . فقال : لا يا أبا القاسم ، فأعاد الرسول عليه : أنظِرْ جابراً . فقال : لا يا أبا القاسم .

فتركه رسول الله وذهب إلى بستان جابر ومرَّ خلاله ، ثم قال : أين عريشك[1] يا جابر ؟ فأخذ جابر رسول الله وأجلسه فى عريشه ، فقال : دَعْنى هنا يا جابر واذهب فجُذَّ واقض ما عليك ، فذهب جابر إلى نخله فجذَّ منه حتى قضى ما عليه وبقى له ما يكفيه ، فجاء بطبق من الرطب إلى رسول الله وقال له : يا رسول الله قضيتُ ما علىَّ وبقى لى ما لم يكُنْ يبقى فى أىّ عام سابق ، عندها ضحك سيدنا رسول الله وقال : أشهد أنى رسول الله[2] .

فقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ..** ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف] يعنى : صادق لا يتخلف ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، لأن الله هو الذى قضاه وحكم به ، فلا أحدَ يُغيره ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح]

وقوله تعالى : ﴿ **فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف]

أى : يقول هذا الولد المعاند لوالديه ، وهما يدعوانه للإيمان بالبعث والنشور : إن ما تقولانه ما هو إلا أساطير الأولين ، وهى

(١) العريش : ما يُعرَّش من الكروم وغير ذلك . يقال : عروشها أبنيتها ، وقال فى لسان العرب : العريش شبه الهودج تقعد فيه المرأة على بعير وليس به .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٢٣) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه . وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أشهد أنّى رسول الله » .

أكاذيبهم وقصصهم التى جاءتْ فى كتبهم ، يعنى : ما تدعوانى إليه كذب أشبه بالأساطير والخرافات .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

نلاحظ أن الكلام كان فى الآية السابقة عن مفرد ، وهو الذى قال لوالديه (أفٍّ لكما) لكن هنا يشير إليه الحق سبحانه بصيغة الجمع ﴿ أُولَـٰئِكَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف] فيأتى بالقرار ويخبر عنه ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف]

كأن (الذى) لا يفهم منها المفرد إنما يفهم منها الجمع ، كما فى قوله تعالى :﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٣﴾ ﴾ [العصر] فاستثنى الجمع من المفرد .

وقالوا فى هذه الآية ما قالوا فى الآية السابقة . أى : أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وهذا القول لا يستقيم مع معنى الآية لأن سيدنا عبد الرحمن أسلم وحسُن إسلامه ، وهذه الآية تتحدث عمَّنْ حَقَّ عليهم العذاب . إذن : نزلت فى شخص آخر غير عبد الرحمن .

وقد ورد لهذه المسألة قصة فى كتب التاريخ ، فالذى قال أنها نزلت فى عبد الرحمن هو مروان بن الحكم ، وكان أميراً على المدينة .

فلما بايع معاوية ابنه يزيد بالخلافة طلب من مروان أنْ يأخذ البيعة ليزيد ، فاعترض على ذلك عبد الرحمن بن أبى بكر .

وقال : أجعلتموها هرقلية ؟ يعنى : ملكية يخلف الولدُ والده ؟ فقال : اسكت يا هذا ، ثم قال : أتعلمون من هذا ؟ هذا الذى قال الله فيه ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف]

وبلغتْ هذه المقولة السيدة عائشة رضى الله عنها فقالت : والله ما هو ، ولو شئتُ أنْ أُسمِّى الذى قيلتْ فيه لقُلْته ، ولكن قولوا لمروان : إن الله قد لعنك فى ظهر أبيك .

ذلك لأن الحكمَ بنَ العاص كان يوماً يُقلِّد رسول الله فى مشيته استهزاءً به ، فالتفت النبى ﷺ فرآه[1] ، فأشار إليه بيده فنُفى إلى الطائف ، وبعد العزِّ الذى كان فيه فى المدينة صار يرعى الغنم ، إلى أنْ جاء سيدنا عثمان وتشفَّع له عند رسول الله فأذن له .

ولكن الصحابة قالوا : لم نسمع من الرسول ، فقال عثمان : أنا سمعته .

ومعنى ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف] يعنى : وجب وثبت لهم العذاب الذى حذرناهم منه ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف] يعنى : مضتْ وذهبت ﴿ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف] لأن الله قال عن المؤمنين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون]

(١) ذكره الرازى فى تفسير (مفاتيح الغيب) فى تفسير آية ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [الهمزة] وذكره أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين أن الحكم بن العاص حكى مشية رسول الله مستهزئاً به فقال : كذلك كُنْ . فلم يزل يرتعش حتى مات » . قال الحافظ العراقى : « أخرجه البيهقى فى الدلائل من حديث هند بن خديج بإسناد جيد ، وللحاكم فى المستدرك من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال : صحيح الإسناد » .

ففى المقابل ، وخسر الكافرون المكذبون .

وهذه الآية تدل على أن الجن أيضاً مكلّف ، ومنهم الطائع والعاصى ، والمؤمن والكافر ، لذلك قال فى سورة الجن : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ[1] فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] إذن : سيُعذَّبون بما يناسب طبيعتهم .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ .. (١٩) ﴾ [الأحقاف] لكلّ من الصنفين : المؤمنين الذى سبق ذكرهم فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. (٣٠) ﴾ [فصلت] والكافرين الذين قال الله عنهم : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. (١٨) ﴾ [الأحقاف]

فلكُلٍّ من المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، كُلٌّ له جزاء على قدر درجته ومنزلته ﴿ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا .. (١٩) ﴾ [الأحقاف]

ومعلوم أن الجنة درجات ، وأن النار - والعياذ بالله - دركات ، لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .. (١٤٥) ﴾ [النساء] لكن هنا جعلها درجات للمؤمنين وللكافرين ، فكيف ؟

قالوا : هذا نوع من السخرية والاستهزاء بهم والتأنيب لهم ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) ﴾ [الانشقاق]

(١) قسط : ظلم أو عدل ، من الأضداد وتُفهم بالقرائن والسياق ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم وجار فى قوله ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] . [القاموس القويم ١١٦/٢] .

ومعلوم أن العذاب لا يُبشَّر به ، البشارة لا تكون إلا بشىء سارّ مفرح . إذن : هذا تهكُّم كما فى ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] وهو فى هذا الموقف مُهان مُعذَّب مُحتقر ، أو : أنه يسميها (درجات) لإغاظتهم ليزدادوا تحسُّراً وألماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحقاف] من الوفاء ، وهو أنْ تعطى الجزاء كاملاً غير منقوص كما تقول : وفيت فلاناً دينه . يعنى : أعطيتُه كاملاً ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا ينقصون من أجورهم شيئاً .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾

التقدير هنا : واذكر يا محمد يوم يُعرض الذين كفروا على النار ، فساعة ترى الظرف فابحث عن الحدث الذى فيه ، لأن الزمن لا يُمدح ولا يُذمُّ لذاته ، إنما بحسب الفعل الذى يحدث فيه .

والحدث هنا أنْ يُعرض الذين كفروا على النار ، لكن مَنْ يُعرض على مَنْ ؟ النار غير عاقل والكافرون عُقلاء ، فالنار تُعرض عليهم كما تقول : عرضتُ القماش على المشترى ، لكن يوم القيامة سيتبين لهم أن النار عاقلة وهم الذين سيُعرضون عليها .

واقرأ : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وثبت فى الحديث الشريف أنها تشتاق لأهلها من الكافرين والعاصين وأنها ستتكلم وتنطق[1] .

والحق سبحانه يخاطب ما شاء بما شاء . إذن : لا نفهم هذه الآية بقوانين البشر ، لأن لله قوانين أخرى مع الأشياء ، لذلك لو علَّمها الله لأحد من خَلْقه لعلمها وتعامل بها ، كما رأينا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

فكان يفهم لغة الحيوان والطير ، لذلك لما سمع النملة وفهم منها تبسَّم ضاحكاً من قولها ، وشكر المنعم عليه بهذه النعمة .

ومنهم من قال : إن فى الآية قلباً كما تقول : عرضتُ الحوض على الناقة ، والواقع أنك تعرض الناقة على الحوض لتشرب منه .

وقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] أى : يقال لهم هذا الكلام فى الآخرة بعد أنْ تقوم الساعة ، لكن هناك آية أخرى يظن البعض أنها تتعارض مع هذه .

وهى قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] ففهموا منها أن العرض يكون فى الدنيا لأنه عطف عليها بقوله ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٤٦) ﴾ [غافر]

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة تشتاق إليهم الجنة : على وعمار وسلمان » . أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٧١٦ ، ٢٧١٧) وكذا أبو نعيم فى معرفة الصحابة (٢٩٥٥) .

لكن المتأمل فى هذه الآية يجد أن هذا العرض ليس فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إنما فى مرحلة البرزخ ، كيف ؟ لأن الغدو والعشى ناشىء من حركة الشمس ووجود الليل والنهار ، والآخرة ليس فيها شىء من هذا .

فالآخرة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. (٤٨) ﴾ [إبراهيم] فنحن فى الدنيا نعيش بالأسباب ، أما فى الآخرة فنعيش بالمسبِّب سبحانه الشمس تُنير لنا فى الدنيا ، أما الآخرة ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر]

إذن : العرض هنا فى البرزخ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] فالعرض ليس فى الآخرة بل الدخول ، فالعرض فى الأولى غير العرض فى الثانية ، وما يدريك أنهم قبل أنْ يدخلوا النار يُعرضون عليها ، لأن الصراط مضروب على متن جهنم ، فيُعرضون على النار قبل أنْ يدخلوها .

وقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] هذه الآية حلَّتْ لنا إشكالاً ، حيث نرى أهل الكفر والإلحاد أكثر منا مالاً وزينة فى الدنيا ، والبعض يسأل عن المخترعين والمكتشفين من غير المسلمين الذين خدموا البشرية بعلومهم ، هل لهم جزاء على ذلك ؟

الجواب هنا ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] ولم يبق لهم نصيب فى الآخرة ، فهذه سنة الله التى لا تتبدل ، فالله

تعالى أعطى الأسباب للمؤمنين وللكافرين .

فمَنْ أحسن فى الأسباب لم يُحرم ثمرة إحسانه . حتى لو كان كافراً ، ومَنْ قعد وتخاذل حُرم ولو كان مؤمناً ، لأن هذا عطاء الربوبية .

والذين قدَّموا للبشرية هذا العطاء وخدموها هذه الخدمة ، أكان فى بالهم الله ؟ أبداً كان فى بالهم الحضارة والتقدم وخدمة التاريخ والإنسانية ، وقد أخذوا منها جزاءهم سمعة وصيتاً وتخليداً لذكراهم ، أقاموا لهم التماثيل وألَّفوا فيهم الكتب .

إذن : أخذوا أجورهم ممَّنْ عملوا لهم وانتهت المسألة .

لذلك يقول تعالى فى وصف حال هؤلاء : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٣٩) ﴾ [النور]

فوجىء بإله يحاسبه لم يكُنْ فى باله ساعة العمل ، هذا حال الكافر ، أما المؤمن فيعمل العمل فى الدنيا وعَيْنه على الآخرة .

يُروى أن سيدنا رسول الله مرّ على أهل الصُّفَّة[١] فوجدهم يلبسون الملابس المخرَّقة ولا يجدون ما يُرقِّعونها به ، فقال لهم : أىُّ أيامكم خير ؟ أهذا اليوم أو يوم يُغدى عليكم بجفَان[٢] ويُراح عليكم بجفان ، وتغدون فى حلة وتروحون فى حُلة أخرى ، وعلى أبوابكم

(١) الصُّفَّة : موضع مظلل فى مسجد المدينة كان يأوى إليه المساكين . والصُّفَّة : الظُّلة . [لسان العرب – مادة : صفف] . وكان من أهل الصفة : أبو هريرة .

(٢) الجفان : جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة جداً . [القاموس القويم مادة : جفن] .

ستائر مثل ستائر الكعبة[١] .

وسيدنا عمر بن عبد العزيز كان قبل الخلافة مشهوراً بأنه الفتى المدلَّل الذى يتقلب فى النعيم ليل نهار ، حتى إنه كان يلبس الحرير ، وكان الخدم الذين يغسلون له ملابسه يأخذون من الناس رشوة ليغسلوا ملابسهم فى الماء الذى غسل فيه ثياب عمر لكثرة ما بها من العطر والطيب .

فلما تولى الخلافة زهد فى هذا النعيم وعاش حياة الزهد والتقشف ، وارتدى الثياب الخشنة ، فلما سألوه عن ذلك قال : والله لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً وأحسنكم ثياباً ، لكنى أستبقى طيباتى للآخرة[٢] ، وإن لى نفساً توَّاقة – يعنى : عندها طموح للأحسن –

(١) أخرجه بنحوه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨٠٨٦) عن طلحة بن عمرو قال : كان الرجل إذا قدم على رسول الله ﷺ فلم يكن له بالمدينة عريف ينزل عليه نزل مع أصحاب الصُّفة وكان لى بها قرناء وكان يجرى علينا من رسول الله كل يوم بين اثنين مدان من تمر ، فبينما رسول الله فى بعض الصلوات إذ ناداه مناد من أصحابه : يا رسول الله أحرق التمر بطوننا وتحرقت عنا الحتف ، فلما قضى رسول الله قام فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ما لقى من قومه من الشدة . فكنت أنا وصاحبى بضعة عشر يوماً ما لنا طعام إلا البرير حتى قدمنا على إخواننا من الأنصار فواسونا فى طعامهم وعظيم طعامهم التمر والذى لا إله إلا هو لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكموه وإنه لعله أن تدركوا زماناً أو من أدركه منكم يلبسون فيه مثل ستار الكعبة يغدى عليكم ويُراح بالجفان » وانظر أيضاً كنز العمال (٦٢٢٦ – ٦٢٣٦) .

(٢) هذا القول مذكور فى المصادر والمراجع منسوباً لعمر بن الخطاب وليس ابن عبد العزيز . نسبه إليه الطبرى والقرطبى والرازى والنسفى والنيسابورى والزمخشرى والسيوطى وأبو بكر الجزائرى والجصاص كلهم فى تفاسيرهم .

تاقتْ للإمارة ، فلما نلْتها تاقتْ للخلافة ، فلما نلتها تاقت للجنة[١] .

لذلك رُوِيَ عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالتْ : كان يمرُّ الهلال ثم يمر الهلال ، ثم يمر الهلال . يعنى : ثلاثة أشهر ما يُوقد فى بيت محمد نار . قيل : فما طعامكم ؟ قالت : الأسودان الماء والتمر[٢] .

إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا . إذن : كان بيت سيدنا رسول الله نموذجاً ومثالاً وأُسْوة للفقراء .

وقوله ﴿ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] بالله ساعة تفكر فى معنى كلمة الدنيا ، هل تجد لها وصفاً أدنى وأقل من هذا ؟ وساعة تسمع الدنيا لا بد أنْ تتذكر المقابل ، وأن هناك حياة مقابلة تُوصف بأنها العليا ، وهى التى فيها الجزاء .

﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] أى : يوم القيامة تُجزون على أعمالكم عذاب الهون . يعنى : الهوان والذلة ، لأنكم استكبرتم فى الدنيا عن قبول الحق .

ومن الهُون هذه أُخذتْ كلمة (الهون) ، وهو الآلة التى تدقُّ فيها

(١) ذكره أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) أن عمر بن عبد العزيز قال لدُكين : إن نفسى لم تنل شيئاً قط إلا تاقت لما هو فوقه ، وقد نلت غاية الدنيا فنفسى تتوق إلى الآخرة ، والله ما رزأت من أموال الناس شيئاً ولا عندى إلا ألف درهم فخذ نصفها . وكذلك ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية ، وابن قتيبة الدينورى فى (الشعر والشعراء) فى فصل (دكين الراجز) .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٧٩ ، ٥٩٧٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢٨٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

الأشياء فى المطبخ ، فهو آلة الطحن والدقّ وسحق المادة التى تُوضع فيه .

فكأن العذاب الذى سيلاقونه سيسحق كبرياءهم ويجعلهم أذلةً مُهانين ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] يعنى : بسبب استكباركم وتعاليكم عن قبول الحق ﴿ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] دل على أن هناك استكباراً بالحق ، وهو أنْ تتكبَّر على المتكبر ؛ لذلك قيل : الكبر على أهل الكبر صدقة[١] .

لذلك كان سيدنا حمزة فى الحرب يرتدى عصابةَ الموت ، وهى عصابة حمراء ويرفع سيفه ، ثم يسير بين الصفوف يتبختر مزْهُواً بنفسه ، فنظر إليه سيدنا رسول الله ﷺ وقال : هذه مِشْية يبغضها الله إلا فى هذا الموقف[٢] . وقال : رحم الله امرأً أبدى لهم من نفسه قوة[٣] .

(١) مما ذكره ابن شرف القيروانى فى (رسائل الانتقاد ١/٩) : « فعامل هذا الصنف بعطفك عنهم للعطف ورفعك عليهم الأنف وأعرض عنهم بالفكر والذكر ، كبراً وإن لم تكن من أهل الكبر » . أما من يأخذه على أنه حديث فليس بصحيح .

(٢) ما وجدته فى هذا أن رسول الله ﷺ قال هذه العبارة فى حق أبى دجانة وليس حمزة ، فإن أبا دجانة أعلم رأسه بعصابة حمراء يوم أُحُد فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو مختال فى مشيته بين الصفين فقال : « إنها مشية يبغضها الله إلا فى هذا الموضع » [أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير ٦٣٨٨] وكذا أبو نعيم فى معرفة الصحابة (٣٢٢٠) .

(٣) قوله ﷺ هذا كان فى أول عمرة اعتمرها رسول الله هو وأصحابه بعد أن صُد عن مكة العام الذى قبله وكان صلح الحديبية . قال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم عن عبد الله بن عباس قال : صفوا (أى المشركين) له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : « رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة » ثم استلم الركن ثم خرج يهرول ويهرول أصحابه معه . [السيرة النبوية لابن كثير ٤/٤٣٠] وفى سبل الهدى والرشاد (٥/١٩٢) والسهيلى فى الروض الأنف (٤/١١٣) .

ونفهم من آيات القرآن الكريم أن المؤمن مَنْ وصفه فى القرآن أنه غير مطبوع على طبع واحد ولا قالب واحد ، إنما الموقف الذى يعيشه هو الذى يملى عليه الطبع المناسب للموقف .

واقرأ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

إذن : هو عزيز فى موقف ، وذليل فى موقف آخر ، شديد فى موقف ، ورحيم فى موقف آخر ، فهو يجمع بين المتناقضَيْن لأن المقام مختلف .

وقوله : ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾ [الأحقاف] إذن : هناك استكبار وهناك فسق ، الاستكبار : التعالى عن قبول الحق ، والفسق : من فسقَتْ الرُّطبة يعنى : خرجت عن قشرتها .

والبلح له فى استوائه أعمار ، فلما يكتمل الحجم يبدأ اللون أحمر أو أصفر ثم يرطب وتكون له قشرة ، فإذا كان فى بيئة جافة جَمُدَ وجَفّ ولصقتْ القشرة فى لحم البلحة ، وهذا أجود أنواع التمر .

فمعنى الفسق هنا يعنى الخروج عن وعاء الطاعة ، ولما تتأمل الاستكبار والفسق تجد أنهما يجمعان بين عمل القلب وعمل الجوارح .

فالإنسان له قلبٌ وقالب ، القلب محلُّ الأسرار والغيبيات ، ومحل الإخلاص أو الرياء ، ومحلُّ التواضع أو التعالى ، فالاستكبار من أعمال القلب ، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

أما الفسق فهو الخروج عن الطاعة التى هى عمل الجوارح .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ(١) إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ(٢) وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ .. (٢١) ﴾ [الأحقاف] أى : اذكر يا محمد ، كأن هذا الذكر جاء لتذكير رسول الله بمواقف إخوانه من الرسل فى موكب الإيمان ، يعنى : انظر لمَنْ سبقك منهم ولما تحمّل فى سبيل دعوته ، فأنت لستَ بدعاً فى الرسل .

نعم تحملّوا المشقة والأذى ، لكن صدق اللهُ وعده بنُصْرتهم فى النهاية ، لذلك تلاحظ على أسلوب القرآن تعدُّد القصة الواحدة بتعدُّد الأحداث التى تمرُّ بالرسول ، يقول تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

فكلّما حدث لرسول الله أمر مع قومه يُذكّره الله بموقف من مواقف الرسل السابقين ليُطمئنه وليُثبِّت فؤاده على الحق ، وإذا كان كل رسول يتعرض للأذى على قدر مهمته فلا شكَّ أنك ستكون أشدَّ

(١) أخا عاد : هو هود عليه السلام بعثه الله إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف . وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٦٢٥١/٩) : « هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين » .

(٢) الأحقاف جمع حقف وهو الجبل من الرمال . قاله ابن زيد . وقال عكرمة : الأحقاف الجبل والغار . وقال على بن أبى طالب : الأحقاف وادٍ بحضرموت . وقال قتادة : ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر . [تفسير ابن كثير ١٦٠/٤] .

الرسل إيذاء لأنك الرسول الخاتم .

وقوله : ﴿أَخَا عَادٍ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] المراد سيدنا هود ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥)﴾ [الأعراف] كلمة أخ تُجمع على إخوة وإخوان ، إخوة تعنى أخوة النسب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ..(٥٨)﴾ [يوسف]

أما إخوان فيُراد بها أخوة المنهج والدين والقيم كما فى قوله تعالى : ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر] فقوله ﴿أَخَا عَادٍ ..(٢١)﴾ [الأحقاف] أخاهم فى النسب ، وعاد هى القبيلة أو الأمة التى أُرسلَ فيها سيدنا هود عليه السلام .

والإضافة فى ﴿أَخَا عَادٍ ..(٢١)﴾ [الأحقاف] تحنينٌ لهم وإثارة لمشاعر الرحمة والدم الواحد ، فالذى جاءهم ليس غريباً عنهم ، إنما هو أخ لهم ، وإنْ جاءهم منهج مخالف لما هُمْ عليه وأراد أنْ يُخرجهم عمَّا ألِفُوه من الضلال والفساد ، والأخ لا يغشّ أخاه سواء أكانت أخوتهم له للنسب ، أم للدين والمنهج والقيم .

إذن : عليهم أنْ يستقبلوا دعوته بالحنان الذى تقتضيه الأخوة .

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] عاد كانت جماعة من العرب البائدة ، وكانت تسكن الأحقاف فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، والأحقاف جمع حقف : وهو الرمل المستطيل الذى يعلو وينخفض ويتحرك يميناً وشمالاً ، وهنا وهنا .

والرمل لنعومته تُحركه الرياح والأعاصير بسهولة ، حتى إن الهبَّة الواحدة من الإعصار فى هذا المكان كانت تطمر قافلة وتغطيها فى

هذا الوادى ، لذلك لم تظهر آثار قوم عاد حتى الآن لأنها مطمورة على مسافات بعيدة تحت الرمال .

كذلك الآثار القديمة فى كل مكان لا توجد إلا تحت الأرض فى حفريات ، لأن عوامل التعرية تطمرها . لذلك ترى الواحد منا إذا سافر مثلاً وترك بيته لعدة شهور مثلاً يعود فيجده مُغطى بطبقة من التراب ، مع أنه مغلق بإحكام ، فما بالك فى الخلاء مع هبوب الرياح والأعاصير ؟

وفى سورة الفجر ، الحق سبحانه يعطينا طرفاً من تاريخ هذه الأمم وما حلَّ بها من العذاب : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ[2] (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

ونحن حتى الآن لا نعرف أين ديارهم ، ولا نعرف آثارهم إلا ما أخبرنا الله به ، ذلك لأنها تحت مسافات فى باطن الأرض .

---

(١) جابه يجوبه : قطعه . أى : قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

(٢) الأوتاد : جمع وتد وهو قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تُثبَّت فى الأرض ثم يُشدّ بها حبل يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها . و ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر] قيل : هم الجنود الذين يثبتون مُلْكه . وقيل : إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعذيبهم من الناس . ولعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] فهو ليس أول الرسل إليهم ولا هو آخرهم ، فقد مضت الرسل ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ..(٢١)﴾ [الأحقاف] يعنى : قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] يعنى : من بعده .

والنُّذر جمع نذير ، وهو الذى يُخوِّفك ويُحذِّرك من الشر قبل حلوله ، وفائدة الإنذار أنه ينبهك من الخطر قبل أنْ تقعَ فيه فتتجنبه ، ويجب أنْ يكون الإنذار قبل حدوث الشر بمدة كافية تمكّنك من تدارك الأمر وتجنب الوقوع فيه .

وقوله : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] يعنى : هذه القضية اتفق عليها جميع الرسل من قبل هود ومن بعده ، فكل الديانات ما جاءتْ إلا لخدمة هذه القضية ودعوة الناس إليها .

والعبادة كما بينّا طاعة العابد لأوامر المعبود ونواهيه ، وهذا المعنى ينقض ويبطل عبادة غير الله ، فكلها آلهة باطلة وعبادتها باطلة لأنها آلهة بلا منهج وبلا أمر ولا نهى .

فالشمس ، ماذا قالت لمَنْ عبدها ؟ بمَ أمرته وعمّ نهتْ ؟ ماذا أعدتْ لمن عبدها من الجزاء ؟ وماذا أعدّت لمَنْ كفر بها ؟ فإنْ سألتَ لماذا عبدها الناس وعبدوا غيرها من الأشياء ؟

نقول : لأن التديّن غريزة فى الإنسان منذ خلقه الله ومنذ كان فى عالم الذر ، لكن التدين الحق له مطالب ومسئوليات تكبح جماح النفس وتُقيد شهواتها .

لذلك لجأ البعض إلى عبادة تُرضى عندهم غريزة التدين وتُعفيهم

من مطالب الدين الحق ، فراحوا إلى الآلهة الباطلة وعبدوها ، لأنها لا تلزمهم بشىء ولا تكلفهم شيئاً ، وتُطلق العنان لشهواتهم .

وقوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)﴾ [الأحقاف] هذا الخوف هو مقتضى الأخوة ، فالأخ حريص على مصلحة أخيه ، حريص على نجاته ، لذلك قال تعالى فى سيدنا رسول الله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

وهنا وصف يوم العذاب بأنه يوم عظيم ، أنتم فى دنياكم تصفون بعض الأشياء بأنها عظيمة ، وهذه العظمة فى وجودكم المادى مردودة إلى الفناء مهما طال أجلها ، كذلك كل نعيم فى الدنيا يُنغِّصه على صاحبه أمران : أنْ يفوته النعيم ، أو يفوت هو النعيم ويتركه بالموت . فوصف هذا اليوم بأنه عظيم لأنه دائم لا يزول ، ولا يموت صاحبه فيستريح منه .

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٢)﴾

الكلام هنا عن قوم هود ، فلما دعاهم إلى عبادة الله وحده ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا .. (٢٢)﴾ [الأحقاف] يعنى : تصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا .. (٢٢)﴾ [الأحقاف] أى المدّعاة . والإفك : قَلْب الشىء على وجهه ، وصرف الحق إلى الباطل ، والصدق إلى الكذب .

(١) العنت : المشقة . ما عنتم : أى ما شقَّ عليكم . [القاموس القويم ٢/٣٨] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها الله رأساً على عقب ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا .. (٢٢) ﴾ [الأحقاف] أى : من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف] والعذاب الذى يعدهم به لا يأتيهم فى الحال إنما يوم القيامة لكنهم يستعجلونه .

لذلك خاطبهم بقوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ﴾ [يونس] ، وقال : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) ﴾ [الذاريات]

فهم يستعجلون العذاب لأنهم لا يؤمنون به ويُكذِّبونه ، ولو أنهم يؤمنون به ما استعجلوه .

ثم يرد عليهم بالجواب الطبيعى :

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ
وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) ﴾

أى : علم الساعة عند الله ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧) ﴾ [الأعراف] وما أنا إلا رسول أُبلغكم ما أُرسلْتُ به من ربى ﴿ وَلَـٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) ﴾ [الأحقاف]

وهذه خلاصة الأمر أنكم تجهلون . يعنى : عندكم جَهْل بالأمور ، والجهل هو المشكلة الكبرى التى تقابل الرسل ، البعض يفهم أن الجهلَ عدمُ العلم ، لكن الجهل علمٌ يناقض الحق .

لذلك قلنا : إن الأمىَّ الذى لا يعلم شيئاً وليستْ لديه قضية أهون من الجاهل ، لأنه فارغ الذِّهْن فتلقى إليه بالمعلومة فيقبلها ، أما الجاهل فعنده قضية مُناقضة للحق فيحتاج إلى إخراجها أولاً ، فتكون دعوتُه للحقِّ أصعبَ .

وقوله : ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ .. (٢٣) ﴾ [الأحقاف] أى : أننى ما جئتُ من تلقاء نفسى ، إنما جيء بى لأدعوكم إلى الله فلا بدّ أنْ يُنسب الفعلُ إلى فاعله . ﴿ أُرْسِلْتُ .. (٢٣) ﴾ [الأحقاف] أى : من الله ، كما قلنا فى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء] فمحمد ﷺ لم يقل سريتُ إنما قال : أُسْرِىَ بى .

وهذا يعنى أنهم كذابون فى قولهم ﴿ أَجِئْتَنَا .. (٢٢) ﴾ [الأحقاف] لأنه لم يأت من عند نفسه ، إنما أرسله الله للبلاغ ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾ [العنكبوت] فأنا مرسل فقط للبلاغ ، ولا أعرف متى يأتى العذاب ، إنما يعرفه الذى يقدر عليه .

﴿ وَلَـٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) ﴾ [الأحقاف] أى : تجهلون أن الرسول جاء مُبلِّغاً ، ولا علمَ عنده بحلول العذاب بمَنْ كذَّبه .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا
بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾

يعنى : بعد أن استعجلوا العذاب ، وقالوا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف] فجاءهم العذاب فى صورة سحاب

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] يعنى : سحاباً يعترض فى جو السماء ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] مقبلاً عليهم ﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] يعنى : ظنوه سحاباً عادياً سيمطر على أوديتهم ويأتيهم بالخير .

إذن : الهاء فى ﴿ رَأَوْهُ .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] تعود على السحاب ، لأنه هو المعلوم فى الكلام بدليل قولهم (ممطرنا) ولا يمطر إلا السحاب ، فالقرينة دلّتْ على أنه السحاب .

وكثيراً ما يعتمد القرآن فى أسلوبه على القرائن التى تبين مرجع الضمير اعتماداً على أن العقلَ يدرك بذاته المسألة .

اقرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [فاطر] والمراد : ظهر الأرض مع أنها لم تُذكر فى السياق ، لكن هى التى تأتى فى الذهن ، ولا يُفهم من الكلام إلا هذا .

فالقاعدة أن الضمير لا بدَّ أنْ يكون له مرجع ، ولا يوجد ضمير غائب ليس له مرجع إلا شىء واحد هو إذا كان الضمير الغيبى للغيب المطلق وهو الحق سبحانه وتعالى ، واستدلوا بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] هو من ؟ الله لأنها لا تنصرف إلا إليه سبحانه .

تقول : جاء زيد فأكرمته - أى زيداً ، وجاءت فاطمة فأكرمتُها . الهاء تعود على فاطمة وهكذا ، ومرجع الضمير يكون لذات الشىء كما لو قلت : جاءنى رجل فأكرمته - أى : أكرمتُ الرجل ، وقد يعود على غير ذات الشىء كما لو قلت : تصدَّقْتُ بدرهم ونصفه ، فالهاء فى نصفه لا تعود على الدرهم المذكور إنما على درهم مثله ، أى على نصف درهم مثله .

لكن ، لماذا ظنُّوا السحاب المعترض ممطراً ؟ قالوا : لأنهم كانوا فى جَدْب وقحط ينتظرون الماء ، فرأوا سحاباً يعترض أفق السماء رأوه داكناً بطيئاً فى سيره وهذه علامات السحاب الممطر ، لأن أبطأ الدِّلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحب مشْياً أحفلها ، فبُطء السحاب دلالة على أنه مُحمَّل بالماء وهم مُستشرفون للمطر ، فظنوْه مطراً .

إذن : أعطاهم الأمل فى نزول المطر ، فكلُّ العلامات تدل عليه ، وفجأة تقطع عنهم هذا الأمل ، وبين بسْط النفس بالأمل وقمْعها بقطع الأمل نوعٌ من النكاية والحسرة ، يُسمُّونه (يأس بعد طمع) .

وهذا نوع من التعذيب فى حَدِّ ذاته يستعمله مثلاً القائمون على التعذيب فى السجون ، فيمنعون الماء عن المسجون حتى يشتدَّ به العطش ويتوسَّل إليه ليشرب ، فيأتيه العسكرى بكوب ويُقرِّبه منه حتى يكون على شفتيه فيرميه على الأرض ، وهذا إيلام وتعذيب ، فليْته ما جاء بالماء أصلاً ، لأن مجىء الماء أمامه بلاء فوق بلاء العطش .

كذلك الحال فى هؤلاء ، استشرفوا للمطر وقالوا : يخلّصنا مما نحن فيه من الجدب ، فإذا به يُنزل عليهم العذاب بدلاً من الماء ، إذا به العذاب الذى سبق لهم أنْ كذّبوا به واستعجلوه ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] أى : من العذاب جاء متمثلاً فى صورة ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

قلنا : إن كلمة الريح إذا جاءت هكذا مفردة دلَّتْ على أنها تحمل العذاب والشر ، فقوله (ريح) أى : عذاب مُجمَل ثم يُفصِّله ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف] أما إذا جمعتْ (رياح) فإنها تدل على الخير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (٥) ﴾ [الجاثية] لأن تصريفها يسوق السحاب ويُجرى السفن ويلقح الزهر .. الخ .

لذلك ورد فى الحديث الشريف فى دعاء هبوب الريح : « اللهم اجعلها رياحاً ، ولا تجعلها ريحاً »[1] .

وسبق أنْ بيَّنا أن الرياحَ طاقةٌ وقوة تصلح وتنفع إذا جاءتْ من جميع الجهات ، وتدمر إذا جاءتْ من جهة واحدة ، وتفريغ الهواء الآن عِلْم له قواعدُ يستخدمونه فى التدمير .

ثم إن الهواء نفسه مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة وبدونه لا توجد حياة ، لذلك جعله الله عاماً شائعاً فى الكون لا يملكه أحد كما يملكون الطعام مثلاً ، لأن مالك الهواء لو منعه عنك لحظة تموت ، على خلاف الماء والطعام مثلاً .

ثم بعد ذلك يُفصِّل القول فى كلمة ﴿ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف] فيقول :

﴿ تُدَمِّرُ[2] كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾

(١) عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ إذا هاجت ريح استقبلها بوجهه وجثا على ركبتيه ومدَّ بيديه وقال : اللهم إنى أسألك خير هذه الريح وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً ، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » [أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ١١٣٦٨] .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٤٥٤) عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : ما رأيت رسول الله ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم . قالت : وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِف فى وجهه . قالت : يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية ؟ فقال : يا عائشة ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، عُذِّب قوم بالريح ، وقد رأى قومٌ العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا » .

كلمة ﴿ تُدَمِّرُ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف] تهلك ﴿ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا تُبقى لهم شيئاً ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف] خالقها ومُجريها ، فهى لا تُهلك بطبيعتها إنما بأمر الله لها ، فبدل أنْ تأتيهم بالخير أتتهم بالشر ، فتحتاج هنا إلى أمر زائد من الله بأنْ تتحول إلى الشر ، وتُهلك بدل أنْ تعمِّر .

ولا يملك هذا الأمر إلا الله ، ولا يُخرجها عن طبيعتها إلا خالقها سبحانه ، كما أخرج النار عن طبيعتها فى قصة سيدنا إبراهيم ، فقال لها : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

إذن : استجابتْ الريحُ لأمر ربها ، وأهلكتهم هلاكاً لم يُبْق لهم شيئاً من متاعهم إلا بقايا بيوتهم ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف] ولماذا أبقتْ على مساكنهم ؟

قالوا : لتكون عبرة لغيرهم ، وأثراً من آثارهم الدَّالة عليهم وعلى نزول العذاب بهم ، وإنْ كانت هذه القرى مطمورة تحت الأرض ، لأنهم كما قلنا : كانوا فى وادٍ من الرمال هو (الأحقاف) ، وهذه الرمال هى التى طمرتهم .

قالوا : لما أراد اللهُ إهلاكهم وسلَّط عليهم الريح العاصف ، فأوَّل مَنْ رأى العذاب امرأةٌ منهم ، رأتْ بيتها يطير فى الهواء مثل الطير .

ولما فاجأهم العذاب دخلوا البيوت يحتمون بها من شدة العواصف ، فدخلتْ الريح وراءهم البيوت ، ودخلت عليهم الرمال حتى دفنتهم فيها ، ونفس الريح التى طمرتهم هى التى كشفتْ عنهم وأظهرتْ جيفهم ليعتبر الناسُ بها ثم أُلقوا فى البحر .

﴿كَذَلِكَ .. (٢٥)﴾ [الأحقاف] أى : بمثل هذا ﴿نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾ [الأحقاف] فالجزاء ليس ظلماً ولا عدواناً ، إنما جزاء من جنس العمل ، فما استحقوا هذا العذاب إلا لأنهم مجرمون .

أما الذين آمنوا بسيدنا هود وصدَّقوا دعوته فقد حصَّنهم من العذاب بأنْ خَطَّ حول مساكنهم خطاً ، وكأن لسانَ حاله يقول : يا ربِّ هؤلاء هم المؤمنون بدعوتى ، فنجِّهم واحرسهم فنجّاهم الله .

وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾ [الأحقاف] إنذار وتحذير لكفار قريش ، يعنى : يا كفار قريش خُذُوا عبرة ممَّنْ كذَّب الرسل قبلكم ، فهذا جزاء كلِّ كافر مخالف لمنهج الله مكذِّب لرسله ، وهذه هى الصورة أمامكم .

ثم يُوجِّه الخطاب إليهم :

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦)﴾

هذا خطاب لقريش ولَفْتٌ لهم أن هؤلاء المعذَّبين من قوم عاد كانوا أقوى منكم وأحسن أثاثاً ورئياً ، وأكثر منكم أموالاً ، وأثاروا الأرض وعمروها ، ولهم حضارة من أعظم حضارات الدنيا.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

ومع ذلك كان هذا مصيرهم فلم تُغْن عنهم قوتهم ، ولم تدفع عنهم الحضارة شيئاً من عذاب الله وأنتم لستُم أقوى منهم ، فاحذروا ما وقعوا فيه من تكذيب الرسول ، واحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم .

فقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ .. (٢٦)﴾ [الأحقاف] يعنى : مكنَّا قوم عاد . والتمكين يعنى : أعطيناهم القوة والاستطاعة ، وبسْطنا لهم فى أسباب الدنيا حتى عملوا ما لم يعمله غيرهم من الأمم .

﴿فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ .. (٢٦)﴾ [الأحقاف] إن هنا نافية كما فى قوله تعالى : ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ .. (٢)﴾ [المجادلة] ما أمهاتهم إلا اللائى ولدْنهم ، وهنا مكنَّا لهم ما لم نُمكِّن لكم ، وبسطنا لهم ما لم نبسط لكم من الأسباب .

ثم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ .. (٢٦)﴾ [الأحقاف]

السمع والأبصار والأفئدة هى وسائل الإدراك الرئيسية فى الإنسان ، وقد وردتْ فى كُلِّ مواضعها فى القرآن بهذه الصيغة : السمع مفرد ، والأبصار والأفئدة جمع .

وهذه من دقائق التعبير فى القرآن ، فالسمع لا تُجمع لأن الصوت يسمعه الجميع كأننا فى السماع واحد ، ترى مصدر الصوت أو لا

تراه لكن تسمعه .

أما البصر فيختلف من شخص لآخر ، فواحد يرى والآخر لا يرى ، واحد نظره حَادّ ، وآخر نظره كليل ، وآخر أعور . إذن : الأبصار مختلفة ، كذلك تختلف الأفئدة فى استقبال الأشياء .

وقد ثبت فى علم وظائف الأعضاء أن الأذن هى أول جهاز يعمل فى الطفل بعد ولادته مباشرة ، أما العين فترى بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، ثم بعد ذلك تعمل الأفئدة .

إذن : هذا هو الترتيب الطبيعى لعمل الجوارح التى هى وسائل الإدراك ، ولأهمية السمع جعله الله أول هذه الجوارح عملاً ، فهو أول ما يستقبل من مُدركات بعد الولادة ، وهو الحاسَّة التى لا تنتهى مهمتها حتى فى النوم .

فالعين مثلاً لا ترى أثناء النوم ، أما الأذن فتسمع لأنها وسيلةُ الاستدعاء للنائم ، فلا بدّ أنْ تكون مستعدة دائماً للتلقّى والسماع .

وهذه المسألة رأيناها فى قصة أهل الكهف فى قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف] لأن الكهف فى صحراء يكثر بها الأصوات المزعجة ليلاً بالإضافة إلى أصوات الرعد والبرق والريح ، فلو كانت الأذنُ على طبيعتها لأزعجتْهم هذه الأصواتُ ، لكن ضرب الله عليها حتى لا تسمع .

ولأن السمع هو وسيلة التلقّى واستقبال البلاغ عن الله جعلها الله سبحانه أول هذه المدارك عملاً ، لذلك سَنَّ لنا سيدنا رسول الله ﷺ

أنْ نُؤذِّن فى أذن الطفل بمجرد أنْ يُولد[1] .

ولو كانت الأذن لا تعمل فى هذا الوقت كان التكليف عبثاً ، فإذا قلت مثلاً : وهل يفهم الطفل هذا ؟ نقول : نعم يفهم بما فيه من العهد الذى أُخذ على آدم ونحن فى مرحلة الذر .

إذن : أول ما يجب أنْ يُعنى به الوالدان أنْ يُسمعا الطفل هذا النداء : الله أكبر من كل شىء آخر ، وهذه هى الخميرة الإيمانية التى تدور حولها كل خمائر الإيمان .

ما زلتم تذكرون حديثنا عن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا .. (١٧) ﴾ [الأحقاف] فماذا يشغل هذين الوالدين فى هذه المرحلة من عمر الابن ؟ لم ينشغلا بالقبول ثم الثانوية ثم الجامعة ، أبداً إنما بالأمر الأحق والأهم ، وهو مسألة الدين والعقيدة ، فهذه أَوْلى بالاهتمام فى الصِّغَر حتى يشبّ عليها .

لذلك نستقبل المولود بألفاظ الأذان لنغرسها فيه وفى تكوينه وهو صافى الذهن نقى القلب ، فترسخ عنده ، وتتمكن منه ولا تفارقه ، على حَدِّ قول القائل[2] :

(١) روى أحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى رافع قال : رأيت النبى ﷺ أذَّن بالصلاة فى أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة رضى الله عنهم . وروى ابن السنى عن الحسن ابن على أن النبى ﷺ قال : « من وُلِد له وَلَدٌ فأذَّن فى أذنه اليمنى وأقام فى اليسرى لم تضره أم الصبيان » ذكرهما الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (٣/٣٢٩) .

(٢) الشاعر هو قيس بن الملوّح بن مزاحم العامرى ، شاعر غزل من أهل نجد يلقب بـ (مجنون ليلى) لهيامه فى حب ليلى بنت سعد الأخيلية وحجبها أبوها عنه حتى وُجد مُلْقى بين أحجار وهو ميت فحُمل إلى أهله عام ٦٨ هجرية . [الموسوعة الشعرية] .

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلباً خالياً فتمكنا[1]

قلنا : إن السمع مقدم على البصر ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة قالوا : ﴿ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] فقدم البصر على السمع ؛ لأنه حين تقوم القيامة يفاجأ الإنسان بمنظر رهيب ، فيرى قبل أن يسمع .

ثم يقول تعالى فى وصف قوم عاد : ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ .. (٢٦) ﴾ [الأحقاف] إذن : سمعوا وكأنهم ما سمعوا ، وأبصروا وكأنهم ما أبصروا لم يستفيدوا من هذا ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[2] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٤٦) ﴾ [الإسراء]

وبالتالى أصبحت أفئدتهم خالية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾ [إبراهيم]

وقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا[3] لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف]

لكن ، ما العلاقة بين السمع والبصر والفؤاد أى القلب ؟ ولماذا

(١) البيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها بيتان ، البيت الأول منها يقول :
برغمى أطيل الصد عنها إذا نأت   أحاذر أسماعاً عليها وأعينا

(٢) أكنة : جمع كنان . وكنان الشىء : غشاؤه الذى يستره ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً .. (٤٦) ﴾ [الإسراء] . أى : أغلفة تحجبها . [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

(٣) ذرأ الله الخلق وخلقهم وبثهم وكثرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

جمع بينهم ؟ قالوا : لأن السمع يدرك المسموع ، والبصر يدرك المرئى ، ومن هذه الإدراكات يكون الإنسان الفكر ثم يعرضه على العقل ليختار منه ويفاضل بين مكوناته ، فيأخذ الطيب ويترك الخبيث ، يأخذ الصواب ويترك الخطأ ، يأخذ ما وافق الشرع ويترك ما خالفه .

فإذا استقر على أمر ألقاه إلى القلب ليثبت فيه ، ويكون عقيدة راسخة لا تتزحزح ، وإيمان لا يتذبذب ولا يطفو إلى العقل ليناقش مرة أخرى ، فالقلب إذن هو محل العقائد .

لذلك قال عنه سيدنا رسول الله ﷺ : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

لأنه الوعاء الذى حمل سائل الحياة ويضخه لجميع أجزاء الجسم ، وحين يمتلئ بالإيمان يضخ هذا الإيمان مع الدم إلى جميع أجزاء الجسم ، فتأتى التصرفات والأفعال على وفق هذا الإيمان ، وتؤدى كل حاسة مهمتها بدقة .

وهكذا تجد أن واهب الحياة لك لا يعطيك ما يعوقك عنه ، ولا ما يعطل عندك أداء منهجه . لذلك اقرأ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) وابن ماجة فى سننه (٣٩٧٤) كلهم من حديث النعمان بن بشير وأوله « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه » الحديث .

الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ [القصص]

وقال : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء]

إذن : إذا تمكَّن الإيمان من قلب العبد لا يصدر منه إلا ما يوافق مقتضيات الإيمان قولاً وعملاً ، وانطبعت كُلُّ حركاته فى الحياة بهذا الطابع . أما قوم عاد الذين نتحدث عنهم فلم ينتفعوا بما سمعوا من رسولهم ، ولا بما رأوا من آيات الكون ، ولم يذوقوا إذن طعم الإيمان بالله .

﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحقاف] وينكرونها وينصرفون عنها ، ولو آمنوا لشرح اللهُ صدورهم ، لكن ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم ، لأنهم اختاروا الكفر وأحبُّوه فأعانهم الله عليه ، لأنه رَبٌّ يعطى عبده ما يريد .

لذلك قلنا للمرأة التى تبالغ فى الحزن على فَقْد عزيز عليها : احذرى من ذلك ، واخرجى من دائرة الحزن ولا تألفيه ، وانظرى لا إلى ما أُخِذ بل إلى ما أبقى ، وإلا أدام الله عليك الحزن وأخذ منك الباقى .

وهنا درس مهم ، وهو إذا أصابك مكروه فى شىء عزيز عليك فلا تنظر إلى ما أخذتْ المصيبة ، لكن انظر فيما أبقتْ لك ، حتى تهون وحتى لا تدخل من باب الجزع واليأس ، وسوف تجد أن ما بقى أكثر ، وأن مصيبتك أهون من غيرك .

لذلك حكيم الصين لما جاءه الناس يشكُون إليه متاعب الحياة

وهمومها ، قال لهم : فليكتب كلُّ واحد منكم همومه ومتاعبه فى ورقة ، ثم يلقى بها فى هذا الصندوق وليأتنى بعد أسبوع ، وبعد أسبوع جاء الشاكون فقال للأول : مدّ يدك وخُذْ ورقة مما فى الصندوق فأخذ ورقة .

ولما نظر فيها قال : لا أريد ورقتى ، لماذا ؟ لأنه وجد مصيبته أهون من مصيبة غيره . وقد ترجم العامة هذا المعنى فقالوا (اللى يشوف بلاوى الناس تهون عليه بلوته) .

ويُرْوَى أن سيدنا عروة بن الزبير[(١)] سافر إلى الخليفة الأموى[(٢)] فى الشام ، وفى الطريق جُرحت رجْله ولم يجد مَنْ يداويها حتى وصل إلى دمشق فوجدوها قد قاحتْ ولم يجدوا حلاً إلا قطعها ، فبحثوا له عن مُرقِّد يعنى (بنج) قال : لا فأنا لا أحب أنْ أغفلَ عن ربى طرفة عين ، لكن اتركونى حتى أدخل فى الصلاة .

فلما دخل فى صلاته قطعوا رجْله فلم يشعر بها ، ثم أخذوها وكفَّنوها فقال لهم : أعطونى إياها ، فأمسك بها وقال : اللهم إنْ كنتَ قد ابتليتَ فى عضو فقد عافيتَ فى أعضاء[(٣)] .

---

(١) هو : عروة بن الزبير بن العوام القرشى الفقيه ، أحد الفقهاء السبعة ، وهو ابن أسماء بنت أبى بكر الصديق ، ولد عام ٢٤ هجرية وتوفى عام ٩٤ هجرية عن ٧٠ عاماً . [الوافى بالوفيات ٦/٣٥٩] .

(٢) أما الخليفة الأموى الذى وفد عليه عروة ، فهو الوليد بن عبد الملك .

(٣) وقعت فى رجله قرحة فأشاروا عليه فى مجلس الوليد بأن يقطعها وإلا أفسدت جميع جسدك فدعى الجزار ليقطعها وقالوا : نسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً . فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجوه من عافيته ، فقالوا : نسقيك مرقداً . فقال : ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه . ودخل عليه قوم أنكرهم فقال : ما هؤلاء؟ قالوا : يمسكونك فإن الألم ربما عزب معه الصبر . فقال : دعونى أصلى فإنه كان إذا صلى اشتغل عن نفسه بالصلاة . فقُطعت وهو يصلى . [الوافى بالوفيات ٦/٣٥٩] .

نعم ، وهل الذى يغيب فى معيَّة الله يشعر بألم ، ويجب أنْ نصدق بهذه الأخبار ولا نستبعدها ، لأنه من أسرار الأذن أنك إذا أحكمتَ سدَّها لا تشعر بالألم ، فإن حاولتَ وشعرت بشىء من الألم فاعلم أنك لم تُحكِم سدَّها تماماً .

ونداء الله أكبر هو الذى يُخرجك من عمل الدنيا ويُوقفك بين يدى الله ، وهو تكبيرة الإحرام للدخول فى الصلاة ، سبق أنْ بيَّنا أن معنى الله أكبر أن العمل والسعى يعتبر كبيراً ، لكن الله أكبر ، فلا يُستهان أبداً بعمل الدنيا والسَّعى فيها واستنباط خيراتها ، فالدنيا أهم من أنْ تُنسى ، ولكنها أحقر من أنْ تكون غاية .

والمتتبع لقصة قوم عاد يجد أنها وردتْ فى عدة سُوَر ، وردت هنا على وجه الإجمال والإيجاز ، وجاء تفصيل هذه القصة فى سورة هود ، وفى سورة الحاقة فصَّل لقطة العذاب التى جاءت هنا ، فقال سبحانه :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا[2] فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة]

فالريح التى أهلكتهم ريح صرصر . يعنى : شديدة لها صوتٌ مزعج تأتيهم من أعلى فى سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ، والحسوم

(١) الريح الصرصر : هى الشديدة البرد ، مأخوذ من الصر وهو البرد . وقيل : هى الشديدة الصوت . وقال مجاهد : الشديدة السموم . [فتح القدير للشوكانى تفسير آية ٦ الحاقة] .

(٢) حسمه يحسمه : قطعه واستأصله . وقوله تعالى : ﴿ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. (٧) ﴾ [الحاقة] أى : مهلكات مستأصلات . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .

جمع حاسم فهى حاسمة يعنى : حسمتْ الموقف وأنهتْ المسألة ، فلم تُبْق لهم على شىء .

فإنْ قلتَ : فلماذا قال ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .. (٧) ﴾ [الحاقة] مع أن العادة فى التشريع أن الليالى تسبق الأيام ، والزمن يدخل بليله لا بنهاره ، بدليل أننا فى رمضان نثبت دخوله بليله ، فقبل أنْ نصوم نصلى القيام .

لذلك جعلوها لغزاً فقهياً : ما السّنة التى تسبق الفرض ؟ ويبدو أن العذاب نزل بهم فى الصبح فاستقبل النهار وانتهى عند المغرب ، وبذلك استمر سبع ليالٍ وثمانية أيام .

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يعترضون على طريقة القرآن فى تأنيث العدد مع المذكر ، وتذكيره مع المؤنث ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .. (٧) ﴾ [الحاقة] وقالوا : متى يلبس الذُّكران قلائد النسوان ؟ ومتى تبرز ربَّات الحجال فى عمائم الرجال ؟

والقاعدة فى علم النحو أن تأتى الأعداد من الثلاثة إلى التسعة على خلاف المعدود من حيث التذكير والتأنيث ، ولهذا علة ، فالأصل فى الكلمة التذكير تقول (كاتب) ، أما المؤنث فيحتاج إلى علامة تميزه فوضعوا له تاء التأنيث نقول (كاتبة) .

فالتأنيث فرع التذكير ، لذلك احتاج إلى ما يُميزه ، أما ألفاظ الأعداد من الثلاثة إلى التسعة فهى أصلاً موضوعة على التأنيث نقول : ثلاثة أربعة خمسة .

فلما جاء مع المذكر جاء على أصله ، ومع المؤنث احتاج إلى

علامة ، فبدل أنْ يأتوا بعلامة أخرى قالوا بحذف العلامة الموجودة في المؤنث .

وهكذا أتى العدد مُخالفاً للمعدود في التذكير والتأنيث ، فقال تعالى : ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .. (٧) ﴾ [الحاقة]

ثم إن اليوم عند الفلكيين يُحسب من الوقت إلى مثله من اليوم التالي ، لذلك نراهم عند الساعة الواحدة بعد الظهر يقولون : الواحدة مساءً . ونحن ما نزال في وسط النهار ، وكذلك في الواحدة بعد منتصف الليل يقولون : الواحدة صباحاً ونحن ما نزال في الليل . أما اليوم في التشريع ، فمن طلوع الشمس إلى غروبها ، والليل من غروب الشمس إلى طلوعها .

نلاحظ أن هذه السورة جاءت ببعض اللقطات من القصة ، لكن لها تفصيل في سورة سُمِّيتْ باسمه ، هي سورة (هود) تعرضتْ لكثير من اللقطات التي لم ترد هنا .

ففي هذه السورة ركز السياق على ثلاث لقطات أو مسائل ، هي : الدعوة إلى عبادة الله وحده ، ثم التحذير من عبادة غيره ، لأنهم إنْ عبدوا غير الله عرَّضُوا أنفسهم للعقاب ، وهو أخوهم وحريص على نجاتهم ، ثم ردُّوا عليه ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

أما سورة (هود) فقد زادتْ على ذلك لقطات أخرى ، فقال تعالى هناك : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ .. (٥٠) ﴾ [هود] وهذه متفقة مع التي معنا ، وقال هنا :

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾ [الأعراف] وهناك قال : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [هود] والافتراء ينشأ عنه العذاب العظيم .

إذن : تكلَّم هنا عن المسبِّب وهناك عن السبب ، فالعذاب العظيم سببه أنكم افتريتم على الله بأن اتخذتم له شركاء .

ثم ذكر زيادة أخرى في هود هي قوله تعالى : ﴿ يَـٰقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾ [هود]

فكأن المسألة في العقل وبقانون المبادلات أنني أستحق أجراً على دعوتي لكم ، لكن أنا لا أريد منكم أجراً فأنتم لا تقدرون عليه لأنه عظيم وفوق قدرتكم ، لذلك لا أطلبه إلا من الله الذي أرسلني وانتدبني لهذا الأمر .

وقوله : ﴿ الَّذِي فَطَرَنِي .. (٥١) ﴾ [هود] أي : خلقني وأنشأني ، ولم يقل الذي أرسلني ، فالمراد أنه تعالى خلقني لأكونَ رسولاً وأصلح لأنْ أحمل دعوته سبحانه ، وأكون سفيراً له إلى خَلْقه .

حتى اسمه جاء موافقاً لهذه المهمة ، فكلمة (هود) من هَادَ يعني : رجع وتاب وأناب إلى ربه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ .. (١٥٦) ﴾ [الأعراف] يعني : تُبْنا ورجعنا إلى الله .

ثم في (هود) يأمرهم بالاستغفار والتوبة : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. (٥٢) ﴾ [هود] والاستغفار للذنب الذي مضى ، أما التوبة فهي عدم الرجوع إلى الذنب مرة أخرى فهي للمستقبل ، ثم

يبين لهم ثمرة ذلك : ﴿ يُرسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُم مِّدْرارًا[1] ويَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾ [هود] وهذه لم تأت فى الأحقاف .

ومن التفاصيل التى وردت فى (هود) ولم تأت هنا قولهم : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [هود]

وهنا نلاحظ أنه لم يرد الدعوى عن نفسه ، إنما ردها عن الله فيتبرأ من هذا القول ، ثم يقول لهم : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

فيظهر فى حديثه هنا ثقة المؤمن بربه ، فيقول متحدياً لهم : افعلوا ما شئتم فما جئتكم من نفسى ولا أواجهكم بجاهى ولا قوتى ولا عزوتى ، إنما أواجهكم بالله الذى أرسلنى وعليه توكلتُ فى دعوتى .

وهنا درس عقدى مهم إذا نزل بك بلاءٌ فلا تيأس ولا تغضب وعُدْ إلى رصيد الإيمان فى نفسك ، فإنْ توقفتْ قوانينك فقوانينُ الله لا تتوقف ، وإنْ خذلتْكَ الأسبابُ فالمسبِّب موجود فارجع إليه .

وفى (هود) يعطينا لقطة لنجاة المؤمنين به لم تُذكر هنا ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) ﴾ [هود] هذه آية كونية خرقت النواميس كلها ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٥٨) ﴾ [هود] أى : بهلاكهم وبالعذاب الذى كانوا يستعجلونه نجَّينا هوداً والذين آمنوا معه ، بماذا ؟

﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا .. (٥٨) ﴾ [هود] فقط رحمة الله هى التى تداركتهم ،

(١) مدراراً : صيغة مبالغة أى كثير غزير متتابع . ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا .. (٦) ﴾ [الأنعام] أى : تدر عليهم مطراً غزيراً . [القاموس القويم ٢٢٦/١] .

لأن ما حدث كان ثورة طبيعية وغضبة للطبيعة على المخالفين لخالق هذه الطبيعة ، الريح هى الريح عاصفة مدمرة مزعجة صرصر عاتية ، ومع ذلك خالفتْ كُلَّ نواميس التكوين البيئى ، فأهلكت هؤلاء وتركت هؤلاء .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) ﴾

الخطاب هنا لقريش يريد أنْ يلفت أنظارهم إلى مصير الأمم المكذبة حولهم ﴿ مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ .. (٢٧) ﴾ [الأحقاف] يعنى : حول مكة .

وقد خاطبهم فى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] نعم يمرون على مدائن صالح وعلى قوم نوح ، وعلى الأحقاف على عاد وثمود ، ويشاهدون آثارهم وما لحقهم من عقاب الله .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾ [الرعد]

يعنى : يا قريش تنبهوا ولا تغتروا بما لكم من سيادة على العرب وسيطرة على قبائل شبه الجزيرة ، وأنَّ لكم منزلة فى قلوب الناس ، لأن قوة الإيمان التى تتغلغل فى قلوب الناس سوف تسحب بساط السيادة من تحت أقدامكم .

وها أنتم ترون كل يوم زيادة أرض الإيمان وتراجع مساحة الكفر

فخذوا عبرة من ذلك ، وهذه المسألة هى سببُ إيمان خالد بن الوليد وعمرو بن العاص[1] وغيرهم من قادة وزعماء الكفر ، حين رأوا أمر محمد فى ازدياد فقالوا : لقد ظهر أمر محمد واستقام ، وأصبحت له قوة لا يقف فى وجهها أحد ، وفعلاً آمنوا بدعوته .

وقوله سبحانه : ﴿ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ .. (٢٧) ﴾ [الأحقاف] حولناها وقلَّبنا لهم البراهين على كُلّ وجه وبأساليب مختلفة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) ﴾ [الأحقاف] يعنى : عن كبريائهم وغطرستهم وعنادهم ، يرجعون عن كفرهم وجحودهم لنِعَم الله ، فبعد أنْ أخذوا النعمة كفروا بالمنعم وجعلوا له شركاء .

لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾

يعنى : هذه الآلهة التى اتخذوها من دون الله ﴿ فَلَوْلَا .. (٢٨) ﴾ [الأحقاف] يعنى : هلا ، وهى تفيد الحضّ ، وفى المعنى تهكّم بهم

(١) أسلم خالد وعمرو فى وقت واحد ، وقد عزم خالد على الإسلام فتوجه إلى المدينة فوجد عمراً فى طريقه ، فقال له عمرو : إلى أين مسيرك ؟ قلت : وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجك ؟ قلت : الدخول فى الإسلام واتباع محمد . فقال عمرو : وذاك الذى أقدمنى . وقد كان هذا عام ٧ هجرية أى بعد بدر وأُحُد والخندق وغزوات كثيرة وقبل فتح مكة . وقد قال عمرو صراحة : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق قلت لأصحابى : إنى أرى أمر محمد يعلو علواً منكراً .

أى : هلاّ نصروهم ووقفوا إلى جوارهم فى مصائبهم ، ومعنى ﴿ قُرْبَانًا .. (٢٨) ﴾ [الأحقاف] يعنى : تقربهم إلى الله ، وهذا كله لم يحدث لماذا ؟ لأنها آلهة باطلة مُدَّعاة ، لا تضر ولا تنفع .

بل هى من صُنْع أيديهم ، وباشروا صناعتها بأنفسهم فأقاموا الحجر وجعلوا له ذراعين ورجْلَيْن وأنف وأذن ، وإذا وقع رفعوه ، وإذا كُسِر ذراعه أصلحوه ، بالله هل هذه عقول ؟

وقولهم ﴿ قُرْبَانًا .. (٢٨) ﴾ [الأحقاف] كما قالوا فى موضع آخر : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .. (٣) ﴾ [الزمر]

وعجيبٌ منهم هذا الكلام وهم أمة الفصاحة والبيان ، ويعلمون جيداً معنى العبادة ، فلو قالوا ما نحترمهم إلا ليُقرِّبونا إلى الله لكانَ معقولاً ، لكن ﴿ نَعْبُدُهُمْ .. (٣) ﴾ [الزمر] وأنتم تعرفون أن العبادة طاعة أمر المعبود فى أمره ونهيه ، وهل للآلهة هذه أوامر أو نواه ؟

لذلك يردُّ الله عليهم ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الأحقاف] يعنى : تاهوا وغابوا عنهم ، من قولنا : ضلّ فلان الطريق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] لماذا ؟ لأن المسألة هلاك .

والإنسان لا يخدع نفسه ، ففى وقت الشدة يترك الآلهة المدعاة ، ويلجأ إلى الإله الحق الذى يملك النفع ويملك الضر ، ففى هذا الموقف لا يقول أبداً : يا هُبل ، لأنه يعلم أن (هبل) لن ينقذه لكن يقول : يا الله .

﴿ وَذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [الأحقاف] إشارة إلى اتخاذهم آلهة من دون

الله ﴿ إِفْكُهُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحقاف] الإفك هو الكذب المتعمَّد ، وهو أشد أنواع الكذب ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحقاف] يختلقون من الكذب من قولهم أن هذه آلهة ، فكأن المعنى العام للآية : أن عدم النصرة نتيجة الإفك والافتراء على الله باتخاذ آلهة من دونه .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ[1] نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ
ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ
وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا
سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ[2] مُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

ينتقل السياق بنا إلى مجال آخر من مجالات الدعوة ، فبعد أنْ حدَّثنا عن موقف الإنس وما كان منهم من تصديق لرسول الله أو تكذيب يُحدِّثنا عن الجن ، وهم الجنس المقابل للإنس فى الدعوة .

---

(١) هم نفر من أشراف جن نصيبين على الأرجح ، وكان رسول الله قد خرج إلى الطائف بعدما يئس من أهل مكة . فخرج يدعو أهل الطائف إلى الإسلام ، فلما صده أهل الطائف وانصرف عائداً إلى مكة وكان ببطن نخل قام يقرأ القرآن فى صلاة الفجر فمر به الجن فسمعوا القرآن وعرفوا أن ذلك هو سبب حراسة السماء عن أن يتسمع الجن وحى السماء [الرازى فى مفاتيح الغيب بتصرف فى تفسير الآية] . وقيل : أنهم كانوا سبعة . وقيل : تسعة .

(٢) قالوا : (من بعد موسى) لأنهم كانوا يهوداً فأسلموا . قاله عطاء . وقال ابن عباس : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام . [تفسير أبى السعود] وقال ابن كثير فى تفسيره للآية : « لم يذكروا عيسى لأنه أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم » .

حيث أُرسل سيدنا رسول الله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن ، إذن : الجن جنس مكلّف مثلنا ، لكنه غيب عنا فلا نراه ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

والجن له خِفَّة فى الحركة وتغلغل فى الأشياء لطبيعته النارية ، لذلك لو أشعلت النار خلف هذا الجدار بعد لحظات تُحس بها هنا . إذن : صدِّق أنه من نار ، وأنه يتغلغل خلال الأشياء ، وأن له طبيعة غير طبيعة الآدمى .

الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لنا أن الجن وإنْ كان غائباً عنَّا إلا أنه مثلنا فى التكليف وأنه مثلنا مُخاطب بالقرآن ، ومنه المؤمن والكافر والطائع والعاصى .

ونحن نعلم قصة الصراع بين الجن والإنسان ، منذ خلق آدم عليه السلام وأمر إبليس بالسجود له فأبى واستكبر ، وكانت حجته أنه خُلق من نار ، وآدم خُلق من طين ، فكيف يسجد له وهو أفضل منه على حَدِّ قوله : ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف]

صحيح أن آدم هو أيضاً وقع فى المعصية ، لكن فرْقٌ كبير بين معصية آدم ومعصية إبليس ، آدم عصى ربه حين أكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها ، عصى عن غفلة وتغلب النفس ووسوسة الشيطان .

ثم لما عرف معصيته اعترف بها وتاب عنها واعترف بأنه أخطأ فى حَقِّ ربه وظلم نفسه ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف] وقال فى البقرة : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ

من رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ [البقرة]

إذن : قُبلت توبة آدم لأنه لم يرد حكم الله ، أما إبليس فردَّ الحكم ولم يخضع له فطُرد من رحمة الله وأُبْعد ، وفرق بين أنْ تعصى الحكم وأنت معترف به ، مُصدِّق بأنه من الله ، وبين أنْ ترده .

لذلك نقول هذا الكلام لمن يجادل مثلاً فى مسائل من الدين الحكم فيها واضح ، كالربا مثلاً أو إطلاق اللحية فيقول : التعامل بالربا الآن حلال ، نقول لهذا : أنت بهذا القول ترد حكم الله فى الربا ، والأسلم لك أن تقول أنه حرام لكن ظروفى تجبرنى عليه مثلاً .

ثم لك أنْ تقتدى بأبيك آدم فتتوب ، تستغفر لعل الله يغفر لك ، بدل أنْ تعاند ربك فى حكمه ، وهذه لا تقدر عليها ، وتذكَّر قول الشيطان ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ .. ﴿١١٩﴾ [النساء]

فاحذر هذه المسألة ، وأنت تعلم أن إبليس كان فى يوم من الأيام (طاووس الملائكة)(١) فلما عاند واستكبر وردَّ حكم الله جعله ملعوناً مطروداً من رحمة الله .

ولنا ملحظ هام فى أمر الله لآدم بعدم الأكل من الشجرة ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. ﴿٣٥﴾ [البقرة] فالنهى عن مجرد قربها ، وهكذا كل أمر فى ما حرَّمه الله ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. ﴿١٨٧﴾ [البقرة]

أما ما أحلَّ الله لك فقال فيه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ..

(١) ذكر الألوسى فى تفسيره (١/٢٧٢) عن أبى العالية فى معنى (من الكافرين) ثم الظاهر أن كفره كان عن جهل بأن استرد سبحانه منه ما أعاره من العلم الذى كان مرتدياً به حين كان طاووس الملائكة .

﴿٢٢٩﴾ [البقرة] يعنى : لا تتعدوا ما أحلَّ الله ، أما الحرام فلا تقربوه لأن مَنْ حام حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه(١) .

وذرية إبليس تسير على نهجه فى إغواء بنى آدم ، ونحن لا نراهم كما لا نرى الملائكة ، مع الفارق بينهما ، فالملائكة من نور ، والشياطين من نار .

وهنا ينقل الحديث فى شأن رسالة محمد ﷺ من الإنس إلى الجن ، والإخبار بأن الجن مُكلف ، وبأنه يستمع القرآن لم يأت به محمد ﷺ من عند نفسه ، إنما يحكى لنا ما أخبره الله به من أن الجن يستمعون القرآن .

فقال فى سورة الجن : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .. ﴿٢﴾ [الجن]

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه محمد : أنا لم أبعثك لتذهب إلى الجن وتخاطبهم لأنك لا تراهم ، لذلك صرفتهم إليك ، وأتيتُ بهم إليك ليستمعوا القرآن وأنت لا تشعر بهم ، ولولا إخبارى لك بذلك ما كنت تعلمه .

وهنا يقول : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ .. ﴿٢٩﴾ [الأحقاف] فأنت تقرأ وهم حولك يستمعون .

وقولهم فى سورة الجن ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ .. ﴿٢﴾ [الجن]

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) وابن ماجة فى سننه (٣٩٧٤) كلهم من حديث النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يُواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه » الحديث .

وهنا قالوا ﴿ كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ .. (٣٠) ﴾ [الأحقاف] دلّ على أن للجن صلة بالأنبياء السابقين ، وأنهم مكلفون مثلنا .

وفى سورة الرحمن : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) ﴾ [الرحمن] يعنى : نفرغ لحسابكم ، فبعد أنْ تركناكم على راحتكم تفعلون ما تريدون ، لا تظنوا أن هذه غفلة منا عنكم ، إنما أمهلناكم لنؤكد أمر الاختيار الذى خلقناه فيكم ومنحناكم إيّاه .

فالثقلان : الجن والإنس سواء فى الحساب ، كما هم سواء فى التكليف .

رُوى عن سيدنا أنس رضى الله عنه أنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى جبل من جبال مكة ، فإذا رجل عجوز يُقبل علينا معه عكاز يتكىء عليه ، فلما رآه رسول الله عرفه . وقال : كأنها مِشْية جِنّى ونظمته ، فقال الرجل : نعم أنا من الجن ، فقال له رسول الله : من أنت ؟ قال : أنا هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس ، فقال له : بينك وبين أبيك إبليس أبوان اثنان ؟ قال : نعم ، ولقد أدركتُ من الزمن أكثره وبقى أقلُّه ، ولقد شاهدتُ قابيل وهو يقتل هابيل(١) .

فهذه الرواية دليلٌ على طول أعمارهم ، وأنهم يتشكلون بأشكال

(١) ذكره فخر الدين الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) فى تفسير هذه الآية وفيه « وكنت وقت قتل قابيل هابيل أمشى بين الآكام » . وأخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (حديث ١٨٠٩) وفيه طول وغرابة ونكارة .
قال العقيلى : فيه محمد بن عبد الله الأنصارى أبو سلمة منكر الحديث .
قال ابن الجوزى فى كتاب (الموضوعات) : « هذا حديث موضوع لا يُشك فيه . وله طريقان : الأول : من طريق إسحاق بن بشر وكان كذاباً يضع الحديث . والآخر : فيه محمد ابن عبد الله الأنصارى منكر الحديث » .

مختلفة ، كما يتشكل الملك ، فنحن لا نرى الملك على حقيقته ، ولا نرى الجنى على حقيقته ، إلا إذا تشكَّل فى صورة إنسى .

وأنتم تعرفون حديث جبريل الطويل لما جاء مجلس النبى ﷺ فى صورة رجل غريب ، لكن لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه من الجالسين أحد ، حتى جلس بجوار رسول الله ، وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والرسول يجيب ، ثم انصرف فلما سأل الصحابة عنه قال رسول الله ﷺ : إنه جبريل ، جاء يُعلِّمكم أمور دينكم(١) .

لذلك رأينا بعض أعداء الدعوة المحمدية يثيرون حولها بعض الإشكالات ، ومنها قولهم أنْ يكون الرسول ملكاً وهذا إشكال مردود ، فلو جاء الرسول ملكاً لجاءهم فى صورة رجل ، وإلا كيف يُبلِّغهم وكيف يكون التلقى عنه ؟

إذن : سيظل الإشكال قائماً ، ثم إن الملَك لا تصح الأسوة به ، لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فكيف يكون أُسوة لمَنْ فى طبيعته الخطأ والغفلة والنسيان ؟

إذن : شرط فى النبى الرسول أنْ يكون من جنس مَنْ أُرسل إليهم لتقوم به الأُسوة .

والحق سبحانه أعطانا صورة تفصيلية لحال الجن ، وأن منهم المؤمن والكافر ، فقال حكايةً عنهم : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) وفيه أن رسول الله قال : « هذا جبريل جاء يُعلِّم الناس دينهم » . وعند مسلم قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن]

لذلك النبى ﷺ قال : لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أشدَّ استجابة منكم ، كانوا إذا سمعوا ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن] ينطقون فى نَفَس واحد : لا بشىء من نَعْمائك ربنا نكذب[(1)] ، فلك الحمد ، يكررونها بتكرار الآية .

واسمعهم يقولون : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[(2)] رَبِّنَا .. ﴿٣﴾ ﴾ [الجن] يعنى : تعالتْ عظمته ، ولهذه العظمة ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً ﴿٣﴾ ﴾ [الجن] إذن : الجن يعلمون قضايا الإيمان وقضايا التوحيد ، وربما كانوا أدقَّ منا فى التعبير عنها ، ويكفى أنهم حكموا على إبليس بالسَّفَه ، فقالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً ﴿٤﴾ ﴾ [الجن]

نعود إلى ما كنا بصدده من قوله تعالى : ﴿ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف] النفر : هم الجماعة من الثلاثة إلى الأربعين ، صرفناهم إليك يعنى : أتينا بهم إليك بدل أنْ تذهبَ أنتَ إليهم .

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف] حضروا القراءة ﴿ قَالُوا أَنصِتُوا

---

(١) أخرج البيهقى فى (دلائل النبوة) (٢/١٠٧) (حديث ٥٣٢) عن جابر بن عبد الله قال : لما قرأ رسول الله ﷺ الرحمن على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : « لَلجن كانوا أحسن جواباً منكم ، لما قرأت عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن]. قالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب » .

(٢) الجدُّ : العظمة والمجد . (جد ربنا) أى : أنه تعالت عظمة ربنا ، وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

.. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف] استمعوا باهتمام وتدبُّر يعنى : وصَّى بعضهم بعضاً بالإنصات ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف] انتهتْ القراءة ﴿ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحقاف] ذهبوا إلى قومهم ينذرونهم ويُبلِّغونهم ما سمعوه .

﴿ قَالُوا يَـٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ ..﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : القرآن ، وقولهم ﴿ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ ..﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف] يدل على أنهم كانوا على صلة بالرسل السابقين ، وأنهم كانوا مؤمنين بسيدنا موسى يعنى : كانوا من اليهود .

وذكروا موسى دون عيسى - عليهما السلام - لأن كتاب موسى هو المنهج الذى ينظم حركة الحياة وفيه شرائع وأحكام ، أما كتاب عيسى فكان مجرد وجدانيات ووصايا ، لذلك تنبهوا لهذه المسألة وجمعوا بين الإنجيل والتوراة فى كتاب واحد مع وجود عصبية بينهما ، وأسموْهُ الكتاب المقدس .

ومعنى ﴿ مُصَدِّقاً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : القرآن مُصدِّق ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف] لما قبله من الكتب السماوية ، وما دام مُصدِّقاً لها إذن جاء بما جاءتْ به ولكن يزيد عليها أنه ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف] بما يناسب عالمية التدين .

فكلّ رسول قبل محمد كان يأتى ليعالج أمراض مجتمعه فى زمن محدود ومكان محدود ، وقد يتعاصر الرسولان ، كما رأينا فى سيدنا إبراهيم ، عاصره سيدنا لوط ، وسيدنا موسى عاصر سيدنا شعيب .

فالعالم فى هذا الوقت كان فى انعزال ووحدة ، لم يكُنْ هناك

الالتقاء الموجود الآن ، والذى يجعل العالم كله كقرية صغيرة ، فهذه الحياة المنعزلة تجعل كلَّ مجتمع لا يدرى بغيره .

لذلك كان لهم مفاسد خاصة تحتاج كلٌّ منها إلى رسول ليُصلحها ويأخذ بأيدى قومه إلى الله ، فقوم عبدوا الأصنام من دون الله ، وآخرون طفَّفوا المكيال والميزان ، وآخرون انحرفوا جنسياً عن الطبيعة التى خلقها الله ، وكل جماعة من هؤلاء تحتاج إلى رسول .

لكن لما التقى العالم ، ووُجدتْ بينه وسائل انتقال كان لا بُدَّ من رسول واحد ، لأن المفاسد والآفاق ستتحد ، لا بد من رسول واحد يصلح لكلِّ زمان ومكان ، لذلك شرف كل زمان ومكان بالجامع للخير فى كل زمان ومكان محمد بن عبد الله ﷺ .

إذن : من الجن جماعة سمعوا وتحمَّلوا مهمة البلاغ ، لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « نضَّر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فربَّ مُبلَّغ أوعى من سامع »[1] .

نعم ومن يدريك لعل المبلَّغ يكون أحرصَ على التطبيق من السامع ، وقد فطن الشاعر العربى إلى هذا المعنى فقال[2] :

فَخُذْ بِعلْمى وَلاَ تَنْظُرْ إِلَى عَمَلى وَاجْنِ الثِّمارَ وَخَلِّ العُودَ للنار[3]

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣١٧٥) والترمذى فى سننه (٢٥٨٠ ، ٢٥٨١) وحسَّن الأول وقال عن الثانى (حديث ابن مسعود) : حسن صحيح . وكذا أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨) ، وأخرجه أيضاً من حديث أنس بن مالك (حديث ٢٣٢) .

(٢) هو الشيخ الفقيه الإمام خلف بن أبى القاسم محمد الأزدى القيروانى البراذعى ، وقيل البرادعى . لم يعرف تحديداً سنة ولادته وكذلك وفاته [تهذيب المدونة ١/٢] .

(٣) هذا البيت قاله لطلبته عن نفسه . والمقصود أخذ العلم عنه ولا تحفل بناقله ، فلتأكل الثمار اليانعة ولتلقى بعيدان الحطب فى النار .

ثم يستمر هؤلاء الجماعة من الجن فى تبليغ قومهم وإنذارهم بما سمعوه :

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

معنى ﴿ دَاعِىَ اللَّهِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] الأصل فيه رسول الله ثم المبلّغ عنه منهج الله للقوم ﴿ وَآمِنُوا بِهِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : بما جاء به ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] قال ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] فأفادت (من) التبعيض . يعنى : يغفر لكم بعض الذنوب ، وهذه المغفرة ثمرة الإيمان .

ولم يقل كل الذنوب ، لأن الحق سبحانه يغفر بعضها ويترك بعضها للتوبة والإنابة إليه ، فمثلاً من الذنوب ما تغفرها الصلاة إلى الصلاة ، أو الجمعة إلى الجمعة ، أو رمضان إلى رمضان[1] .

لكن هناك ذنوب لا بُدَّ لها من توبة ، ويكون لمغفرتها شروط أخرى كما لو كانت فى حَقِّ العباد ، وهناك مظالم ومتعلقات لا بُدَّ أنْ تُردَّ إلى أصحابها ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] إذن :

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٦٨٣٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التى بعدها كفارة لما بينهما . قال : والجمعة إلى الجمعة ، والشهر إلى الشهر . يعنى : رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما » .

الذنوب ينشأ عنها العقاب فى النار ، وإذا غفر الذنوب أجار صاحبها من النار ، وهذه قاعدة التخلية قبل التحلية كما ذكرنا .

لكن لم يقُلْ هنا أنهم يدخلون الجنة ، وهذا يفرض علينا سؤالاً : هل يدخل الجنُّ المؤمن الجنة ؟ البعض يرى أنهم بعد الحساب سيتحوَّلون إلى تراب وتنتهى المسألة ، بدليل أنه لم يقُلْ هنا أنهم يدخلون الجنة بعد أنْ يُجيرهم من النار .

لكن ما داموا مكلّفين مثلنا ، ومنهم المؤمن والكافر ، إذن : لا بُدَّ من الجزاء بالجنة أو بالنار ، فإنْ وقفت عند مسألة أنهم خُلقوا من النار ، فكيف يُعذَّبون بها ؟ هذا أمر بعيد فى أذهاننا نحن ، لكنه يسير على الخالق سبحانه ، فله قوانين أخرى .

وسبق أنْ قلنا : أنت مخلوق من طين ، فهل معنى ذلك أنك إذا نزلتَ البحر مثلاً (تبوش) ثم اقرأ إنْ شئتَ : ﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [الصافات] فكيف تنبت شجرة فى أصل الجحيم ؟ إذن : لا تتكلم فى هذه المسألة والله أعلم بخلقه .

وقوله سبحانه : ﴿ **وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِىَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الأَرْضِ** .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف] معجز يعنى : يُعجز غيره . والعجز ضعف لا يُمكنك من الفعل تقول : أعجز فلانٌ فلاناً يعنى : سبَّب له ما يعجز عنه ، ومنه قولنا : القرآن مُعجز يعنى : أعجز العربَ عن الإتيان بمثله .

فؤلاء الذين عصوْا الداعى إلى الله وكفروا به لن يُعجزونا ، ولن يجدوا لهم مهرباً من عقابنا ولا مفراً منه .

﴿ **وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ** .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف] من دون الله ﴿ **أَوْلِيَاءُ** .. ﴾ [الأحقاف] يعنى : يتولونهم ويدافعون عنهم أو يشفعون لهم ، ولا قوة تمنع عنهم عذاب الله ﴿ **أُوْلَـئِكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف] يعنى : هؤلاء الأولياء ضلُّوا عنهم ، تاهوا فلا وجود لهم .

﴿ **مُّبِينٍ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف] محيط ، كما يفعل التائه الذى ضلَّ طريقه ، فيذهب إلى هنا ويذهب إلى هناك ، فلا يهتدى للغاية التى يريدها .

ثم يعود السياق ويلفتهم إلى الآيات الكونية لعلهم يتدبرونها ، لأنهم جحدوا وأنكروا ولم يستفيدوا بما خلقه اللهُ فيهم من وسائل الإدراك من سمع وبصر وتعقُّل ، والحديث مرة أخرى عن الآيات الكونية وإظهارها لهم من باب تلوين العظات .

﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ**(١) **بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴿٣٣﴾ ﴾

الحق سبحانه هنا ذكر آية من أعظم آيات الخَلْق ، وهى ﴿ **خَلْقِ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ** .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف] لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فأتى بخَلْق السموات والأرض ولم يذكر خَلْق الإنسان لأنها الآية الأكبر ، وأين عمر الإنسان الذى يعيش عدة سنوات ، أو حتى مائة

(١) عىَّ عن الأمر يعيا : عجز عن النهوض به . قال تعالى : ﴿ **وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ** .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : لم يعجز . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

سنة من عمر السماوات والأرض .

﴿ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ .. (٣٣) ﴾ [الأحقاف] لم يتعب تعالى الله عن ذلك ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا من لُّغُوبٍ [1] (٣٨) ﴾ [ق] فمَنْ كانت هذه صفاته ، وهذه آيات خلْقه ، أليس بقادر على أنْ يُحيى الموتى ؟

ويأتى الجواب (بلى) يعنى : نعم قادر ، وجاءت (بلى) هنا لإفادة الإثبات ، لأن السؤال سؤالٌ منفىّ ، والقاعدة أن نفىَ النفى إثباتٌ ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾ [الأحقاف] تذييل يؤكد قدرة الله لا على إحياء الموتى فحسب ، إنما قدرته تعالى على كل شىء .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) ﴾

هذه لقطة أخرى لمسألة العرض على النار والعياذ بالله ، فقبل هذه قال سبحانه : ﴿ وَيوم يُعْرضُ الَّذِينَ كَفرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] فذكر لهم علة عَرْضهم على النار ، وهى استنفاد الطيبات كلها فى الدنيا ، بحيث لم يبق لهم شىء فى الآخرة .

لذلك قلنا : إن النعمة التى تشغل صاحبها عن المنعم هى فى

(١) اللغوب : التعب والإعياء . لغب يلغُب : أعيا أشد الإعياء . [لسان العرب - مادة : لغب] .

الحقيقة نقمة عليه ووبال ، والنعمة حقيقة هى التى تُذكِّرك بالمنعم ، لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله حينما نرى نعمة عندنا أو عند غيرنا أن نقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله [1] .

فترد الفضل إلى صاحبه وتبرىء نفسك من الغرور ، ونسبة النعمة إلى نفسك ، وأنها جاءت بفضل مهارتك وشطارتك ، كما حصل من قارون فقال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨) ﴾ [القصص]

فكانت النتيجة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] وكأن الحق سبحانه يقول له : ما دُمْتَ أوتيته على علم عندك فاحرسه بعلم من عندك أيضاً .

يُرْوى أن سيدنا عمر رضى الله عنه دخل على سيدنا رسول الله ﷺ ، فوجده ينام على حصير قد أثَّر فى جنبه ، ولم يجد عنده شيئاً يلفت نظره من متاع الدنيا ، فتألم لحال رسول الله ولم يستطع إخفاءَ ما فى نفسه .

فقال : يا رسول الله ادع الله أنْ يُوسِّع على أمتك كما وسَّع على فارس والروم ، فنظر إليه رسول الله وقال : « أفى شكّ أنت يا بن الخطاب ؟ هؤلاء قوم عجلتْ لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » [2] .

(١) أخرج الطبرانى فى معجمه الكبير (١٤٢٧٥) عن عقبة بن عامر قال قال ﷺ « من أنعم الله عليه بنعمة فأراد بقاءها فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قرأ رسول الله ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٨٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٠٧) فى حديث طويل عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب رفع رأسه فى بيت رسول الله وقال : فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أهباً ثلاثة . فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عُجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا . فقلت : استغفر لى يا رسول الله .

وذكرنا قول عمر بن عبد العزيز : والله لو شئتُ أنْ أكون أطيبكم طعامـاً ، وأحسنكم لباسـاً لفعلت ، ولكنى أستبقى [١] ، لذلك قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

إذن : من ذكر الجزاء واستحضر نعيم الآخرة هانتْ عليه مشقة الطاعة فى الدنيا ، كالتلميذ الذى يذاكر ويسهر ويحرم نفسه لذة الراحة شَوْقاً إلى لذَّة أعظم هى لذة النجاح .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ .. (٣٤) ﴾ [الأحقاف] الخطاب هنا لرسول الله ﷺ . و(يوم) ظرف زمان يعنى : اذكر يوم يُعرض الذين كفروا على النار وذكِّرهم به . وقُلْ لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ .. (٣٤) ﴾ [الأحقاف] أى : الحق الذى كنتم تُكذِّبونه ها هو أصبح واقعاً .

وسبق أنْ بيَّنا أن العلم ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، فالإخبار عن الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب علم يقين ، ثم حين نرى هذا الجزاء يصير عين اليقين ، ثم حين نباشره ويدخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النار يصير حقّ اليقين .

وهذه المراحل ذُكرتْ فى موضعين فى قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

(١) هذا القول هو لعمر بن الخطاب وليس ابن عبد العزيز ، أورده القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] وكذا الرازى فى تفسيره ، والنسفى فى تفسيره ، والسيوطى فى الدر المنثور .

أما حق اليقين فذُكر فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ [١] جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

وقوله : ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا .. (٣٤) ﴾ [الأحقاف] هذا جوابهم على السؤال ﴿ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ .. (٣٤) ﴾ [الأحقاف] والجواب بـ (بَلَى) هنا يعنى نعم ، لأن نفى النفى إثبات ، نعم هذا هو الحق الذى كُنَّا نكذبه ولا يكفيهم الإقرارُ به ، بل ويُقسمون أيضاً لتأكيد المسألة .

﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا .. (٣٤) ﴾ [الأحقاف] لأنهم عاينوه وباشروه ، ثم يأتى الحكم النهائى ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) ﴾ [الأحقاف] أى : بسبب كفركم .

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾

الخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، الحق سبحانه يُسلِّيه ويثبته ليتحمل الإيذاء من الكافرين ، فليس هـو بدعاً فى ذلك ، فقد سبقه كثير من إخوانه الرسل ، فليصبر محمد كما صبروا .

تعرفون أن سيدنا رسول الله تعـرَّض لكثير من أذى قومه ، آذوه

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها . ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر] أى : سأدخله النار . وقوله ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ﴾ [الحاقة] أى : أدخلوه . وقال : ﴿ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) ﴾ [الواقعة] أى : إدخال الجحيم . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

بالقول فقالوا : ساحر وشاعر ومجنون وكاهن وكذاب . ثم تعدَّى الإيذاء إلى الإيذاء بالفعل ، فاعتدوا عليه فى الطائف حتى أدموا قدميْه ، وكُسرت رباعيته[1] فى أُحد ، ورموا على ظهره سلى البعير وهو يصلى[2] .

آذوه فى نفسه ، وآذوه فى أهله وفيمن آمن معه ، بل تآمروا على قتله ، وضيَّقوا عليه حتى اضطروه لترك مكة والهجرة إلى المدينة ، والنبى ﷺ يتحمل ذلك كله لكنه بشر ويشقّ عليه ذلك .

فأراد الحق سبحانه أنْ يضع أمامه أسوة ونموذجاً لمَنْ صبر من الرسل السابقين ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

فسيدنا إبراهيم عليه السلام وصل الأمر به إلى أنْ أُلقِىَ فى النار ، ومع ذلك لم يُفقده الموقف ثقته بربه ، بدليل أن جبريل عليه السلام لما عرض عليه أنْ يطفىء هذه النار قال له : أما إليك فلا[3] فجاء الأمر من

(١) الرباعية : إحدى الأسنان الأربع التى فى مقدَّم الفك تلى الثنايا بين الثنية والناب . والجمع رباعيات . [لسان العرب - مادة : ربع] .

(٢) ذكره الطحاوى فى مشكل الآثار (حديث ٣٣٢٧) عن عبد الله بن مسعود قال : بينما رسول الله يصلى وقريش قعود وسلى جزور قريب منه فلما سجد قالوا : من يأخذ هذا السلى فيلقيه على ظهره فكأنهم هابوه . فقال عقبة بن أبى معيط : أنا . فقام فألقاه على ظهره وهو ساجد فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة وهى جارية فألقته عن ظهره . قال عبد الله : فما سمعت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يومئذ . قال : « اللهم عليك بالملأ من قريش ، اللهم عليك بأبى جهل ، اللهم عليك بعتبة بن ربيعة ، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة ، اللهم عليك بعقبة بن أبى معيط ، اللهم عليك بأمية بن خلف . قال ابن مسعود : لقد رأيتهم قُلبوا يوم بدر جميعاً ، ثم سحبوا حتى ألقوا فى القليب غير أبى جهل أو أمية ، فإنه كان رجلاً بديناً فتقطع » .

(٣) أخرج ابن جرير الطبرى عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يُوثق ليلقى فى النار قال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤١] .

السماء ﴿ يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]
فى صغره ابتُلى فى نفسه ، وفى كبره ابتُلى بذبح ولده الوحيد ، وصبر على الابتلاء ففدى الله الذبيح إسماعيل ، وزاده على ذلك بولد آخر هو سيدنا إسحاق ومن بعده سيدنا يعقوب ، وكلهم كانوا أنبياء .

وجاء هذا العطاء نتيجة التسليم لله فى قضائه وقدره والرضا به . ولنا فى أبى الأنبياء أُسوة فى الرضا بالقضاء ، وأنْ نربى أجيالنا على ذلك ، لأن التسليم والرضا بقضاء الله أول أسباب رفع القضاء ، فلا يُرفع قضاء حتى يرضى صاحبه به ، وإلا ظلَّ البلاء نازلاً به .

والذين يطول عليهم قضاء الله هم سبب ذلك ، لأنهم فى الواقع معترضون ، ولو رضُوا لرفعه الله عنهم ، مثل الأب الذى يضرب ولده على خطأ ارتكبه ، فإنْ خضع وانصاع لوالده تركه ، بل ويحنو عليه ويرضيه . فإن اعترض زاده ضرباً .

إذن : الله تعالى يريد أنْ يُربى عبده بالابتلاء ، لذلك ورد فى الحديث القدسى : « مَنْ رضى بقدرى أعطيته على قَدْرى »[1] .

كذلك من أولى العزم سيدنا نوح عليه السلام وظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل وكانوا يضربونه حتى يُغمى عليه .

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٢٣٢٠) وابن ماجة فى سننه (٤٠٢١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٩٤٤٤) والقضاعى فى مسند الشهاب (١٠٤١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .

انظر إلى الابتلاءات التى مر بها سيدنا يوسف ، ففى صغره أُلقِىَ فى الجُبِّ ، وبيع رقيقاً ، وفى كبره ابتُلِىَ بامرأة العزيز وأُلقى فى السجن ، لكنه صبر فمكَّن الله له ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

وسبق أنْ بيَّنا أن الأقدار لا تخلو من حكمة ، وأن الحدث لا ينفصل عن فاعله ، فقبل أنْ تعترض انظر من الفاعل . والنبى ﷺ حين يتأمل مواكب إخوانه من الرسل السابقين وما تعرضوا له يهون عليه إيذاء قومه ، ويكون ذلك تسلية له .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : لا تستعجل عذابهم ، خاصة وأنهم كانوا يستعجلون العذاب جهلاً وعناداً منهم ، لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] يعنى : إنْ مُت يا محمد قبل أنْ ترى انتقام الله منهم فموعدهم الآخرة .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : يوم القيامة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : تمر مرحلة البرزخ كأنها ساعة من نهار ، فمنذ مات سيدنا آدم وإلى أنْ تقوم الساعة وهو لا يشعر بهذا الوقت ، وما هو بالنسبة له إلا ساعة من نهار ، لأن الوقت كما قلنا فرعُ الحدث ، فإذا لم يوجد الحدث لا يوجد الوقت ، كما عند النائم مثلاً .

وهذا رأيناه فى قصة أهل الكهف ، فقد ألقى اللهُ عليهم النوم فناموا ﴿ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (٢٥) ﴾ [الكهف] ومع ذلك لمَّا قاموا قالوا : ﴿ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩) ﴾ [الكهف] لماذا لانعدام

الأحداث التى تشعر بالزمن ، إذن : لا تستعجل لهم العذاب لأنها مجردُ ساعة مهما طال الزمنُ .

وتعرفون قصة العُزير ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا[1] قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ بَلاغٌ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] البلاغ : هو الوصول للغاية يقول تعالى : ﴿ هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : نهاية ما يمكن أن أعظكم به .

وما دام قال سبحانه (هذا) إذن : لا بد أن يحدث ولا يمنعه شىء لأنه إله واحد لا شريك له ولا معارض ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

الفسق : الخروج عن الطاعة ، وهو سبب الهلاك فى الآخرة أو حتى فى الدنيا .

---

(١) وهى خاوية على عروشها : « أى سقوفها » . [القاموس القويم ٢/١٤] . وقال فى لسان العرب [مادة : عرش] : يعنى : سقط بعضه على بعض ، وأصل ذلك أن تسقط السقوف ثم تسقط الحيطان عليها . قال : وهذه الصفة فى خراب المنازل من أبلغ ما يوصف .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سورة محمد (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ ﴾

تأمل هنا ما أحسن التقاء وتناسب نهاية السورة مع بداية الأخرى ، ففى نهاية الأحقاف ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف] وهنا ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ [محمد] فكأن الفاسقين هم الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله .

عرَّفنا الكفر أنه الستر سَتْر الحقيقة ، أو ستر آثار الحقيقة ، فكلمة (كفر) تقتضى بمدلولها وجود مستور ، والكفر ماذا يستر ؟ يستر نقيضه وهو الإيمان ، إذن : وُجد الإيمان أولاً ، ثم جاء الكفر ليَستره .

فكلمة الكفر أول دليل من أدلة الإيمان ، لأن الإيمان أمر فطرىّ ،

---

(١) سورة محمد هى السورة رقم (٤٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٣٨ آية . وهى سورة مدنية نزلت بعد سورة الحديد ، وقبل سورة الرعد فهى السورة رقم (٩٤) فى ترتيب النزول . وتسمى أيضاً بسورة القتال . [الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٧)] ، وسميت سورة القتال لأجل آية (٤) منها والآية (٢٠) .

وغريزة فى النفس البشرية وهى ما تزال فى عالم الذر لما أخذ الله عليها العهد ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وقد لا يستر الكفر الشىء ، إنما يستر آثاره ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

إذن : كفرت بالله شىء ، وكفرت بأنعم الله شىء آخر .

والكفر بالنعمة يكون من عدة وجوه ، فمن كُفر النعمة الغفلة عنها وعدم البحث عن أسبابها ، وعدم استنباطها فى الكون بما فيه من أسباب : الماء والهواء والأرض .

اقرأ مثلاً : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

إذن : ربنا أعطانا الأسباب وأمرنا بالبحث فيها واستنباطها ، وعدم التكاسل عن استخراج ما فى الطبيعة من خيرات ، فبعد أنْ أعطاك الله أسباب النعمة فلا تتهاون فى شأنها وتعيش شحاذاً عالة على غيرك .

وقد يبحث الإنسان عن النعمة ويستنبطها لكن يسترها عن مستحقيها ويكنزها عنهم ، وهؤلاء قال الله فيهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا

(١) رغد العيش : اتسع وطاب . ورغداً : أى أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

إذن : الكفر إما كفر بالله بإنكار وجوده سبحانه ، أو كفر بنعمه وآلائه .

وقوله تعالى ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (١) ﴾ [محمد] يعنى : منعوا الناس أنْ يؤمنوا بالله ، أو منعوا آذانهم أنْ تسمع إنذار الدعوة إلى الله ، وصدُّوا أبصارهم ومنعوها أنْ ترى آيات الله فى الكون وأنْ تتخذ منها دليلاً على الخالق سبحانه ، وصدُّوا قلوبهم عن الإيمان بالله وقبول اليقين .

فهذه كلها مفعولات لصدُّوا ، إذن هؤلاء كفروا ولم يقتنعوا بكفر أنفسهم ، بل حاولوا أنْ يجرُّوا غيرهم إلى ساحتهم .

لذلك وقف المستشرقون عند هذه المسألة يقولون : أنتم تقولون آيات محكمة ، ثم بعد ذلك نجد فيها شبهة التناقض ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (٧) ﴾ [الزمر]

ويقول فى موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل] الواقع أنه لا تناقضَ بين الآيتين ، لأن الحدث مختلف ، لأنهم لما ضلوا فى أنفسهم حملوا أوزارهم ، ولما أضلوا غيرهم حملوا وزر ضلالهم ، ووزر إضلالهم للغير .

ومعنى ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) ﴾ [محمد] أبطلها وجعلها غير ذات فائدة ، لأن معنى الضلال عدم الاهتداء إلى الطريق الموصِّل للغاية

وهؤلاء عملوا أعمالاً لا تعود عليهم بالنفع ، وما النفع فى الكفر وصدّ الناس عن الإيمان ؟

حتى الذين يفعلون الخير وهم خارج ساحة الإيمان لا يُقبل منهم ولا يشفع لهم هذا الخير فى الآخرة ، لأنهم ما فعلوه من منطلق الإيمان ، إنما فعلوه من منطلق الشهرة والسمعة والحضارة وخدمة البشرية إلى آخر هذه الشعارات .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] فهؤلاء هم الذين يُقال لهم يوم القيامة : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف]

وفى المقابل يقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا
بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ﴾

قلنا : إن المتقابلات يُظهر بعضها بعضاً ، وذكر المتقابلات من أسلوب القرآن ؛ ليحدث مقارنة بين الأمرين فتتضح الصورة كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا يقول فى مقابل الذين كفروا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. (٢) ﴾ [محمد] ولم يقل آمنوا بمَنْ ، لأن الإيمان أمر فطرى ، وساعة يُطلق ينصرف إلى الإيمان بالله ، لأنه هو الإيمان الأول .

والفعل آمن يتعدى بالباء تقول آمن به يعنى : اعتقد وجوده ، ويتعدّى باللام ، تقول آمن له : يعنى صدَّقه ، وقد يتعدَّى بلا حرف كما فى ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] وكلها تؤدى معنى الأمان والاطمئنان والسلام .

وقوله : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢) ﴾ [محمد] دائماً ما يقرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن الإيمان عمل القلب ، أما العمل الصالح فعمل القالب والجوارح ، فمن القلب والقالب يكون الامتثال إيمان قلب للعقيدة ، وإيمان قالب لطاعة الأمر ممن يعتقد به .

وسيد الجوارح كلها فى الإنسان هو القلب ، لأنه الآلة التى تضخ الدم وهو سائل الحياة إلى جميع أجزاء الجسم ، فإذا عَمُر القلب بالإيمان ضخَّه إلى كل الأعضاء فاستقامتْ .

لذلك قال ﷺ : « إن فى الجسد مضغة ، إذا صلُحتْ صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »(١) .

عمل القلب أنْ يؤمن بالله وبما يخبر الله به من الغيبيات : يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويؤمن بالقدر خيره وشره ، ثم يأتى عمل الجوارح ، فالعين لا تمدها إلى محارم غيرك ، واللسان

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير ، وهو ضمن حديث « إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه » الحديث .

لا تشهد به زوراً ، ولا تغتب به الناس ، ولا تقذف به المحصنات ، ولا تحلف به يميناً كاذبة .

والبطن لا تملؤها إلا من الحلال ، واليد لا تسرق بها ، ولا تقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، والرِّجْل لا تسعى بها إلى محرم .

إذن : كل جارحة لها عمل صالح ، ويجب أنْ تجنبها الحرام ، وهناك من العمل الصالح ما يشمل كل الجوارح وهو بر الوالدين .

لذلك قرنه الله بعبادته فقال : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

وفى سورة العصر بيان لأهمية العمل الصالح بعد الإيمان بالله ، فقال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر]

وقوله تعالى : ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢)﴾ [محمد] قوله تعالى : ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ .. (٢)﴾ [محمد] بعد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢)﴾ [محمد] دل على وجوب الإيمان بالرسل السابقين .

لذلك قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى]

ذلك لأن أصل الدين واحد وهو عبادة الله وحده ، فقضية الإيمان واحدة عند كل رسل الله ، ومن الإيمان بالله يتفرع الإيمان بالكتب وبالرسل وبالآخرة والحساب ، لأنك آمنتَ بالله .

لكن هل يخاطبك الله وحدك ويقول لك : افعل كذا ولا تفعل كذا ؟ لا إنما يختار للبلاغ عنه مَنْ يصطفيه من الرسل ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج]

اصطفى من الملائكة جبريل ليكون أمين وحيه ، واصطفى من الناس الرسل والأنبياء ، ففرع الإيمان بالله أنْ نؤمن برسل الله كلهم ، وأنْ نُسوِّى بينهم فى التعظيم .

وأذكر أن أحد المستشرقين سألنى فى سان فرانسيسكو : كيف تبيحون للمسلم أنْ يتزوج كتابية ، ولا تبيحون للكتابى أنْ يتزوج بمسلمة ؟ لماذا لم تجعلوها كالطعام والشراب[1] ؟ قلت لهم : لأن المسلم مؤمن برسول الكتابية ، أما الكتابىّ فهو غير مؤمن برسول من يريد أن يتزوجها (المسلمة) .

وقوله : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢)﴾ [محمد] أى : ما نزل على محمد هو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغيّر ولا يتبدَّل ، ثم تأتى ثمرة الإيمان ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)﴾ [محمد]

من رحمة الله بعباده أنْ شرعَ لهم التوبة ، وفتح لهم باب الاستغفار ، فهو سبحانه خالقهم وأعلم بهم وبما يصلحهم ، يعلم أن الإنسان من طبيعته الغفلة .

لذلك قال : ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. (١٥)﴾ [المائدة] وشرع لنا الكفارات ، فالصلاة إلى الصلاة ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى

---

(١) قال تعالى فى حل طعام أهل الكتاب : ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ .. (٥)﴾ [المائدة] .

رمضان ، كلها مُكفِّرات للذنوب وكأنها (أوكازيونات) للمغفرة حتى لا نيأس من رحمة الله ، ولا نتمادى فى المعصية .

فالمغفرة للذنوب رحمة يرحم اللهُ بها عباده حتى لا يدخلوا من باب اليأس وتنتشر المعصية وتستشرى بين الناس .

وقوله : ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ﴾ [محمد] كل المفسرين[1] يقولون يعنى : أصلح حالهم كله النفسىّ والمعنوى والمادى ، لكن فَرْق بين بال وحال : البال هو فى الواقع الخاطر الذى يخطر فى العقل ، تقول : هذا الشىء فى بالى يعنى : فى عقلى لا يفارقنى ، والإنسان عادة ما يشغل باله بالحالة التى هو فيها ، فالطالب مثلاً : يشغل باله بالنجاح والرسوب والكلية والعمل بعد التخرج ، فمَنْ أصلح الله باله انصلح حاله .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ (٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ .. (٣) ﴾ [محمد] إشارة إلى الجزاء الذى تقدم جزاء الكافرين الذين أضل أعمالهم ، وجزاء المؤمنين الذين كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، هنا يُبيِّن علة ذلك وسببه ، فالكافرون

(١) للمفسرين أقوال فى معنى ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ﴾ [محمد] :
– أى : أصلح شأنهم . قاله مجاهد وغيره .
– أى : أصلح حالهم . قاله قتادة .
– أى : أصلح أمورهم . قاله ابن عباس .
قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٢٧٥) : « والثلاثة متقاربة وهى متأولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم . وحكى النقاش أن المعنى : أصلح نياتهم . وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم » .

اتبعوا الباطل ، والمؤمنون اتبعوا الحق ، الباطل معدوم والحق ظاهر وثابت ، فمَنِ اتبع المعدوم ينعدم عنده كُلُّ خير ، ومن اتبع الحق الثابت الموجود يُوجد عنده كل خير .

لكن لماذا اتبع أهلُ الباطل الباطلَ ؟ اتبعوه لأنه ليس له تكاليف تُقيد شهواتهم ، وليس عنده محاذير ينبغى الوقوف عندها ، الباطل يطلق للنفس العنان لتخوض فى شهواتها وملذاتها ورغباتها .

بالباطل يسرق ويعيش على عرق بل دماء الآخرين ، بالباطل يحقد على غيره ويحسده ويقتله ، أما الحق فيمنعك من هذا كله ويُقيِّد عندك كل حركة منافية لمقتضيات الإيمان .

وإلا لماذا عُبدت الأصنام ، وعُبدتْ الشمس والقمر والنجوم ؟ نعم هم يعلمون أنها لا تضر ولا تنفع ، لكن ليس لها تكاليف تقيدهم ، لذلك عبدوها .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) ﴾ [محمد] ضَرْب الأمثال لَوْنٌ من ألوان البيان لتوضيح المعنى فى القرآن الكريم ، ففى المسائل التى تقف فيها الأفهام يُوضحها الحق سبحانه للناس بالمثل ليُقربها للأذهان .

كما ضرب لنا مثلاً للذين يتخذون الشركاء مع الله ، فقال سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

وأنت حين تقرأ هذا المثل يتضح لك مغبة الشرك وسلامة التوحيد ، فهما نقيضان لا يستويان ، كما لا يستوى عبد لعدة أسياد ، وليتهم متفقون إنما مختلفون فيما بينهم ، بحيث لا يستطيع إرضاء أحد منهم ، وآخر عبدٌ لسيد واحد .

وكما ضرب الله لنا مثلاً لنوره أو لتنويره للكون فى سورة النور :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

ومن الأمثال التوضيحية : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت]

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ(١) فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً(٢) حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا(٣) ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤)﴾

---

(١) أثخنتوهم : أعجزتموهم عن الحركة أو عن القتال بسبب جراحهم التى أصبتموهم بها .

(٢) اختلف العلماء فى نسخ وإحكام هذه الآية على خمسة أقوال :

الأول : أنها منسوخة . وهى فى أهل الأوثان لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم . قاله قتادة والضحاك والسدى وابن جريج والعوفى عن ابن عباس .

الثانى : أنها فى الكفار جميعاً وهى منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر منهم قتادة ومجاهد .

الثالث : أنها ناسخة . قاله الضحاك وغيره . ناسخة لقوله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ..(٥)﴾ [التوبة] .

الرابع : قول سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف . فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

الخامس : أن الآية محكمة والإمام مخير فى كل حال . رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء وهو مذهب مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيد وغيرهم وهو الاختيار لأن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٢٧٩] .

(٣) وضعت الحرب أوزارها أى أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره . وقيل : يعنى تضع أثقال=

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ..(٤)﴾ [محمد] أى : فى ساحة القتال ، ودارتْ بينكما رحَى الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ ..(٤)﴾ [محمد] المصدر ضرب بمعنى : اضربوا رقابهم .

والمراد : القتل سواء بضرب الرقاب أو غيره ، لكن ذكر ضرب الرقاب لأنه الآكد فى القتل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ ..(٤)﴾ [محمد] يعنى : أذهبتم حركتهم وأضعفتموهم عن المقاومة ، ومادة ثخن هى نفسها تخن ، أى : تماسك وصار ثقيلاً لا يتحرك .

نفهم هذا المعنى حينما نتأمل مثلاً ربة البيت وهى تطبخ أرزاً باللبن أو بصارة أو تغلى العسل لتصنع منه المربى ، فمع الغليان يتبخر الماء وتبقى مادة تخينة ثقيلة ، لذلك لا تتحرك مع الغليان ، وتكون حرارتها شديدة ، تقول : ثخن الشىء أو تخن .

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ..(٤)﴾ [محمد] يعنى : قيّدوهم واربطوهم بالسلاسل والحبال ، وأحكموا قيدهم ليكونوا أسرى فى أيديكم ولا يفروا . وهذا يعنى أنك إذا تمكنتَ منه لا تتركه ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ..(٤)﴾ [محمد]

إما أنْ تُطلقوهم وتُسرحوهم (مناً) بلا مقابل أو (فداءً) أى : تأخذون منهم الفدية . لكن متى ؟ تطلقون سراحهم بلا مقابل فى

= الشهداء لأنه عز وجل يمحصهم من الذنوب . وقال الفراء : أوزارها آثامها حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم . أى : انقضى أمر الحرب وخفت أثقالها فلم يبق قتال . [لسان العرب - مادة : وزر] .

حالة ما إذا تركوا أسرانا عندهم بلا مقابل ، وتأخذون الفدية إذا طلبوا هم أخْذ فدية لأسرانا عندهم .

وهذه يسمونها المعاملة بالمثل ، وهى ما انتهتْ إليه الأمم المتحدة الآن فى مثل هذا الموقف .

وقوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .. (٤) ﴾ [محمد]

الحرب هنا مجاز عن أصحابها وأهلها المشتركين فيها ، فالمعنى : افعلوا ذلك حتى تقف رَحَى الحرب ، ومعنى ﴿ أَوْزَارَهَا .. (٤) ﴾ [محمد] أى : يضعوا أثقال الحرب ، فالحرب ثِقَل على أهلها ومشقة .

لذلك قال الله فيها : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة] نعم فأنت فى الحرب مُعرَّض لأنْ تفقد مالك ، ولأنْ تفقد أهلك ، ولأن تفقد حياتك كلها إلى جانب ما فيها من متاعب ومشاق الكَرِّ والفَرِّ والضَّرْب والجَرْح .. إلخ .

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ .. (٤) ﴾ [محمد] غلبهم وانتقم منهم بقدرته ودون قتال منكم ، فهذا أمر هيِّن على الله ، كما وقع للأمم السابقة أهلكهم الله بعذاب من عنده وببأسه الذى لا يُردُّ عن القوم الكافرين ، فهذه ليستْ عجيبة ، بل واقع يشهد به التاريخ .

واقرأ : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

إذن : لماذا شُرع القتال وهو مكروه وفيه مشقة ؟ قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

فشرع القتال لإظهار قوة المؤمنين ، ثم لاختبار إيمانهم وثباتهم على الحق ، وتمييز المؤمنين من المنافقين ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ .. (٤) ﴾ [محمد]

أى : يبلو المؤمنين بالكافرين والكافرين بالمؤمنين ، ليمحص إيمان المؤمن لأنه صاحبُ رسالة وصاحبُ منهج ، وسيحمل مسئولية الدعوة يسيح بها فى كل أنحاء الأرض ، فكان لابُدَّ من تمحيصه ليظهر الغثَّ والثمين .

مَنْ سيصبر على آلام الحرب ويصمد ولا يفر ، مَنْ سيضحى بماله ونفسه ، والله حين يختبر يختبر ، لا ليعرف هو سبحانه ، فهو يعلم كل شىء لكن لنعرف نحن ، لتظهر مِيْزة هذه الأمة ومِيْزة هذه الرسالة ، وعظمة هذا النبى الخاتم الذى بُعِثَ للناس كافّة فى كل زمان وفى كل مكان .

ولا بد أنْ يكون أتباعه على مستوى هذه المسئولية وأهلاً لتحمُّل أعباء الرسالة بعد سيدنا رسول الله ﷺ .

ولذلك رُوى أن سيدنا مصعب بن عمير [1] كان فتى قريش المدلل ،

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشى من بنى عبد الدار صحابى من السابقين إلى الإسلام ، أسلم فى مكة وكتم إسلامه فعلم به أهله فأوثقوه وحبسوه ، هاجر إلى المدينة فكان أول من جمع الجمعة فيها أسلم على يده أسيد بن حضير . وسعد بن معاذ . كان فى الجاهلية فتى مكة شباباً وجمالاً ونعمة ، كان يلقب [مصعب الخير] توفى عام ٣ هـ [الأعلام للزركلى ٧/٢٤٨] .

وكان يغدو ويروح عدة مرات ، كلَّ مرة بثوب جديد تفوح منه رائحة العطر ألواناً ، فلما أسلم تغيَّر حاله ، وأرسله رسول الله إلى المدينة ليعلم الناس ، فارتدى الثياب الخشنة ، وزهد فيما كان فيه من نعيم الدنيا .

فلما علمتْ أمه بحاله حزنتْ عليه وأضربتْ عن الطعام وجلست فى حَرِّ الشمس لتثنى ابنها عما هو فيه وتعيده إلى دين الآباء والأجداد ، فلما علِمَ مصعبٌ بصنيع أمه قال لهم قولوا لأمى : والله لو كان لها مائة نفس خرجتْ نفساً نفساً على أنْ أترك هذا الدين ما تركته ، ودعوها فإنْ عضَّها الجوع أكلتْ ، وإن أحرقتها حرارة الشمس استظلت[1] .

وأقام مصعب بالمدينة حتى جاء رسول الله ﷺ فرآه يلبس جلد كبش ، فقال : « انظروا ما فعل الإيمان بصاحبكم » .

إذن : الحرب فى الإسلام لحكمة ، فهى مثل النار التى تنفى خبث الذهب والحديد فيصير صلباً ، لذلك أعدَّ الله هذه الأمة لتكون أمة قتال وشجاعة حتى قبل بعثته ﷺ .

فلما اضطر سيدنا رسول الله للحرب لم يدرب جنوداً ، ولم يفتح كلية حربية ، إنما وجد رجالاً متمرسين فى فنون القتال ، لأن

(١) ذكره الشامى فى سبل الهدى والرشاد (١١/٣١٥) والذهبى فى (سير أعلام النبلاء) (١/١٠٩) وابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٠/٣٣١) وابن الأثير فى أسد الغابة (١/٤٣٩) وابن كثير فى البداية والنهاية (٨/٨١) ولكن فى حق سعد بن مالك بن أبى وقاص وليس مصعب بن عمير .

الحروب التى كانت تنشب بين القبائل وتستمر زمناً يصل إلى أربعين سنة[1] جعلتْ من هذه الأمة جيشاً على أُهْبة الاستعداد ، فكانوا كلما سمعوا هيعة طاروا إليها .

ثم إنها كانت أمة بدوية تعيش على الترحال ، بيوتهم على ظهور الجمال يتبعون مساقط الأمطار ومنابت العُشْب ، وكأن الله تعالى كان يُعدهم لحمل هذه الرسالة .

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤)﴾ [محمد]

الذين قُتلوا فى سبيل الله هم الشهداء ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤)﴾ [محمد] لن يبطلها بل يُوفيهم أجورهم ويُثيبهم عليها ، لأن الشهيد وهب حياته لله وضحى بأغلى ما يملك فى سبيل الله ، لذلك يجازيه بما لا يخطر على باله من الإكرام والتفضيل .

يجازيه بقاعدة ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا.. (٨٦)﴾ [النساء] فلأنه جاد بنفسه فى سبيل الله يُبرئه الله من الموت مرة أخرى إذن : حياته موصولة بحياة الآخرة ، فالشهيد بعد أنْ يقتل فى الدنيا يصير حياً عند الله إلى أنْ يُبعث بهذه الحياة فى الآخرة .

وهذا المعنى تنبه إليه الشاعر العربى وهو يمدح حمزة سيد الشهداء فقال :[2]

أحَمْزَةُ عَمّ المصْطَفى وسيِّد الشُّهَداء أجْمعهم طُرّا
وَحَسْبُكَ مِنْ تلكَ الشَّهادة عصْمةٌ مِنَ الموت فى وَصْل الحياتيْن بالأُخرى

(١) مثل هذه الحروب حرب داحس والغبراء وكانت قبل الإسلام بخمسين عاماً ، وقد كانت بين قبيلتى عبس وفزارة .
(٢) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

لذلك الذين يعترضون على حياة الشهيد ويقولون : هل لو فتحنا القبر على شهيد سنجده حياً ؟ لا ستجده ميتاً ، لكن هذه نظرة ضيقة لمسألة الحياة والموت ، ولتريح نفسك اقرأ : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران]

وتأمل كلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩)﴾ [آل عمران] ولم يقل عندكم : إنما عند ربهم أحياء بحياة لا يعلمها إلا هو سبحانه ، فهذه من الغيبيات التى يجب التسليم بها ، فهو حَىٌّ عند ربه وإنْ كان ميتاً عندكم .

ثم فى قوله ﴿يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران] دليل آخر على حياته ، لأن الرزق من أسباب استبقاء الحياة .

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

كيف سيهديهم وهم مهتدون ؟! وما نالوا الشهادة إلا وهم مهتدون ، فالهداية هنا من باب ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧)﴾ [محمد] يهديهم إلى الجنة أو إلى الاعتراف بفضله وشكره على نعمته .

لذلك حكى عن أهل الجنة : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ .. (٧٤)﴾ [الزمر] وقال عن أهل النار والعياذ بالله : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)﴾ [الصافات]

فهؤلاء يهدون إلى النعيم وهؤلاء يهدون إلى الجحيم .

ومن هذه الهداية يعرف الشهيد قصره فى الجنة بدون عنوان ، فهو يعرفه لا يدله أحدٌ عليه[1] لذلك قال سبحانه بعدها : ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا[2] لَهُمْ (٦)﴾ [محمد] ومعنى ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ [محمد] أى : يصلح حالهم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

هذه قضية معاركية قتالية بالنسبة للمسلمين ، وهى قضية واقعة ومبدأ لا يتخلف ، وسنة من سنن الله لا تتبدّل ما دام شرط الجندية قائماً لله ولنصرة دين الله .

لذلك قلنا : إذا رأيتَ انهزام المسلمين فى معركة فاعلم أنهم لم يحققوا شرط الجندية لله ، وابحث فيهم هم عن سبب الهزيمة ، لأن سنة الله فى نصرة الفئة المؤمنة سنة ثابتة .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقضى لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة ، فو الذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا » [أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٤) وأحمد فى مسنده (١٠٦٧٣، ١١١٢٣ ، ١١١٧٥، ١١٢٨١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٥٠) وعبد بن حميد فى مسنده (٩٣٨)] . وقال القرطبى (٩/ ٦٢٨١) : « أى : إذا دخلوها يقال لهم : تفرقوا إلى منازلكم فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم » . قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين .

(٢) (عرَّفها لهم) أى بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال ، قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة فى الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها ، وقال ابن عباس : (عرفها لهم) أى : طيَّبها لهم بأنواع الملاذ . مأخوذ من العرف وهو الرائحة الطيبة ، وطعام مُعرَّف أى مُطيَّب . [القرطبى ٩/ ٦٢٨٢] .

الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] لذلك رأينا ما حدث فى غزوة أحد عندما خالف الرماة أوامر رسول الله ﷺ وخرجوا عن شرط الجندية[١] .

كذلك الحال يوم حنين الذى قال الله فيه : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة]

حتى إن الصِّديق نفسه لم يسلَم من مشاعر الإعجاب بالعدو ، فقال : لن نُهزم اليوم عن قلة ، فلما داخلهم الغرور بالعدد والإعجاب بالكثرة حلَّتْ بهم الهزيمة فى أول الأمر .

لكن تداركتهم رحمة الله ، فانتصروا فى نهاية المعركة ، وكأنه كان تأديباً من الله لعباده المؤمنين ودرساً عملياً حتى يدخلوا الحرب ، وليس فى بالهم إلا الله ، ونُصْرة دين الله .

وقوله : ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد] تثبيت الأقدام كنايةٌ عن الثبات فى المعركة ، وكناية عن القوة ، لأن الأقدام هى أداة الفرار من الحرب ، فإذا ثبَّتها الله ثبتت ولم تفر ، لذلك أمانة القدم ألاّ تفرَّ يوم الزحف .

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) عن البراء قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله وقال : « لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله : عهد إلىَّ النبى ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً » الحديث بتمامه . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٣٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣) ، (١٧٨٥٩) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ﴾

هذا هو المقابل ، فبعد أنْ ذكر المؤمنين ووعدهم بالنصرة ذكر الكافرين وما يحل بهم من التعس ، والتعس هو الانكباب على الوجه[١] الذى هو أشرف ما فى الإنسان ، لذلك فى التعبير عن الذلة والانكسار يقولون : مرَّغ أنفه فى التراب .

إذن : ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ .. (٨) ﴾ [محمد] يعنى : ذلة أو هلاكاً لهم . وإهانة الوجه هى أشد ما يمكن أن يُهانَ به المرء ، لذلك قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ .. (٧) ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ﴾ [محمد] أحبطها وأبطلها بحيث لا فائدة منها ، لأنهم ما عملوها لله .

والمراد أن أعمالهم الطيبة تذهب هَباء لا يستفيدون منها بشيء : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾

قوله : ﴿ ذَلِكَ .. (٩) ﴾ [محمد] إشارة إلى ما تقدم من جزاء الكافرين من التعس وإحباط الأعمال ﴿ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. (٩) ﴾ [محمد] هذا سبب إحباط الأعمال . لكن لماذا كرهوا ما أنزل الله ؟

(١) قاله ابن السكيت : التعس أنْ يخر على وجهه . والنكس أن يخر على رأسه . وقد أورد القرطبى فى تفسيره (٩/٦٢٨٣) عشرة أقوال فى معنى قوله ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ .. (٨) ﴾ [محمد] وكلها أقوال متقاربة المعنى تدور حول الهلاك والشقاء والخيبة .

كـرهوا مـا أنزل الله ، لأن منهج الله سـيسحب بـساط السـيادة والجبروت مـن تحـت أقـدامهـم ، سيُسوِّى بينـهم وبـين عبيدهم بعد أنْ ألفوا السيادة والمكانـة بل والتسلط على الخَلْق ، لذلك كرهوا الحق لما جاءهم به رسول الله .

ولما ذهب سيدنا رسول الله ﷺ إلى المدينة ، كانوا يجهزون عبد الله بن أُبى ليتوِّجـوه ملكاً على المدينة[1] فلما وصل رسول الله انفضَّ عنه القوم وشُـغلوا بمقـدم رسول الله ، وظلت هذه فى نفس عـبد الله واستمر فـى عدائه للرسول حتى بعد أنْ أعلن إسلامـه لم يخلص فيه وكان منافقاً مشهوراً نفاقه .

ومع ذلك له ابن أسلم وحَسُن إسلامـه وصحب رسول الله ، فلما علم أن رسول الله أمر بقـتل هذا المنافق جاء لرسول الله ، وطلب منه أنْ يأذن له فى قتله حتى لا يقتله رجلٌ آخر من الصـحابة ، فيجد فى نفسـه شيئاً منه ، فلـما قال هذا أبى رسول الله إلا أنْ يرحـمه ، وأنْ يُعفيه من هذا فقال : لا تقتلوه وأرجئوه إلى الله[2] .

(١) ذكـره السـهـيلى فى (الروض الأنف) (٣/١٨) أن الأنصـار كـانوا قـد نظمـوا الخـرز لعبد الله بن أبى بن سلول ليتوجوه ويملكوه عليهم .

(٢) ذكره ابن كثيـر فى (البداية والنهاية) (٤/١٨١) قال قال ابن إسحـاق : حدثنى عاصم ابن عمـر بن قتادة أن عـبد الله بن عبـدالله بن أبىّ بن سلول أتى رسول الله ﷺ فـقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبدالله بن أبى فيـما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمر لى به فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقـد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بـكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

وقوله : ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾ [محمد] قلنا : أبطلهـا ، إما أعمـالهم وتدبيرهم وكـيدهم للمسلمين بأن انتصـر المسلمـون عليهم وجعل الله كيدهم فى نحورهم . أو : أحبط أعـمالهم الصالحة لأنهم ما ابتغوا بها وجه الله .

ومعلـوم أنه كان من هؤلاء مَن له أعـمال صـالحة لها وزنـها فى مجتمعهم ، فيُروى أن ابن جـدعان والمطعم بن عدى كانت لهما قدور للطعـام يمكن أنْ يسـتظل الرجل بظلهـا ، فكانت لهم مـآثر فى الكرم والشجاعـة وإغاثة الملهوف وغير ذلك ، لكن مـا فعلوا هذا لله فذهب هباءً .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [محمد] استفهام غـرضه التـعـجب من صنيع الكافـرين ، كيف يـكفرون بالله وهم أمـة ترحال وأسفار ، ويمرون فى أسفارهم على بقايا ديار الأمم المكذّبة ، ويرون ما نزل بهـا من العذاب وكـيف أخذها الله ، أفلم يأخـذوا منها عبرة !!؟

قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ

أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : خذوا عبرة من واقع الحياة ، أرأيتم رسولاً انهزم أمام خصومه ؟

إذن : فليأخذوا عبرة من الأمم السابقة ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد] ماذا فعل الله بهم ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد] دمرهم الله لها معنى . يعنى : أهلكهم فى أنفسهم ، إنما دمَّر عليهم يعنى : خرب عليهم وأطبق عليهم العذاب ، فدمّرهم ودمَّر أموالهم ودمَّر أهلهم ولم يُبْقِ لهم على شىء .

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد] يعنى : هذا المصير ليس ببعيد عنكم يا كفار مكة فاحذروا ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود]

ثم يقول الحق سبحانه(1) :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [محمد] أى : ما حدث من انتقام الله من الكافرين ونجاة المؤمنين ونُصْرتهم ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [محمد] مولاهم يعنى : الذى ينصرهم ويلى أمورهم ، وهو سبحانه عزيز لا يُغلب ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ [محمد]

(1) قال قتادة : نزلت يوم أحد والنبى ﷺ فى الشِّعب ، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبى ﷺ : « لا قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٢٨٥] .

لا ناصر ولا معين ، لأنهم عبدوا آلهة لا تضرّ ولا تنفع .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ(1) وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يحدثنا هنا عن عمل أهل الإيمان وعاقبته ، وعمل أهل الكفر وعاقبته ، فالمؤمن عمر قلبه بالإيمان ، وعَمُرت جوارحه بالعمل الصالح ، فكان العاقبة ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد] حيث النعيم الدائم الذى لا ينفد أبداً .

ومعنى ﴿ مِن تَحْتِهَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد] أن ماءها ذاتى فيها متوفر لها لا يأتيها من بعيد ولا يخشى انقطاعه .

أما الكافرون فيأكلون ويتمتعون بالطعام والشراب يملأون به بطونهم وقوالبهم ، أما القلوب فهى خاوية خراب من المعانى ومن الإيمان .

إذن : فهم يعيشون عيشة أشبه ما تكون بعيشة الحيوانات والبهائم ، فعندهم تخمة فى المادة ، وعندهم فقر فى المعانى والقيم ، هذا حالهم فى الدنيا ، ثم تأتى العاقبة والجزاء الطبيعى ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد] يعنى : مآلهم ومرجعهم ومستقرهم ومصيرهم .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

(1) النَّعم : كل ما يؤكل لحمه ويُشرب لبنه وجمعه أنعام . [القاموس القويم ٢/٢٧٥] .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن .. ⦗١٣⦘ ﴾ [محمد] يعنى : كثير من القرى ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ⦗١٣⦘ ﴾ [محمد] المراد هنا مكة ، فهى التى أخرجت رسول الله ﷺ ، وأين هى من القرى التى أهلكها الله وكانت أشد منها وأكثر عدداً وحضارة وعمارة .

كما قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا .. ⦗٩⦘ ﴾ [الروم]

أين هم من عاد التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، أين هم من هؤلاء المهلكين ؟ ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ⦗١٣⦘ ﴾ [محمد] فلا مدافع عنهم يردُّ عنهم العذاب .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ⦗١٤⦘ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقرر هذه الحقيقة ، لكن يأتى بالقضية على صورة سؤال : هل يستوى هذا وذاك ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ .. ⦗١٤⦘ ﴾ [محمد] يعنى : على هُدى وعلى حجة ونور من ربه .

والرب هو الخالق وهو المربِّى ، وما بالك بالتربية إنْ كانت من الله ، لذلك قال ﷺ فى سياق بيان فضل ربه عليه : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

(١) ذكره السخاوى فى المقاصد الحسنة (١/١٦) وعزاه للعسكرى فى الأمثال . وقال : سنده ضعيف جداً وإن اقتصر شيخنا [يقصد ابن حجر العسقلانى] على الحكم عليه بالغرابة فى بعض فتاويه ولكن معناه صحيح . وقال ابن تيمية : لا يُعرف له إسناد ثابت . وذكره ابن الجوزى فى الأحاديث الواهية من حديث على وقال : لا يصح .

ومعنى ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ .. ⦗١٤⦘ ﴾ [محمد] على أمر واضح ، ويقين ثابت ، ومنهج مستقيم ، يضمن له الخير فى الدنيا والسلامة فى الآخرة . هل يستوى هذا مع مَنْ زُيِّن له سوء عمله واتبع الشهوات والأهواء ؟ لا بد أنك ستقول : لا يستويان .

ومن أشدّ الفتن التى يقع فيها الإنسان أنْ يُزين له هواه سوء عمله فيراه حَسَناً ، والهوى هو الميل والرغبة التى تميل بك عن الطريق المستقيم ، لذلك قالوا[1] : آفة الرأى الهوى ، لذلك مدح الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ⦗٣⦘ ﴾ [النجم]

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى ضرب الأمثال ، فيقول سبحانه :

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[2] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا[3] فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ⦗١٥⦘ ﴾

كلمة ﴿ مَثَلُ .. ⦗١٥⦘ ﴾ [محمد] تقال بكسر الميم ، حينما تُشبِّه مفرداً بمفرد . تقول : هذا مِثل هذا ، وبالفتح حينما تُشبِّه صورة لها

(١) قاله أكثم بن صيفى ضمن خطبة له فى وفوده على كسرى ، ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد (١/٩٧) .

(٢) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته فهو آسن . [القاموس القويم ١/٢٠] .

(٣) حمَّ الماء : اشتدت حرارته فهو حميم أى ساخن شديد الحرارة . [القاموس القويم ١/١٧٣] .

أجزاء بصورة أخرى لها أجزاء ، لذلك هنا يقول تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥) ﴾ [محمد] بفتح الميم ، لأنها تمثل جمعاً وصورة كلية لها عناصر وأجزاء متعددة .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٥) ﴾ [الكهف] أى : بما فيها من الميلاد إلى الموت ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

والمثل تشبيه تلحق فيه مجهولاً لك بمعلوم عندك ، لذلك سيدنا رسول الله لما سُئِلَ عن أوصاف سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام شبَّههما بما هو معلوم للصحابة ، فقال : أما موسى فرجل طوال كأنه من رجال أزد شنوءة [1] ، وهى معروفة عندهم ، وأما عيسى فكثير خيلان الوجه - يعنى فى وجهه حسنات كثيرة - يقطر وجهه ماءً كأنما خرج من ديماس [2] يعنى : من حمام ، وأشبهه من أصحابى عروة بن مسعود الثقفى ، إذن : شبَّه المجهول بما هو معلوم .

كذلك ضرب رسول الله لنا الأمثال ليوضح لنا أمور الدين ، فقال فى حديثه : « إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب

(١) أزد شنوءة : هم أبناء كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد . وهم حالياً قبائل غامد وأبناء عمومتهم من زهران . وشنوءة بالهمز من الشنآن وهو التباغض . قال ابن دريد : وبه سمى أبو هذا الحى من الأزد . وقال الخفاجى : سموا بهذا لعلو نسبهم وحسن أفعالهم . من قولهم : رجل شنوءة أى طاهر النسب ذو مروءة . أصلهم من اليمن .

(٢) الديماس : الحمَّام . وبهذا جاء الحديث فى وصف المسيح عليه السلام أنه سبط الشعر كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس ، يعنى : فى نضرته وكثرة ماء وجهه . وقال فى وصفه : كأن رأسه يقطر ماء .

والفراش يقعن فيها وهو يذبُّهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدى » [1] .

وكلمة ﴿ الْجَنَّةِ .. (١٥) ﴾ [محمد] فى أصلها تعنى الشىء المستور ومنها الجن ، وجنَّ الليل ، حتى جنة الدنيا تحمل هذا المعنى ، لأنها قطعة الأرض المليئة بالأشجار متشابكة الأغصان بحيث تستر وتُخفى ما فيها ، أو تجنّ صاحبها يعنى تستره وتمنعه من الخروج منها حيث توفر له كلَّ متطلبات حياته .

والحق سبحانه ضرب المثل بها : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ [2] فَطَلٌّ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

والفرق بين الجنتين أن جنة الدنيا من صُنع البشر ومباشرة الأسباب فى الحرث والزرع ، أما جنة الآخرة التى وعدها الله المتقين فهى قائمة بلا أسباب ، قائمة بقدرة المسبِّب ، لذلك حدث اختلاف فى الجنة التى دخلها سيدنا آدم عليه السلام : أهى جنة الدنيا ، أم جنة الآخرة ؟

حينما نقرأ هذه القصة فى كتاب الله نعلم أنها جنةُ الله جنة الآخرة ، بدليل أنه لم يحرث فيها ولم يزرع ، ولم يباشر أسباباً ، إنما أكل مما

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٢٣٤ ، ٤٢٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وأخرجه مسلم (٤٢٣٦) والترمذى فى سننه (٢٧٩٩) من حديث جابر بن عبد الله .

(٢) الوابل : المطر الغزير . إذا كثر وعظم قطره . [القاموس القويم ٢/٣١٧] .

أعده الله له ، وكان فى أمان ذاتى مدة إقامته على طاعة أمر الله فى الأكل .

فلما أغواه الشيطان أنْ يأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها حدث له تغيُّر فى الوضع الطبيعى الذى كان فيه ، ورأى من نفسه مسألة الإخراج التى لم يألفها من قبل ، وتنبه إلى عورته وراح يسترها بورق الأشجار هو وزوجه .

وكانت هذه المسألة عملية تدريب لآدم على احترام المنهج وعدم الخروج عليه ، ونحن نفهم أيضاً كذلك أنه لا تظهر عورة فى المجتمع المسلم إلا حين يحدث انحراف عن المنهج ، وآدم عليه السلام لم يكُنْ رجلاً عادياً ، إنما كان نبياً رسولاً ، فأراد الحق سبحانه أنْ يعلمه الدرس بصورة عملية .

وقوله تعالى : ﴿ وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥) ﴾ [محمد] أى : وعدهم الله بها ووَعْد الله حَقٌّ نافذ ، لأنه إله واحد ليس معه شريك يعارضه ، ولا توجد قوة تحول بينه سبحانه وبين إنفاذ ما وعد ، كما يحدث مثلاً فى وعد البشر بعضهم لبعض ، لأن البشر يطرأ عليهم التغيير ويلحق بهم الموت .

أما الحق سبحانه فهو الدائم الباقى وهو الحق .

والجنة وَعْد الله لا يعد بها غيره ، يعد مَنْ ؟ يعد بها المتقين ، والمتقى هو الذى يسير وفق منهج الله ، وأنْ يَجعل بينه وبين عذاب الله وقاية ، ولا يكون ذلك إلا باتباع المنهج وعدم اتباع الشيطان والهوى .

قال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ [البقرة]

ووَعْد الله وعد الصدق ووعد الحق قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) ﴾ [النساء]

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ .. (١٥) ﴾ [محمد] يعنى : أن هذا الوصف ليس وَصْفاً للجنة ، لكن مثل يُقربها للأذهان ، لأنه لو أراد أنْ يعطينا وصفاً للجنة على حقيقتها لن يصل إلى ذلك إلا من خلال الألفاظ التى تعبر عن المعانى .

ومعلوم فى اللغة أن المعنى يُوجد أولاً ، ثم نضع له اللفظ الدال عليه ، والنبى ﷺ لما وصف لنا الجنة قال : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

أولاً : تأمل فى الحديث هذا الترقى فى الحواس والإدراكات ، فالعين ترى ما كان فى مجال الرؤية ، أما الأذن فتسمع ما تراه أنت وما يراه غيرك ، وأوسع من هذا كله ما يخطر بالبال أو القلب .

فإذا كنا لا نصل بإدراكاتنا إلى ما فى الجنة ، ولا حتى يخطر لنا على بال ، فكيف نصفه ؟ وكيف نضع له الألفاظ المعبِّرة عنه ؟

إذن : هذا ليس وصفاً لحقيقة الجنة ، إنما مجرد مثل يقربها من أفهامنا ، لذلك قال تعالى عن الجنة : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦ ، ٤٤٠٧ ، ٦٩٤٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠ ، ٥٠٥١ ، ٥٠٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

إذن : فيها أشياء لا نعرفها ، فكيف نضع لها أسماء ؟ لذلك نقربها بمثل مما نعرفه فى الدنيا .

ففيها كما فى الدنيا ماء ولبن وخمر وعسل ، لكنه مُشذَّب ، ومُصفّى من كل ما يشوبه ، فلا يشبه نعيم الدنيا إلا فى الأسماء ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥) ﴾ [محمد]

فماء الدنيا يأسن ويعطن وتتغير رائحته ، أما ماء الجنة فماء غير آسن ، وبدأ بالماء لأنه الأصل فى الارتواء من العطش ، وبه ينضج الطعام ، وبه تتم نظافة الإنسان ، بل هو عنصر أساسى فى خلق كل كائن حى ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء]

وإذا كنا نعرف أن مصدر الماء العذب فى الدنيا هو البحار ، وبعملية البخر وتكوّن السحب يُنقّى من الملوحة فيصير عذباً صالحاً ، فماء الجنة لا نعرف مصدره .

قال الله عنه ﴿ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ﴾ [الفرقان] لا تشوبه شائبة ، ولا تلحق به مُلوِّثات تفسده ، إذن : نعمة لا يُنغِّصها شىء ولا تشوبها شائبة ، لأنك فى الدنيا تعيش بأسبابك التى خلقها الله لك .

ومنا مَنْ يعكر صفو هذه الأسباب ، أما فى الآخرة فأنت تعيش بالمسبِّب سبحانه مباشرة ، أنت تستضىء فى الدنيا بالشمس نهاراً ، وبالقمر والنجوم ليلاً ، أما فى الآخرة فلا شمسَ ولا قمر ولا نجوم ، إنما تعيش بنور الله ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر] يعنى : بلا أسباب .

كذلك الماء تأخذه فى الدنيا بالأسباب ، وفى الجنة بلا أسباب ،

واقرأ قوله تعالى عن الماء فى الدنيا : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[١] فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقال عن ماء الجنة : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) ﴾ [الإنسان]

وفرْق فى المعنى بين (أسقى) و(سقى) : أسقى : أوجد الماء الذى نستقى منه إنْ أردنا السُّقْيا . فينزل الماء من السحاب فنحجزه وراء السدود حتى نحتاج إليه ، لكن (سقى) باشر السُّقيا بالفعل .

ومن العجيب فى أنهار الجنة أنها ليس لها شُطآن ، وأنها متداخلة دون أنْ يختلط بعضُها ببعض ، ولا تسأل هنا عن كيفية ذلك ، لأن هذا النعيم لا يقوم بالأسباب التى نعرفها ، بل بالمسبِّب سبحانه ، فلا يحكم عليها حكمك على مثلها فى الدنيا . وقوله : ﴿ فِيهَا .. (١٥) ﴾ [محمد] أى : أنها ظرف لهذه الأنهار .

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ .. (١٥) ﴾ [محمد] ولبن الدنيا يتغير طعمه بمرور الوقت ويفسد ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] نعم أنهار من خمر مُعدَّة وجاهزة ، ليس هناك عنب يُعصر ، إنما يكُنْ فيكون .

وإذا كانت خمر الدنيا مُحرَّمة ، وتذهب بالعقل ولها رائحة كريهة ، فخمر الآخرة لها لذة عند شربها ولا تذهب بالعقل ، فليس لها من خمر الدنيا إلا اسمها .

وليس فى الدنيا أنهار من خمر لأن خمر الدنيا بالأسباب ، فهو كميات قليلة بمقدار ما يُعصر من العنب أو غيره ، والحق سبحانه لما

(١) أرسلنا الرياح لواقح : حوامل ، مفردها لاقح ، فهى تحمل الماء والسحاب وتقلبه وتصرِّفه . [لسان العرب – مادة : لقح] .

تكلم عن خمر الدنيا قال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

فالمنافع لا قيمة لها إذا ما قورنت بالمضار والحرمة ، صحيح هى تُشعرك بشىء من النشوة أو السعادة ، وتضحك وتفرح وتنسى همومك ، لكنها بعد ذلك تغتال عقلك وتسلبك وقارك .

فإذا أضفتَ إلى ذلك أنها محرمة ، وأنها من أكبر الكبائر بان لك ضررها . صحيح فيها ربح لمَنْ يتاجر فيها ، لكنه ربح حرام ، لذلك جعل الله خمر الدنيا قليلة ، أما خمر الآخرة فأنهارٌ لأنها فى الآخرة لذة للشاربين .

﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾ [الصافات] يعنى : لا تغتال العقل ، ولا ينتج عن شُربها أضرار ، والنزف هو إخراج شىء من شىء كمن يقيىء مثلاً بعد شربها ، أو يصيبه دوار أو صداع .

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد] إذن : ذكر الماء أولاً لأهميته بالدرجة الأولى ثم اللبن ، لأنه يُحمل محمل الماء حتى يوجد الماء ، وهو عنصر أساسى فى الغذاء ، ثم ذكر الخمر ، لأن الإنسان بعد أنْ يأكل ويشرب يحتاج فى كمال السعادة كأساً من هذه الخمر .

أما العسل فيأتى فى آخر هذه القائمة لأن الله تعالى قال فيه : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ (٦٩) ﴾ [النحل] إذن : الميزة التى تُميِّز العسل ليست فى طعمه وحلاوته ، بل فى كونه شفاء ، والجنة لا مرض فيها . إذن : يشرب فى الجنة للذته وجمال طعمه .

ومعنى ﴿ مُصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد] ليفرِّق بينه وبين عسل الدنيا

الذى لا يخلو من شوائب ، لأن الإنسان يجمعه من الجبال ، فهى أول مسارح النحل ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾ [النحل]

والعالم الأمريكى الباحث فى حياة النحل وجد أن نحل الجبال هو أقدم أنواع النحل ، وما دام من الجبال فلا يخلو من شوائب ، أما عسل الجنة فمصفًّى بقدرة الذى أعدَّه سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١٥) ﴾ [محمد] بعد أنْ ذكر الحق سبحانه ما فى الجنة من السوائل يذكر ما فيها من الثمرات دون أنْ يسميها لأننا لا نعرفها .

لذلك قال فى آية أخرى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] يعنى : ثمار متشابهة ، لكن مختلفة المذاق ، حتى لما أعطانا مثالاً بالعنب والعموميات ، فهى فى الجنة غير الذى نعرفه فى الدنيا .

وإذا كانت الثمار عندنا لها بيئات تجود فيها ولها مواسم ، فثمار الجنة موجودة فى كلِّ الأوقات ، فالبيئات فى الدنيا من الأسباب ، أما الآخرة فبالمسبِّب سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. (١٥) ﴾ [محمد] بعد أنْ أعطانا ربنا سبحانه لذة المادة والقالب فى الجنة يعطينا لذة أعلى هى لذة نَيْل المغفرة من الله كرماً وتفضلاً ، لأنهم ما دخلوا الجنة إلا بالمغفرة ، لكن قد يذكر أحدهم ذنبه فيقول له : أنت مغفور لك .

وقد ورد فى الحديث القدسى أنه بعد أنْ يدخل أهل الجنة الجنة يسألهم ربُّ العزة سبحانه : أرضيتم يا عبادى ؟ فيقولون : وما لنا لا

نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا كذا وكذا فيقول : الآن أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً[1] .

ثم يضعنا الحق سبحانه أمام هذه المقارنة بين أهل الجنة وأهل النار ، فيقول : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا[2] فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾ [محمد] يعنى : أيهما أفضل ، واحكم أنت وسنرتضى حكمك .

هذه هى الجنة أو مثل لها : أتستوى مع مقابلها وهو الخالد فى النار ؟ ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾ [محمد] فكما ذكر الماء أولاً فى الجنة ذكره أيضاً أولاً فى النار والعياذ بالله .

وكلمة ﴿ سُقُوا .. (١٥) ﴾ [محمد] ولم يقُلْ شربوا لأن الشرب طواعية واختيار ، إنما ﴿ سُقُوا .. (١٥) ﴾ [محمد] يعنى : رغماً عنهم ودون إرادتهم ، مثل ما تعطى الولد الصغير الدواء فتسقيه له على كُرْه منه .

﴿ مَاءً حَمِيمًا .. (١٥) ﴾ [محمد] الماء معروف أنه يُشرب للارتواء ويُشرب بارداً ، أما ماء جهنم والعياذ بالله فهو حميم يعنى : تناهتْ حرارته ، فكيف بهم وهم فى النار ويريدون أنْ يُبردوا حرارة أجوافهم فيسقوْن الحميم الذى يزيدهم حرارة فوق حرارة النار .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٧) ، (٦٩٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ولفظه عند مسلم أن النبى ﷺ قال : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

(٢) حَمَّ الماء : اشتدت حرارته فهو حميم أى : ساخن شديد الحرارة [القاموس القويم ١/١٧٣] .

يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

ثم يبين أثر هذا الماء الحميم ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾ [محمد] وليتها قطعتْ وانتهت المسألة ، إنما هم فى عذاب مقيم دائم لا يُفتَّر عنهم .

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] والأمعاء جمع معى بكسر الميم ، وقد ورد فى الحديث الشريف قول سيدنا رسول الله : « المؤمن يأكل فى معىً واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] يعنى : المؤمن يأكل على قدر حاجته أو فى أكله وفى طعامه بركة ، أما الكافر فيأكل حتى تمتلىء بطنه .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ (١٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم .. (١٦) ﴾ [محمد] ممَّنْ ؟ ستعرف بعد أن تقرأ أوصافهم ﴿ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. (١٦) ﴾ [محمد] يستمع إلى رسول الله وهو يقرأ القرآن ﴿ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ .. (١٦) ﴾ [محمد] يا محمد ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (١٦) ﴾ [محمد] أمثال ابن مسعود وابن عباس ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] يعنى : ما الجديد فيما قاله محمد ، كأنهم يحتقرون ما سمعوه من رسول الله .

(١) حديث صحيح . أخرجه مالك فى موطئه (١٤٤٢) والبخارى فى صحيحه (٤٩٧٧ ، ٤٩٧٨) وكذا ابن ماجه فى سننه (٣٢٤٧) وأحمد فى مسنده (٧١٨٤ ، ٩٠٠٨ ، ٩٢٤٨ ، ٩٤٩٦) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى الباب عن ابن عمر وأبى موسى الأشعرى .

هذه إذن ليست صفات الكافرين ، لأن الكافرين لم يكونوا يستمعون للقرآن ، إنما هى صفات المنافقين الذين كانوا يشاركون المسلمين صلاتهم ومجالسهم ويذوبون فيهم بخبث ودهاء ، لكن كان القرآن ينزل على رسول الله فيكشفهم .

لذلك كان النفاق أسوأ وأضرَّ على المسلمين من الكفر ، فالكافر معلوم أنه عدو ظاهر العداوة ، ويمكن أنْ تحتاط له ، أمَّا المنافق فواحد من الجماعة المسلمة يعلن الإسلام ويبطن الكفر ، فعداوته غير ظاهرة وخطره أعظم .

والذى يتتبع تاريخ النفاق فى الإسلام يجده لم يظهر فى مكة إنما ظهر فى المدينة ، فرغم العداء الشديد بين الإسلام والكفار فى مكة إلا أنه كان عداءً ظاهراً مُعلناً يمكن مواجهته ، فلم يوجد فيها نفاق ، لم يظهر إلا فى المدينة ، لماذا ؟

لأن النفاق لا يكون إلا مع القوى ، فالضعيف لا يُنافق الضعيف ، تعلن العداء فى وجهه ، أما القوى فتنافقه لتتغلب عليه .

إذن ما الداعى للنفاق فى مكة والمسلمون فيها قلَّة مستضعفة ، هذا يعنى أن النفاق ظاهرة تدل على قوة الإيمان ، وأنه أصبح له شوكة تُنَافَق ، وهذا حدث فى المدينة .

لذلك قال سبحانه وتعالى فى حقهم : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ..(١٠١)﴾ [التوبة]

كلمة ﴿يَسْتَمِعُ .. (١٦)﴾ [محمد] وردتْ هذه المادة فى القرآن بلفظ : سمع واستمع وتسمَّع ، سمع أى : دون إرادة منه للسماع،

واستمع لمن يحب أنْ يسمع شيئاً محبوباً لديه ، أما تسمع ففيها تفعُّل وتكلُّف للسماع ومحاولة .

إذن : قال : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. (١٦)﴾ [محمد] يعنى : برغبته وإرادته وهو محب لأنْ يسمع ، وهكذا كان حال المنافقين يجلسون فى الصفوف الأولى ويُبدون من الاهتمام ما لا يُبديه غيرهم ، فلا تفوتهم كلمة ولا تفوتهم صلاة ليحبكوا خطتهم ويُخْفُوا نفاقهم .

﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (١٦)﴾ [محمد] لأنهم سمعوا الكلام ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بمقتضاه ، فكان الجزاء أنْ ختم الله على قلوبهم وطبع عليها ، وكأن الله يقول لهم : ما دُمتم أحببتم النفاق فسوف أزيدكم منه وأختم على قلوبكم حتى لا يخرج منها النفاق ولا يدخلها الإيمان .

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)﴾ [محمد] الهوى أنْ يميل قلبك إلى شىء تعتقد أنه سارّ ومُفرح لك ، فرح عاجل ولذة وقتية دون النظر فى العواقب بعد هذه اللذة .

إذن : اجعل لهواك ضوابط ، واختر الهوى الأبقى أثراً والأدوم نفعاً ، اجعلْ هواك فيما ينفعك لا فيما يضرك ، كالذى يأكل (شطة) مثلاً ، لأنها تجعل للأكل لذة وطعماً هو يرغب فيه الآن حين يأكل ، لكنه غفل عن مسألة إخراج هذا الطعام ، وأنه سيجُر عليه ألماً يفوق لذة الأكل .

إذن : على العاقل أنْ يتدبر عواقب هواه ، ويحذر أنْ يميل به الهوى ، لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ..(٧١)﴾ [المؤمنون]

والحق سبحانه أتى لنا بالمنهج ليحمينا من الهوى ، لأن أهواء النفوس متضاربة ومتعارضة ، فهى أداة اختلاف وتنافر ، والله يريد لنا أن نتفق ، وأنْ نتساند لا أنْ نتعاند .

وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به »(١) .

البعض يقف عند قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (١٦)﴾ [محمد] فيقول ما دام أن الله طبع على قلوبهم وأراد لهم الضلال ، فلماذا يعذبهم ؟ نقول : الله يهدى العباد لا يضلهم ، وهم الذين يختارون الضلال ولا يهتدون بالإيمان .

لذلك نقرأ : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة] و﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾ [المائدة] و ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]

فالضلال إذن وعدم الهداية ناشىء عنهم هم ونتيجة مسلكهم غير المستقيم ، فالله لم يهدهم لأنهم إما كافرون أو فاسقون أو ظالمون .

وإلا فالحق سبحانه فى واقع الأمر هدى الجميع ، المؤمن والكافر ، لأنه نادى الجميع فى قوله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ (٢١)﴾ [البقرة] فدلَّ الجميع وأرشدهم إلى منهجه وعاقبة السَّيْر على هذا المنهج ، وأنذرهم عاقبة الخروج عنه .

(١) أخرجه ابن بطة فى كتابه (الإبانة الكبرى) (٢٩١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/٣٠٨) وعزاه للأصبهانى فى الترغيب بلفظ « لن يستكمل مؤمن إيمانه حتى يكون هواه تبعاً لما جئتكم به » . وأخرجه الفسوى فى الأربعين (٨) وابن أبى عاصم فى السنة (١٤) .

وبيَّن لهم أن المنهج ما وُضع إلا لمصلحتهم باستقامة أمورهم فى الدنيا وسلامتهم فى الآخرة ، وأنه سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، فهو سبحانه غنى عنهم مُستغن عن عبادتهم ، لأن له صفات الكمال قبل أنْ يخلقهم ، يقول لعبده : يا عبدى أقبل علىَّ أعْطكَ خيرى .

واقرأ قوله تعالى فى قوم ثمود : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧)﴾ [فصلت] يعنى : دللناهم وأرشدناهم إلى طريق الخير ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت] فلما استحبُّوا العمى أعماهم الله .

ثم إن الذين يقولون : لماذا يعذبهم الله وهو أضلهم ؟ لماذا لا يذكرون المقابل فيقولون : ما دام كتب عليهم الطاعة ، فلماذا يثيبهم عليها ؟ .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : قالت السماء : يا رب إئذن لى أنْ أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب إئذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب إئذن لى أنْ أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، فقال الله لهم : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب(١) .

وسبق أنْ مثَّلنا مسألة الهداية - ولله المثل الأعلى - برجل المرور

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً فيقول الله للأرض والسماء : كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات » .

حين تذهب إليه فتسأله عن الطريق ، فيقول لك : الطريق من هنا ، فإنْ أطعته زادك وقال لك : إن فى الطريق عقبة فى المكان الفلانى فانتبه لها ، أو يأخذك بنفسه حتى تبلغ ما تريد .

وهكذا الحق سبحانه دلَّ الجميع وأرشد الجميع ، فمنْ سمع وأطاع زاده هداية ، ومَنْ أعرض وتمرد زاده ضلالاً بأنْ ختم على قلبه .

لذلك قسَّم العلماء الهداية إلى نوعين : هداية الدلالة وهى للمؤمن وللكافر ، وهداية التوفيق والمعونة ، وهى خاصة بالمؤمن ، لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ[1] ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] أى : بالتوفيق وبالمعونة على الطاعة ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] فكأن التقوى هى التى تأتى إليهم لا يذهبون هم إليها ، يسَّرها لهم وحبَّبها إليهم ، فى حين أن البعض يظن أن التكليف مشقة على النفس وقيْد يقيدها لكن أبداً .

المتأمل يجد فى التكليف راحة وطمأنينة للنفس والبال ، التكليف

(1) آتاهم تقواهم : أى ألهمهم إياها . وفى معناه ستة أقوال :
– آتاهم الخشية قاله الربيع .
– آتاهم ثواب تقواهم فى الآخرة . قاله السدى .
– وفقهم للعمل الذى فرض عليهم . قاله مقاتل .
– بيَّن لهم ما يتقون . قاله ابن زياد والسدى أيضاً .
– أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ . قاله عطية .
– أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٢٩٠) .

عصمة للنفس ووقاية لها من المعاطب ، لذلك اقرأ مثلاً : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة]

ومعنى ﴿ عَلَىٰ هُدًى .. ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة] أن الهدى مطيَّتهم إلى الغاية التى يقصدونها ، فهو ليس عبئاً على العبد لأن الخالق سبحانه لم يكلفنا أبداً ما لا نطيق ، وما استعبدنا إلا لمصلحتنا نحن فى استقامة الدنيا وسلامة الآخرة .

لذلك قلنا : إن العبودية لغير الله ذل وهوان ، والعبودية لله عزّ وشرف ، فالعبودية للبشر تعطى السيد خير عبده لكن العبودية لله تعطيك خير الله .

وحين يفهم العبدُ العبادةَ بهذا المعنى يحبها ويتشوَّق إليها ويجد فيها لذة لا تُدانيها لذة ، لذلك يقول النبى ﷺ لبلال مؤذنه : « أرحنا بها يا بلال »[1] أى : بالصلاة ، فكم هى سهلة خفيفة على قلب المؤمن ، وكم هى ثقيلة على قلب المنافق .

إذن : من الهدى أنْ تصلى كما يصلى عامة الناس ، ومن زيادة الهدى أنْ تتشوق للصلاة وتنتظرها وتجد فيها راحتك ، لأنك فى حضرة ربك عز وجل ، والله غيْب ويصلح عبده أيضاً بالغيب ، فالصلاة تصلحك وتصلح حالك من حيث لا تدرى .

ومن ثمرات التقوى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ

(1) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة ، وذلك أن رجلاً (من خزاعة) قال : ليتنى صليت فاسترحت فكأنهم عابوا عليه ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها » .

يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا[1] وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ [الأنفال]

فمنْ يتقى الله بموجب الفرقان الذى جاءه من الله وهو القرآن يزيده ، بأنْ يجعل له هو فرقاناً آخر خاصاً به ، فرقاناً يهديه وينير له الطريق ويُميز به بين الأشياء .

إذن : ما عليك فى مسألة التقوى إلا أنْ تسير إليها تقصدها لتفعل وتطيع ، ثم ستجدها هى التى تسعى إليك وتطلبك .

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)﴾

الحديث هنا عن الكافرين الذين لا يلتفتون إلى أدلة وجود الله فى الكون ، ولا إلى معجزات الرسل فيؤمنون بهم ويصدقونهم ، ولا إلى أحكام الله فيعملون بها ، هؤلاء القوم ماذا ينتظرون ؟

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ.. (١٨)﴾ [محمد] أى : ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ.. (١٨)﴾ [محمد] الساعة بالنسبة لهم يعنى الموت ، لأن الزمن ينتهى بالنسبة للإنسان بالموت ، فمَنْ مات قامت قيامته ، والمرء لا يعرف أجله ولا متى يموت ، لأن الله أخفاه واحتفظ به لنفسه سبحانه ، فلا يطلع عليه أحد .

(١) الفرقان : الفرق والفصل بين أمرين واستعير للحجة الفاصلة والبرهان القاطع ، وقوله ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا.. (٢٩)﴾ [الأنفال] أى : حجة وبرهاناً . [القاموس القويم ٢/٧٨] .

إذن : طول العمر وقصره نحن لا دخْلَ لنا به ، ولا نتحكم فيه ، لأنه متروك لمن بيده الأعمار والآجال ، لكن بيدك عرضه بأنْ تشغل عمرك بعمل الخير ، وتوسِّع دائرة الخير فى حياتك وتنفع الآخرين ، كما يمكنك أنْ تضيف لحياتك بُعداً آخر ، بأنْ تفعل من الخير ما يبقى ذكراً لك بعد موتك ، وذُخْراً لك عند ربك .

فإذا علمتَ أن العمر نفسٌ يدخل ولا يخرج ، أو طرفة عين لا تعود كنت على حذر من أنْ تموت على معصية الله ، على حذر من أنْ تؤخر التوبة أو تسوِّف فيها ، لأنك لا تضمن متى يداهمك الموت .

فحين تسمع نداء الصلاة قُمْ ولبِّ النداء ، ولا تقل الوقت طويل ، وسوف أصلى ، معك مال وتقدر أنْ تحج لا تقل أحج العام القادم ، لأنك إذا كنتَ لا تضمن عمرك لحظة ، فكيف تضمنه بعد عام ؟ صحيح ليس فى تأخير هذه الأعمال عقوبة لكن يفوتك بالتأخير فضل الصلاة لوقتها وفضل الجماعة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »[1] .

البعض فهم من الحديث « اعمل لدنياك » أى : ما يكفيك طوال العمر ، لكن المراد بالعمل هنا : أعمل للدنيا على رسلك ولا تستغرق فيها ، وما فاتك منها اليوم تدركه غداً . يعنى على مهل ولا تأخذ المسألة من أول صفقة .

(١) ليس بحديث وإن اشتهر على الألسنة ، ولكنه منسوب إلى بعض الصحابة مثل عمرو بن العاص (ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد ١/٢٦١) والجاحظ فى البخلاء ، وقال الألبانى فى السلسلة الضعيفة : لا أصل له .

والذى يُعاب فى السَّعى من أجل الدنيا أنْ تستحوذ الدنيا على كلِّ اهتمامك وتأخذ كل وقتك وتريدها على عجل . والأخطر من ذلك أنْ نستعين بالنعمة وبالمال على المعصية أو نروج السلعة بشيء محرم شرعاً ، فتنقلب النعمة فى أيدينا إلى نقمة .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا .. (٢٨)﴾ [إبراهيم] ككثيرات من بناتنا الآن نراهن كاسيات عاريات يُظهرنَ ما حباهن الله من جمال ، وبدل أنْ تشكر النعمة بصيانتها تَكْفُرها بتبرجها .

وياليت الضال يضل فى نفسه ، إنما الأدهى من ضلاله أنْ يكون مثالاً لغيره فتشيع الفتنة فى المجتمع ، لذلك يقول تعالى فى تتمة الآية : ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ [إبراهيم] ما هى دار البوار ؟
﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم]

فهذه الفتن تعصف بالشباب خاصة فى مراحل المراهقة وعدم وجود فرصة عمل وهم ما يزالون عالة على أهاليهم ، لذلك نقول لبناتنا : اتقين الله فالشباب معذور غلبان كفاه أنْ يدافع سُعار المراهقة ، فلا تُهيجنَّ فيه سعاراً جديداً بما تفعلْنَ من التبرج والسُّفُور وعدم التحشم .

وأذكر مرة أنهم أرادوا أنْ يكرموا أحد رجالهم البارزين فأقاموا له حفلاً وأحضروا فيه الراقصات وما إلى ذلك ، فقلت : سبحان الله أهكذا يكون تكريم البارزين عندنا ، ثم أمسكت بصاحبنا وقلت له (يا سلام الرقص الليلة كان حلواً ، فالبنت كانت (تتشخلع) بورع وتتثنَّى بتقوى) !! إيه حكايتكم بالضبط ؟

نعم :
﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ [إبراهيم]

وقوله تعالى : ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً .. (١٨)﴾ [محمد] يعنى : فجأة ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .. (١٨)﴾ [محمد] أى : علاماتها وسماتها المميزة لها المنذرة بقربها ، وقد ذكر لنا سيدنا رسول الله ﷺ طرفاً من هذه العلامات ، فقال : « نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة[1] البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »[2] .

صحيح ، فالرأس على شكل (مش عارف إيه والشفايف حمَّروها) ، والحواجب دقَّقوها .. إلخ يُغيِّرنَ خَلْقَ الله ويستعنَّ بنعمة الله على معصية الله ، وهذه من علامات الساعة .

لذلك نسأل الله الهداية لبناتنا ، وأنْ تحفظ كُلٌّ منهن جمالها ، وأنْ تجعل حمد الله على النعمة طاعةً له سبحانه ، وألاَّ تجعل نعمة الله عليها مُسمَّمة بمعصيته وأقول لأولياء الأمور : اتقوا الله فى البنات ولا تضطروهن للعمل فى الإعلانات الخليعة لأنها محرمة ، ومَنْ يأكل منها إنما يأكل سُحْتاً من حرام .

كذلك من أشراط الساعة التى أخبر بها سيدنا رسول الله ﷺ « إذا رأيت شُحاً مطاعاً ، وهَوى مُتبعاً ، وإعجابَ كل ذى رأى برأيه

(١) سنام البعير والناقة : أعلى ظهرها . والبخت : جمع بُختى وهى أنثى الجمال وهى جمال طوال الأعناق . [لسان العرب - بتصرف] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٧١ ، ٥٠٩٨) والإمام مالك فى موطئه (١٤٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وكذا أحمد فى مسنده (٨٣١١ ، ٩٣٠٣) .

فانتظر الساعة »[(١)] .

وقال : « إذا وُسِّد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة »[(٢)] وغير ذلك من العلامات .

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) ﴾ [محمد]

يعنى : كيف أو من أين لهم التذكُّر وقد فات أوانه وباغتتهم القيامة ، أنّى لهم التذكر ، وأنّى لهم أنْ يستأنفوا عملاً صالحاً .

ثم يختمها بقضية القضايا التى إنْ صلُحَتْ صلُح للإنسان كلُّ شيء ، فيقول :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾

معنى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللَّهُ .. (١٩) ﴾ [محمد] لا تطلب بأى

---

(١) أخرج أبو داود فى سننه (٣٧٧٨) من حديث أبى ثعلبة الخشنى أن رسول الله ﷺ قال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام فإن من ورائكم أياماً الصبر فيها مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله » . وكذا الترمذى فى سننه (٢٩٨٤) وابن ماجه فى سننه (٤٠٠٤) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بينما النبى ﷺ فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله يحدث فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال . وقال بعضهم : بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه . قال : أين أراه السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله . قال : فإذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

شيء سبباً غير الله ، ولا يجوز لك أنْ تلجأ لغير الله ، فاللجوء لغير الله لا يفيد ، وقوله ﴿ فَاعْلَمْ .. (١٩) ﴾ [محمد] العلم إما علم يقين إذا أخبرك به مَنْ تثق فى صدقه ، وعَيْن يقين حينما تراه بعينك وترى أثره ، وحَقّ اليقين حينما تباشره بنفسك .

والحق سبحانه حينما يقول لنبيه ﷺ ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللَّهُ .. (١٩) ﴾ [محمد] هل يعنى هذا أنه لا يعلمها ؟ لا بل المراد داوم عليها ، وكما علمتها فى الماضى فاجعلها فى الحاضر وفى المستقبل . وهذا من باب قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا .. (١٣٦) ﴾ [النساء] فيأمرهم بالإيمان وقد ناداهم به .

قالوا : إذا أمر الله أمراً وهو موجود بالفعل فى المأمور فالمراد داوم عليه ، فأنت مؤمن لكن مطلوب منك أنْ تداوم على إيمانك فى المستقبل .

والحق سبحانه حينما يأمر نبيه هذا الأمر إنما ليُطمئنه على أنه إنْ جُحد وعُودِىَ وأُوذِىَ بشتَّى أنواع الإيذاء والاستهزاء لا يحزن ولا يهتم ، لأن الله بجواره ينصره ويؤيده ، ومهما فعل البشر فلن يمنعوه من إنفاذ دعوته .

فسُنّة الله فى الرسل أنْ ينصرهم : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] لذلك قلنا : إذا رأيتَ جندياً منتسباً للإسلام وغُلِب ، فاعلم أن شروط الجندية اختلَّتْ عنده وإلاَّ ما هُزم .

وأخذنا مثالاً على ذلك بما حدث للمسلمين يوم أُحُد من مخالفة أمر رسول الله فهُزموا وهو بينهم ، وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله

تبديلاً ، ولو انتصروا بعد أنْ خالفوا أمر الرسول لهان عليهم أمره بعد ذلك ، ولقالوا فى أنفسهم : لقد خالفناه وانتصرنا .

إذن : جاءت الهزيمة لتردهم إلى الصواب وتوقظ غفلتهم فى مسألة طاعة أمر رسول الله .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (١٩) ﴾ [محمد] فهل يعنى هذا أن للرسول ذنباً يجب الاستغفار منه ؟ هذه من المسائل التى دار حولها جدل كثير ، والمعنى هنا : إذا سَهَتْ نفسك فأذنبتَ فاستغفر لا أنه أذنب بالفعل ، يقول له ربه : إذا حصل منك ذنب فاستغفر له ، وكذلك استغفر للمؤمنين والمؤمنات .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] فذكر الذنب فى حق الرسول رغم أنه معصوم . والعلماء حينما بحثوا مثل هذه الآيات قالوا : هى من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين[1] .

ومعلوم أن المقربين درجة من درجات الطاعة والامتثال لله أعلى من درجة الأبرار ، لأن الأبرار هم الذين يطيعون الله ويفعلون الخيرات وينفذون الأوامر .

أما المقربون فهم الذين يزيدون على ذلك تقرباً إلى الله ، حتى فى عُرْف الناس المقرَّب منك هو الصديق الملازم لك الذى لا يفارقك

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره فى عدة مواضع (١/٣٠٩) (١١ / ٢٥٥) وعزاه للجنيد رحمه الله . وذكر السخاوى فى المقاصد الحسنة (١/١٠٣) أنه من كلام أبى سعيد الخراز وقال : رواه ابن عساكر فى ترجمته ، وذكر العجلونى فى كشف الخفاء مثل هذا (١١٣٧) ومثله الفتنى فى تذكرة الموضوعات (١/١٨٨) .

ويحبك ويخاف عليك .

كذلك المقرب من الله ، له قانون آخر فى التعامل غير قانون الأبرار ، ومقياس آخر للحسنات والسيئات يناسب درجة قُربه من ربه عز وجل .

ترى لو أنك مثلاً مرضت لا قدر الله وجاءك أحد معارفك وزارك فى مرضك ولو مرة واحدة ماذا تفعل ؟ تشكره وترى أنه أدى الواجب .

أما صديقك المقرب لو زارك مرة واحدة مثله ماذا تفعل ؟ تعاتبه وتلومه لأنك كنت تنتظر منه أكثر من زيارة ، هذا هو معنى : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

إذن : الحسنة من الإنسان العادى قد تُعدُّ سيئة بالنسبة للنبى ، فالنبى مقرب وللمقرب حساب آخر ، ولهذه القربى ثمن ، وكأن الله يقول لك : حافظ على هذه الدرجة من القرب منى ، وإياك أنْ يحدث منك ولو شيء بسيط بالنسبة لغيرك .

أو أن سيدنا رسول الله كما قال : « رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] فقوله (عن أمتى) يعنى : أنه غير داخل فى هذا الحكم ، فلا يجوز منه النسيان الذى يجوز من غيره والنسيان فى حقه إذن يُعدُّ ذنباً .

لذلك لما صلَّى النبى ﷺ صلاة رباعية وسلَّم منها بعد ركعتين

(١) لفظ الحديث هو : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠٣٣ حديث أبى ذر الغفارى) ، (٢٠٣٥ حديث ابن عباس) ، وقد أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (٦/٨٤) من حديث ابن عمر بلفظ (وضع عن أمتى) الحديث .

قال له أحد الصحابة وهو ذو اليدين : أقصرتْ الصلاة أم نسيتَ يا رسول الله ؟ قال : كل ذلك لم يكُن ، قال : بل بعض ذلك كان[1] . انظر عظمة الصحابى فى السؤال ، وعظمة رسول الله فى الرد ، وعظمة الإيمان الذى ربَّى هؤلاء .

إذن : من الممكن أنْ ينسى رسول الله ويُعد نسيانه ذنباً لماذا ؟ لأنه رسولٌ وصاحبُ رسالة مكلَّف بتبليغها وإشراقات النبوة لا تفارقه فكيف ينسى ؟ لذلك لما سأل أحد العامة العالم العابد المنقطع لله وقال له : ما حكم مَنْ سها فى الصلاة ؟ قال له : عندنا أم عندكم ؟ قال : بل عندنا . قال : يسجد للسهو ، قال : وعندكم ؟ قال : نقتله .

ولماذا نذهب بعيداً وقصة معصية سيدنا آدم معروفة للجميع ، قال تعالى - فى حق آدم ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه] فسمى نسيان آدم معصية ، لماذا ؟

قالوا : لأن آدم خلقه الله بالمباشرة ، خلقه الله بنفسه ونفخ فيه من روحه ، فله ميزة فى الخَلْق ليستْ لغيره ، ولم يكلف إلا تكليفاً واحداً هو عدم الأكل من الشجرة ، فأىّ شىء ينساه وأى شىء يذكره وهو أمر واحد .

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (١٩٦ ، ١٩٧) ، وأبو داود فى سننه (٨٥٨) والنسائى فى سننه (١٢١١) وعبد الرزاق فى مصنفه (٣٤٤٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة العصر فسلم فى ركعتين فقام ذو اليدين فقال : أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت ؟ فقال رسول الله ﷺ : كل ذلك لم يكن . فقال : قد كان بعض ذلك يا رسول الله . فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : أصدق ذو اليدين فقالوا : نعم فقام رسول الله فأتم ما بقى من الصلاة ثم سجد سجدتين بعد التسليم وهو جالس .

لذلك كان النسيان فى حقه معصية ، لأنه نبى رسول وهو أبو البشر ، لذلك معصية آدم جاءت لحكمة لأنه أبو البشر ، والبشر على قسمين : معصوم وغير معصوم ، المعصوم هم الرسل . وغير المعصوم هم بقية الخلق فلا بدّ أنْ يتمثل فى آدم القسمان .

فحينما يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ويقول له : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد] أى : من النسيان الذى تجاوزتُ عنه لأمتك استغفر أنت منه لأنه لا يغفر لك كما يغفر لأمتك .

ثم تعال وانظر فى المواضع التى عاتب الله فيها نبيه محمداً ، اقرأ مثلاً : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ[1] تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم] مجرد أن واحدة من زوجاتك غضبت من شىء تحرمه على نفسك وقد أحله الله لك ، فعدّ هذا ذنباً .

كذلك لما أذن لبعض الصحابة فى التخلف عن القتال عاتبه ربّه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة] إذن : عاتبه على ذلك ، لكن بدأه بالعفو عنه .

---

(١) اختلف فى سبب نزول صدر هذه السورة فقيل : نزلت فى شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرَّمها على نفسه ، وأخرج ابن جرير الطبرى أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم فى بيت بعض نسائه (فى رواية : أنها بيت حفصة) فقالت : أى رسول الله فى بيتى وعلى فراشى ؟ فجعلها عليه حراماً ، قالت : أى رسول الله كيف يحرم عليك الحلال ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ﴿١﴾ ﴾ [التحريم] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٨٧) : « الصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة رضى الله عنهما أن قالا له : أكلت مغافير (أى عسلاً) فقال : لن أعود له » نزلت الآية .

ثم إن الرسول فيه جانبان جانب البشرية وجانب الرسالة ، فآدم عليه السلام عصى ببشريته بدليل قوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه] إذن : ما جاءته الرسالة إلا بعد أنْ خاض هذه التجربة ، وكان منه ما يكون من البشر ، ثم اجتباه ربه بالرسالة .

وحين نتأمل القضايا التى عاتب الله فيها نبيه محمداً نجدها مسائل عامة ليس فيها نصّ ولا حكم شرعى خالفه رسول الله ، فكان يجتهد فيها برأيه كبشر وكما يمليه الموقف .

فمثلاً فى قصة عبد الله بن أم مكتوم[1] الذى عاتب الله رسوله من أجله ، فقال : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢)﴾ [عبس] تجد هذا العتاب ليس اعتراضاً على ما فعله رسول الله إنما رحمة به وشفقة عليه .

لأنه ترك عبد الله وهو مؤمن جاء ليسأله عن حكم من أحكام الشرع ، وأعرض عنه ليتفرغ لبعض صناديد الكفر ، فهو ﷺ بتفكيره البشرى حريص على هداية هؤلاء ، أما عبد الله فهو مؤمن بطبيعة الحال .

إذن : رسول الله يشقّ على نفسه فى سبيل دعوته ، ثم اقرأ إلى نهاية القصة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا

(١) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم صحابى شجاع كان ضرير البصر ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ فى المدينة مع بلال وكان النبى يستخلفه على المدينة يصلى بالناس فى عامة غزواته ، حضر حرب القادسية فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هـ . (الأعلام للزركلى ٥ / ٨٣) .

مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾ [عبس]

فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : يا محمد ليست مهمتك أنْ يؤمن الناس ، مهمتك أنْ تدلهم وأنْ ترشدهم فقط ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ .. (٢٠)﴾ [آل عمران] وخاطبه فى موضع آخر بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

وفى الكهف : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف] يعنى : ما عليك إلا أن تُبلغ ، أما مسألة الإيمان فأريدهم مؤمنين قلباً لا قالباً ، طواعية لا إجباراً .

وقال تعالى : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء] أى : أجبرناهم على الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾ [محمد] معنى ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ .. (١٩)﴾ [محمد] ذهابكم إلى أعمالكم وسعيكم فى أنحاء الأرض الواسعة طلباً للرزق . و ﴿وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾ [محمد] مرجعكم إلى بيوتكم ومأواكم إلى مضاجعكم بالليل .

والمعنى : أنه سبحانه يعلم كل أحوالكم ولا يخفى عليه شىء من أموركم . وسبق أنْ تحدَّثنا عن فضل السعى فى مناكب الأرض واستنباط خيراتها ، لأنك فى بيئتك ستأخذ خيرات هذه البيئة وحدها ، أمَّا حين تتنقل فى شتى نواحى الأرض فإنك تجد ألواناً أخرى من الخيرات .

الخالق سبحانه وزَّع خيره على جميع أرضه ، فكل أرض ولها

عطاء ، الصحراء لها عطاء ، والأرض الزراعية لها عطاء ، ليس هناك أرض فقيرة وأخرى غنية ، بحيث لو أخذتَ قطاعاً طولياً من الكرة الأرضية لوجدتَ فيه من الخيرات مثل ما فى القطاعات الأخرى .

وقد كنا نظن أن الصحراء الجرداء لا خير فيها ، والآن هى مصدر الرزق الوفير لأصحابها الذين صبروا على شظف العيش فيها أعماراً طويلة .

لذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ سيروا فى الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٦٩)﴾ [النمل] وقال : ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] أى : تأملوا ما فيها من آيات وعبر ، والإنسان يسافر ويتنقل إما للسياحة ، وإما لطلب الرزق ، وفى كلتا الحالتين ينبغى ألاَّ يغفل عن الاعتبار والنظر فى آيات الكون .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء] فالتقلُّب هو الخروج من المكان الذى تستوطنه إلى مكان لا تستوطنه ، وهذا يحتاج إلى قدرة مالية وصحبة وقوة ، لذلك قال سبحانه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦)﴾[النحل]

فالتقلُّب إذن دليل القوة ، فالرجل الغنى هو الذى يسافر كل يوم إلى مكان يتقلب فى أنحاء الأرض ، أما الفقير فيلزم مكانه لا يبرحه .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ
أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ
ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ
ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ (٢٠) ﴾

كلمة ﴿لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ .. (٢٠)﴾ [محمد] ساعة تسمع كلمة (لو) كأنها تمنٍّ للشىء أنْ يحدث ، فهم يتمنون أنْ تنزل على رسول الله سورة تأمرهم بالقتال ، والسورة نزلت بالفعل لكن نزلتْ تأمرهم بالصبر وتحمّل المشاق وعدم التعرض لأعدائهم .

لكن كل شىء له أوانه ، وهذا يعنى أن حركة المؤمن أصبحت منضبطة بأوامر الحق ، وعناد الكفار ووقوفهم فى وجه الدعوة لا يعنى أن نهجم عليهم ونقاتلهم من تلقاء أنفسنا إنما ننتظر الأوامر .

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ .. (٢٠)﴾ [محمد] الذى تريدونه ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ .. (٢٠)﴾ [محمد] أى : المنافقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (٢٠)﴾ [محمد] هذا تشبيه كنظر المغشى عليه من الموت . يعنى : المغمى عليه خوفاً وهلعاً .

والمنافق سهل عليه أنْ يذهب ويصلى مع الجماعة فى المسجد ، بل ويقف فى الصف الأول ، لكن إذا وصلتْ المسألة للقتال اختلف الأمر وانكشف المستور من النفاق .

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ .. (٢٠)﴾ [محمد] واضحة الدلالة على المعنى المراد ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (٢٠)﴾ [محمد] يقال : جاءك الموت يا تارك الصلاة ، هل أذهب للقتال وأضيع نفسى ؟!

﴿فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠)﴾ [محمد] أى : الأولى أنهم يطيعون الأمر ويخرجون للقتال ، والعلماء فسروا هذه الآية وقالوا ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠)﴾ [محمد] يعنى : الهلاك لهم ، وهذا تهديد إنْ لم يرجعوا عن نفاقهم .

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد] بعد ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [محمد] تجعلنا نصرف نظرنا عن إثبات الهلاك لهم ونقول : طاعة منهم لأمر الله ، وقول معروف أوْلَى من موقفهم وأوْلَى من نفاقهم .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد] يعنى : صمم وجنّد عزيمته للعمل ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] لكن هل الأمر هو الذى يعزم أم صاحبه ؟

إذن : هنا مبالغة جعلتْ من الأمر المعنى شخصاً يعزم ويصمم ويعقد العزم على العمل ، ذلك لأن الحديث هنا عن القتال ، والقتال هو أشقّ ما يمكن أنْ يتحمله المرء ، لأنه يعنى إما الشهادة وإما النصر على العدو .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة]

إذن : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد] أبلغ فى التعبير عن المعنى من : عزمت أنت على الأمر ، فكأن الأمر نفسه هو الذى يُلح عليك ، ولا يلح عليك الأمر إلا إذا كان فيه خير كثير لك ، وهل هناك أفضل من الشهادة فى سبيل الله ؟

وقصة مخيريق[١] اليهودى مشهورة ، فبعد أنْ أعلن إسلامه نُودى للقتال فخرج وقاتل حتى قُتل ودخل الجنة وهو لم يُصلِّ لله ركعة واحدة .

لذلك قال عنه الرسول ﷺ : « مُخيريق خير يهود »[٢] . صحيح احرص على الموت توهب لك الحياة ، الحياة الباقية مع الله فى الجنة .

وقوله : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد] أى : صدّقوه فى أوامره ومنهجه لكان خيراً لهم ، والخير هنا هو البراءة من الموت بعد ذلك ؛ لأنه جاد بنفسه طواعية فى سبيل الله ؛ فوهبه الله الحياة عنده .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ[٣] أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

---

(١) هو : مخيريق النضرى من بنى النضير صحابى كان من علماء اليهود وأغنيائهم ، أسلم وأوصى بأمواله للنبى ﷺ واستشهد بأحد توفى عام (٣ هـ) . [الأعلام للزركلى ٧/ ١٩٤] وقد قال : « إن أصبت فأموالى لمحمد يضعها حيث أراه الله » . وقد كانت سبعة بساتين فى بنى النضير وكانت أول وقف فى الإسلام .

(٢) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٤٦١٥٤) وأن رسول الله ﷺ قالها بعد استشهاد مخيريق فى غزوة أحد . وكذا السهيلى فى الروض الأنف (٢/ ٣٧٥) وابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٨٨) وابن سعد فى الطبقات الكبرى (١/ ٥٠١) وابن كثير فى البداية والنهاية (٣/ ٢٩١) زاد المسير .

(٣) ذكر ابن الجوزى قولين فى معنى (إن توليتم) :
أحدهما : أنه بمعنى الإعراض : فالمعنى : إن أعرضتم عن الإسلام ﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [محمد] بأن تعودوا إلى الجاهلية يقتل بعضكم بعضاً ويغير بعضكم على بعض . ذكره جماعة من المفسرين .
الثانى : أنه من الولاية لأمور الناس . قاله القرظى . فعلى هذا يكون معنى ﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [محمد] بالجور والظلم . [زاد المسير ٥/ ٣٧٨] .

هذا استفهام من الله بهل ، ورجاء من الله بعسى ، والله لايستفهم ليعلم إنما يستفهم ليقرر حقيقة واقعة .

كلمة (عسى) فعل يدل على الرجاء وبعدها الشىء المرجو ، والرجاء يكون لأمر محبوب متوقع الحدوث وممكن الحدوث ، على خلاف التمنى فهو لشىء محبوب ، لكن مستحيل أنْ يتحقق كقول الشاعر :

ألاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخْبِرهُ بِمَا فَعَلَ المشِيبُ

أما الرجاء فتقول : عسى إنْ ذاكرتَ أنْ تنجح ، لكن يختلف الرجاء باختلاف القائل والمقول له ، فعندما أقول لك : اذهب إلى فلان عسى أن يقضى حاجتك ، أو عسانى أفعل لك شيئاً فالرجاء هنا فى بشر ، فإذا كان الرجاء فى الله كان أقوى كأنْ تقول : عسى الله أن يغفر لى .

فقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد] لعلكم يحدث منكم هذا ويتوقع منكم ، إذن : ظلوا على ما أنتم عليه من الإيمان والطاعة ولا تدخلوا من باب الذنوب والمعاصى .

﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ .. (٢٢) ﴾ [محمد] أى : أعرضتم عن الإيمان ، أو توليتم بعض المناصب كالرئاسة مثلاً تأتى لك بالمصيبة إليك .

﴿ أَن تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ .. (٢٢) ﴾ [محمد] يعنى : مع الخَلْق جميعاً ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد] رقَّى المسألة إلى الأقارب والأرحام يعنى : يتعدى فسادكم الناس جميعاً إلى الأقارب والأرحام .

أو نقول : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ .. (٢٢) ﴾ [محمد] ما الذى صرفكم عن الحق الذى جاء به محمد ، ولماذا تضعون فى طريقه العقبات ؟ ، وأولها أنْ تسخروا منه ، وأنْ تصفوه بما ليس فيه من قولكم : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، وكذاب .

ثم آذيتموه فى نفسه بالسب وفى بدنه وفى أهله وفى أصحابه ، بل بيَّتم له لتقتلوه ، ما الذى جعلكم تفعلون ذلك ؟ هل ظننتم ورجوتم أنكم إذا فعلتُم ذلك تصبحون على حَلِّ شعوركم للإفساد فى الأرض وقطع الأرحام .

والحق سبحانه يريد أنْ يُعلمنا أن الرسل لا تتدخل ولا تأتى السماء بمنهج جديد إلا إذا عَمَّ الفسادُ المجتمع كله ، لأن الفساد له مراحل : أولها : فساد النفس وهذا له رادع من النفس اللوّامة ، وهى مناعة فى النفس الإنسانية تعود بها إلى الجادة وتُقوِّم سلوكياتها .

فإذا فسدتْ النفس وتلاشى دور النفس اللوامة جاء دور الرَّدْع من المجتمع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا لم يكُنْ رادع من المجتمع وعَمَّ الفساد الجميع هنا تتدخل السماء برسول جديد يأتى بمعجزة ليقنع الناس ليؤمنوا بما جاءهم به .

فأنتم حين توليتم عن الدعوة وأعرضتم عنها ووضعتم فى طريقها العراقيل تنتظرون أنْ تظلوا على الفساد الذى نشأتم عليه فى الأرض عموماً أو فى تقطيع الأرحام ، لا فأنتم تجنون على أنفسكم ، ألم تنظروا إلى مَنْ سبقكم من الآباء والأجداد أين ذهبوا ، إن مصيركم كمصيرهم ، فاحذروا ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) ﴾ [الزخرف]

وقال : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُم

الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّـٰخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً[1] فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾ [الزمر] إذن : لماذا لا تعملون حساباً لهذا اليوم ؟

والذين استشروا فى الفساد ظنوا أنه ينفعهم ، لكن الفساد فى الكون يضر الجميع ، فالذين ينهبون أموال الناس سيأتى مَنْ هو أقوى منهم وينهب أموالهم ، فأنت إذن لست بمنجى عن أنْ يطولك الفساد وتكتوى بناره ، لأن المجتمع مركب واحد يضم الجميع .

ثم إن القيم ثابتة لا اختلاف عليها ، فالخير خير حتى عند أهل الشر ، والدليل على ذلك لو أن هناك صحبة من الأشرار ، وأراد واحد منهم أنْ يتزوج أخت الآخر ، فقال له : لا لا أزوجك أختى (أنا ملقتش غيرك أنت يا حرامى) إذن : القيم هى القيم . فالكذاب يحترم الصادق ، والمنحرف يحترم المستقيم ، وهكذا .

إذن : الحق سبحانه يقول لهم لا تفسدوا فى الأرض ، واحرصوا على إنهاء الإفساد فى مجتمعكم ، فإنْ كانت لكم الآن قوة تفرضون بها الفساد على الناس فسوف يأتى مَنْ هو أقوى منكم ، ويفرض عليكم مثله وأكثر .

وكلمة ﴿تَوَلَّيْتُمْ .. (٢٢)﴾ [محمد] أى : أعرضتم تدل على أنهم سمعوا كلاماً لا يعجبهم ، فلو أعجبهم لَسمعوا وما أعرضوا عنه ، لكن كيف وهم يريدون الفساد الذى يحقق لهم شهواتهم ، فالفساد سبقه تولٍّ وإعراض .

(١) لو أن لى كرَّة : أى عودة ورجوعاً إلى الحياة الدنيا . [القاموس القويم ٢/١٥٨] .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣)﴾ [العلق] كذب لأن الكلام لا يوافق هواه ، لا أنه لا يوافق الواقع ، إذن : أنت مخطئ فى هذه المسألة ومخطئ فى تكذيبك .

ثم نشأ عن هذا الخطأ خطأ آخر بأنْ توليت وظننتَ وتوقعت أنْ تظل على حالك فى الإفساد فى الأرض وتقطيع الأرحام .

والإفساد فى الأرض أنْ تجعل الصالح فيها غير صالح ، لأن الخالق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح المطلق قبل أنْ يخلق الإنسان ، إذن : عليك أنْ تزيد فى صلاح الكون بما لديك من طموح للأفضل وللأرقى ، أو أنْ تيسِّر الصلاح للناس ، وإذا لم تزد فى صلاح الكون فلا أقلَّ من أنْ تتركه على صلاحه لا تفسده .

لذلك رأينا أن عورات المجتمع ظهرت بظهور الفساد فى الأرض والملوِّثات فى البيئة التى أفسدتْ الماء والهواء والطعام وكل شىء ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. (٤١)﴾ [الروم]

والحق سبحانه وتعالى حينما يحذرنا من الإفساد فى الأرض إنما يريد منا أنْ يستطرق الخير فى المجتمع كله ويعمّ الجميع .

وقال بعدها : ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢)﴾ [محمد] لأن الإفساد فى الأرض يكون عاماً لكل الناس أقارب وغير أقارب ، فخصّ الأقارب لأنهم الأَوْلى بالمعروف والإحسان لا بالقطيعة والهجر ، والأقارب إما ذكور وإما إناث ، الذكور لهم قوة تحمل ، أما النساء ففيهم ضعف وحاجة .

لذلك كانت قطيعتهم أشدّ وأعظم عند الله .

لذلك يصل المجتمع إلى قمة الفساد حين يصل الفساد إلى هذه المرحلة ، مرحلة إهانة المرأة أو قطيعتها وهى من رحمك .

وإذا رأيتَ المرأة فى مجتمع مهيضة الجناح ، أو وقع عليها ظلم أو تُركتْ لكسب العيش والسعى على المعيشة ، فاعلم أن هناك خللاً فى الأسرة ، وأن الرجل فيها لا يقوم بدوره ، أو قُلْ ليس عنده شهامة ولا نخوة ، فترك زوجته للشقاء ولم يكْفها مؤنة لقمة العيش ، لكن متى تخرج المرأة للعمل ؟ وكيف تخرج ؟

نجد الجواب فى قصة سيدنا موسى مع ابنتىْ سيدنا شعيب عليهما السلام ، اقرأ : ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ**[1] **وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ**[2] **قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ**[3] **الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** (٢٣) ﴾ [القصص]

إذن : علة الخروج أن أباهما سيدنا شعيب شيخ كبير لا يقدر على القيام بهذه المهمة ، ثم لما اضطرتهما الظروف للخروج لم يتخليا عن الوقار والحشمة ولم يختلطا بالرجال ﴿ **لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ** .. (٢٣) ﴾ [القصص] يعنى : حين ينصرف الرجال .

ثم يأتى دور المهمة الإيمانية فى المجتمع ﴿ **فَسَقَىٰ لَهُمَا** .. (٢٤) ﴾ [القصص] لابد أن يوجد هذا النموذج الشهم فى المجتمع ، وأن يكون

(١) مدين : اسم قرية على بحر القلزم [البحر الأحمر] أو هو اسم قبيلة فى هذا المكان أرسل إليهم النبى شعيب عليه السلام [القاموس القويم ٢/٢٢٠] .

(٢) تذودان : تسوقان أغنامهما أو تدفعان الغنم عن التفرق أو عن الزحام . ذاده يذوده : ساقه وطرده ودفعه . [القاموس القويم ١/٢٤٧] .

(٣) الصَّدَر : الرجوع والانصراف . يقال : ورد إلى البئر ثم صدر عنها أى رجع . وصدر دوابه : أرجعها بعد ورودها . وأصدرها : أرجعها . [القاموس القويم ١/٣٧٠] .

للرجولة دور ، ذكرت لكم زمان لما سافرتُ للسعودية سنة خمسين ، وفى يوم ركبتُ السيارة للذهاب إلى الكلية ، وفجأة نزل السائق وأخذ طاولة عليها عجين من أمام أحد البيوت ، فسألته : لماذا أخذته والباب مغلق ؟ فقال : هذا العجين يعنى أن صاحب البيت غير موجود ، وعلى مَنْ يراه أنْ يأخذه ويخبزه ويعيده إلى مكانه .

وقوله تعالى : ﴿ **أُولَٰئِكَ** .. (٢٣) ﴾ [محمد] أى : الذين ارتضوا التولِّى والإعراض عن دعوة الحق وتكذيب الداعى ؛ ليفسدوا فى الأرض ويقطعوا الأرحام .

﴿ **الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ** .. (٢٣) ﴾ [محمد] يعنى : طردهم من رحمته وأبعدهم عن رضوانه ، والذين يلعنهم الله تلعنهم كذلك الملائكة ، ويلعنهم اللاعنون فى كل زمان ومكان ، ويلعنهم كل مَنْ شقى بفسادهم .

﴿ **فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** (٢٣) ﴾ [محمد] هذه نتيجة طبيعية لمنْ لعنه الله أنْ يصم آذانهم عن سماع الحق ويُعمى أبصارهم عن رؤية الآيات فلا يتدبرونها .

إذن : هم يسمعون ويبصرون ، لكن لا يسمعون إلا الشر ، ولا يرون إلا الباطل ، فقد حجبهم الله عن كل خير ، وفتح عليهم باب كل شرٍّ جزاء وفاقاً ، لأنهم أغلقوا قلوبهم عن الحق وأحبوا الباطل فأعانهم الله عليه ويسَّر سُبله لهم .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا .. (٢٤) ﴾ [محمد] استفهام يفيد الحض والحث على التدبر ﴿ يَتَدَبَّرُونَ .. (٢٤) ﴾ [محمد] يتأملون معانيه وينظرون فى آياته ومعجزاته ويتبصرونها ﴿ الْقُرْآنَ .. (٢٤) ﴾ [محمد] هو كلام الله المنزل على قلب رسوله والذى يحمل منهجه إلى الناس ، وهو معجزة تدل على صدق رسول الله ﷺ .

وتدبره يعنى تأمله ، بحيث لا نقف عند ظاهر الآيات وسطحيتها ، بل نغوص فى أعماقها ونتأمل معطياتها ، ونتلمس أسرارها ، ففى القرآن كنوز نكتشف منها كل يوم جديداً .

بَيِّنٌ فيه كل شيء ومنه آخذ قدر ذهنه كل تالى

وقوله : ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد] يعنى : لا يتدبرون القرآن بل على قلوبهم أقفال فلا تفهم ولا تتأمل ، على قلوبهم مغاليق تحول بينهم وبين التفاعل مع كلام الله . والله غنى عن إيمان المؤمنين ، وغنىّ عن طاعة الطائعين ، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، وله صفات الكمال المطلق قبل أنْ يخلق هذا الخلق .

فبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ، وبصفات الكمال فيه ربى ورزق ، وبقيوميته أبقى نعمه على خَلْقه حتى الكافر منهم .

تذكرون قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حينما جاءه ضيف يطرق بابه يريد حاجة ، فخرج له سيدنا إبراهيم وسأله بداية عن دينه ، فقال : أنا مجوسى فأغلق الباب فى وجهه .

ولما انصرف الرجل عاتب الله تعالى نبيه إبراهيم فى هذا الرجل ، وقال له : أمن أجل بيتوتة ليلة تريد منه أنْ يغير دينه وأنا أسعه

طوال عمره وهو كافر بى ، فخرج سيدنا إبراهيم فى أثر الرجل حتى لحق به وقال له : تعال فقد عاتبنى ربى فيك ، فقال : نعم الرب الذى يعاتب أنبياءه فى أعدائه وشهد ألا إله إلا الله .

إذن : الحق سبحانه وسع كلّ الخَلْق بعطاء الربوبية ، أما عطاء الألوهية فقد خصَّ به المؤمنين به .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) ﴾

الحديث هنا عن المنافقين ، وقد بيَّنا أن النفاق لم يظهر فى مكة رغم عدائها للدين ، لكنه ظهر فى المدينة التى احتضنته ، ومنها انطلق للعالم كله ، والسبب فى ذلك أن الضعيف لا يُنَافق إنما يُنَافق القوى ، فلما قوى المسلمون فى المدينة وُجد بينهم النفاق .

يقول تعالى عنهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم .. (٢٥) ﴾ [محمد] يعنى : كانوا مؤمنين باللسان إنما قلوبهم ليستْ مؤمنة ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى .. (٢٥) ﴾ [محمد] ظهر لهم الحق والرشاد والصراط المستقيم الذى جاء به محمد .

﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [محمد] سول لهم يعنى : هيأ لهم وزيَّن لهم وحسن فى نظرهم هذا المسلك المنحرف عن الحق فسوَّل بمعنى وسوس ، كما قال تعالى حكاية عنه : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي

لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف] وقال : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص]

ثم يلزم حدوده فيقول ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص] فهؤلاء لا سلطان لى عليهم ولا مدخل لى إليهم .

والعجيب أن يكشف إبليس عن خططه فى الإغواء ، فيقول : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف] يعنى : فى طريق الطاعة ليفسدها عليك ، لذلك قلنا : الشيطان يأتى المسجد ولا يأتى الخمارة .

وقال : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف] من كل ناحية ، وبأىّ شكل ومن أىّ باب يجد فيه ضعفاً منك يأتيك من باب المال وحب التملك ، أو من باب النساء ، أو من باب الشهرة وحب الظهور .. إلخ فلكل واحد من الناس مفتاح يدخل إليه من خلاله .

ومن رحمة الله بنا أن علَّمنا كيف نتحصّن منه ، فقال تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف] لأنك لا تقدر على ردِّه بنفسك فاستعن عليه بمَنْ خلقه ، فإذا استعذت بالله منه خنس وتضاءل ، لذلك سماه الوسواس الخناس .

أما إنْ حاولت ردّه عنك بنفسك فإن المعركة بينكما ستطول ، لأنه أقوى منك وصاحب خبرة فى الغواية والإضلال يُلوِّن لك الوسائل ويلف حولك الحبال من حيث لا تدرى حتى يُوقعك فى مصائده .

ومن غباء الشيطان أنْ يكشف لنا خططه فى الإغواء ، فالذى يدبر

لك خطة ليوقعك بها لا يكشف عنها ، لكنه أراد من ذلك أنْ يقيم الحجة على كل مَنْ طاوعه وسمع كلامه ، لذلك سيقول بعد ذلك : ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(1) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

والإنسان يستطيع أن يعرف مصدر الوسوسة ، أهى من نفسه أم من الشيطان ؟ فالشيطان يريدك عاصياً على أىّ لون وبأىِّ طريقة ، فإذا لم يفلح معك من باب المال جاءك من باب الشهرة ، فإنْ لم يفلح جاءك من باب النساء ، وهكذا حتى يوقعك .

أما النفس فلها شهوة بعينها تقف بك عندها وتلح عليك .

ثم تلاحظ أن الشيطان - كما قال - يأتيك من كل اتجاه إلا من جهتين ، هما أعلى وأسفل ، لماذا ؟ قالوا : لأنهما يمثلان العلاقة بين العبد وربه ، حيث سمو الألوهية حين يتجه بنظره إلى أعلى وذل العبودية حين يسجد واضعاً جبهته على الأرض اعترافاً لربه بالعبودية ، لذلك لا يأتى من ناحيتهما الشيطان .

وقوله : ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد] أمهلهم وأمد لهم الأمانى ليستمروا فى ضلالهم ويتمادوا فى شهواتهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [محمد] هم اليهود : بنو النضير وبنو قريظة ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [محمد] أى : نؤيدكم ونساندكم فى بعض الأمور التى تعرقل مسيرة دعوة محمد .

---

(1) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . والمصرخ : الذى يزيل سبب الصريخ وسبب الصُّراخ . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

وفى آية أخرى بيَّن الحق سبحانه ما أبهمه فى كلمة (بعض الأمر) حيث قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) ﴾ [الحشر]

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) ﴾ [محمد] أى : ما يُسرون وما يُخْفُون من الكيد للإسلام ، وما دام أن الله يعلم ذلك فسوف يبطله .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ﴾

يعنى : ما حالهم وهم يفعلون ذلك ؟ وكيف بهم إذا جاءتهم الملائكة يتوفونهم ويضربون وجوههم وأدبارهم ؟ كيف بهم عند ذلك ؟ أيستطيعون أنْ يدفعوا عن أنفسهم ؟ إذن : لماذا يعاندون ؟ ولماذا يقفون فى وجه الدعوة ويتآمرون عليها ؟ وكان أوْلَى بهم أنْ يساندوها .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ .. (٢٨) ﴾ [محمد] إشارة إلى سوء عاقبتهم وما يكون من ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، لماذا ؟ ﴿ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ .. (٢٨) ﴾ [محمد] اتبعوا الباطل الذى أسخط الله عليهم وأكثر من ذلك ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ .. (٢٨) ﴾ [محمد] كرهوا الحق الذى يؤدى إلى رضوان الله ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) ﴾ [محمد] أبطلها وجعلها بلا فائدة .

فهل كان لهم أعمال تستحق الثواب فأبطلها الله ؟ قالوا : نعم كانوا يُكرمون الضيف ويُغيثون الملهوف وأمثال ذلك من خصال الخير ، لكن فعلوا الخير وليس فى بالهم الله ، فعلوه للشهرة والسمعة وحديث الناس إذن ، فليأخذوا أجورهم ممَّنْ فعلوا له ، حيث لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة .

قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] وقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) ﴾

يعنى : أظن هؤلاء الذين فى قلوبهم ﴿ مَّرَضٌ .. (٢٩) ﴾ [محمد] نفاق ﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) ﴾ [محمد] أى : يُظهر أحقادهم

ويكشف خباياهم ، بل هو قادر سبحانه على ذلك ، وقد كشفهم لرسوله وبيّنهم له ، وعرّى أحقادهم الدفينة ، لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ(١) ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

والأعمال تشمل الأقوال والأفعال .

فلا يخفى على العاقل أن يعرف المنافق من سيما وجهه وملامحه ، فالكذاب له سيما تدل عليه ، والصادق فى وجهه من التألق ما يدل على صدقه وهكذا .

وقوله ﴿ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد] أى : فى زلة اللسان أو فى ليِّه بالألفاظ والتلاعب بها كما قال اليهود له ﷺ : السام عليك يا محمد ، وقد فطنتْ لها السيدة عائشة فردَّتْ عليهم بما يستحقون(٢) ، لذلك قال الشاعر الجاهلى :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ   وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

---

(١) لحن القول : أى أنك ستعرف المنافقين فى أسلوبهم فى القول بإخفائه وتحريفه ، أى ستعرفهم فى خطأ القول وزلات اللسان . وأصل المعنى : كلّمه كلاماً يفهمه دون غيره لما فيه من تورية أو تعريض أو إشارة خفية . [القاموس القويم ٢/١٩١] .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٥٦٥) أن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم . قالت عائشة : ففهمتها . فقلت : وعليكم السام واللعنة . فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله فقلت : يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله ﷺ : قد قلت وعليكم . وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٠٢٧) .

وقد فضحهم الله تعالى فى قوله : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

قولهم عن رسول الله ﴿ هُوَ أُذُنٌ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة] كما نقول نحن : فلان ودنى يعنى : كثير السماع ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة] نعم هو أذن ، لكن أذن خير يسمع الخير ويدلكم عليه .

قوله : ﴿ بِسِيمَاهُمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد] أى : بعلاماتهم الواضحة على وجوههم ﴿ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد] صرفهم للألفاظ عن معانيها المتعارف عليها .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

الكلام هنا للمؤمنين الذين آمنوا بالله وصدَّقوا برسول الله ، يقول الله لهم ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد] نختبركم ونمتحنكم بالشدائد والمشاق .

﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد] لنعرف مَنْ يثبت مع البلاء ممنْ هو فى شكٍّ وتردد ، يريد الله أنْ يمحص المؤمنين ، وأنْ يختبر قوة إيمانهم وصبرهم وتحملهم للمشاق ، فعلى أكتاف هؤلاء ستقوم الدعوة وهى دعوة عالمية لا يصمد لها إلا

راسخُ الإيمان ثابت العقيدة لا يتزعزع على حد قول القائل :

وَلَسْتُ أُبَالِى حِينَ أُقتَلُ مُسْلِماً   عَلَى أىِّ جَنْبٍ كَانَ فِى اللهِ مَصْرَعِى

هؤلاء الذين حرصوا على الموت حرصَ غيرهم على الحياة ، فأعطاهم الله منزلة الشهادة وبرّأهم من الموت بعد أنْ ضحوا بأرواحهم فى سبيله ، ووصل حياتهم فى الدنيا بحياتهم فى الآخرة .

وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ .. (٣١) ﴾ [محمد] أى : على المشاق مشاق الدعوة ومشاق التكليف ، وحين تتأمل حال هذه الأمة قبل الإسلام تجد كأن الله تعالى يُعدها لحمل رسالة الإسلام ، فهى أمة حرب وقتال ، تعلم فنونه وتجيد الكرّ والفر ، وهى أمة بدوية لا تستقر فى مكان ، بل بيوتهم على ظهور الدواب ، وهى أمة أمية ليس لها نظام ولا قانون ولا منهج حياة .

كل هذا أهّلها لأن تحمل دعوة الحق إلى الدنيا كلها ، تحارب الباطل وتفقه الناس فى دين الله ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ .. (١٢٢) ﴾ [التوبة]

إذن : الإسلام فى صراعه مع أعدائه يحتاج إلى قوتين للجهاد : قوة تجاهد لحفظ الكلمة ، وقوة تجاهد لإثبات صدق الكلمة ، لذلك كان الاختبار والابتلاء ضرورة . والاختبار ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ .. (٣١) ﴾ [محمد] لا يُمدح ولا يُذم لذاته إنما بحسب نتيجته ، فالذى يدخل الاختبار وينجح نمدحه والذى يفشل نذمه .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ .. (٣١) ﴾ [محمد] الله يقول ذلك وهو يعلم ،

إذن : المراد نعلم علم الواقع بالفعل ليكون الواقع حجة على صاحبه ، حتى لا يقول لو دخلت الاختبار لنجحت .

وكلمة ﴿ وَالصَّابِرِينَ .. (٣١) ﴾ [محمد] دلتْ على أن فى التكاليف مشقة وتضييقاً على النفس ، لذلك بعض الناس يتحملها ويصبر ، وبعضهم يضيق بها ويجزع .

قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (١٢٧) ﴾ [النحل] فالله هو الذى يعينك على الصبر بأن يبين لك عاقبته الحميدة .

وقال سبحانه : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر] تواصوا يعنى يُوصى كلٌّ منكم الآخر به ، لأن الإنسان مرة يصبر ويتحمل ، ومرة يضعف ويجزع ، فمرة توصينى ومرة أوصيك ، وكلمة الوصية بلفظها لا تكون إلا فى الشىء الغالى الثمين الذى يستحق الاهتمام ، ويستحق أنْ نحرص عليه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) ﴾

إذن هؤلاء لم يكتفوا بأنْ كفروا فى أنفسهم ، بل تعدَّوْا ذلك ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٢) ﴾ [محمد] منعوا الناس أنْ يؤمنوا بالله ووقفوا فى وجه الدعوة وحاربوها .

ثم ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ .. (٣٢) ﴾ [محمد] يعنى : خالفوه وعادوه ، بحيث كانوا فى شق وهو فى شق ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ .. (٣٢) ﴾ [محمد] أى : الحق الواضح . والنتيجة ﴿ لن

يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً .. (٣٢) ﴾ [محمد]

فهذه كلها محاولات فاشلة لن تغنى عنهم شيئاً ، ولن تؤثر فى مسيرة الدعوة ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه ما كان ليبعث رسولاً إلى الخلق ثم يُسلمه إليهم ليقتلوه ، هذه سنة من سنن الله فى الكون لم يقتل رسول .

نعم أخبرنا الحق سبحانه عن بنى إسرائيل أنهم كانوا يقتلون الأنبياء ، ولم يُقلْ الرسل : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ﴾ [البقرة] وتأمل هنا كلمة ﴿ من قبل ﴾ فليس لأحد من اليهود أو حتى من المسلمين أنْ يقول أنه من الممكن أن اليهود يقتلون رسول الله كما قتلوا أنبياءهم ، لأن هذا القتل كان قبل محمد .

إذن : اطمئنوا لن ينالوا من رسول الله شيئاً ، فهذه الآية أحدثتْ اطمئناناً عند المسلمين ويأساً عند الكافرين من هذه المسألة ، وهم بالفعل قد حاولوا لكن هيهات لهم ذلك .

ثم إن كفره فى نفسه له جزاء ، وصده لغيره عن الإيمان له جزاء آخر ، لأنه ضَلَّ وأضل ، ونفهم من كلمة ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٢) ﴾ [محمد] أن سبيل الله طريقٌ معتدل مستقيم يجذب الناس إليه بالمنطق المعتدل ، وبحلو الكلام ، وبالأسلوب الجميل الشيق الذى تلين له القلوب رغم غلظتها .

فطبيعى من الكافرين أنْ يقفوا على هذه الطريق يمنعون الناس عن الإيمان وعن سماع القرآن ، لذلك حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت] فهم على يقين من أن سماع القرآن سيؤثر فيهم ويعطف قلوبهم إليه .

ولم يكتفوا بعدم السماع ، إنما ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت] شوّشوا عليه حتى لا يصل إلى أسماع الآخرين ، ذلك لأنهم أهل لغة وأهل فصاحة يتذوّقون الألفاظ والأساليب وينفعلون لها .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) ﴾ [محمد] يعنى : يبطلها ويجعلها غير ذات جدوى ، ومعنى (أعمالهم) أى : أعمالهم فى الصدِّ عن سبيل الله ، أو أعمالهم الخيّرة التى فعلوها فى الدنيا ، ومن أعمالهم أنهم كانوا ينفقون الأموال ؛ ليصدُّوا الناسَ بها عن الحق .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ .. (٣٦) ﴾ [الأنفال]

فقد أنفقوا أموالهم دون فائدة أخذها الناسُ منهم وضحكوا عليهم ، كما يحدث عندنا مثلاً فى الانتخابات ، يشترون الأصوات بالأموال ، فيأخذ الناسُ الأموالَ ولا يعطونهم أصواتهم لأنهم لا يستحقونها .

القسم الثانى من أعمالهم بعد المال هو القتال ، والقتال له واقع فى صراعهم مع الحق ، والله يدعوهم : يا مَنْ تحملون السلاح لتشاقّوا الرسول ، اعتبروا من الواقع الذى أمامكم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] ألم يروا أنَّ أرض الإسلام كلّ يوم فى ازدياد ، وأرض الكفر كل يوم فى انحسار ونقصان .

وفى بدر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ .. (٧) ﴾ [الأنفال] طائفة العير التى تحمل البضائع والأموال وكان حُراسها قليلين ، وطائفة النفير التى خرجتْ لحماية القافلة والتى كان يقودها أبو سفيان .

فكان المسلمون يريدون طائفة العير التى فيها الأموال ، لكن الله تعالى شأن آخر ، هم يريدون المال ، والله يريد إحقاقَ الحق وإعلاء كلمته ودحر الكفر ، وحتى لا تكون هناك شبهة تُؤخذ على المسلمين ، وأنهم ما خرجوا إلا للمال والغنائم التى تُعوِّض خسارتهم فى مكة .

يقول تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال] أى العير ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾

[الأنفال]

نعم لجأ الرسول ﷺ إلى ربه واستغاثه : « اللهم نصرك الذى وعدتنى ، اللهم إنْ تهلك هذه العصابة لن تعبد فى الأرض »[1] وسيدنا أبو بكر يقول للرسول : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك .

وكان ﷺ يتطلع إلى النصر على طائفة النفير ذات الشوكة لأنه لا يريد المال ، إنما يريد أنْ يُحقَّ الحق ويُزهقَ الباطل ، وعلى مقدار الصبر يكون المدد من الله ، فإنْ أردتَ أنْ تكبِّر المدد فكبِّر الصبر وكبِّر الرضى وكبِّر العزيمة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٣٠٩) وكذا الترمذى فى سننه (٣٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢٠٣ ، ٢١٦) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكذا أخرجه عبد بن حميد فى مسنده (٣١) ولفظ مسلم أن رسول الله جعل يهتف يوم بدر : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » .

الله تعالى لو شاء لانتصر منهم بدون قتال ، لكن أراد أنْ تُقاتلوهم لتُظهروا قوتكم وتفوّقكم عليهم ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [التوبة] ولو هزمهم بآية كونية من عنده سبحانه لقالوا : ظاهرة طبيعية كونية ، لا قدرة لنا عليها .

كذلك فى يوم حنين ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة]

فلما اغتر المسلمون بكثرة العدد لقَّنهم درساً يُؤدِّبهم به ، وتفوق عليهم أعداؤهم ، ثم تداركهم برحمته ، وكتب لهم النصر فى نهاية المعركة ، ففى نفس اللقاء أدَّب المؤمنين برسول الله ، وأدَّب الذين شاقوا رسول الله .

وهذا يُعلِّمنا درساً هو أن الهزيمة للمؤمنين ، ليست لهوانهم على الله ، إنما تربية لهم ليُصحِّحوا المفاهيم ويُعدِّلوا المسيرة ، وهذا الدرس واضح فى غزوة أُحُد كما تعلمون .

فلما خالفوا أوامر القائد هُزموا ، ولو انتصروا فى هذه الغزوة لَهانَ عليهم بعد ذلك أمر رسول الله . ولقالوا : خالفنا أوامره فى أُحد وانتصرنا .

لذلك يقولون فى هذه الغزوة : هُزم المسلمون وانتصر الإسلام .

إذن : أحبط اللهُ أعمالهم فى الجانبين : جانب المال ، وجانب القتال .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) ﴾

النداء هنا للذين آمنوا ، فالإيمان هو حيثية الأمر فى ﴿ **أطيعوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** .. (٣٣) ﴾ [محمد] وفى النهى ﴿ **ولا تُبْطِلوا أَعْمَالَكُمْ** (٣٣) ﴾ [محمد] فالمؤمن هو الذى يسمع النداء ويطيع الأوامر ، لأنه يعلم أنها من رب حكيم هو الخالق والرازق والقيوم .

الخير فى طاعته ، والخسران فى مخالفة أمره ، لذلك المؤمن حين ينزل به بلاء أو شدة يعود إلى نفسه . ويقول : ماذا فعلت ؟ لا بدّ أننى خالفتُ منهج ربى فيُصحح ما كان منه .

ونقف هنا عند تكرار فعل الأمر ﴿ **أَطِيعُوا** .. (٣٣) ﴾ [محمد] مرة معه الله ، ومرة مع رسول الله ، لابد أن لها ملحظاً ، نعم قالوا : لأن الله يُشرِّع المبدأ العام على سبيل الإجمال ، والرسول يُشرِّع ما يُبيِّن وما يُفصِّل هذا الإجمال كما فى الصلاة مثلاً ؛ فالله فرضها إجمالاً والرسول بيَّن لنا أوقاتها وعدد ركعاتها ، وكلَّ ما يتعلّق بها .

إذن : لله تعالى طاعة فى المبدأ المجمل ، وللرسول طاعة فى التفصيل ، فإذا لم يكرر الفعل كما فى ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ** .. (١٣٢) ﴾ [آل عمران] فالأمر واحد توارد عليه كلامُ الله وكلامُ رسول الله .

ويأتى الأمر بصورة أخرى : ﴿ **وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم** .. (٥٩) ﴾ [النساء] فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر منكم ، لكن جعل طاعتهم من باطن طاعة الله وطاعة رسول الله ، فلا طاعةَ لهم خاصة ، ولا طاعةَ لهم منفصلة عن طاعة الله وطاعة رسول الله ، لأنه كما تعلمون لا طاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق ، وهذه قاعدة شرعية .

وقوله : ﴿ **ولا تُبْطلوا أعْمالكُمْ** (٣٣) ﴾ [محمد] لأنكم تعملون أعمالاً حسنة وأفعالاً طيبة ، فحافظوا عليها ولا تبطلوها بفعل السيئات ، على حدّ قول الشاعر :

وَلَـمْ أرَ فـى عيوب النَّـاسِ عَيْـباً ... كَعَجْزِ القَادِرِينَ عَلَى التمَامِ

والإمام الشافعى(١) يقول :

إذَا كنتَ فى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإنَّ المَعَاصِـى تُزِيـلُ النِّعَـم

فمن العيب أنْ ينتكس المسلم ويفعل السيئة بعد أنْ وُفِّق للحسنة ، ويقول تعالى : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ** (١١٤) ﴾ [هود]

وفى الحديث الشريف « وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها »(٢)

فمن رحمة الله بنا أن الحسنة تمحو السيئة ، لكن السيئة لا تمحو الحسنة لكن يلزمها الاستغفار . ومن أخطر الأمراض التى تبطل العمل الصالح أنْ يداخله رياءٌ أو سُمعة أو نفاق أو شبه شرك ، والعياذ بالله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) ﴾

(١) هو الإمام محمد بن إدريس الشافعى توفى ٢٠٤ هجرية ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد فى غزة عام (١٥٠ هجرية) زار بغداد مرتين وقصد مصر سنة (١٩٩ هجرية) فتوفى بها ، كان أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات . [الأعلام للزركلى ٦/ ٢٦] .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (١٩١٠) وأحمد فى مسنده (٢٠٣٩٢ ، ٢٠٤٣٥ ، ٢٠٥١٢، ٢٠٥٥٦) والحاكم فى مستدركه (١٦٥) والبيهقى فى شُعَب الإيمان (٧٧٩٥) والقضاعى فى الشهاب (٦١١) كلهم عن أبى ذر الغفارى، وفى الباب عن معاذ بن جبل .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ .. (٣٤)﴾ [محمد] يعنى : ماتوا على الكفر ولم يستدركوا الأمر بالتوبة قبل أنْ يداهمهم الموت ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)﴾ [محمد] هذا يعنى أنهم لو تابوا قبل الغرغرة وفى فسحة الدنيا لغفر لهم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [النساء] والموت على الكفر بعد أنْ بان الهدى وظهر للناس دليلٌ على الإصرار ، فكيف تناله رحمة الله ؟!

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ[1] أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾

معنى ﴿فَلَا تَهِنُوا .. (٣٥)﴾ [محمد] لا تضعفوا فى مواجهة الأعداء لأنكم أمامهم فى معركة ، ولو لمسوا فيكم بوادر الضعف لتجرأوا عليكم وطمعوا فيكم ، ومن مظاهر الضعف أن تدعوهم إلى المسالمة والموادعة ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ .. (٣٥)﴾ [محمد] فتصرفوا من هذا المنطلق ، ومن هذا الاعتقاد أنكم الأعلوْنَ عليهم .

ولم لا ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ .. (٣٥)﴾ [محمد] يُقوِّيكم ويحمى ظهوركم ، وهو سبحانه الركن الشديد الذى لا يخذل أبداً مَنْ لجأ إليه ، وهو صاحب هذا المنهج الذى تقاتلون من أجله ، فكيف يتخلى عنكم أو يُسلمكم لأعدائكم ؟!

إذن : إذا حمىَ الوطيس واشتدَّتْ الحرب فاثبتوا ، ولا ترهبكم

(١) وتره حقه : نقصه حقه . قال تعالى : ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾ [محمد] أى : لن ينقصكم ثوابها بل سيوفيكم أجور أعمالكم كاملة . [القاموس القويم ٣١٨/٢] .

منهم عدة ولا عدد ولا حيلة ولا مكر ، لأن الله معكم .

لذلك فى قصة سيدنا موسى عليه السلام لما كاد فرعون أنْ يلحقه هو وجنوده ، حتى كان البحر من أمامه وجنود فرعون من خلفه ، وقال أحد جنود موسى : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] ماذا قال موسى ؟ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] قالها بملء فيه وهو واثق من نصر الله .

ونفهم من قوله تعالى ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ .. (٣٥)﴾ [محمد] نهى عن أن نطلب نحن السلام ولا نرفع نحن الراية البيضاء ، بل نتركهم يطلبون هم ، لذلك يقول سبحانه فى الآية الأخرى : ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا .. (٦١)﴾ [الأنفال] ذلك لأنهم يفهمون أن السلام من طرفكم ضعفٌ واستسلام ، وأيضاً لا تطلبون السلام لأنكم الأعلون والأعز والأقوى .

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ .. (٣٥)﴾ [محمد] ومَنْ كان فى معية الله يخلع الله عليه من صفاته ، أرأيتم فى قصة الغار كيف وقفوا على فتحة الغار ، حتى قال الصِّديق : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له النبى ﷺ : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1] .

وما دام الله ثالثهما ، فهم فى معيته تعالى ، وما دام الله لا تدركه الأبصار ، فكذلك مَنْ كان فى معيته لا تدركه الأبصار .

ومعنى ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾ [محمد] وتر الشىء يعنى : فقده ، والمعنى : لن ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً ، بل سيوفِّيكم إياها وزيادة .

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٩٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٨٩) وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٢١) وأحمد فى مسنده (١١) كلهم من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ (٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ (٣٧) ﴾

القرآن الكريم أعطانا صوراً متعددة للحياة الدنيا تدل فى مجملها على أنها حياة قصيرة هيِّنة تغرُّ الناس وتخدعهم ، من هذه الصور قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً[١] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ (٤٥) ﴾ [الكهف]

وهنا : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. (٣٦) ﴾ [محمد] وهذا أسلوب قصر يؤكد أن الدنيا ما هى إلا كذلك لعب ولهو ، فليحذرها العاقلُ ولا يغترُّ بها .

اللعب أنْ تنشغل بشىء لا يضر لكنه لا ينفع ، لذلك أخذتْ بعض المجتمعات المتقدمة تُرشِّد لعب الأطفال ، بحيث تؤدى الغرض فى تسلية الطفل ، وأيضاً تعلمه شيئاً للمستقبل .

لذلك قال النبى ﷺ : « علِّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل »[٢] .

(١) الهشيم : الحطب والخشب المحطَّم . وهشم الخبز : كسره وفتَّه . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] وتذروه الرياح : تطيره وتبدده .

(٢) عن بكر بن عبد الله بن ربيع الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « علِّموا أبناءكم السباحة والرماية ، ونِعْم لهو المؤمنة فى بيتها المغزل ، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك » أخرجه أبو نعيم فى معرفة الصحابة (باب مَنْ اسمه بسر) . وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٤٥٣٤٣) وعزاه لابن منده فى المعرفة وأبو موسى فى الذيل والديلمى فى الفردوس ، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٣٨٧٦) وجاء فى فتاوى اللجنة الدائمة أن فى سنده سليم بن عمرو الأنصارى، قال الذهبى فى الميزان : روى عنه على بن عياش خبراً باطلاً وساق هذا الحديث .

واللعب بالنسبة للطفل يكون قبل التكليف ، أما اللهو فهو الانشغال بعمل لا يفيد ولا ينفع ويلهيك عن عمل مفيد نافع ، كالذى يجلس على القهوة مثلاً يلعب الشطرنج ، ويؤذن للظهر فلا يقوم للصلاة .

وفى سورة الجمعة : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

والمتتبع لآيات القرآن يجدها تصف الدنيا فى أكثر من موضع بهذا الوصف، لعب ولهو بهذا الترتيب الوجودى ، لأن اللعب للأطفال واللهو للكبار إلا فى سورة العنكبوت ، فيقول : ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] لأن الكلام هنا عن الفتن التى تضرُّ بالآخرة وتبعدك عن ثوابها ، فذكر اللهو قبل اللعب .

ثم يكفى فى تحقير الدنيا وهوان شأنها اسمها ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٦) ﴾ [محمد] فلا أقل من هذا الوصف ، وأنت حين تقول (الدنيا) تتذكر المقابل لها وهى (الآخرة) ، فإنْ كانت هذه دنيا فهذه عُلْيا ، وإنْ كانت هذه فانية فهذه باقية .

ومع ذلك لا تُذمُّ الدنيا عموماً ، وإنما تُذمُّ إنْ حدث فيها ما يُذم ، وتُمدح إنْ حدث فيها ما يُمدح ، وهى مزرعة الآخرة ولا تدخل الجنة إلا بعمل الدنيا ، فالدنيا موضوع الدين أما الآخرة فجزاء ، والجزاء على الشىء ليس هو الشىء .

وسبق أنْ قلنا : إن الدنيا فى نظر المؤمن أهم من أنْ تُنسى لأنها توصِّلك للآخرة ، ولكنها أتفه من أنْ تكون غاية لأن غاية الشىء نهايته والدنيا ليست نهايتك ، إنما وراءك غاية أهم منها هى الآخرة ، هى الغاية الحقيقية التى ليس بعدها بعد .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا .. (٣٦) ﴾ [محمد] أى : تؤمنوا بالله وتُطبقوا منهجه فى افعل ولا تفعل ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) ﴾ [محمد] يعنى : يعطيكم أجور الأعمال كاملة دون نقصان ، ولا يأخذ منك الأموال التى تفضل بها عليكم .

بدليل أنه سبحانه حين يأمرك بأنْ تتصدَّق يعتبر هذه الصدقة قرضاً يرده إليك مع الزيادة ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) ﴾ [محمد] الحق سبحانه لا يسألنا أموالنا ، لأن الإنسان جُبل على حب المال ويشق عليه أن يؤخذ منه ، فالله يقول : لو سألتكم الأموال سيحتاج السؤال إلى إلحاح .

﴿ فَيُحْفِكُمْ .. (٣٧) ﴾ [محمد] يلح عليكم فى السؤال وأنتم تكرهون ذلك ؛ لأنه يُظهر ما عندكم من البخل ، ويُظهر ما فى نفوسكم من ضغائن وأحقاد .

وحين تظهر أضغان النفوس تفسد العلاقات بين أفراد المجتمع وقد رأيتم ذلك مثلاً فى مسألة التأميم التى حدثتْ ؛ لأن المال عادة تكسبه بتعب وعرق فيعزّ عليك أنْ يؤخذ منك ويُعطى لغيرك ، وهنا يظهر الضغن .

وقوله تعالى : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ .. (٣٧) ﴾ [محمد] كما فى قوله سبحانه : ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وقالوا فى ﴿ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) ﴾ [محمد] أنها تفيد عموم السلب لا سلب العموم ، كيف ؟ كما نقول مثلاً : لم ينجح كل الطلاب ، هذا يعنى أن البعض نجح ، فالسلب هنا للعموم على خلاف لو قلت :

كل الطلاب لم ينجحوا . هذا عموم السلب حيث لم ينجح منهم أحد .

كذلك ﴿ لا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) ﴾ [محمد] أى : كلها ، فالمعنى أنه يسألكم بعضها كما يحدث فى الزكاة والصدقات والفدية والكفارات .

﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ .. (٣٨) ﴾ [محمد] (ها) أداة تنبيه لجذب الانتباه ، و(أنتم) ضمير للخطاب، و(هؤلاء) إشارة لهذا المخاطب أنتم ، فالمخاطب هو عَيْن المشار إليه ، إذن : جمعتْ الآية بين أدوات ثلاث لتأكيد التنبيه ولمزيد الاهتمام .

جاء بـ هاء التنبيه لأن المتكلم حر يتكلم فى الوقت الذى يريده فهو يملك زمام الأمر ، أما المخاطب فلا يملك ذلك ولا يدرى متى تتكلم ليسمع ، لذلك نأتى بأداة التنبيه ليستعد ولا يفوته شىء من الكلام .

فالحق سبحانه وتعالى يخاطبهم بكل هذه الأدوات ليؤكد نداءه لهم ودعوته لهم لينفقوا ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [محمد] مَنْ الذى يدعو ؟ الله يدعوهم لينفقوا .

تأمل هنا كيف أن الحق سبحانه يحترم ويُقدِّر مجهودات البشر ؟ فرغم أنه هو سبحانه الخالق الرازق مُسبِّب الأسباب منحك القوة التى تعمل بها ، والعقل الذى تفكر به ، والمادة التى تستعملها ، ومع ذلك

احترم دورك فى أنْ تُوجِّه الطاقة المخلوقة لله فى شىء نافع مفيد وقال لك : أنفق كأن المالَ مالك وهو يقترضه منك قرضاً حسناً .

كما أنك تعطى ابنك مصروفه اليومى فيدخره مثلاً فى حصالة ، ثم يطرأ عليك ظروف تحتاج فيها ما فى حصالة الولد . فتقول له : أعطنى ما فى الحصالة سلف وسوف أرده إليك لما أقبض .

يقول تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] فالحق سبحانه حرَّم الربا فى التعامل بين البشر ، لكن أحله لنفسه تعالى حين يقترض منهم ، وهذا فضل وتكرُّم من الله على الخَلْق فى الأولى وفى الآخرة .

وقوله : ﴿لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [محمد] فى كل الوجوه التى يحبها الله فى الإنفاق من خَلْقه لخلقه ، وهو سبحانه قادر أنْ يغنى الجميع فلا يحتاج أحد لأحد ، إنما أراد سبحانه أنْ تتواصل القلوب وتتشابك المصالح ويترابط الخَلْق بمشاعر الإيمان ، حيث يعطف الغنى على الفقير ، ولا يحقد الفقير على الغنى ، وحيث يرحم القوى الضعيف .

لكن لما دعاهم الله للإنفاق كان منهم قسم يبخل ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ .. (٣٨)﴾ [محمد] وهؤلاء هم الذين لا يفهمون فلسفة التجارة مع الله ولا عاقبة الإنفاق ، لا يعرفون أن النفقة بهذا الشكل تزيد المال ولا تنقصه ، واقرأ : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة]

الإنفاق فى سبيل الله مثل رجل حصد القمح وأدخل المخزن عنده عشرة أرادب مثلاً عندما يأخذ أردباً منها ليزرع به الأرض من جديد ، هل يقول أن القمح نقص أردباً ؟ لا لأنه سيأخذه مضاعفاً .

إذن : لا تنظر إلى ما يخرج لكن انظر أيضاً إلى ما سيأتى لتكتمل الصورة ويكون الحساب صحيحاً ، حتى الربا فى تعاملات الناس يعطيك بزيادة خمسة أو عشرة فى المائة .

أما ربك عز وجل فيعطيك سبعين أو سبعمائة أو أضعاف ذلك ، واقرأ : ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

لذلك وقف المستشرقون عند حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « مكتوب على باب الجنة أن الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1] وقالوا : هذا مناقض للقرآن الذى يقرر أن الحسنة بعشر أمثالها ، والواقع أنه لا يوجد بينهما تناقض أبداً ، لأننى حين أُخرج الدرهم قرضاً يعطينى عشرة منها الدرهم الذى دفعته . إذن : أعطانى تسعة فحين تُضاعف تكون ثمانية عشر .

والحق سبحانه وتعالى لما حثَّنا على القرض علَّمنا كيف نتعامل مع المقترض ، فقال : ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ[2] إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)﴾ [البقرة]

---

(١) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٥٣٨٢) وعزاه للطبرانى فى الكبير والحكيم فى نوادر الأصول عن أبى أمامة : « رأيت على باب الجنة مكتوباً : القرض بثمانية عشر والصدقة بعشر » ، وأخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط من حديث أنس قال قال رسول الله : رأيت ليلة أسرى بى مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، قلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ فقال :« إن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

(٢) النظرة : الإمهال والتأخير وعدم الاستعجال . وأنظره : أخَّره وأمهله وتأنَّى عليه . [القاموس القويم ٢/٢٧٢] .

فالمرحلة الأولى أنْ تنظره لحين يتيسر له السداد ، ثم لك بعد ذلك أن تكمل إحسانك وتتسامح فى هذا القرض أو بعضه على سبيل الصدقة ، وهذا هو الخير لمن تتوق نفسه إلى معالى الأمور .

ثم فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ..(٣٨) ﴾ [محمد] إنصاف لأمة محمد ﷺ وبيان لشرفها ، فالكثرة تنفق والقلَّة تبخل ، فى الأمة مَنْ أنفق كل ماله فى سبيل الله ، ومَنْ أنفق شطر ماله فى سبيل الله .

وقد بلغ البذل والعطاء فى هذه الأمة مبلغاً لا مثيل له فى التاريخ ، حيث كان الأنصارى يقول لأخيه المهاجر : انظر إلى نسائى أيّهن أعجبتْك أطلقها لتتزوجها أنت ، مع ما هو معلوم من مكانة المرأة خاصة عند الرجل ، لكنها السماحة والتضحية .

وفى المقابل تجد هذا الصحابى المهاجر ، وهو سيدنا عبد الرحمن بن عوف[١] رضى الله عنه يرفض هذا العرض السخى ويدعو لأخيه[٢] ويقول له : لا يا أخى ، بارك الله لك فى نسائك ، لكن دُلّنى على السوق[٣] .

وذهب عبد الرحمن إلى السوق وتاجر ، حتى كان أغنى صحابة

(١) هو : عبد الرحمن بن عوف أبو محمد الزهرى القرشى صحابى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم وأحد السابقين إلى الإسلام ، ولد عام (٤٤ ق . هـ) وتوفى عام ٣٢ هجرياً ، عن ٧٦ عاماً ، كان يحترف التجارة والبيع . [الأعلام للزركلى ٣/٣٢١] .

(٢) المقصود بأخيه هنا هو سعد بن الربيع الخزرجى الأنصارى وليس أخاه حقيقة ، ولكن رسول الله آخى بينهما بعد الهجرة إلى المدينة [انظر سيرة ابن هشام ١/٥٠٤] .

(٣) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/٣٢٧) عن أنس قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق . فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح فجاء بشىء من أقط وسمن .

رسول الله ، حتى قالوا : إنه لو تاجر فى التراب لربح فيه[١] .

وكان عنده ألفُ عبد ، وجاء رجل يسأل أحدهم : ما حال ابن عوف فيكم ؟ فقال : والله لو أقبلت علينا وهو معنا لا تعرفه من بيننا لأنه يُلبسنا مما يلبس ، ويُطعمنا مما يأكل .

فرغم ما ركز فى النفس الإنسانية من حب المال وحب التملك إلا أنه يوجد من الناس من جبل على الجود والكرم ، يعطى بلا حدود ، يعطى عطاء مَنْ لا يخشى الفقر ، انظر مثلاً إلى كرم حاتم الطائى[٢] وهو يقول لغلامه :

أَوْقِدْ فَإنَّ اللَّيْلَ لَيْلُ قُرّ
وَالرِّيحُ يَا غُلامُ رِيح صُر
عَلَّ يَرَى نَارَك مَنْ يَمُرّ
إنْ جلبتَ ضَيْفاً فَأنتَ حُر

ويُروى أنه جلس جماعة من القوم فى ساحة مكة يتحدثون عن

(١) هذه العبارة وردت فى كل المصادر التى رجعت إليها فى حق عروة بن الجعد البارقى أن النبى ﷺ أعطاه ديناراً يشترى له به شاة فاشترى له به شاتين ، فباع إحداهما بدينار وجاءه بدينار وشاة ، فدعا له بالبركة فى بيعه ، وكان لو اشترى التراب لربح فيه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٧٠) وابن ماجه فى سننه (٢٣٩٣) وأحمد فى مسنده (١٨٥٤٩) والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/١١٢) والحميدى فى مسنده (٨٨٢) . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) حاتم الطائى هو : حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى القحطانى أبو عدى ، فارس شاعر جواد جاهلى ، يُضرب المثل بجوده ، كان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية ومات فى عوارض (جبل فى بلاد طىء) شعره كثير ضاع معظمه بقى منه ديوان صغير مطبوع . توفى عام ٤٦ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢/١٥١] .

أجود أهل زمانهم ، واختلفوا فى ذلك ، واحد قال : أجودهم سعيد بن سعد بن عُبادة . وآخر قال : بل عبد الله بن جعفر . وآخر قال : عرابة الأوسى(١) فى المدينة أجود منهما . وكادوا يقتتلون ، فقال رجل عاقل منهم : ابعثوا إلى كل واحد من هؤلاء رجلاً يدخل عليه على أنه عابر سبيل وله حاجة ، وانظروا كيف يقابله .

فبعثوا رجلاً إلى عبد الله بن جعفر ، فوجده يركب للصيد ، وقد وضع رِجْلاً فى الركاب والأخرى على الأرض ، فقال له : يا ابن بنت رسول الله ، عابر سبيل وطالب حاجة فأنزل رجْله من الركاب ، وقال له : اركب وهذه حقيبة فيها أربعة آلاف دينار وفيها كسوة كذا وكذا ، وفيها سيف على بن أبى طالب فاحرص عليه .

وذهب آخر لسعيد بن سعد بن عُبادة وطرق الباب فردَّتْ الخادمة : مَنْ ؟ قال : عابر سبيل ، وطالب حاجة . فقالت : إن صاحب البيت نائم ، فماذا تريد ؟ فقال : طالب حاجة ، فقالت : حاجتُكَ أهون من أنْ أوقظه ، والله ما عنده إلا سبعمائة دينار خُذها واذهب إلى معاقل الإبل ، واختر لك راحلة وخادماً يخدمها ، فلما استيقظ سعيد قالت له : حدث كذا وكذا ، فقال : أفعلتِ ذلك ؟ قالت : نعم ، قال : فأنتِ حرة .

ثم تلاحظ أن الأمر بالنفقة هنا لمن ؟ للذين آمنوا خاصة الذين ناداهم : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٣٣) ﴾ [محمد] ذلك لشرف الإنفاق ومنزلته وثوابه المضاعف يريد ألاَّ يحرم المؤمن نفسه من هذا الخير .

---

(١) عرابة الأوسى : هو عرابة بن أوس بن قيظى الأوسى الحارثى الأنصارى ، من سادات المدينة الأجواد المشهورين ، أدرك حياة النبى ﷺ وأسلم صغيراً . وفد الشام فى أيام معاوية وله أخبار معه ، توفى بالمدينة عام ٦٠ هجرية [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٢] .

حتى كلمة (نفقة) مأخوذة من سوق نافقة . يعنى : رائجة رابحة لأنها تجارة مع الله ، فلا تظن أنها تجارة كاسدة خاسرة ، نعم سوق أقامها الحق سبحانه بين عباده لحكمة أرادها ، فجعل منهم الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، واختبر كلاً منهما بالآخر ليحدث هذه الحركة التكاملية فى مجتمع الإيمان .

لذلك قلنا : إن الله تعالى يريد من المؤمن أنْ يعمل على قدر طاقته لا على قدر حاجته ، لأنه لو عمل على قدر حاجته وحاجة مَنْ يعول لن يبقى شىء للضعيف الذى لا يقدر على العمل ، ثم إن الأيام دُوَل ، وقد يصير القوى إلى حال الضعف فيحتاج ، أو يصير الغنى إلى حال الفقر ، عندها يجد مَنْ يعطيه ، والإنسان ابن أغيار .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الإنفاق الذى أمرنا الله به يمثل التأمين لمستقبل المؤمن ، فلا يخاف على نفسه ولا على أولاده من بعده إنْ ألجأتْه الظروف إلى الحاجة ، ويكون على ثقة بأن المجتمع المؤمن سيمدُّ له يد العون .

والعجيب فى أمر النفقة أن الحق سبحانه لم يعف منها أحداً ، فمَنْ لا يقدر على نفقة المال تلزمه نفقة المقال ، اقرأ قول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾ [التوبة]

فمَنْ كان واجداً وبخل على غير الواجد أنْ ينصحه وأنْ يوقظ غفلته ، فإذا لم يفعل كان آثماً ، فإذا لم يكُنْ لديه هذا ولا ذاك ،

شرحها الحق سبحانه فى قوله : ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ[١] قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. (٩٢)﴾ [التوبة] ماذا يصنعون ؟ ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة]

فهذا الذى لا يملك شيئاً إلا البكاء والعواطف الجيَّاشة التى تعبر عن شوقه إلى الإنفاق ورغبته فيه ، لكنه لا يملك فيكفيه هذه العواطف ، وتُحسب له الأعمال بالنيات ، وقد يشجعه هذا الموقف على أنْ يسعى ليفعل شيئاً ليعطى أىَّ شىء .

وليحذر الغنى أنْ يكون فتنة للفقير حين يمنعه حقه فيتذمر ويعترض على قضاء الله الذى حكم عليه بالفقر وعلى غيره بالغنى ، لا تجمع عليه الفقر وعدم الرضا بالقضاء .

واقرأ : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة]

والعاقل مَنْ خفف حمله يوم تثقل الأحمال على أصحابها ، فلا يحملها عنهم أحد ، ومن أراد أنْ يُخفِّف عن نفسه فلا أقلَّ من أنْ يعطى الزائد عن حاجته لمَنْ يستحق .

كلمة ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ .. (٣٨)﴾ [محمد] البخل هو قَبْض اليد عن الإنفاق ، وهو عملية حركية تنشأ نتيجة مواجيد راسخة فى

(١) نزلت هذه الآية فى البكائين وهم ستة : عبد الله بن مغفل وصخر بن سلمان وعبدالله بن كعب الأنصارى وعلبة بن زيد الأنصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن عتمة أتوا رسول الله ليحملهم ويجهزهم للغزو فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . فانصرفوا باكين . وقد كانوا يريدون أحد ثلاثة أشياء : دواب أو زاد أو نعال . [زاد المسير لابن الجوزى فى تفسير سورة التوبة - آية ٩] .

النفس الإنسانية هى مشاعر الشح التى تدعو صاحبها لعدم الإنفاق .

لذلك قال تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [الحشر] أى : يتغلب على هذه الطبيعة فيه ، ويكبت جماح نفسه حتى تطاوعه فينفق .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه عاقبة البخل : ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨)﴾ [محمد] يعنى : بخله ناشىء من شُحِّ نفسه ، أو يبخل عن نفسه يحرمها ثواب الصدقة والإنفاق ويحرمها مضاعفة الأجر .

إذن : قوله (عن) أعطتنا معنيين : إما بيان مصدر البخل وهو شح النفس ، أو بيان عاقبة البخل ، وهى حرمان النفس من الثواب لا حرمان أحد آخر .

وقد فهم العلماء العارفون هذا المعنى ، فالإمام على رضى الله عنه لما سُئل : أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ، قال للسائل : الجواب عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : إذا دخل عليك شخصٌ بهدية وآخر يطلب عطية ، فلأيِّهما تبَشُّ وبأيهما تفرح ؟

إن كنتَ تفرح بحامل الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تفرح بطالب العطية فأنتَ من أهل الآخرة .

لذلك كان بعض الصالحين إذا دخل عليه سائل يقف له ويُرحِّب به ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ .. (٣٨)﴾ [محمد] لأن اليهود قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، لأنه يقترض منا ، فالله يرد عليهم بل الغنى لله ، غنى فى ذاته عن خَلْقه ، ويفيض من غناه فيغنى الخلق بأنْ يزرع بينهم المودة والرحمة ويُحببهم فى النفقة ، فلا يتكبر الغنىُّ بغناه ، ولا يحقد الفقير على الغنى بسبب فقره ، فالكل راضٍ

يقول : الحمد لله ، فكأن الغنى كله مصدره الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا .. (٣٨) ﴾ [محمد] أى : تعرضوا وتمتنعوا عن الإنفاق الذى أمركم الله به ، ولا تُصدقوا ما وعدكم الله به من الزيادة ، فاعلموا أن الله لن يترك الضعيف والفقير والعاجز عن الكسب ، إنما سيستبدلكم بمَنْ هو خير منكم فيستجيبوا لأمر الله وينفقوا على خَلْق الله .

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]

لا يكونوا أمثالكم فى البخل والشح وقَبْض اليد عن العطاء ، لأنك عبدى وموظف عندى ، فإنْ خالفتنى آتى بغيرك يكون أفضل منك ، فإذا لم تجد الخير فى قوم ستجده فى آخرين ، وإذا لم تجده فى بلد ستجده فى بلد أخرى .

ومعلوم أنه لما انتشر الإسلام فى المشارق والمغارب كثر أهل الجود فى شتى بلاد الإسلام ، ولهم فى جودهم قصص وحكايات .

سُورَةُ الفَتْحِ

سورة الفتح[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾[2]

الحق سبحانه وتعالى هنا يتكلم بصيغة الجمع (إِنَّا) الدال على العظمة ، ذلك لأن الله تعالى يزاول مُلكَه لا بصفة واحدة ، إنما بصفات متعددة وكمالات شتى ، فى القدرة والعلم والحكمة وغيرها من صفاته سبحانه .

---

(١) سورة الفتح سورة مدنية بالإجماع وهى ٢٩ آية ، نزلت ليلاً بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها . قاله المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم . قال عنها رسول الله ﷺ : « لقد أنزلت علىَّ الليلة سورة هى أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس » . وهى السورة رقم (٤٨) فى ترتيب المصحف . نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة المائدة وثلاثتها سورة مدنية . [راجع تفسير القرطبى ٩ / ٦٣١٠] والإتقان فى علوم القرآن (١/ ٢٧) .

(٢) سبب نزول الآية : عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾ [الفتح] فقال رسول الله ﷺ : « لقد أنزلت علىّ آية هى أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها كلها » . أوردهما الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٦ ، ٢١٧).

لكن حينما يتكلم عن ذاته سبحانه يتكلم بصيغة المفرد الواحد ، فيقول مثلاً : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا .. (١٤)﴾ [طه] ليثبت لنفسه تعالى الوحدانية ، فإنْ تكلم عن فعل من أفعاله قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

ونلاحظ هنا أنه سبحانه أكد ضمير المتكلم (إِنَّا) بقوله (نحن) ثم كرر الضمير فى (نزلنا) وفى ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] ذلك ليؤكد أهمية المنهج الذى جاء به القرآن ، وأنه منهج سماوى من عنده سبحانه ، وأنه مُعجز للخلق ، وفى هذا بيان لفضل القرآن الكريم .

ومادة (فتح) تأتى بمعانٍ متعددة ، نقول : فتح الباب . وهذا المعنى يدل على فتح المغاليق ويكون فى الأمر الحسى ، كما فى قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ .. (٦٥)﴾ [يوسف]

وهناك فتح معنوى فى الأمر الذى يأتى بالخير كما فى قوله تعالى فى المنافقين : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم[1] بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦)﴾ [البقرة] أى : ما أعطاكم فى التوراة من صفات النبى ﷺ المذكورة فى التوراة . وهناك فتح بمعنى : حكم وفصل كما فى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف]

ومن معانى الفتح : النصر كما فى الآية التى معنا ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣)﴾ [الفتح] لأن الدعوة

(١) حاجّه : نازعه الحجة فهى مفاعلة من الجانبين . أى : قدم كل منهما حجته ليغلب بها الآخر . [القاموس القويم ١/١٤٣] .

حين قامت ، وعارضها كفار مكة وصمُّوا آذانهم عنها وعاندوها استهزاءً برسول الله ﷺ وإيلاماً له ولمَنْ آمن بدعوته .

كان الحال كأن الباب مغلق فى وجه الدعوة ، فقال الله له ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً (١)﴾ [الفتح] أى : فتح ظاهر واضح ، فتح لباب انتشار الدعوة وقوتها بحيث يكون لها قوة وشوكة ومنعة ، فبعد أنْ كانت قريش تحاصرها لتقضى عليها فتح لها الباب فجابت الجزيرة العربية كلها ، وبعد أنْ كانت قريش تضيق على الدعوة الخناق أصبح العربُ كلهم يحتضنونها ويدافعون عنها .

وفى آية أخرى شرح لنا مسألة الفتح هذه ، فقال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١)﴾ [الرعد] يحكم بنصرة الإسلام وانتشاره فى بقاع الأرض ، وإذا حكم الله وقضى فلا رادَّ لقضائه ، ولا مُعقبَ لحكمه ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا .. (٢)﴾ [فاطر] وما دام أن الله فتح فلا يضرك أنْ يغلق البشر .

الفعل (فتح) يتعدى بنفسه فى الفتح الحسىِّ نقول : فتح الباب ويتعدى باللام كما فى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ .. (١)﴾ [الفتح] أى : نصرناك ويتعدَّى بـ (على) فى الأمور المعنوية ، وفى الخيرات يسوقها الله إليك ويُنزلها عليك .

لذلك مشهور فى الدعاء أن نقول : فتح الله عليك ، كأن الخيرات ستنزل عليك كالمطر ينزل على رأسك ، ومن ذلك قوله تعالى مع الفارق بين الحالين : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] يعنى : أتيناهم بالخيرات من كل ناحية

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] أى : فرح البطر والتعالى ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ [الأعراف]

لأنه كما سبق أنْ قلنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع برجل لا تُوقعه من على الحصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليزيد الإيلام ، كذلك هؤلاء فتح الله عليهم أبواب الخيرات من كل ناحية ليؤمنوا ، لكنهم نسوا ما ذكِّروا به ، فأخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

والنعمة إذا لم تُقابل بالشكر انقلبتْ إلى نقمة ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] والأخذ حال النعمة والرفاهية أنكى وأوجع من الأخذ حال الفقر ، فالأخذ مع النعمة فيه يأسٌ بعد إطماع ، مثل السجين الذى يطلب الماء لشدة عطشه ، فيأتى له الحارسُ بكوب الماء حتى يقترب من فمه فيُريقه على الأرض .

وقوله تعالى :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢)
وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) ﴾

سبق فى سورة محمد أنْ بيَّنا معنى الذنب فى حق النبى ﷺ لأنه معصوم وقلنا : إنه من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين[1] ،

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (١/٣٠٩) وعزاه للجنيد رحمه الله ، وكذا فى تفسير أضواء البيان . وقال السخاوى فى المقاصد الحسنة (١/١٠٣) وقال : إنه من كلام أبى سعيد الخراز رواه ابن عساكر فى ترجمته . فهو ليس بحديث .

لذلك عدّ النسيان فى حقه ذنباً لأنه نبى موصول بالوحى ، مؤتمن على منهج الله ، فلا يُتصوَّر منه النسيان الذى يحدث من باقى أمته .

لذلك تجاوز الله لهم عن النسيان فى حين لم يتجاوز عنه لرسول الله ، ومثّلنا لذلك بنسيان سيدنا آدم ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] وسمّى هذا النسيان معصية .

فالمغفرة لرسول الله من هذه الأمور أمثال عتاب الله له : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١) ﴾ [التحريم] وقوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فالله يعاتب رسوله شفقة عليه ورحمة به ﷺ ، وكأنه يقول له : يا محمد لا تحزن ولا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها ، لأن لك رصيداً من الله فالاستغفار من مثل هذه الأمور ، لا أنه أذنب ذنباً فيه مخالفة للمنهج حاشاه ﷺ أنْ يكون منه ذلك .

وكلمة ﴿ لِيَغْفِرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] من غفر والغفر هو الستر ، وسَتْر الذنب إما أنْ يكون بعده بمنع العقوبة عليه أو يستر الذنب قبل أنْ يحدث فلا يحدث أصلاً ، هذا معنى ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] ما تقدم يستر عقوبته ، وما تأخر يستر الذنب نفسه فلا يقع .

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. (٢) ﴾ [الفتح] تمام النعمة على رسول الله أنْ بعثه الله للناس كافة لكل زمان ولكل مكان ، وكان الرسلُ قبله

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٩] .

يُبعث الرسولُ إلى قوم معينين فى زمن معين ، أما سيدنا رسول الله فقد جاء على موعد مع التقاء حضارات الدنيا كلها واتصال بين المشرق والمغرب ، فجاء رسولاً عاماً وخاتماً للرسالات ، لذلك نقول : سيد الرسل وخاتم الأنبياء .

ومن تمام النعمة أن الله فتح له ، وأزال من أمامه العقبات التى كانت تعرقل مسيرة الدعوة حتى دانتْ له الجزيرة العربية كلها وشملها الإسلام ، وعلى يديه هدى اللهُ هذه الأمة فحملت رسالته من بعده وساحت بها فى شتى بقاع المعمورة .

فجذب إليه أعظم حضارتين فى هذا الوقت ، هما : حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ، حتى إنهم ليقولون : من عجائب هذا الدين أنه فتح نصف الكرة الأرضية فى نصف قرن من الزمان ، وهذه لم تحدث من قبل .

والحق سبحانه يشرح لنا مسألة تمام النعمة هذه فى قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]

لذلك لما سمع سيدنا أبو بكر هذه الآية قال : لقد نعى محمد نفسه بهذه الآية[1] . لأنه لا شىء بعد التمام إلا النقصان ، فأخذوا من

---

(١) ما وجدته فى هذا هو عن عمر بن الخطاب وليس أبا بكر . فقد روى هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت هذه الآية بكى عمر ، فقال له النبى ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : أبكانى أنّا كنا فى زيادة من ديننا . فأما إذا كمل فإنه لم يكن شىء قط إلا نقص . قال : صدقت . أورده البغوى فى تفسيره (٣/١٣) والألوسى فى روح المعانى (٤/٣٧٥) والبقاعى فى نظم الدرر (٢/٣٣) وابن عادل فى تفسير اللباب وأبو السعود فى تفسيره (٢/٢٠٢) .

هذه إشارة إلى قرب موته ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى لينال الجزاء .

لذلك لما جاءه ملك الموت وخيّره ﷺ قال : بل الرفيق الأعلى[1] . فاختار جوار ربه ليس هرباً من المسئولية بل لعلمه بتمام الأمر واستوائه ، وأنه ليس له مهمة بعد ذلك ، بعد أنْ أدّى الأمانة وبلّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وأظهر أمر الدين ، وأرسى قواعده .

وقوله : ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح] فبعد أنْ رأى النعمة قد تمتْ ، وليس هناك مغاليق اطمأن إلى أن الله لا يتخلى عنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح] هل النصر هو العزيز أم المنصور ؟ المنصور هو العزيز ، إنما وصف النصر بالعزة فكأن نصر الحق يُسعد النصرَ نفسه ويعزه وليقول له : إنك بهذا النصر أخذتَ ما لم يأخذه مثلك أبداً .

وفى موضع آخر بيَّن الحق سبحانه أنه ناصر رسوله فى وقت الرخاء كما فى فتح مكة ، وناصره وقت الشدة كما فى حنين : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ[2] إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥١٤٢ ، ٢٥١٤٣) ولفظه عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره . قالت : فلما حُضر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة قالت عائشة : قلت : إذاً والله لا يختارنا وقد عرفت أنه الذى كان يقول لنا : إن نبياً لا يقبض حتى يُخير .

(٢) حنين : معركة وقعت بين المسلمين وقبيلتى هوازن وثقيف العربيتين فى وادى حنين ويقع بين مكة والطائف ، وكانت معركة شديدة على المسلمين بسبب أنهم دخلوا هذا الوادى وهم لا يعلمون أن مالك بن عوف وضع جيشه على شكل كمائن فى مداخل ومضايق وشعاب وادى حنين برماة للسهام ، فكان أن ارتبك المسلمون ارتباكاً عنيفاً وتراجعوا بدون نظام ، ولكن المسلمين تمالكوا أنفسهم عندما نادى عليهم رسول الله قائلاً « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » فاستطاعوا هزيمة المشركين . [موسوعة ويكيبديا بتصرف واختصار] .

اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة]

فلما اغتروا بالكثرة أدَّبهم ، ثم تداركهم برحمته ونصرهم ، وما كان الله لينصرهم فى فتح مكة ثم يخذلهم فى حنين ، وكأن الله يقول لرسوله : اعلم أن الله وراءك وناصرك ومؤيدك ، لكن عليك وعلى أمتك ألاَّ تغتروا بنصر أو بقوة أو بعدد ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ .. ﴿٤﴾﴾ [الفتح] أى : الطمأنينة والأمان بعد أن اشتدَّ الكرب عليه ، وبعد أنْ كانوا فى ذلة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب]

نعم إذا اشتد الكرب هان ، ومع الضيق يأتى الفرج وتدخلت السماء وجاء نصر الله ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ .. ﴿٤﴾﴾ [الفتح] ولينفى عنهم ما خالطهم وما ساورهم من الغرور بالعدد ومخالفة قواعد الجندية لله تعالى .

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٤﴾﴾ [الفتح] يعنى : لا تظنوا أنكم أنتم جنود الله فقط ، بل لله جنود كثيرة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ

هُوَ .. ﴿٣١﴾﴾ [المدثر] فمن جنود الله الملائكة المدبِّرات أمراً أى التى تُدبر شئون الكون بأمر الله .

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ(١) مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾﴾ [الرعد] وقد أقسم الله بهم فقال : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات] هؤلاء جنود الله فى السماء .

نعم لله جنود فى السموات وجنود فى الأرض ، أهلك الله بهم الأمم المكذِّبة ، اقرأ : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم(٢) مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

هذه كلها من جنود الله : الحاصب والصيحة والخسْف والغرق وغيرها . وهذه الجنود لا يعلمها إلا الله من حيث كيف تعلم وكيف تدبر لتحارب أعداء الله لأنها تعمل فى خفاء .

ومع ذلك لما أراد الحق سبحانه نُصْرة رسوله ﷺ لم ينصره بآية من هذه الآيات الكونية ، إنما نصره بقوة إيمان المؤمنين به وثباتهم فى مواجهة أعدائهم وإلا لقالوا لولا الظواهر الطبيعية لم يقدروا علينا .

لكن جعل الحق سبحانه النصر منسوباً إلى الجنود الخفية بالفعل ، أما الظاهر فمنسوب إلى هؤلاء المؤمنين لكى تظل رهبتهم فى قلوب أعدائهم .

---

(١) معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

(٢) هذه أربعة أنواع من العذاب : (الحاصب) وهى ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم عاد . و(الصيحة) التى أخذت قوم ثمود فقضت عليهم ، و(الخسف) الذى عاقب الله به قارون . و(الغرق) الذى قضى الله به على فرعون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام .

لذلك نقرأ فى حادثة الهجرة : ﴿ إلاَّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها .. (٤٠) ﴾ [التوبة]

فجند الله كانوا فى هذا الموقف ، لأن الصِّديق يقول لرسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا[١] ، إذن : هناك جنود منعت رؤيتهم ، الحمام الذى عشش والعنكبوت الذى نسج خيوطه لم يكن إلا جندياً من جنود الله .

سراقة بن مالك[٢] لما ساخت قوائم فرسه فى الرمال ، فكانت الرمال جنداً من جنود الله ، والأعجب من ذلك أنْ يُسخِّر الله من الكفرة أنفسهم من يساعد فى إتمام الهجرة وهو الدليل عبد الله بن أريقط[٣] وكان كافراً لا يعرف رسول الله ﷺ ، ذلك لأن الله غالبٌ على أمره ؛ فجعل هاديَ المادة يهدى هاديَ المعنى !!

وقال : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

قلنا : لأن وارد الرحمن لا ينازعه ولا يعارضه وارد الشيطان ، وهذه

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٩٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٨٩) من حديث أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق حدَّثه قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن فى الغار فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ واللفظ لمسلم .

(٢) سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى أبو سفيان ، صحابى له شعر ، له فى كتب الحديث ١٩ حديثاً . كان فى الجاهلية قائفاً (يقتفى الأثر) أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر . أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هجرية توفى ٢٤ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/ ٨٠] .

(٣) كان دليلهم فى رحلة الهجرة ، وكان ماهراً خريتاً ، ليثى ديلى ، استأجره أبو بكر ، وكان كافراً ولكنهما أمناه ، وفى كتاب (المحبر) أنه عبد الله بن أريقط العدوى حليف العاص بن وائل السهمى . [بتصرف من كتب التراجم] .

رأيناها فى قصة أم موسى لما أوحى الله إليها أنْ تلقيه فى البحر ، مع أنها أُمٌّ تخاف على وليدها ومع ذلك ألقتْه ، ورأيناها فى فرعون الذى يقتل الذكور من بنى إسرائيل يأتيه موسى على هذه الصورة ، ومع ذلك لم يشكّ فى أمره وربَّاه فى بيته ، فالله تعالى ربُّ القلوب خالقها ومُقلّبها كيف يشاء ، يجعلها تقبل حكمه دون مناقشة .

وقوله تعالى : ﴿ وكان الله عليماً حكيماً (٤) ﴾ [الفتح] عليماً بجنوده ، وهو سبحانه حكيم فى توجيهها فى أوقات مخصوصة وإلى قوم بعينهم ، فالمسألة ليست قوة باطشة بلا حساب ولا بلطجة ولا ظلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) ﴾

يُروى أنه لما نزلت : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً (١) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً (٢) ﴾ [الفتح] قال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، هذا ما أعده الله لك ، فماذا أعدَّ لنا ؟ فنزلت : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من

(١) سبب نزول الآية : عن أنس رضى الله عنه قال : أنزلت هذه الآية على النبى ﷺ ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً (١) ﴾ [الفتح] عند رجوعه من الحديبية نزلت وأصحابه مخالطون الحزن وقد حيل بينهم وبين نسكهم ونحروا الهدى بالحديبية ، فلما أنزلت هذه الآية قال لأصحابه : لقد أنزلت علىَّ آية خير من الدنيا جميعها فلما تلاها النبى ﷺ . قال رجل من القوم : هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بيَّن الله ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات .. (٥) ﴾ [الفتح] .

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .. ﴿(٥)﴾ [الفتح] هذا ما لهم .

وقد وقف المستشرقون عند قوله سبحانه : ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. (٥)﴾ [الفتح] وقالوا : كيف يُكفِّر عنهم سيئاتهم وقد أدخلهم الجنة بالفعل ؟ إنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أنْ كفَّر عنهم سيئاتهم .

نقول : المعنى يسترها عليهم حتى لا تُنغِّص معيشتهم فى الجنة ولا موقفهم من ربهم عز وجل ، أو يسترها عنهم فينسوها حتى لا يخجلوا منها ، كما لو أنك أحسنتَ إلى مَنْ أساء إليك .

فكلما زدتَ فى الإحسان إليه زاد تأنيباً لنفسه ، لذلك يستر الله عنهم سيئاتهم ، فلا يذكرونها حتى لا تُنغص عليهم ما هم فيه من لذة النعيم .

وهنا ملحظ فى ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥)﴾ [الفتح] أولاً اللام هنا للتعليل كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات] فالعلة فى الخَلْق هى العبادة ، أما القول بأن أفعاله تعالى لا تُعلل نقول : لا تُعلل بعلة ترجع إلى نفعه سبحانه إنما إلى نفع غيره ، إذن تعلل .

ثم ذكر المؤمنات هنا بعد المؤمنين ، فلماذا خصَّهن بالذكْر مع أن العادة أن النساء يُذكرنَ فى الحكم فى طَيِّ الرجال فى أغلب آيات القرآن ، كما فى ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠٤)﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : يأيتها المؤمنات ، لأن المرأة مستورة فى الرجل ، ولا تُذكر إلا إذا كان لها حكم خاص بها ، فلماذا إذن ذكرها هنا ؟

قالوا : لأن المقام مقامُ حديث عن الجهاد بدليل قوله تعالى : ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾ [الفتح] والمرأة لا تجاهد ، لذلك ذكرها الحق سبحانه ليؤكد على أن لها أجراً فى الجهاد ، ولينزع عنها الشكّ فى هذه المسألة .

وقوله سبحانه : ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٥)﴾ [الفتح] بيّنا أن هذه الآية أتتْ بلفظ ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة] وهذا ليس تكراراً للمعنى الواحد إنما لكل منهما معنى ، فالماء حينما يجرى من تحتك تطمئن إلى استمراره ، فلن يقدر أحدٌ أنْ يمنعه عنك لأنه ناشىء فى ملكك .

إنما ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا .. (١٠٠)﴾ [التوبة] ربما كان يجرى من مكان بعيد عنك ويمر عليك ، فتخشى أنْ يُمنع عنك .

وقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٥)﴾ [الفتح] ليُذهب ما فى نفسك من الخوف من فوات النعيم ، لأن نعيم الدنيا مهما كان يُنغِّصه عليك مخافة أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، فالله يطمئنك على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع وخالدٌ لا يفنى ، فلا يفوتك بأنْ يذهب عنك ، ولا تفوته أنت بالموت .

لذلك سمَّاه فوزاً عظيماً ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)﴾ [الفتح] ما بالك حين يُوصف الفوز بالعظمة ؟ وما بالك إنْ كان هذا كله عند الله ؟ فالعطاء يكون على قدر المعطى ، إنك تُسر وتسعد حينما يرضى عنك مسئول كبير مثلاً ، وتُسر حينما تحسن إلى شخص فيعطيك هدية أو مكافأة ، فكيف إذا كافأك الله ؟

لذلك دائماً أذكر يوم أنْ ذهبنا مع بعض الوزراء إلى سان

فرانسيسكو وذهبنا إلى فندق فخم تعجَّب الجميع من هيئته وجمال تصميمه وما فيه من إمكانيات ، فلما رأيت الإعجاب فى أعينهم قُلْتُ لهم : خذوها دليلَ إيمان وقولوا : هذا ما أعدَّه البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه ربُّ البشر للبشر ؟

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ[1] وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٦) ﴾

تأمل هنا المقابلة التى تظهر الفرق وتضعك أمام مقارنة بين ما أعدَّه الله للمؤمنين من الجزاء وما أعده للمنافقين والكافرين ، والجمع بين المتقابلات أسلوبٌ من أساليب القرآن لكى تبدو المفارقة ، لذلك الشاعر العربى قال فى وصف محبوبته :

الوَجْه مِثل الصُّبْح مُبْيضّ وَالشَّعْر مِثْلُ الليْل مُسْوَدّ

ضِدَّانِ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حَسُنَا وَالضِّدّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ونلاحظ هنا أنه ذكر المنافقين والمنافقات قبل المشركين والمشركات فى مقاساة العذاب ، نعم لأن المنافق أشد جُرْماً من المشرك ، المنافق ستر كفراً وأظهر إيماناً فتسلَّل إلى صفوف المؤمنين وانطوى تحت لوائهم ، وهو فى حقيقته مشرك معاند يكيد للمؤمنين تحت ستار .

(١) (عليهم دائرة السوء) فى الدنيا بالقتل والسبى والأسر ، وفى الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «دائرة السُّوء » بالضم . وفتح الباقون . [تفسير القرطبى ٩/٦٣١٦] .

أما المشرك فظاهره مثل باطنه وعداوته معروفة ، ومن اليسير أنْ تأخذ حذرك منه ؛ لذلك قال تعالى عن المنافقين ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ[1] الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) ﴾ [النساء] يعنى : هم تحت المشركين وأدْنى منهم .

وقوله تعالى : ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ .. (٦) ﴾ [الفتح] الظن : الحكم بشىء على غير حقيقة ، وحين تقول : أظن كذا يعنى أنا غير مُتيقِّن منه . وأقلّ من الظن الوهم . لكن ما الظن الذى ظنوه ووصفه الله بأنه ظن السوء ؟

قالوا : إن محمداً لن ينتصر علينا أبداً ، وقد بيَّن الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) ﴾ [الحج]

يعنى : الذى يظن هذا الظن ليس أمامه إلا أنْ يمد حبلاً إلى السماء ويتعلق به كالمشنوق ، ثم ليقطع هذا الحبل ، وينظر هل يُذهِبَ هذا غيظه ؟

وهذا الظن فى الله سبحانه وتعالى ، وأول ظنهم فى الله أنْ قالوا : ليس له وجود . وآخرون قالوا : موجود وله شريك . وآخرون قالوا : القرآن ليس من عند الله بل من عند محمد . وآخرون أنكروا البعث والقيامة .

وهذا كله ظَنُّ سَوْء بالله ، لذلك يقابله الحق سبحانه بعذاب أيضاً

(١) الدَّرْك : أسفل كل شىء ذى عمق كالبئر ونحوها . ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .. (١٤٥) ﴾ [النساء] أى فى الطبق الذى فى قعر جهنم ، والنار سبع دركات . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

سوء فيقول : ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ .. (٦)﴾ [الفتح] والدائرة منطقة لها محيط مغلقة ، فكأنهم لا يقدرون على الإفلات منها لأنها محيطة بهم .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠)﴾ [البروج] ليس هذا وفقط ، بل أيضاً ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)﴾ [الفتح] سبحان الله ، كم جمع عليهم من ألوان النكال[1] والعذاب والغضب واللعنة ؟!

الغضب انفعال يثير الغاضب على المغضوب عليه فينتقم منه ، الحق سبحانه وتعالى غنيٌّ عن الانفعال ، إنما يُحدِّثنا على قدر فهمنا ، وعلى قدْر ما فى لغتنا من وسائل التعبير .

﴿وَلَعَنَهُمْ .. (٦)﴾ [الفتح] طردهم من واسع رحمته وأبعدهم عنها ، ثم بعد ذلك تلعنهم الملائكة ويلعنهم اللاعنون ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ .. (٦)﴾ [الفتح] أعدها بالفعل فهى موجودة الآن ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)﴾ [الفتح] وقوله ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ .. (٦)﴾ [الفتح] هى الجزاء الطبيعى لظنِّ السَّوْء الذى ظنوه بالله .

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[2] وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾

(١) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة . قال تعالى : ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥)﴾ [النازعات] أى : عذبه الله عذاباً شديداً يعد عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة . [القاموس القويم ٢/٢٨٨] .

(٢) قال ابن عباس : جنود السماوات الملائكة . وجنود الأرض المؤمنون . [تفسير القرطبى ٩/٦٣١٦] .

ذكر هنا أيضاً جنود الحق سبحانه لأنها تنزل على قسمين : جنود رحمة تنزل بالخير كالملائكة ينزلون بالتنزيل وبالوحى ، وأخرى بالماء ، وهناك جنود تنزل بالنقمة والطمس والعذاب والإذلال .

ونفهم من قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾ [الفتح] أن المراد بالجنود هنا جنود العذاب ، فهى التى تناسب وصف العزة . والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وهذه العزة مقيَّدة بالحكمة مُنزَّهة عن البطش أو الظلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ[1] وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً[2] وَأَصِيلًا (٩)﴾

الخطاب هنا لسيدنا رسول الله ﷺ ، يقول له ربه تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ .. (٨)﴾ [الفتح] يا محمد ﴿شَاهِدًا .. (٨)﴾ [الفتح] أى : على أمتك وعلى مَنْ سبقك من الرسل أنهم قد بلَّغوا الرسالة ، نعم شاهد عليهم بما أخبره الله به فى القرآن .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة] أى : تشهدون على الناس أنكم قد أبلغتموهم ، لأن هذه الأمة ورثت الدعوة

(١) عزَّروه : أحاطوه بالعناية أو وقَّروه وعظموه . قال تعالى : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ .. (٩)﴾ [الفتح] أى : لتحيطوه بالعناية وتنصروه . [القاموس القويم ٢/٢٨] .

(٢) البكرة : أول النهار . وقوبلت فى القرآن بالأصيل وبالعشى . قال تعالى : ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩)﴾ [الفتح] .

عن رسول الله وحملتها من بعده .

لذلك ورد فى الحديث الشريف قول سيدنا رسول الله ﷺ « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها وأدَّاها إلـى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مبلِّغ أوعى من سامع »[1] .

وقوله : ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفتح] مبشراً بالخير ونذيراً بالعذاب ، وقلنا : البشارة أو النذارة تكون قبل وقوع الحدث . لكن لماذا بشيراً ونذيراً ؟ قال : ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح]

إذن : علة الإرسـال لتؤمنوا بالله ورسوله ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح] تعظموه وتنصروا دينـه وتُعْلوا كلمته ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح] أى : تُعظمونه وتُقدرونه حقَّ قدره ، لأنه سبحانه جعل لخلقه منهجاً يحرس حركة حياتهم من الطيش .

فلما خلق اللهُ آدمَ وسوَّاه على صورته ونفخ فيه من روحه دبَّتْ فيه الحياة واستوى مخلوقاً كاملاً ، بمعنى أنه لم يكُنْ طفلاً ثم كبر فصار شاباً فرجلاً .

لا بل دبَّتْ فيه الحياة ، وهو رجل كامل الرجولة ، وطرأ آدم على كوْنٍ أعدَّه الله له فيه كل مُقوِّمات حياته من ماء وهواء وأرض وشمس وقمرٍ ، وبعد أنْ أعطاه قوامِ مادته أعطاه القيم التى هى قوام الروح .

(١) عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » . أخرجه أبو داود فى سننه (٣١٧٥) ، والترمذى فى سننه (٢٥٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٢٢٦) وأحمد فى مسنده (٢٠٦٠٨) .

لذلك بعد أنْ مَنَّ الله عليه بروح المادة أعطاه روحاً أخرى للقيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] لذلك سمَّى القرآن روحاً ، وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] وخاطب الأحياء بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] فعلم أن هناك حياتين حياة المادة وحياة الروح وهى المنهج .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ[1] فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

الحديث هنا عن بيعة الحديبية التى كانت عند شجرة الرضوان التى قال الله فيها فى نفس هذه السورة ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح]

إذن : الفتح الذى نحن بصدده ظهرت بشائره فى هذه البيعة فى بداية الفتح الأعظم ، لذلك لما اعترض سيدنا عمر وقال لسيدنا رسول الله : لِمَ نُعط الدنية[2] فى ديننا ؟ نهره الصِّديق أبو بكر وقال له : الزم غَرْزك يا عمر[3] . يعنى : لا تتعد حدودك واعرف مكانك .

وكان الصِّديق يقول : والله ما كان فَتْحٌ فى الإسلام أعظمَ من

(١) نكث العهد : نقضها ولم يفِ بشروطها . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٤] .
(٢) الدنية : الخصلة المذمومة . ورجل دنى من قوم أدنياء ، وهو الضعيف الخسيس الذى لا غناء عنده المقصِّر فى كل ما أخذ فيه . [لسان العرب – مادة : دنا] .
(٣) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح ، من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

فتح الحديبية ، لماذا ؟ لأنه الذى مهَّد لفتح مكة ، ولكن الناس وقتها لم يتسع ظنهم لما بين محمد وربه ، ومن طبيعة الناس العجلة .

أما الحق سبحانه فلا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وتعلمون قصة السيدة أم سلمة[1] لما دخل عليها سيدنا رسول الله مُغْضباً ، فقالت له : ما أغضبك يا رسول الله ؟ قال : هلك المسلمون يا أم سلمة أمرتهم فلم يمتثلوا . قالت : يا رسول الله إنهم مكروبون جاءوا على شوق لرؤية الكعبة ، ثم يُمنعون عنها وبينهم وبينها كذا وكذا ، اعذرهم يا رسول الله وانظر إلى ما أمرك الله به فافعله ولا تكلم أحداً ، فإنهم إنْ رأوك فعلتَ فعلوا[2] .

ونجحت خطة أم سلمة ونجى المسلمون من فتنة كادت تهلكهم ، صحيح هى عصبية إيمانية وأمر فى ظاهره يُرضى رسول الله ، لكن إنْ كان الأمر الأعلى من الله فهو أَوْلى بالسمع والطاعة .

لذلك قالوا : من الشجاعة أن تجبن ساعة ، هَبْ ونحن جالسون فى مكان وبيننا أكابر وعظماء ودخل علينا مجرم وفى يده مسدس وأمرنا بالقيام وهددنا ، ماذا نفعل ؟ لابدّ أنْ نمتثل لأمره فى هذا الموقف حتى لا نخاطر بأنفسنا .

(١) أم سلمة هى : هند بنت سهيل القرشية المخزومية من زوجات النبى ﷺ ، تزوجها فى السنة الرابعة للهجرة ، من أكمل النساء عقلاً وخلقاً (ولدت عام ٢٨ قبل الهجرة) وتوفيت عام ٦٢ هجرية عن ٩٠ عاماً . روت عن رسول الله ٤٠٠ حديثاً . [الأعلام للزركلى ٨/٩٧] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (١٨١٥٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله قام فقال : « يأيها الناس انحروا واحلقوا . قال : فما قام أحد . قال : ثم عاد بمثلها ، فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمنَّ منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج رسول الله لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون » . الحديث .

فهناك شجاعة على الغير ، وشجاعة على النفس ، وهذه من الحنكة والسياسة ، وهذا ما فعله رسول الله وما رآه بما لديه من نورانية موصولة بالحق سبحانه .

وكان هذا الصلح رفعة للإسلام وإعلاءً لرايته مع أنهم عادوا ولم يدخلوا مكة ، ذلك لأن قريشاً كانت تتخذ من الإسلام عدواً ، ولا تسمح له بأنْ يُعبِّر عن نفسه ، والآن تفتح معه باب الحوار والمناقشة . إذن : أصبح للإسلام كيان وكلمة تُسمع ، وارتفع عن ذلّة الماضى وهوانه .

كذلك كان الصلح تهدئة لقريش وإزالة لما لديها من حقد وشحناء ضد المسلمين ، فبالصلح معهم نأمن جانبهم لنتفرغ لنشر الدعوة فى باقى جزيرة العرب ، وقبل أنْ يصل المسلمون فى طريق عودتهم إلى المدينة بيَّن الحق سبحانه لرسوله ﷺ المسألة ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ .. (١٠) ﴾ [الفتح]

والمبايعة عقد بين طرفين واتفاق ، والبيع أمر محبوب للإنسان على خلاف الشراء ، لذلك قال تعالى فى الجمعة ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة] لأنك تحب أن تبيع ، أما الشراء فلا تحرص عليه كما تحرص على البيع وقد تشترى وأنت كاره .

إذن : يبايعونك يعنى : يعقدون معك عقد بيع ، هذا العقد شرحه الحق سبحانه فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ .. (١١١) ﴾ [التوبة]

إذن : عقدوا هذه الصفقة مع الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ .. (١٠) ﴾ [الفتح] لأنك يا محمد لا تأخذ شيئاً لنفسك ، إنما تأخذ لمنهج الله الذى أرسلك به وبعثك من أجله .

فبيعة الرسول هى فى الحقيقة بيعة لله ، لذلك قال ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح] أى : فوق الأيدى التى امتدتْ لتبايع رسول الله ، فكانت يد الله فوق يد الجميع ، لأن المنة هنا من الله فلا تظنوا المنة منكم بأنْ بايعتم ، بل المنة من الله عليكم ، ويده فوق أيديكم وهو الذى ساق لكم هذا الخير الذى يُسعدكم فى الدنيا وفى الآخرة .

واليد هنا ليست هى اليد التى نعرفها كأيدينا ، بل هى يد المنّة والمعروف ، كما تقول مثلاً : فلان له علىَّ يد . يعنى : نعمة أو مكْرمة وجميل .

وقوله : ﴿ فَمَن نَّكَثَ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح] أى : نقض عهده ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح] فهو المضار ، لأن الله تعالى لا يضره شىء من أفعال العباد ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

وفى المقابل : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح] يعنى : وفَّى وكان عند العهد الذى أخذه على نفسه ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح]

ذكر البخارى ومسلم هذه القصة ، وأن الحديبية مكان يبعد عن مكة حوالى ٢٢ كم عند شجرة كانت مائلة فسميت الحديبية[١] ، أو عند عين ماء كانوا يرتوون منها ، وأن عددهم كان ألفاً وأربعمائة ، فى رواية البخارى روى سيدنا سلمة بن الأكوع[٢] أنهم بايعوا رسول الله على الموت ، وفى رواية مسلم أنهم بايعوه على ألاَّ يفروا من المعركة[٣] .

(١) الحديبية : بئر سمى المكان بها . وهو موضع قريب من مكة .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٨٥١) عن يزيد بن أبى عبيد قال : قلت لسلمة بن الأكوع : على أى شىء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال : على الموت . وقد أخرج مسلم فى صحيحه (٣٤٦٢) كتاب : استحباب مبايعة الإمام .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٦٠٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : بايعنا نبى الله ﷺ يوم الحديبية على أن لا نفر . وعند أحمد أيضاً (١٤٢٩٥) عن جابر قال : بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ[١] الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى بغيب يخبر به نبيه ﷺ ويعلمه بما سيقوله هؤلاء ، والمخلّفون جمع مُخلّف وهم الذين طلب منهم الخروج مع رسول الله لأداء العمرة فلم يخرجوا وتعللوا بعدها بهذه الحجج التى كشف القرآنُ زيفها وكشف نواياهم وما كان يدور فى نفوسهم .

والأعراب هم البدو وسكان البادية ، وقولهم : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الفتح] يعنى : عن الخروج معك .

وقولهم : ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الفتح] دلَّ على أنهم أذنبوا وأخطأوا ، وإلا ما طلبوا من رسول الله أن يستغفر لهم .

والواقع أنهم كاذبون فى هذا ، فما شغلتهم الأموال ولا الأولاد إنما خافوا على أنفسهم الخروج ، لأنهم ظنوا فى أنفسهم أن رسول

(١) ينقلب : يرجع ويتحول إلى موضعه الأول فى المدينة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران] أى : رجعوا إلى المدينة . [القاموس القويم ٢ / ١٢٩] .

الله لن يرجع من هذه العمرة ولن يعود إلى أهله ، لأن قريشاً تتربص به ومعهم جماعات من الأحابيش[1] ومن ثقيف وكنانة وغيرها .

فقالوا فى أنفسهم ما أخبر الله به ﴿ **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا** .. (١٢) ﴾ [الفتح] لذلك بُهت من قال هذا الكلام لما سمع الله يخبر به ويكشف مكنونات صدورهم .

والعجيب أن هذا الإخبار ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ** .. (١١) ﴾ [الفتح] نزل فى قرآن يُتلى علانية ويسمعه هؤلاء المخلفون ، وكان بأيديهم ألاَّ يتعللوا بهذه الحجج لكن صدق الله وقالوا بالفعل ما أخبر القرآن به .

هذه كما حدث تماماً فى قوله تعالى فى مسألة تحويل القبلة ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** .. (١٤٢) ﴾ [البقرة]

سمع اليهود هذا الكلام وسمعوا هذا الوصف ، ومع ذلك قالوا ما أخبر الله به وصدقوا على أنهم سفهاء ، فهذه وأمثالها من علامات صدق القرآن الكريم ، فالذى يتكلم به هو الذى يعلم ما سيحدث فى المستقبل ويخبر به قبل أنْ يقع ثم يأتى الواقع موافقاً لما قال .

قالوا : كان هؤلاء المخلَّفون من سبع قبائل[2] أظن ، منها أشجع ومزينة وهوازن وبخع وأسلم وغيرها . هؤلاء قالوا : إن محمداً ألقى

(١) الأحابيش : حلفاء قريش تحالفوا تحت جبل يسمى حبيشاً فسموا الأحابيش ، ذكره ابن دريد فى جمهرة اللغة (١/ ١١٥) والحباشة : الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة والجمع الأحابيش . [تاج العروس للزبيدى] .

(٢) ذكر ابن عباس ستة منهم هم : غفار ومزينة وجهينة وأشجع والديل وأسلم . [ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير] . وذكرهم أيضاً مجاهد وغيره [قاله الشوكانى فى فتح القدير] .

بنفسه فى التهلكة ، ولن يعود من هذه العمرة لما يعلمون من القوة التى تواجهه فتخلَّفوا ، فى حين أنهم كانوا يتمنون الخروج إلى خيبر ، حيث الغنائم والأموال التى لا حَصْرَ لها هناك .

وقوله تعالى : ﴿ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** .. (١١) ﴾ [الفتح] أى فى قولهم : ﴿ **فَاسْتَغْفِرْ لَنَا** .. (١١) ﴾ [الفتح] فهذه الكلمة باللسان فقط ، فهم لا تهمهم المغفرة ولا يفكرون فيها .

ثم يُبيِّن لهم الحق سبحانه حقيقة الأمر : ﴿ **قُلْ** .. (١١) ﴾ [الفتح] يعنى : قُلْ لهم يا محمد ﴿ **فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا** .. (١١) ﴾ [الفتح]

هذا استفهام للتعجب أو للتوبيخ يقول لهم : مَنْ يردُّ عنكم قضاء الله ومَنْ يدفع عنكم الضر إنْ أصابكم فى أموالكم أو فى أهليكم ، من ؟ لا أحد .

كذلك لا أحد يمنع عنكم النفع إنْ أراده الله لكم ، إذن : هذه حجة باطلة لا تُجدى ، وكذب لا فائدة منه ﴿ **بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** (١١) ﴾ [الفتح] يعنى : لا يَخْفَى عليه من أموركم شىء .

ثم يُؤدبهم بأنْ يكشف عن الكلام الذى أسرُّوه بعضهم إلى بعض فيقول : ﴿ **بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ** .. (١٢) ﴾ [الفتح] أى : يرجع ﴿ **الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا** .. (١٢) ﴾ [الفتح] ويُؤكدون ظنهم لاقتناعهم به ﴿ **وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ** .. (١٢) ﴾ [الفتح] أى : زيّنه بعضكم لبعض ، أو لقى استحساناً منكم .

﴿ **وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ** .. (١٢) ﴾ [الفتح] أى : الظن الفاسد والمراد

به أن رسول الله لن يعود إلى أهله ولا المؤمنون معه ، وهذا يعنى النهاية لمسيرة الدعوة .

﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) ﴾ [الفتح] يعنى : مثل الأرض البور التى لا خَيْرَ فيها ، فأنتم مثل هذه الأرض أهل فساد لا خيرَ فيكم .

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) ﴾

الكلام هنا فيه إشارة مفهومة تعنى هؤلاء المخلَّفين ، وقوله ﴿ أَعْتَدْنَا .. (١٣) ﴾ [الفتح] أى : أعددناها بالفعل فهى موجودة ، فالسعير لا تُعدُّ لهم بعد حضورهم إليها ، إنما هى مُعدَّة لهم من الآن تنتظرهم وتتشوق إليهم .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه أعدَّ الجنة بحيث تكفى جميع الخَلْق على اعتبار أنهم جميعاً مؤمنون ، كذلك أعدَّ النار بحيث تكفى جميع الخَلْقْ لو كفروا .

فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار بقيتْ أماكن أهل النار خالية فى الجنة ، لذلك يُورثها الحق سبحانه لأهل الجنة ، وهذا قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) ﴾

يقول البلاغيون : فى الآية أسلوب قصر بتقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الفتح] أى : لله وحده وملكيتها مقصورة عليه سبحانه دون شريك ، ومادة ملك تأتى بضم الميم وفتحها وكسرها ، أما اللام فساكنة .

نقول : ملك بالكسر يعنى : ما تملكه وتملك التصرف فيه ، إنما مُلك بالضم فهو لمَنْ يملك الشىء ويملك مالك الشىء ، وهذه لله عز وجل .

أما مَلك بالفتح فهى بمعنى المقدرة كما جاءت فى قوله تعالى : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧) ﴾ [طه] أى : بإرادتنا ولكننا كنا مجبرين .

وهذه الآية جاءت هنا للظرف ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الفتح] وجاءت فى موضع آخر للمظروف ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١) ﴾ [التغابن] لأن السموات والأرض ظرف لأشياء كثيرة .

ومعلوم أن المظروف يكون أنفسَ من الظرف الذى يحفظه ، كما قلنا : إن ما فى الخزنة أنفسُ منها وأغلى ، وإلا ما حُفظ فيها .

فإذا كانت السموات والأرض فيها من العجائب ما لا يُحصى ، فما بالك بما فيها من مخلوقات الله تعالى ، وها نحن كل يوم يكتشف العلماء شيئاً جديداً فى خَلْق الله فيه من الإعجاز ما فيه .

خذ مثلاً الهواء الذى كنا نظنه فقط لعملية التنفس ، الآن عرفنا أنه مجال واسع لموجات صوتية وضوئية ، والأثير الذى حولنا ملىء بما لا حدَّ له من هذه الأشياء .

إذن : ابحثوا فى الظرف عن نفاسة المظروف ، ألا نراهم الآن يتجهون إلى باطن الأرض حيث الثروات الثمينة من الماس والذهب

والمعـادن والبترول .. كـذلك فى الجبال الأحـجار الكريمـة والجرانيت والمرمر والرخام ، وفى البحار فى أعماقها اللؤلؤ والمرجان .

إذن ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [التغابن] فيه توجيـه وإشارة لـلبحـث فى المظروف ، لكن ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الفتح] فـيه إشـارة إلى وجوب النظر والتـأمل فى عجائب السماوات والأرض فى ذاتها .

وقوله تعالى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. (١٤) ﴾ [الفتح] البـعض يفهم هذه الآيـة فهمـاً خـاطئـاً . يقول : إذن أين الاخـتيـار ؟ والمـعنى : أن الله يغـفر للـمؤمن الذى اهتـدى لمنهج الله ، ولا يـغفـر للكافر الذى أعرض عن منهج الله .

إذن : ساعة يقول ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] أى : لا يهديهم بسـبب كفرهم ، لأن الكافـر قلبه مُلىء كفـراً حتى لم يعُد فيـه مجال للإيمان ، لأن الحـيز الواحد لا يسع إلا شـيئاً واحداً ، فكان عليه أنْ يُخرج الكفر من قلبه قبل أنْ يبحث قضية الإيمان .

فإذا تجرَّد قلبه من الهوى وناقش نفسه ، وقارن بين الكفر والإيمان ، ثم يُدخل ما اطمأن إليه منهمـا كان ولابدَّ أنْ يختار الإيمان ، لذلك نقول : إن الكافر لم يترك للمناظرة العقلية بينه وبين نفسه مجالاً .

واقـرأ فى ذلك قوله تعـالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ] ما هى ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ]

إذن : الحق سبحـانه لا يرضى لنا غوغائية التـفكير ، ولا يرضى لنا المراءَ والجدلَ العقيم ، لذلك حدد كيفية النظر والتأمل والبحث ، إما

أن تكون بمفـردك وتناقش نفسك ، أو على الأكثر يكون الاثنـان معاً ، هذا يقول وهذا يُـعدِّل له ، فهـما بعـيدان عن المراء وعن العـصبـيـة ، وقريبان من الوصول إلى الحق .

ومع أن الآية تتحـدث عن المغفـرة وعن العذاب ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. (١٤) ﴾ [الفتح] إلا أنها تُخـتم بالمغـفرة والرحـمة فهما الأغلب ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (١٤) ﴾ [الفتح]

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ
لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ
اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ
بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾

هنا أيضاً الحـق سبحـانه وتعالى يخبـر بما سيـقوله المـخلفون ، والمغانم يراد بها مـغانم خيبر ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ .. (١٥) ﴾ [الفتح] يعنى : لنأخذ منها كـما تأخذون ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ .. (١٥) ﴾ [الفتح] يعنى : حكمه عليهم بعدم الخروج إليها .

وقد بيَّن الحق سبحانه ذلك فى قوله : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ[1] وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً[2] وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

(١) ثبَّطه : عوَّقه وبطَّأ به . يقول تعالى : ﴿ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ .. (٤٦) ﴾ [التوبة] أى : ولكن كره الله خـروج المنافقين للقتـال فى غزوة تبوك فعـوَّقهم عنه بالجبن . [القامـوس القويم ١/١٠٦] .

(٢) الخبال : النـقصان والخسارة والهـلاك . والخبال فسـاد العقل . فهم يفسـدون أفكاركم بكلامهم وشبهاتهم وشهواتهم ونفاقهم .

سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ [التوبة]

فالمراد بكلام الله هنا حكمه عليهم بعدم الخروج لخيبر ، وحكم الله لا يُنقض ، وكلمة الله لا ترد ، وقد أرجأهم الله لفرصة أخرى ، قادمة يمكنهم الاشتراك فيها وهى حروب الردة .

ثم جاء الرد عليهم : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح] أى : قبل رجوعنا ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح] أى : على أنْ نأخذ معكم من الغنائم ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح] نعم لا يفقهون إلا قليلاً ، لأن المسألة ليستْ مسألة غنائم .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ[1] تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ[2] فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

---

(١) فى تأويل وتحديد (قوم أولى بأس شديد) أقوال كثيرة :
- أنهم أهل فارس . قاله ابن عباس وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى ليلى وعطاء الخراسانى .
- أنهم الروم . قاله كعب والحسن وعبد الرحمن بن أبى ليلى .
- أنهم فارس والروم . قاله الحسن البصرى .
- أنهم هوازن وثقيف . قاله ابن جبير .
- أنهم هوازن وغطفان يوم حنين . قاله قتادة .
- أنهم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة . قاله الزهرى ومقاتل .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٣٢٣) : « فى هذه الآية دليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قول عكرمة وقتادة أن ذلك فى هوازن وغطفان يوم حنين فلا ، لأنه يمتنع أن يكون الداعى لهم الرسول عليه السلام لأنه قال : ﴿ لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة] .فدلَّ على أن المراد بالداعى غير النبى ﷺ ، ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبى إلا أبو بكر رضى الله عنه » .

يعنى : يا جماعة المخلَّفين عن الخروج مع رسول الله فى عمرة الحديبية ، لقد منعكم الله من الخروج إلى خيبر ، لأن لها أُناساً هم أَوْلَى بها منكم ، وهم الذين أطاعوا رسول الله فى الخروج إلى الحديبية .

أما أنتم فالفرصة أمامكم فى حروب الردة ، حيث تقاتلون قوماً ﴿ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الفتح] أصحاب قوة وتمرُّس فى الحروب : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الفتح] تعْرضوا وتتخلفوا ﴿ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الفتح] أى : فى الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿١٦﴾ ﴾ [الفتح]

﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

أى : ليس على هؤلاء إثم ، ولا مؤاخذة فى تخلُّفهم عن الخروج إلى الجهاد لأنهم أصحابُ أعذار[1] وليس لديهم وسائل الجهاد . ثم يضعنا السياق أمام هذه المقارنة بين الفعل والجزاء عليه ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [النساء] أى : فى الأمر بالخروج ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

---

(١) قال ابن عباس : لما نزلت ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفتح] قال أهل الزمانة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فنزلت ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الفتح] . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٣٢٤] .

تجرى من تحتها الأنهار ومن يتولَّ .. ﴿١٧﴾ [الفتح] يُعرض ﴿يُعَذِّبْهُ عذابًا أليمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح]

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ(١) فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا(٢) ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

هذه بيعة الرضوان وهى بيعة الحديبية ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [الفتح] من الشوق لرؤية البيت وأداء العمرة ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [الفتح] السكون والطمأنينة لأنهم انصاعوا لأمر رسول الله .

﴿وَأَثَابَهُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [الفتح] جازاهم ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح] وهو صلح الحديبية الذى كان بمثابة التمهيد للفتح الأكبر فتح مكة ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً .. ﴿١٩﴾﴾ [الفتح] هى مغانم خيبر .

---

(١) قال بكير بن الأشج : كانت الشجرة بفج نحو مكة . ويقول عبد الله بن مغفل : كان رسول الله ﷺ تحت الشجرة يبايع الناس وإنى لأرفع أغصانها عن رأسه . [زاد المسير لابن الجوزى] وهى نفس الشجرة التى قطعها عمر بن الخطاب عندما رأى الناس يأتون الشجرة فيصلون عندها .

(٢) الفتح القريب : فتح خيبر . قاله قتادة وابن أبى ليلى . وقيل : فتح مكة . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٣٢٩] .

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ(١) عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح] أى : مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح] كفَّ عنكم أيدى أعدائكم من اليهود وغيرهم ممَّنْ كانوا حول المدينة ، حيث ألقى فى قلوبهم الرعب .

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا(٢) قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

---

(١) كلمة الناس هنا ، اختلف المفسرون فى تأويلها :
– هم أهل مكة ، كفَّهم عنكم بصلح الحديبية . قاله ابن عباس .
– هم اليهود . كف أيديهم عن المدينة بعد خروج النبى إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبرى ، لأن كف أيدى المشركين بالحديبية مذكور فى آية أخرى، ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح]
– هم عيينة بن حصن الفزارى وعوف بن مالك النضرى ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبى ﷺ محاصر لهم ، فألقى الله فى قلوبهم الرعب وكفهم عن المسلمين . [تفسير القرطبى ٩/٦٣٢٩] .

(٢) قال ابن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين كأرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى ، وعن ابن عباس أيضاً والضحاك : هى خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها .[تفسير القرطبى ٩/٦٣٣٠] باختصار .

أى : مغانم أخرى ، والمراد بها مغانم غزوة حنين يبشرهم الله بها فى المستقبل ، وقد جاءتْ بالفعل بعد الفتح .

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾

قوله : ﴿ لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ .. (٢٢) ﴾ [الفتح] أى : فرُّوا وانهزموا ﴿ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) ﴾ [الفتح] لا يجدون صديقاً ولا معيناً . وهذه ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [الفتح] أى : طريقته وعادته فى خلقه أن ينصر أهل الحق ويخذل أهل الباطل ﴿ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ .. (٢٣) ﴾ [الفتح] أى : مضتْ فى الأمم السابقة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم
بِبَطْنِ مَكَّةَ(١) مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ(٢) وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) ﴾

(١) قوله ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ .. (٢٤) ﴾ [الفتح] فيه ثلاثة أقوال :
– أحدها : أنه الحديبية . قاله ، أنس . والثانى : وادى مكة . قاله السدى . و الثالث : التنعيم . حكاه أبو سليمان الدمشقى .
[انظر زاد المسير لابن الجوزى فى تفسير آية ٢٤ الفتح] .

(٢) أخرج الواحدى النيسابورى فى هذه الآية عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرّة النبى ﷺ وأصحابه فأخذهم أسراء فاستحياهم . فأنزل الله ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .. (٢٤) ﴾ [الفتح] .

ببطن مكة مكان قريب من الحديبية ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .. (٢٤) ﴾ [الفتح] نصركم عليهم وأظهركم عليهم ، وهذه القوة هى التى أجبرت كفار مكة على الجلوس مع رسول الله للتفاوض ، فقد أصبح للمسلمين كلمة تُسمع ورأى يُحترم ، لذلك جاءتْ قريش لتعقد معهم معاهدة .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ(١) مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ
مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ
فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ
فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يبين لهم الحكمة من الصلح وعدم الدخول مع الكفار فى قتال فى هذا الوقت ، صحيح أنهم صدوكم عن الكعبة ومنعوكم من دخول مكة وأنتم على شوق للبيت ومعكم الهدى تسوقونه للبيت .

والهدى دليل السلام ، وأنكم ما جئتم للحرب ، بل لعمل دينى تعبدى ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ .. (٢٥) ﴾ [الفتح] الهدى ما يُهدى لفقراء الحرم من الأنعام ﴿ مَعْكُوفًا .. (٢٥) ﴾ [الفتح] مقيداً ومحبوساً لهذا الغرض و ﴿ مَحِلَّهُ .. (٢٥) ﴾ [الفتح] أى : المكان الذى يُذبح فيه .

(١) الهَدْى : واحدته هَدْية ، وهى الذبيحة تهدى إلى الحرم فى الحج . ومعكوفاً : اسم مفعول أى : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نحره . [القاموس القويم ٢/٣٢] .

ثم يكشف لنا عن واقع أهل مكة فى هذا الوقت ، ففى مكة إخوان لكم مُسلمون يكتمون إسلامهم ، بين الكفار هناك مؤمنون ومؤمنات لا تعرفونهم ، فلو تواجهتم معهم فى حرب لقتلتموهم ، وأنتم لا تعلمون هذه الحقيقة .

﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح] معرة يعنى ضرر وتكون سُبَّة فى حقكم أنكم قتلتم إخوانكم .

﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح] تفرقـوا وتميَّـز المؤمن من الـكافر ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح] يعنى : عذّبناهم بأيديكم وسمحنا لكم فى قتالهم[١] .

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ[٢] فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(١) استـدل الإمام مالك بهذه الآية علـى حرمة إذاية الكافر إذا تتـرس بمسلم واحتـمى به ، أو كان هناك مسلمون داخل حـصن يسيطر عليه الكافرون . وإن فعـل ذلك فاعل فأتلف أحداً من المسلمـين فعليه الدية والكفارة ، فـإن لم يعلموا فلا دية ولا كـفارة . أما أبو حنيـفة وأصحـابه والثورى فقـد جوزوا الرمى فى حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) قال الزهرى : حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ومنعهم من دخول مكة . وقـال ابن بحر : حميتـهم وعصبيتـهم لآلهتهم التى كانوا يعـبدونها من دون الله تعالى . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٣٤٠] .

الحق سبحانه وتعالى يبين لرسوله ﷺ علة أنْ صدوه عن دخول مكة هذا العام ، فالمسألة كلها مجرد حقد وحمية جاهلية تمكَّنتْ من قلوب هؤلاء ، فكَبُـرَ عليـهم أنْ يدخل مـحمـد وأصحـابه مكة ، فـفى دخولهم هذا العام إهانة لهم[١] .

الحمية هى الطيش والغرور والـغطرسة ، فالقوة لا تُمدح ولا تُذم إلا من خـلال أثرها على صاحـبهـا ، فـالقوة تُمـدح إن جلبتْ الخيـر لصاحبها ، وتُذم إنْ جرَّته إلى الشر وأوقعته فى الهلاك .

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح] السكينة يعنى الطمـأنينة ، والثقـة فى نصر الله ، والرضـا بالصلح ، والعودة دون دخول مكة هذا العام .

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح] وهى كلمـة التوحـيد ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح] أجدر بها وأهلٌ لها ، حيث استحقوها بطاعتهم لله ولرسوله .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

الحق سبـحانه وتعالـى يقصّ علينا قصة شـوق المسلمـين للبيت

---

(١) وذلك أنهم قالوا : قتلوا أبناءنا وإخوانـنا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ، واللات والعزى لا يدخلها أبداً . [القرطبى ٩/ ٦٣٤٠] .

بعد أن اغتربوا عن مكة مدة طويلة واشتاقوا لأداء العمرة وللطواف بالبيت ، ولكن حمية الجاهلية وطيشها وغرورها بقوتها الكاذبة حالتْ دونهم ودون ما يريدون .

والحق سبحانه حينما يتكلم فى هذه المسألة يتكلم عنها على أنها رؤيا سبقتْ واقع القصة ، والرؤيا كما تعلمون ما يراه النائم من أشياء ، قد يكون لها واقع وقد لا يكون .

والرؤيا تحدَّث القرآن عنها فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ يَـٰأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية ، واعترضوا على أسلوب القرآن فى تكرار الفعل (رأى) فى هذه الآية ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

والمتأمل فى القصة وتفاصيلها لا يجد تكراراً ، لأن كلَّ فعل منهما له دلالة ومعنى ، فالأول قال ﴿ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف] ولم يقُلْ : ساجدين . وفى الأخرى قال : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن الرؤيا الأولى غير الأخرى ، الأولى رآهم بلا سجود ، رآهم فى وضعهم الطبيعى ، ثم رآهم فى حالة السجود ، لأنك لا تعرف الشمس مثلاً ساجدة إلا إذا عرفتها غير ساجدة ثم طرأ عليها السجود .

إذن : لابدَّ من تكرار الفعل هنا مرة لغير السجود ، ومرة أخرى للسجود ، يعنى فوجىء بها تسجد . ولو قال : رأيتها ساجدة بدايةً

لقُلْنا : كيف ؟ لأن السجود لا يكون إلا بحركة ساكن وتحرّك بالسجود .

إذن : الحق سبحانه لا يضع لفظاً إلا لغاية ومعنى ، ولِلَقْطَة لابدَّ منها .

ولما قصَّ يوسف على أبيه هذه الرؤيا قال : ﴿ قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. ﴿٥﴾ ﴾ [يوسف] لأن سيدنا يعقوب عليه السلام علم أن هذه الرؤيا تعنى علو شأن يوسف على إخوته ، وإذا كانوا قد حقدوا عليه لاهتمام أبيه به أو منحه بعض العطف أكثر منهم .

فكيف إذا قصَّ عليهم هذه الرؤيا ؟ كيف إذا عرفوا أن الملأ الأعلى من المخلوقات سجدوا له ؟

كذلك هنا رؤيا ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح] فكأن سيدنا رسول الله قد رأى رؤيا هى ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح]

وقد قصَّ رسول الله هذه الرؤيا على أصحابه ، فاطمأنوا إلى دخولهم مكة وآداء العمرة ، كذلك لما منعهم سفهاء قريش من دخول مكة تعجبوا واعترضوا على منعهم من الدخول .

وسيدنا عمر يقول لسيدنا رسول الله : ألسنا على الحق ؟ أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : فلِمَ نُعط الدنية فى ديننا ؟

صحيح هم على الحق وجاءوا على شوق للبيت ، لكن إنْ دخلوا مكة غصباً ودون رضا أهلها ستقوم بينهم معركة . وقلنا : إنها ستصيب جماعة من المسلمين فى مكة لم يعلنوا عن إسلامهم كما

ذكر فى الآية السابقة .

لذلك قال الحق سبحانه بعدها ﴿ فعلم ما لم تعلموا ..(٢٧) ﴾ [الفتح]

فالحق سبحانه أخبر نبيه بالرؤيا وصدَّقها فى الواقع ، لكن لم تحدث بعد ، لأن الله يعلم من واقع الأمر ما لا تعلمون ، لذلك أجَّل العمرة هذا العام ، وجعل الرسول يعقد معاهدة الصلح بينه وبين كفار مكة على أنْ يؤدوا العمرة العام المقبل .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ .. (٢٧) ﴾ [الفتح] ولم يحدد لها زمناً ، فلو قال قائل مثلاً : ألم تقُلْ أننا سنؤدى العمرة وندخل المسجد الحرام يقول له : ليس بالضرورة هذا العام .

والمتأمل فى ألفاظ الآية يجدها تدل على هذا المعنى ، وأن العمرة لن تكون هذا العام ، نفهم هذا من معانى الكلمات ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ .. (٢٧) ﴾ [الفتح]

فلو دخلتم دون إذن قريش ورضاها لن يتحقق لكم هذا الأمن ، فسوف يقاتلونكم ويعتدون عليكم ، حتى لو سمحوا لكم بالدخول فلنْ يتحملوا رؤيتكم وأنتم تطوفون بالبيت ، وسوف تأخذهم حمية الجاهلية لابدَّ .

ثم قال : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ .. (٢٧) ﴾ [الفتح]

وهذا أمن آخر بعد أداء العمرة ، لأن قريشاً كانت إذا دخل أحد الحرم لنُسك لا يتعرضون له ، لكن يعتدون عليه بعد أنْ يفرغ من نُسكه .

فقوله ﴿ لا تَخَافُونَ .. (٢٧) ﴾ [الفتح] دلَّ على أنهم آمنون فى بداية العمرة وفى نهايتها ، وهذا لا يتوفر لهم إلا إذا دخلوا برضا قريش وإذنها .

كلمة ﴿ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ..(٢٧) ﴾ [الفتح] الحق هو : الشيء الثابت الذى لا يتغير ، فما دام أن الله أراه الرؤيا فلا بدَّ أنْ تصدُقَ فى الواقع ، لأن رؤيا الأنبياء حَقٌّ ، ونبوة سيدنا رسول الله ﷺ بدأت أول ما بدأت بالرؤيا الصادقة ، وقد مكث رسول الله فى مرحلة الرؤيا هذه ستة أشهر .

فإذا ما قارنّا بين هذه المدة وبين مدة ٢٣ سنة هى عمر بعثته ﷺ وجدناها $\frac{1}{46}$ ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[1] ، وبدأ النبوة بالرؤيا الصالحة لأنها تأتى والإنسان نائم ، وليس له خواطر خاصة فى شهوة أو خلافه .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾ [الفتح] أى : جعل من بعد صلح الحديبية ورجوعهم بدون عمرة فتحاً قريباً للإسلام وللمسلمين .

وهذا الفتح من عدة وجوه : أولاً الهدنة مع قريش والتصالح معها ، وهذا التصالح أعطى فرصة لنشر الدعوة خارج مكة ، حيث تفرَّغ المسلمون لذلك بعد أنْ أمنوا جانب قريش .

وهذا يعنى أيضاً الاعتراف بمحمد وبدعوته واحترام العهد معه ، فقد أصبح للإسلام كلمة تُسمع بعد أنْ كان مضطهداً .

ثم كان هذا الصلح عزة للمسلمين ، كما قال تعالى ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا .. (٢٦) ﴾ [الفتح] كلمة الله هى كلمة (لا إله إلا الله) ، لذلك قال فيها ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣) ﴾ [الحجرات]

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٧٤) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وأخرجه مسلم فى صحيحه (٤٢٠٣) عن أبى هريرة . وعن ابن عمر (٤٢٠٥) .

فالكرامة هنا ، وإياكم أنْ تظنوا أن قريشاً حين تصدكم عن المسجد الحرام أن هذا يعنى عزة لها ، أبداً لأن العزة لله والكرامة عند الله بالتقوى ، لا بالطيش والغرور بالقوة الكاذبة .

والرسول ﷺ فى هذا الصُّلح يُعطينا درساً فى الحنكة السياسية ، فقد قبل الصلح مع الكفار ، وقبل أن يعود هو وأصحابه دون دخول مكة هذا العام وهم على مقربة منها ، لأن فى ذلك صالح المسلمين والإسلام ، حتى إنه فى أثناء المعاهدة تنازل عن أشياء ما كان أحد يظن أنه يتنازل عنها .

فلما جاءوا لكتابة المعاهدة أملى رسول الله الكاتب وهو الإمام على : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل بن عمرو[1] : لا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا وقفنا منك هذا الموقف ، فردَّ عليه رسول الله : بل اكتب محمد بن عبد الله ونزل على رأى سهيل بن عمرو لكن اعترض على . وقال : بل اكتب رسول الله ، فقال له رسول الله : اكتبها وستُسام[2] مثلها فتقبل .

وفعلاً مرَّتْ السنوات ، وحدث الخلاف بين على ومعاوية ولما انتهيا للصلح . قال على : اكتب ، هذا ما تعاقد عليه على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، فاعترضوا على كلمة أمير المؤمنين وقالوا : لو نعلم أنك أمير المؤمنين ما قاتلناك فرضى بها وكتب : على بن أبى

---

(١) سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشى العامرى ، خطيب قريش وأحد سادتها فى الجاهلية ، أسره المسلمون يوم بدر وافتدى فأقام على دينه إلى يوم فتح مكة فأسلم وسكنها ثم سكن المدينة ، هو الذى تولى أمر صلح الحديبية ، توفى عام ١٨ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/١٤٤] .

(٢) سامه الأمر سوماً : كلفه إياه . قال الليث : السَّوْم أن تجشم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً . والسَّوْم : التكليف وقيل معناه : عرض علىَّ . [لسان العرب – مادة : سوم] بتصرف .

طالب[1] . وكانت هذه المسألة علامة من علامات النبوة .

وأيضاً لما أملى الرسول ﷺ فى أول العقد : بسم الله الرحمن الرحيم فرفضوا كتابتها وقالوا : نحن لا نعرف هذا ، بل اكتب : باسمك اللهم فرضى بها أيضاً سيدنا رسول الله .

وهذه كلها تنازلات من رسول الله ، جاءت مراعاة لمصلحة الإسلام والمسلمين فى إطار ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح] وكانت النتيجة ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح] وفعلاً بعد هذا الصلح توالتْ الفتوحات بعد أنْ أمنوا شر قريش لمدة عشر سنوات .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

الهدى هو الدلالة على طريق الخير الموصِّل للغاية التى تسعد صاحبها فى الدنيا والآخرة ، وقد أُرسل سيدنا رسول الله بالهدى للناس كافة فدلَّ الجميع ، فمَن اهتدى بهداه أعانه اللهُ وزاده هدى

---

(١) من الحجج التى احتج بها الخوارج فى الخروج على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه فى التحكيم بينه وبين معاوية رضخ لمحو تلقيبه بأمير المؤمنين ، فقال الخوارج : محا اسمه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين . نرد عليهم ابن عباس فى مناظرته لهم : أما قولكم : محا اسمه من أمير المؤمنين فإنى أنبئكم بذلك عمن ترضون ، أما تعلمون أن رسول الله ﷺ يوم الحديبية وقد جرى الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو قال : يا على اكتب هذا ما اصطلح محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو ، فقالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى رسولك . ثم أخذ الصحيفة فمحاها بيده ، ثم قال : يا على اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو . فوالله ما أخرجه الله بذاك من النبوة . [الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى ١/٢٩٢] . ذكر السبب الموجب لقتال الخوارج .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] ومن انصرف عنه واختار الضلال زاده الله ضلالاً بأنْ ختم على قلبه .

ومثّلنا لذلك بشرطى المرور حين يرشدك إلى الطريق ، فإنْ سمعتَ كلامه واهتديتَ بدلالته لك زادك وصحبك حتى يُوصِّلك إلى غايتك ، وإنْ انصرفت عنه ولم تأخذ برأيه تركك ومصاعب الطريق ، وربما رآك على الطريق الخاطئ ، فلم ينصحك لأنك لم تسمع له .

والقرآن الكريم لما تكلم عن الهدى قال : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة] وهذا المعنى يُصحح الفهم الخاطئ عند البعض ، حيث يروْنَ أن الهدى عبء على صاحبه ومشقة وتكاليف وتقييد للحرية .

لكن الهدى فى الواقع غير ذلك ، الهدى مطيّة تحملك إلى غايتك ، فأنت على هدى يعنى مُستْعل عليه تركبه ليوصِّلك ، فالمنهج وإنْ كان فى ظاهره يقيد حركتك ، إلا أنه يُقيدها لصالحك أنت ويقف ضد شهواتك لصالحك أنت .

المنهج حين يقيد يدك عن السرقة يقيد يد الناس جميعاً ، أنْ تسرق منك ، وحين يأمرك بغضِّ البصر عن محارم الناس يأمر الناسَ جميعاً بغضِّ البصر عن محارمك . إذن : أنت الفائز فى هذه المسألة . المنهج يقيد حركتك عن شهوة عاجلة فى الدنيا ليعطيك نعيماً باقياً فى الآخرة .

وقوله : ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] أى : الإسلام ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير . ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] يُعليه ويُعلى كلمته على كل الأديان التى سبقتْه ، لأن القرآن جاء مهيمناً على كل هذه الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

والظهور هنا ظهور حجة وبرهان ، وظهور كمال فى التعاليم وفى المنهج ، وهذا لا يمنع وجود ديانات أخرى ما زالتْ حتى الآن وبعد أربعة عشر قرناً من الإسلام .

لذلك سُئلنا هذا السؤال فى إحدى سفرياتنا ، فقلنا ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] لا تعنى أنْ يكون الناسُ جميعاً مسلمين ، لأن الظهور هنا ظهور تعاليم ، وحدث هذا بشهادتكم أنتم فقد ألجأتكم قضايا الحياة إلى منهج الإسلام حيث لا حلَّ لكم إلا فيه .

لذلك رأيناهم يأخذون مثلاً بأحكام الطلاق فى الإسلام ، وهذا إظهار للدين لأنهم أخذوا تعاليمه دون أنْ يؤمنوا به ، كذلك فى مسألة تعدد الزوجات كانوا يهاجمونها ويعترضون عليها والآن ينادون بها .

والعجيب أنهم يرضوْنَ بتعدد الخليلة يعنى العشيقة ، ولا يرضون بتعدد الحليلة أى الزوجة ، وهذا فساد فى الطبع والذوق وتصرُّف تأباه الشرائع .

كذلك فى الناحية الاقتصادية ، لما تكلَّم (كِنز)[1] ملك الاقتصاد عندهم انتهى إلى القول بأن المال لا يؤدى وظيفته الاجتماعية فى الكون إلا إذا انخفضتْ الفائدة إلى صفر ، وهذا هو رأى الإسلام .

لذلك حرَّم التعامل بالربا لأن الربا عملية بين غنى وفقير ، غنى عنده فائض يُقرض ، وفقير مُعدم يقترض ، فكيف نطلب من الفقير الذى لا يملك الأصل أنْ يعطى الغنى الذى يملك الأصل وزيادة .

ثم هَبْ أن الفقير أخذ المال ليستثمره فى التجارة ثم خسرتْ هذه التجارة . إذن : يكون مطلوباً منه أن يسدد رأس المال ثم الفوائد إلى جانب جهده الذى راح هباءً طوال مدة التجارة .

(١) هو : جون مينارد كينز ، اقتصادى إنجليزى ، ولد ٥ يونيو ١٨٨٣ م ، مؤسس النظرية الكينزية من خلال كتابه (النظرية العامة فى التشغيل والفائدة والنقود) عام ١٩٣٦ ، توفى ٢١ أبريل ١٩٤٦ م . عن ٦٣ عاماً .

إذن : كم مصيبة حلّتْ به ؟ إذن : تحريم الربا يُقدِّر أولاً مصلحة الفقير ، ويُقدِّر أيضاً مصلحة الغنى فى كل شىء لأنك إنْ كنتَ قادراً فأقرضتَ نظرت إلى حال الغنى .

لكن قد تتقلب الأوضاع ، ويصير الغنىُّ فقيراً يحتاج إلى أنْ يقترض . إذن : ليس من مصلحته أنْ يتعامل بالربا .

وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] يعنى : شهادته كافية ، لأن الشاهد حينما يشهد يشهد بما رأى ورؤيته محدودة ، إنما حين يشهد الله فهى شهادة العلم المحيط إحاطة تامة ولا يوجد من يغيرها ، لكن ﴿ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] على ماذا ؟ قالوا : على أن الذى يتبع الهدى مصيره إلى الجنة ، وهى دار النعيم الدائم الذى لا ينقطع ، والنعمة التى لا تزول .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[1] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(١) شطأ الزرع : ما خرج وتفرع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ١/٣٤٨] .

﴿ محمد ﴾ اسمه ﷺ ﴿ رَّسُولُ اللَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] وصفه الجديد ، لأننا عرفنا محمداً أولاً قبل أنْ يكون رسول الله ، ومحمد من الحمد يعنى أن الناس تحمده وقد حمده قومه منذ صِغَره ، وقالوا : الصادق الأمين .

فقد كانت سيرته وماضيه بينهم يدلّ على هذه الصفات ، وعلى أنه شخص مميَّز بين أقرانه وأنه غير عادى .

وقد أجمعوا على ذلك حتى قبل الرسالة ، وكانوا يرون فى طفولته أنه لم يُصَبْ بشىء من لوثة الطفولة ولهوها ولعبها ، رأوا أنه كان يرعى الغنم وكان مثله من الفتيان الذين يرعون الغنم فى البادية ينزلون بالليل إلى مكة يحضرون سهرات اللهو .

أما هو فقد فكر مرة فى أنْ ينزل معهم ، فلما ذهب معهم إلى هناك أخذه النوم ، فلم يستيقظ إلا بعد أنْ انفضَّ السامر[1] . فكأن الله عصمه ونزَّه سمعه وبصره أنْ يسمع أو يرى شيئاً من هذا ، أما رفاقه فقد تعجَّبوا لأنهم لم يروْه بينهم ، لذلك أصبح مأموناً عندهم ، ولما لم يُجرِّبوا عليه كذباً قط أصبح جديراً بأنْ يقولوا عنه : الصادق الأمين .

وفى يوم من الأيام اجتمع الصبيان لحمل حجر ثقيل يلعبون به ، فلما ثَقُل عليهم شمَّروا ثيابهم حتى لا يؤثر الحجر فى أكتافهم ، وكان معهم رسول الله فأمسك بثوبه ، وأراد أن يفعل مثلهم ، فسمع صوتاً يقول له :

(١) قال رسول الله ﷺ : ما هممت بشى مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته ، قلت ليلة لغلام يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرتَ لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال : أفعل . فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ما هممت بعده بسوء . [أورده فى الكامل فى التاريخ ١/٢٥٠] .

عورتك يا محمد ، فكان هو الوحيد الذى لم يكشف عن عورته[(١)] .

وقد لاحظوا عليه ذلك قبل سنِّ التمييز ، فأخذوا عنه فكرة أنه مُهيأ من ناحية أخرى ، ثم عرفوا سداد رأيه وحُسْن تفكيره فى مسألة وضع الحجر الأسود فى مكانه ، حينما اختلفتْ قبائل قريش مَنْ ينال شرف وضع الحجر فى مكانه حتى كادوا أنْ يتقاتلوا ، ثم قالوا : نُحكِّم أول داخل علينا .

فكان محمد الصادق الأمين الذى لا يختلف على أمانته اثنان ، فأخذ رداءه ووضع عليه الحجر ، وأمر كل قبيلة أنْ تأخذ بطرف منه ، حتى إذا ما وصلوا به إلى موضعه من الكعبة حمله ووضعه فى مكانه ، وهكذا انتهى الخلاف الذى أثار حفيظة القوم[(٢)] .

فقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] أى : هذا الذى تعرفونه وتعرفون صدْقه وأمانته وكرم أخلاقه ، هذا الذى لبث بين ظهرانيكم أربعين سنةَ هو رسول الله الذى اختاره الله للرسالة . إذن : أنتم شهدتم له قبل أنْ أرسله إليكم ، وما دام قد شهدتم له بالخُلق الجميل وسداد الرأى فواجبٌ عليكم أنْ تُصدقوه .

والحق سبحانه وتعالى لم يصف محمداً فى ذاته إنما صفَّى أصوله ، وزكَّاهم بأنْ عصمهم من السجود للأصنام ، وهى عبادة كانت شائعة فى

---

(١) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٢٥٠) أن رسول الله ﷺ قال : « لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإنى لا أقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال : شد عليك إزارك . قال : فأخذته فشددته علىَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىَّ من بين أصحابى » وكذا فى (سبل الهدى والرشاد) والروض الأنف للسهيلى (١/ ٣١٢) .

(٢) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٢٨٠) وفى سبل الهدى والرشاد (١/ ١٦٧ ، ١٧١) والشفا للقاضى عياض (١/ ١٣٤) والسهيلى فى الروض الأنف (١/ ٣٤٥) وابن هشام فى السيرة (١/ ١٩٧) .

هذا الوقت ، وقد أجمعوا على أن أجداده لم يسجد أحدٌ منهم لصنم .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « مازلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات »[(١)] أى : أنه ﷺ جاء من نسل طاهر لم يخالطه شيء من سفاح الجاهلية .

وقصة أبيه عبد الله مع زينب الخثعمية معروفة فى الجزيرة العربية كلها خاصة فى مكة ، حيث رأت فيه جمالاً وجلالاً فعشقته حتى راودته عن نفسه ، وعندها قال الأبيات المشهورة :

أمَّا الحَرامُ فَالمَمَاتُ دُونَهُ ... والحِلّ لا حل فَأسْتَبِينَه
يَحْمِى الكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَه ... فَكَيْفَ بالأمْرِ الذى تَبْغِينه ؟

فلما تزوج عبد الله من آمنة بنت وهب[(٢)] وحملت فى رسول الله انتقل إليها هذا النور الذى كان فى وجه عبد الله ، فلما رأتْه الخثعمية بعد ذلك قالت : وماذا أفعل به وقد ذهب النور الذى كان فى وجهه[(٣)] ؟

---

(١) أورده الألوسى فى تفسيره (روح المعانى ٥/ ٣٨٨) والرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب ٦/ ٣٣٧ ، ٣٣٨ - ١٢/ ٩) والنيسابورى فى تفسيره (٣/ ٢٩٥) دون سند أو عزو لأى راو ، وورد معزواً لابن عباس فى فتاوى الأزهر (٨/ ١٠٠) وقال الرملى فى فتاواه (٦/ ١٦٧) : معناه أنه لم يقع فى نسبه ﷺ ما كان سفاحاً .

(٢) هى آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، قرشَية ، أم النبى ﷺ ، كانت أفضل امرأة فى قريش نسباً ومكانة ، رباها عمها وهيب بن عبد مناف ، تزوجت عبد الله بن عبد المطلب ، مرضت فى إحدى رحلاتها لزيارة قبر زوجها فتوفيت بموضع يقال له الأبواء بين مكة والمدينة ، وكان رسول الله حينها عمره ست سنين وقيل أربع .. توفيت عام ٤٥ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلى ١/ ٢٦] .

(٣) أورد السهيلى فى الروض الأنف (١/ ٢٧٣) من حديث محمد بن إسحاق أن عبد المطلب انصرف بعد أمر القداح آخذاً بيد عبد الله ، فمر به على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى وهى أخت ورقة بن نوفل وهى عند الكعبة . فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى . قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع علىّ الآن . قال : أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه . فسار به عبد المطلب حتى زوّجه آمنة بنت وهب . ثم مر بتلك المرأة فقال لها : ما لك لا تعرضين علىَّ اليوم ما كنت عرضت علىَّ بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة . وقد كانت تسمع من أخيها ورقة أنه كائن فى هذه الأمة نبى .

وهذا يعنى أن الحق سبحانه وتعالى صنع محمداً على عينه ، وحماه من سِفَاح الجاهلية ، وحماه فى كل مراحله .

وبعد ذلك مات أبوه واستُرضِع فى بنى سعد ، ورأت له مرضعته كثيراً من الكرامات والمعجزات ، فلما قالت لإخوته فى الرضاعة : احموا محمداً من حر الشمس . فقالوا : والله يا أماه ما نجده أبداً فى حرِّها ، لأنه إذا سار نرى فوقه غمامة تُظلله[1] .

إذن : شهد له فى ذاته ، وشهد له فى آبائه ، علم الجميع أنه مُؤيَّد من أعلى .

فقوله تعالى ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] يعنى أنه اختار الرسول على وفْق رأيكم ، فإياكم أنْ تكذِّبوه ، ومحمد هنا مبتدأ مُخبر عنه بقوله ﴿ رَّسُولُ اللَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

أى : أن محمداً المعروف لكم هو رسول الله ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان الواجب ساعة يُرسَل إليكم أنْ تؤمنوا به وأنْ تُصدقوه .

والحق سبحانه وتعالى لما أيَّد محمداً بالمعجزات أيّده بمعجزة عقلية ، وفرَّق بين معجزة عقلية ومعجزة كونية ، فالمعجزة الكونية تقع مرة واحدة ، كما رأينا فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام ، وأنه كلَّم الناس فى المهد ، ولم يَرَ هذه المعجزة سوى القوم الذين حضروها وعاينوا هذا الموقف .

---

(١) كانت حليمة مرضعة رسول الله لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً فغفلت عنه يوماً فى الظهيرة فخرجت تطلبه حتى تجده مع أخته فقالت : فى هذا الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه ما وجد أخى حراً ، رأيت غمامة تظل عليه ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت . أورده فى عيون الأثر (١/٥٢) ، وابن كثير فى السيرة النبوية (١/٢٢٨) والشامى فى سبل الهدى والرشاد (١/٣٨٨) وذكر أنها أخته الشيماء .

أما بالنسبة لنا فهو خبر نُصدقه ونؤمن به ، لأن القرآنَ أخبر به .

أما محمدٌ فرسالته عامة وخاتمة للرسالات إلى قيام الساعة ، إذن : فمعجزته يجب أن تتناسب مع عمومية الرسالة ، يجب أن تكون معجزة خالدة باقية لا تنتهي بانتهاء الموقف .

لذلك جاء القرآن معجزة باقية ببقاء الرسالة إلى قيام الساعة ، فمنذ نزلت الرسالة ونحن نقرأ ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] وستظل تُقرأ إلى قيام الساعة ، محمد رسول الله بدليل هذا القرآن المعجز .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر] فتولَّى الحق سبحانه بنفسه حفْظ القرآن على خلاف الكتب السابقة عليه ، حيث وكل الله حفْظها إلى أهلها ومَنْ آمن بها .

﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة] ومعنى ﴿ اسْتُحْفِظُوا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة] أى : طُلب منهم حفظها تكليفاً من الله ، والتكليف عرضة لأنْ يُطاع ولأنْ يُعصَى ، وقد رأيناهم لم يحافظوا بل بدَّلوها وغيَّروها ونسُوا الكثير منها .

أما القرآن فهو كما هو منذ أنزله الله على قلب رسوله ﷺ ، لأن الله حفظه بحفظه ، ولم يأتمن على ذلك البشر .

ومن مظاهر حفظ الله للقرآن أنْ يسخر له مَنْ يخدمه حتى ممَّنْ لا يؤمنون به ، فكثيرٌ ممَّنْ يقومون على طباعة القرآن وزخرفته الآن من غير المسلمين ، وقد رأينا الرجل الألمانى الذى طبع القرآن كله فى صفحة واحدة مع أنه لم يفعل هذا فى الإنجيل وهو كتابه .

إذن : نقول أن ماضى رسول الله بين قومه أهَّله لمهمة الرسالة ، لذلك الذين استقبلوا خبر بعثته ﷺ سارعوا إلى تصديقه قبل أنْ يسمعوا من القرآن آية واحدة ، لماذا ؟

لأنهم أخذوا الدليل على صدقه من ماضيه فيهم ، فما جرَّبوا عليه كذباً قط ، والذى لا يكذب على الناسَ من باب أوْلَى لا يكذب على الله ربِّ الناس .

ومثل هذا الموقف رأيناه أيضاً من الصِّديق أبى بكر فى حادثة الإسراء والمعراج ، فلما بلغه أن رسول الله يدَّعى أنه أُسْرى به قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] .

أما المعجزة فقد جاءتْ لمن كذَّب وأنكر رسالته ﷺ ، جاءت لمَنْ لم يؤمن ولمَنْ اتهم القرآن بأنه كذبٌ وافتراء ، فجاء ليقول لهم ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِه .. ﴿٣٨﴾﴾ [يونس] أى : مفتراة .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] أى : آمنوا به وأصلحوا فى معيته البشرية والمنهجية ، وهؤلاء وصفهم بأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] إذن : جمعوا بين الشىء ونقيضه ، بين الشدة والرحمة .

وهذا دليل على أن المؤمن ليس له طبْع واحد يحكمه ، إنما يتغير تبع التكليف الذى يأتيه من ربه عز وجل ، فمع الأعداء تجده قوياً شديداً عليهم ، يُريهم أن قناة المؤمن لا تلين ، أما مع إخوانه المؤمنين فهو رحيم بهم شفيق عليهم .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذا المعنى ، فقال : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة] فالمنهج الإيمانى هو الذى يحكم سلوك المؤمن ويُوجهه ، وهذا ما رأيناه بالفعل فى تصرّفات كل من الصِّديق أبى بكر والفاروق عمر .

فأبو بكر مع ما عُرِف عنه من اللين والرحمة لما جاءت مسألة

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٣٨١) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس فمن (وفى رواية ٤٤٣٢ : ممَّن) كان آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر ، فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . وأخرجه كذلك البيهقى فى دلائل النبوة (٦٥٢) .

الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ رأيناه يخرج عن هذا الطبع اللين ، ويكون فى أشدِّ ما يمكن .

ويقول لعمر : والله لو منعونى عقالاً[1] كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتُهم عليه ، وينهر عمر ويقول له : أجبَّار فى الجاهلية خوَّار فى الإسلام[2] .

والمتأمل فى مسألة الردة يجد أنها تحتاج إلى قسوة وحزم ، وإلا انتشرتْ خاصة بين ضعاف الإيمان ، والناس ما يزالون حديثى عهد بالدين ، وهذا ما أخرج أبا بكر من طبْع اللين إلى طبْع الشدة .

وقوله تعالى : ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] فهم مع هذه الشدة على الكفار تراهم ركعاً سجداً ، والركوع والسجود مراحل لإظهار العبودية الكاملة لله تعالى ، فالركوع تنحنى بقامتك لله ، والسجود أعظم من الركوع حيث تخرّ إلى الأرض وتضع جبهتك ، وهى أشرف موضع فيك على الأرض تواضعاً وتذللاً لله وخضوعاً له سبحانه .

لذلك قلنا : فى الركوع والسجود كمال العبودية لله ، وهذا فهمناه من قول إبليس الذى حكاه عنه القرآن : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]

---

(١) العقال : قال الكسائى : العقال صدقة عام ، وقال بعضهم : أراد أبو بكر رضى الله عنه بالعقال الحبل الذى كان يعقل به الفريضة التى كانت تؤخذ فى الصدقة إذا قبضها المصدِّق . وفى روايات أخرى : لو منعونى عناقاً . وفى أخرى : جدياً . [لسان العرب – مادة : عقل] بتصرف . قلت : المقصود : لو منعونى أقل شىء . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٧٦) والبيهقى فى دلائل النبوة(٧٣١) والمتقى الهندى فى كنز العمال (١٦٨٣٨) وتاريخ الإسلام للذهبى (١/٩١) .

فلم يذكر باقى الاتجاهات أعلى وأسفل ، لماذا ؟ لأن الأعلى يمثل علو الألوهية ، حين نرفع أيدينا بالدعاء ، والأسفل يمثل ذُلَّ العبودية حينما تسجد الجباه ، وتخضع لله تعالى ، لذلك لا يأتى الشيطان من هذين .

وقوله تعالى : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذه هى علة كونهم أشداء على الكفار ورحماء بينهم ، وكوْنهم يحافظون على الركوع والسجود ، أى : يفعلون هذا ابتغاء فضل الله وطمعاً فى رضوان الله عنهم .

وهذا قمة الإخلاص فى الأعمال ، فهدفهم من العمل وجه الله لا ينظرون إلى غيره ، لماذا ؟ لأنهم يحسبون حساب هذا اليوم الذى سيقفون فيه أمام الله ، ولا يجدون غير الله يحاسبهم ويجازيهم .

لذلك قلنا فى العلماء والمخترعين الذين خدموا البشرية بأعمالهم الحسنة ومع ذلك لا نصيبَ لهم فى الآخرة ، لأنهم ما عملوا لله إنما للبشرية وللحضارة .

لذلك قال الله عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] فُوجِىء بالإله الحق الذى لم يكُنْ فى باله هو الذى يحاسبه ، وهو الذى يجازيه .

ومن علامات هؤلاء المؤمنين أيضاً ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] سيماهم أى علامتهم المميزة لهم هى الأثر الذى يتركه السجود فى جبهة الإنسان والتى نسميها زبيبة الصلاة .

فالخالق سبحانه لم يخلق البشر فى الكون على قالب واحد ، إنما لكل إنسان قالبه الخاص به ، والذى لا يتطابق مع قالب آخر على كثرة الخَلْق ، وهذه من طلاقة القدرة فى عملية الخَلْق ، فالناس

مختلفون فى الطول والقِصَر والعرض واللون والملامح ... إلخ .

لكن الصفة المميزة لجميع المؤمنين الذين وصفهم الله بهذه الصفات ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وهذه العلامة يلازمها نور فى الوجه وبشاشة نلاحظها على وجه المؤمن ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد (١) .

وكثيرون منّا يجد لذة فى إطالة السجود ، ويجد فيه أنْساً بالله فيعتاد ذلك ، فتظهر هذه العلامة على جبهته إلى جانب هذا النور والإشراق الذى يبدو على وجهه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذا إذا قارنت بين رجل قضى ليله فى الشرب والخلاعة والاستهتار ، وآخر قضى ليله فى عبادة الله وتسبيحه .

وهذه الوجوه تأتى هكذا ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ [عبس]

ونحن نلاحظ هذه الصورة ، ونرى بدايتها فى الدنيا قبل الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أى : الأوصاف التى سبق ذكرها للمؤمنين مع محمد وهى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذه الصفات هى ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وهكذا وصفتهم التوراة ، فكأن التوراة فيها ذكر ومثّل للمؤمنين الذين يؤمنون بمحمد الرسول الخاتم ، لأن التوراة مُبشِّرة به .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٧٤٤) وأبو داود فى سننه (٧٤١) والنسائى فى سننه (١١٢٥) وأحمد فى مسنده (٩٠٨٣) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

أما الإنجيل فقد وصفهم بأوصاف أخرى غير هذه ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

فهؤلاء المؤمنون مثلهم فى الإنجيل مثل الزرع الذى أخرج ﴿ شَطْأَهُ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أى فروعه ، والشطأ هو أعلى العود أو السنبلة ﴿ فَاسْتَغْلَظَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] يعنى : اشتد العود وقوى وامتلأ ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] يعنى : بلغ مبلغه حتى إنه ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] لكمال استوائه واستقامته ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

ولك الآن أنْ تقارن بين هذين المثالين تجد المثل الأول فى التوراة اهتم بالنواحى الروحية ، وذكر أموراً وأوصافاً كلها قيم ومعنويات ، فأتباع محمد أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وهم رُكَّعٌ وسُجَّد يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وهم سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، كلها قيم ومعنويات ليس فيها شىء من الماديات أبداً .

أما مثلهم فى الإنجيل فمثل مادى يخلو تماماً من الروحانيات أو القيم ، لماذا ؟ قالوا : لأن اليهود كانوا قوماً ماديين مبالغين فيها ؛ بحيث لا يقتنعون إلا بها .

ففى فترة التيه التى كتبها الله عليهم رزقهم المنَّ والسَّلْوى ، وهو طعام حُلو شهىٌّ يأتيهم دون تعب ، وينزل عليهم دون سَعْى منهم ، فلم يرضوا به لأنه غيبٌ لا يعلمون مصدره ، وطلبوا من الله أن يرزقهم مما تنبت الأرض من بقْلها وقثّائها وفُومها وعدسها وبصلها . أى : ما يزرعونه بأيديهم ويباشرونه بأنفسهم .

حتى فى علاقتهم بالله أرادوا أنْ يكون سبحانه مادة ، فقالوا

لموسى عليه السلام ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة] والحق سبحانه وتعالى غيب ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ .. (١٠٣) ﴾ [الأنعام]

أما رؤيتنا له سبحانه فى الآخرة فلأننا نُعَدُّ فيها إعداداً آخر يناسب هذا الشرف ، بحيث نتمكن من رؤيته تعالى ، أما فى الدنيا فلا نقدر على ذلك لأن الله تعالى لم يمنع تجليه على خَلْقه ، لكن نحن فى الدنيا لا نقدر على تحمل هذا التجلى .

وهذا المعنى واضح فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ، لما قال لربه عز وجل ﴿ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] فكان الجواب ﴿ قَالَ لَن تَرَانِى وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] وهذا يعنى أن غيرك يمكن أنْ يرانى .

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] فلما تجلّى ربنا للجبل اندكّ الجبل ، فكيف إذا تجلى سبحانه وتعالى على الإنسان ، وموسى عليه السلام رأى الجبل وهو يندكّ فخرَّ وصعق من هَوْل ما رأى من أثر التجلِّى على المتجلَّى عليه .

نقول : فلما كانوا بهذه الصورة من المادية جاء لهم بمثَل كله روحانيات وقيم ، فكأنه ذكر فى التوراة من صفات المؤمنين بمحمد ما ينقص أهل التوراة ، يقول لهم : أنتم بالغتم فى المادية ، وسوف آتى بنبى له أمة تقيم الروحانيات والقيم التى قصَّرتم أنتم فيها .

أما النصارى فكانوا يُغلِّبون الروحانيات ، والإنجيل ذاته كله روحانيات وقيم ، لذلك لما سُئِلَ سيدنا عيسى عليه السلام عن مسألة ميراث قال : أنا لم أبعث مورثاً .

وهذا التباين بين التوراة والإنجيل جعل اليهود والنصارى يلتقون

على كتاب واحد ، مزيج من التوراة والإنجيل ليجمعوا بين المادية والروحانية ، وسمَّوْه الكتاب المقدس ، التقوا عليه رغم ما بينهم من العداوة والخلاف .

ولما كان الإنجيل بهذا الوصف جاء مثَلُ المؤمنين فيه مثلاً مادياً تماماً ، وهو الشيء الذى يفتقده الإنجيل ، فالإنجيل يخلو تماماً من الحديث عن المعاملات وعن حركة الحياة ، إذن : فكلٌّ مثل منهما جاء ليجبر نقصاً ، فاليهود ينقصهم الروحانيات ، والنصارى ينقصهم الماديات فى حركة الحياة .

ونقف هنا عند قوله تعالى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

هذه إشارة إلى أن تقدمنا فى الماديات وبلوغنا فيها درجة الاستواء والاستقامة والاكتفاء الذاتى ، هذا أمر يغيظ الكفار ، فاحذروا أنْ يسبقوكم فى هذا المجال .

إنهم إن سبقوكم فيه أذلوا أعناقكم ، وتحكموا فى مقدراتكم ، واستعلوا عليكم بما يملكون من إمكانيات ليست عندكم .

وهذا للأسف ما حدث ، فقد احتجنا إليهم فى معظم الصناعات حتى فى لقمة العيش ، وها هم يفعلون بنا الأفاعيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : يا مَنْ آمن بمحمد فارتضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً عليكم أنْ تأخذوا من كلٍّ بطرف ، خذوا من الماديات ما يُعلى شأنكم ، وما يُعينكم على حركة الحياة .

وخذوا من الروحانيات ما يعصمكم من الزلل ، ويصلح دينكم ودنياكم ، لأن مثلكم فى التوراة قيَم ، ومثلكم فى الإنجيل مادة .

لذلك جاء الإسلام مُؤيّداً بالعلم الكونى لا يتعارض معه ، والقرآن ملىء بالحديث عن هذه الكونيات ، واقرأ إنْ شئتَ وتدبر هذه الآيات :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ (١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ (٢) سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر أجناس الوجود كلها الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وكلمة العلماء هنا لا تقتصر على علماء الدين ، إنما كل العلماء فى كل المجالات دينية أو دنيوية .

فكأن الحق سبحانه أراد لنا ديناً يجمع بين الدنيا والآخرة ، بين العبادة وحركة الحياة ، فإياكم أنْ تأخذوا الدين وتتركوا الدنيا لأعدائكم يستزلونكم بها .

وسبق أنْ قلنا : مَنْ أراد أنْ تكون كلمته من رأسه فلتكُنْ لقمته من فأسه ، فإياكم أنْ يتفوق عليكم أعداؤكم فى هذا المجال ، لأن عطاء الربوبية واحد للمؤمن وللكافر ، فلا تتركوه اعتماداً على عطاء الألوهية .

إنك لا تستطيع أنْ تقيم العبودية لله إلا إذا أخذتَ بعطاء الربوبية ، وسعيْتَ إلى تطوير حركة الحياة والاستفادة منها والمشاركة فيها .

وسبق أنْ أشرنا إلى مسألة ستر العورة مثلاً ، وهى واجبة ، ولا تتم العبادة إلا بها ، انظر كم حركة من حركات الحياة نقوم بها لنستر عورتنا باللباس ؟

---

(١) الجُدد : مفرده الجُدَّة : القطعة منه . والجدة من الشيء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . أى : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١٢٨/١] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/ ٥٠] .

تتبع بذرة القطن من حين أنْ تضعها فى الأرض إلى أنْ تصير ثوباً تلبسه . إذن : نقول حركة الحياة هى التى تعين على حركة الدين .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح] انظر ﴿ آمَنُوا .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذا جانب الدين ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذا جانب الدنيا وما تحتاجه من حركة الحياة .

فإياك إذن أنْ تهمل جانباً لحساب الآخر ، لأن دينك دينٌ جامع للروح وللمادة . والذين آمنوا هم الذين جمعوا هذه الصفات ووعدهم الله هذا الوعد .

والإيمان هو العقيدة الراسخة المستقرة فى النفس ، والتى لا تقبل المناقشة ، فالقلب مطمئن بهذه العقيدة ، وأنها تُسعد دنياه وآخرته ، والأصل فى الإيمان أنْ تؤمن بالله رباً وخالقاً للكون ، تؤمن بأسمائه وصفاته .

فإذا آمنتَ بهذه الصفات اطمأن قلبك إلى ما يجرى عليك من قضائه وقدره ، فهو سبحانه يبتليك بالخير لتشكر ، ويبتليك بالشر لتصبر ، فأنت مُثَاب فى كلتا الحالتين .

والإيمان من مادة (أمن) فهى تدور حول الأمان والاطمئنان . تقول : آمنت بكذا . يعنى : اعتقدتُه اعتقاداً جازماً لا يداخله شكٌّ ، وآمنت له يعنى : صدَّقته . وأمَّنه يعنى : طمأنه على مستقبل حياته ، إذن : كلها تدور حول الاستقرار والثبات وعدم التحول إلى النقيض .

وثمرة الإيمان ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] يُراد بها ما تقدَّم من قوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ

السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وهم فى الماديات وفى حركة الحياة مثل الزرع الذى استوى على سُوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار .

والوعد للمؤمنين بماذا ؟ ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح] قلنا : فيها تخلية ثم تحلية يغفر أولاً . ثم يعطى الأجر . والقاعدة الشرعية أن درء المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة[(١)] .

لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران] فالزحزحة عن النار فى ذاتها نعمة ، لذلك ضُرب الصراط على متن جهنم ، فلا بد لمن يمر عليه أنْ يرى جهنم بعينه ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

وهذا يُشعرك بعظمة الإيمان ، وأنه النعمة الكبرى لأنه نجانا من هذه النار وأدخلنا الجنة ، والعمل الصالح هو الذى أخذ بيدك وتجاوز بك هذه العقبة .

واقرأ : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر] فمطلق الإنسان فى خُسْر لا يستثنى منهم ، ولا ينجو إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

والتواصى بالحق يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتواصى بالصبر يدل على أن هذا الطريق محفوفٌ بالمخاطر ، ويحتاج منك

---

(١) هى قاعدة أصولية فى أصول الفقه ، تكلم عنها الشيخ محمد بن أحمد الفتوحى المعروف بابن النجار (ت ٩٧٢ هـ) فى كتابه (شرح الكوكب المنير) (٣/٣٩) فقال : « من أدلة الفقه قول الفقهاء : درء المفسدة أولى من جلب المصالح ودفع أعلاها . يعنى : أن الأمر إذا دار بين درء مفسدة وجلب مصلحة كان درء المفسدة أولى من جلب المصلحة ، وإذا دار الأمر أيضاً بين درء إحدى مفسدتين وكانت إحداهما أكثر فساداً من الأخرى فدرء العليا منهما أوْلَى من درء غيرها ، وهذا واضح يقبله كل عاقل ، واتفق عليه أولو العلم » .

إلى صبر على الأذى من الخصوم ومن المعارضين فالنصح ثقيل .

وكلمة ﴿وَتَوَاصَوْا .. ③﴾ [العصر] تعنى أن الكلَّ يوصى ، ففيها استمرارية ومداومة وعدم يأس ، لأن المعارض الذى تنصحه قد يصبر هو أيضاً ويتمادى ، فعليك أنْ تغالبه فى الصبر ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا.. ⑳⓪﴾ [آل عمران]

ووعد الله هو الوعد الحق الذى لا يتخلف ، لماذا ؟ لأنه وعد ممَّنْ يملك كلَّ أسباب الوفاء ولا يعوقه عن الوفاء شىء ولا يمنعه مانع ، ولأنه سبحانه الحق الذى لا يتبدّل ولا يتغيّر ولا يتحول ، فمَنْ إذن يحول دونه ودون تحقيق وعده ؟

فهو سبحانه الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له فى مُلكه ، ولا منازعَ له فى سلطانه ، وهو القوى ، فلا توجد قوة أخرى تمنعه . أما الوعد من البشر فقد لا يتحقق لأنَّ الإنسان لا يملك كلَّ أسباب الوفاء ، وهو أهل أغيار وتقلُّب .

لذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ⑪﴾ [الرعد]

إذن : نقول إن الحق سبحانه ثابت لا يتغير من أجلنا ، لكن علينا نحن أنْ نغير من أنفسنا من أجله تعالى .

وكلمة ﴿مَّغْفِرَةً .. ㉙﴾ [الفتح] تعنى : أن الخالق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه علم أننا خطاءون كثيرو النسيان كثيرو الجهل ، لكن هذا كله مُتوقع منا ، ولا ينبغى أنْ يُيئسنا من رحمة الله لأنه هو الذى خلقنا على هذه الصورة ، وهو الذى تكفّل لنا بالمغفرة ، وما علينا نحن إلا أنْ نطرق أبوابها ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ⑧②﴾ [طه]

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

سورة الحجرات(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقول الحق سبحانه(٢) :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١ ﴾

---

(١) سورة الحجرات هى السورة رقم (٤٩) فى ترتيب المصحف الشريف . وهى سورة مدنية بإجماع العلماء حكاه القرطبى فى تفسيره (٦٣٥١/٩) . نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم . فهى السورة رقم ١٠٦ فى ترتيب النزول . وانظر (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١) .

(٢) سبب نزول الآية : عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى . وقال عمر : ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِه .. ١ ﴾ [الحجرات] إلى قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ .. ٥ ﴾ [الحجرات] رواه البخارى . [أسباب النزول للواحدى ص ٢١٨] .

تستطيع هنا أن تلاحظ المناسبة بين هذه الآية فى مفتتح سورة الحجرات وبين نهاية سورة الفتح ، الحق سبحانه فى أواخر آيات الفتح حدثنا عما دار فى الحديبية ، وكيف انتهى الموقف هناك بالصلح ، وكيف أن هذا الصلح أحدث خلافاً بين الرسول وبين المؤمنين به .

ووقف رسول الله وحده وقَبِلَ الصلح وقَبِلَ كل شروطهم ، وتنازل لهم عن أشياء دلَّتْ على حنكته السياسية وعلى بُعْد نظره ، فى حين عارضه المؤمنون كما رأينا .

حتى أن عمر يقول له : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ يقول : بلى ، يقول : أليسوا على الباطل . يقول : بلى ، يقول : فلم نُعطِ الدنية فى ديننا ؟[1] .

وقلنا : أنهم قبل أنْ يعودوا إلى المدينة أخبرهم الحق سبحانه بالحكمة من العودة دون أداء العمرة هذا العام . إذن : كان للمؤمنين رأى ، وكان لرسول الله رأى آخر ، لأن المسلمين تعصبوا لأنفسهم أما رسول الله فقد تعصَّب للإسلام .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٢٩ ، ٢٩٤٥ ، ٤٤٦٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٣٣٨) وأحمد فى مسنده (١٥٤٠٨ ، ١٨١٦٦) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه . وفيه أن عمر بن الخطاب قال : فأتيت نبى الله ﷺ فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً . وفيه أن أبا بكر قال له : أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق ، الحديث بطوله .

ولما حدثتْ المعارضة لرسول الله جاءتْ سورة الحجرات لتعالج هذه المسألة فى أول آية منها : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ① ﴾ [الحجرات] والنداء هنا خاص بالذين آمنوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولاً .

﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ① ﴾ [الحجرات] يعنى : إياكم أنْ تُقدِّموا رأياً أو تقطعوا أمراً قبل أنْ يأذن الله لكم به ويأذن رسوله ويقضى فيه ، لأن رسول الله لا يصدر إلا عن وحى من الله .

وأنتم حينما تقفون فى وجه أمر الرسول فأنتم فى حقيقة الأمر تعارضون أمر الله الذى ارتضيتم به رباً وإلهاً وآمنتم بصفاته ، ومقتضى هذا الإيمان ألاَّ تُقدِّموا رأيكم على رأيه ، ولا حكمكم على حكمه ، فإذا قال الله أو قال رسول الله فلا تقدموا رأياً من عندكم .

وكلمة ﴿ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ① ﴾ [الحجرات] بين يديك يعنى : أمامك ، يعنى لا تسبقوه بأنْ تقطعوا أمراً دونه ، وتذكَّر أنك أمام الله وفى مواجهته ، فهو لا يُكلِّفك حركة فتلتفت يميناً أو شمالاً .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. ① ﴾ [الحجرات] يعنى : إنْ أردتم ألاَّ تُقدِّموا بين يدى الله ورسوله فاتقوا الله فى ذلك . يعنى : لا تكونوا كذابين فيه ، ولا تعودوا مرة أخرى إلى المخالفة فهذا لا يصح .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① ﴾ [الحجرات] يعنى : اتقوا مَنْ هذه صفاته فهو سميع يسمع كلَّ ما يقال ، وعليم بكل ما يختلج فى نفوسكم ، ولا يخفى عليه شىء من أموركم . وما دُمتم قد آمنتم به فقد وجبتْ عليكم طاعته وطاعة رسوله .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ
فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ
كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ
أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) ﴾

النداء هنا أيضاً للذين آمنوا ، ألاَّ يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى فى حضرته ، وكذلك لا يرفعوا رأيهم فوق رأيه ، ومن أدب الحديث عموماً ألاَّ ترفع صوتك ، لأن رفع الصوت فيه استعلاء ، أو على الأقل فيه مساواة ، فما بالك إنْ كان مُحدِّثك رسول الله ؟ .

إذن : وجب عليك ألاَّ يعلو صوتك على صوته ، بل يكون صوتك أقلَّ وأخفت ، وتكلّمه بأدب وخشوع ، فكما آمنتَ به نبياً ورسولاً مبلِّغاً وقدمتَ رأيه على رأيك .

فكذلك حين تُحدِّثه لا ترفع صوتك فوق صوته ، فصوته ﷺ ينبغى أنْ يكون الأعلى ، لأنه الأوْلَى بالاستماع وبالاهتمام ، ونحن فى حقبة من تاريخنا شاعتْ بيننا مقولة (لا صوتَ يعلو فوق صوت المعركة) لأن المعركة فى هذا الوقت كانت هى الحل . والمعنى : لا يعلو صوتٌ على صوته .

---

(١) قال النيسابورى (ص ٢١٨) : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس كان فى أذنه وقر ، وكان جهورى الصوت ، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته ، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ .. (٢) ﴾ [الحجرات] لا تنادوه كما ينادى بعضكم بعضاً ، فلا نقول : تعال يا أحمد تعال يا محمد . بل نقول : يأيها النبى ، يأيها الرسول ، يا رسول الله ، لأن ربك الذى خلقك وخلقه وأرسله لك رسولاً خاطبه هكذا .

فى حين أنه تعالى خاطب كل الرسل بأسمائهم : يا آدم ، يا نوح ، يا إبراهيم ، يا موسى ، يا عيسى إلا محمداً ﷺ لم يخاطبه باسمه إنما بوصفه (يا أيها النبى) (يا أيها الرسول) فإذا كان خالقه لم يدعه باسمه .

إذن : وجب عليك أنْ تدعوه بهذا الوصف ، إلا إذا كنتَ أنت أعلى مقاماً من الذى خلقك والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ .. (٢) ﴾ [الحجرات] أى : خشية أنْ تحبط أعمالكم . يعنى : تبطل وتفسد ، لماذا ؟ لأن الجهر لرسول الله بهذه الصورة أو رفْع الصوت عنده يُعد مخالفة للمنهج الذى جاء به .

فرسول الله لم يأت بمنهج من عنده ، إنما هو مبلِّغ عن الله ، فمَنْ خالف فى ذلك فقد خالف منهج الله واستحقَّ أنْ يحبط عمله ، ثم فى إهانة الرسول إهانة لمن أرسله .

وقوله : ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) ﴾ [الحجرات] أى : يحبط عملك ويبطل وأنت لا تدرى ، فهذه المسألة من الأشياء الدقيقة التى ينبغى التنبه لها ، فمع كونه ﷺ بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ لكن لا تغرنّك هذه الصفات وتجعلك تساويه بغيره فى النداء ، بل احتفظ له ﷺ بمنزلته ومهابته وكرامته ، ولا تجعله مثلك فى الخطاب ، مثل رجل يُدلل

الخادم فيغتر الخادم بذلك ، حتى أن سيده يناديه فلا يجيب .

لذلك الرجل العربى دخل على قوم لا يعرفهم ولا يعرفونه . فقال : السلام عليكم قوم حَسُنتْ أخلاقهم ، قالوا : وكيف علمت حُسْن أخلاقنا ؟ قال : عرفت حُسن أخلاقكم من سوء أخلاق عبيدكم ، أى : أنهم يُدلِّلون العبيد ولا يعاقبونهم .

وقد ورد عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خدمت النبى ﷺ ، فما قال لشىء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشىء تركته : لم تركته[1] ؟

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

معنى ﴿ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] يخفضونها ويُخافتون بها فى حضرته ﷺ ، احتراماً له وتكريماً .

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] أى :

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٧٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٢٦٩ ، ٤٢٧١) وأبو داود فى سننه (٤١٤٤) والترمذى فى سننه (١٩٣٨) وقال : حديث حسن صحيح . وهو عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] تألى أبو بكر أن لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخى السرار . [أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢١٩] .

صفّاها وأخلصها لتكون محلاً للتقوى وللطاعة ، ولحمل منهج رسول الله إلى الناس كافة ، فهم مُؤهَّلون لحمل هذه الرسالة بعد أنْ نقَّى الله قلوبهم وطهرها وصفَّاها من الخبث ، ونفى عنها أمراض الرياء والنفاق وضعف الإيمان .

لقد صهرتهم الأحداث فى بوتقة الشدائد ، بحيث لم يَبْقَ فى صفوف الإيمان إلا أقوياء العقيدة القادرون على حمل أمانة هذه الدعوة .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] فالرسول يشهد أنه بلّغنا ، ونحن نشهد أننا بلغنا الناس .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ ﴾

نزلت هذه الآية فى جماعة[1] كان لهم أسرى ، فجاءوا يراجعون رسول الله فى أمرهم ليطلق سراحهم ، لكنهم أخطأوا من عدة وجوه :

(١) عن زيد بن أرقم قال : أتى ناس النبى ﷺ فجعلوا ينادونه وهو فى الحجرة : يا محمد يا محمد : فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الحجرات] وقال محمد بن إسحاق وغيره : نزلت فى جفاة بنى تميم .. وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم . [أسباب النزول للواحدى ص ٢١٩] .

أولاً : جاءوا بيت النبى ﷺ من الوراء ولم يأتوا من الأبواب .

ذلك لأنهم لا يعرفون فى أىِّ حجرة يقيم رسول الله ، أهو عند عائشة ؟ أم عند حفصة ؟ أم عند أم سلمة ؟ وهم يعلمون أن لرسول الله مهمات شتى ، له مهمة مع الناس ، ومهمة مع أهله ، ومهمة قبل ذلك مع ربه .

فكان عليهم إذا لم يظهر لهم رسول الله فى المسجد أنْ ينتظروا خروجه وألاَّ يُزعجوه ، فهو ولابدَّ فى مهمة من هذه المهمات وربما كان مشغولاً فى خلوة مع ربه عز وجل أو مع أهله .

ثانياً : نادوا رسول الله كما ينادى بعضهم بعضاً ، ولم يراعوا حرمة رسول الله ومنزلته، لذلك وُصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون ، فالتعقل يقتضى خلاف هذا التصرف .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات] نعم خيراً لهم لأنه ﷺ بعد أنْ نادوه واضطروه للخروج أطلق نصف الأسرى ، وقال : والله لو صبروا حتى أخرج عليهم لأطلقتُ الأسرى كلهم[1] .

إنما جعل ذلك تأديباً لهم لخروجهم عن اللياقة والأدب فى التعامل معه ﷺ .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات] لم يأخذهم بالعذاب ورسول

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٣٦١) قال : « قيل : كانوا جاءوا شفعاء فى أسارى بنى عنبر فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم وفادى على النصف . ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء » .

الله عاقبهم على قدر أعمالهم حتى لا يكون غضبه لنفسه .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أيضاً نداء خاص بالذين آمنوا ، وهو النداء الثالث بعد ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات] وبعد ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الحجرات] وهنا ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات]

ونلاحظ أن النسق القرآنى لم يجمع بين هذه الأمور الثلاثة فى نداء واحد ، ولم يستخدم أدوات العطف إنما خصَّ كل أمر منها بنداء خاص لمزيد التأكيد والاهتمام .

---

(١) قال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٢) : « نزلت هذه الآية فى الوليد ابن عقبة بن أبى معيط ، بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية ، فلما سمع القوم تلقوه تعظيماً لله تعالى ولرسوله ، فحدَّثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال : إن بنى المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلى فغضب رسول الله وهمَّ أن يغزوهم ، فبلغ القوم رجوعه ، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا : سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدى إليه ما قِبَلنا من حق الله تعالى ، فبدا له فى الرجوع ، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله هذه الآية .

ففى وصية سيدنا لقمان لابنه قال : ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

وقال : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان]

إذن : خصّ مسألة العقيدة بنداء خاص لأهميتها ، وجمع عمل الجوارح فى نداء واحد لأنها على مستوى واحد من الأهمية فى الدين .

إذن : نفهم من تكرار النداء بيأيها الذين آمنوا أنه يعطى أهمية خاصة لكل نداء . ومعنى ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات] الفاسق وصْف مأخوذ من قولنا فسقت الرطبة . يعنى : خرجت عن قشرتها ، وخروج الرطبة عن قشرتها يُعرِّضها للحشرات وللآفات الضارة .

كذلك المؤمن يُغلفه الإيمان ويحميه أنْ تصيبه آفات النفوس ، فإذا فسق يعنى : خرج عن حدود الإيمان وشذَّ عنه أصابته الأمراض المهلكة ، لذلك قالوا عن الفاسق هو مرتكب كبيرة أو مجهول الحال .

فإذا جاءك النبأ أى الخبر من مثل هذا من فاسق فلا تُسلم له بما قال ، إنما ﴿ فَتَبَيَّنُوا .. ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات] يعنى : تثبَّتوا من صحة هذا الخبر ومن صدَّقه .

قف حتى تتبين وجه الحقيقة فيما سمعتَ حتى يكون حكمك على

الأمور واقعياً ، ولا تأخذك العجلة والحمية فتقع فى محظور ﴿ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات]

الحق سبحانه يأمرنا بالتثبت هنا لأن الإنسان ابن أغيار كثير التقلب ، فربما اتصف بالصدق ، لكن كذب هذه المرة أو اتصف بالكذب ، لكن صدق هذه المرة ، فالتثبت احتياط واجب ، حتى يأتى الحكم والتصرف بعد ذلك موضوعياً ولا نقع فى دائرة الظلم والتعدى على الآخرين .

تبيَّن من خبر الفاسق لعله يكون من الأشياء التى عصى الله فيها ، لأن العصيان عنده سهلٌ ، فلو صدَّقته ربما تصيب قوماً لا ذنبَ لهم .

﴿ بِجَهَالَةٍ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات] وأنت تجهل حقيقة الأمر ، وعندها يصبح المصاب صاحبَ حق وأنت مُعتد فتندم على تعدِّيك وتجاوزك للصواب ، تندم لأنك جعلتَ مَنْ أسأته صاحبَ حَقٍّ عليك .

وفرْق بين مَنْ يفعل الذنب بجهالة ومَنْ يفعله متعمداً ، وبحسب موقف النفس البشرية من المعصية يكون قبول التوبة ، وأذكر ونحن فى فرنسا أن واحداً من الزملاء رُشِّح لأنْ يكون مبعوثاً إلى فرنسا ، هذا ذاهب إلى هناك لقصد العلم فقط وليس فى باله أى أغراض أخرى ، وهناك سكن على طريقة الغرباء فى أحد البيوت مع إحدى الأسر .

وفى ليلة دخلت عليه بنت هؤلاء الذين يسكن معهم ، ربما قد يكون ارتكب معصية معها فى هذا الموقف لكنه وقع فيه عن جهالة

ودون أن يخطط له .

على خلاف شخص آخر حينما يذهب إلى هذه البلاد يذهب وفى باله هذه المسائل ، وربما اتصل بمَنْ يعطيه عناوين أهل المعصية .

لذلك يُحدد الحق سبحانه شروط التوبة المقبولة ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء]

والندم على المعصية أول مراحل التوبة ، لكن الأمر بالتثبُّت من خبر الفاسق ، أهو وعظ ابتداءً أم له سَبَبٌ نزل القرآنُ من أجله ؟ قالوا : بل له سببٌ وهو حادثة الوليد[1] بن عقبة بن أبى معيط لما ولاَّه رسولُ الله جبايةَ أموال الزكاة من بنى المصطلق .

فلما ذهب إليهم خرجوا جميعاً لمقابلته والاحتفاء به حين علموا أنه رسول رسول الله ، لكنه خاف من جمعهم على هذه الصورة ، وخشى أنْ ينالوه بشرٍّ خاصة وقد كان له دية قديمة عندهم من أيام الجاهلية .

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبى معيط أبو وهب الأموى القرشى : والٍ من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم ، فيه ظُرف ومجون ولهو ، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه ، أسلم يوم فتح مكة ، بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص (سنة ٢٥ هجرية) فانصرف إليها وأقام إلى سنة ٢٩ . اعتزل الفتنة بين على ومعاوية ، ولكنه رثى عثمان وحرض معاوية للأخذ بثأره ، مات بالرقة عام ٦١ هجرية / ٦٨٠ ميلادية . [الأعلام للزركلى ٨/١٢٢] .

ففرَّ عائداً إلى رسول الله وقال : يا رسول الله منعونى الزكاة ، فرسولُ الله تثبَّت من الأمر وسألهم فقالوا : بل خرجنا فرحاً به يا رسول الله ، ولو صدَّق رسولُ الله هذا الخبر لاعتبرهم مرتدين ، وربما كان حدث ما لا تُحمد عقباه .

ورُوى أن سيدنا رسول الله بلغه أن السيدة مارية أم إبراهيم لها ابنُ عم يزورها ويدخل عندها ، فأغضبه ذلك وقال لعلى : خُذْ هذا السيف واذهب إليه فإنْ وجدته فاقتله . فقال : يا رسول الله أنا فى أمرك أأقتله ؟ أم يرى الشاهد ما لا يرى الغائب ؟ انظر هنا إلى احتياط على رضى الله عنه .

فلما ذهب وجده عند مارية فهمَّ بسيفه ليقتله ، لكن الرجل أسرع إلى نخلة فصعد عليها بحيث لا يناله سيفُ على ، ثم ألقى بنفسه على الأرض وفتح بين ساقيه حتى بانت لعلى أماكن عورته فرآه على أمسحاً . يعنى : ليس له ما للرجال فكفَّ عنه .

وذهب إلى رسول الله وأخبره الخبر فقال : صدقتَ يا على ، يرى الشاهد ما لا يراه الغائب . ونفهم من هذه القصة أن الذى أخبر بها رسولَ الله فاسقٌ أراد الوقيعة والتشهير بأم إبراهيم[1] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٦٩٢٢) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد باب الغيرة (٢/٢٢٥) وعزاه للبزار وقال : فيه ابن إسحاق وهو مدلس ولكنه ثقة ، وبقية رجاله ثقات ، وقد أخرجه الضياء فى أحاديثه المختارة على الصحيح . وقد حكم الألبانى على حديث على بن أبى طالب فقال : سنده جيد (السلسلة الصحيحة ١٩٠٤) وأصله صحيح .

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ[١] وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ⑦﴾

الكلام هنا له علاقة بما حدث من مخالفة المسلمين لرأى رسول الله فى الحديبية ، فالحق سبحانه يقول لهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ .. ⑦﴾ [الحجرات] كأنه يقول لهم احترموا وجوده بينكم فهو رسول الله ولا يخفى عليه شىء لأنه مُؤيَّد من الله ، والله يخبره بالواقع ، فليس علمه بالأمور كعلمكم .

وكلمة ﴿فِيكُمْ .. ⑦﴾ [الحجرات] تدل على الظرفية كما تقول : الماء فى الكوب ، أو المال فى الخزانة ، ومعلوم أن المظروف أغلى وأنفَسُ من المظروف فيه ، وأنتم ظرف لرسول الله ومنهج رسول الله ؛ لذلك قرأوا[٢] : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفَسِكُمْ.. ⑫⑧﴾ [التوبة] بفتح الفاء .

---

(١) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشق عليه . قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ .. ②②⓪﴾ [البقرة] أى : كلفكم الأمور الشاقة التى توقعكم فى العنت . [القاموس القويم ٢/ ٣٩] .

(٢) قرأها بالفتح : ابن عباس وأبو العالية والضحاك وابن محيصن ومحبوب عن أبى عمرو نقله ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير آية ١٢٨ من سورة التوبة . ثم قال فى المفتوحة ثلاثة أقوال . أحدها : أفضلكم خلقاً . والثانى : أشرفكم نسباً . والثالث : أكثركم طاعة لله عز وجل .

إذن : وجود رسول الله بينكم ميزة لكم وعصمة وحماية لأنه موصول بربه ، وهذه المسألة كان يعلمها كفار مكة وصناديدهم ، لكنهم غلبهم العناد والمكابرة وحجبتهم عن الإيمان .

لذلك اجتمع فى يوم من الأيام كلٌّ من أبى سفيان والحارث بن هشام وثابت بن قيس ، وكان بلال يؤذن للصلاة . فقال ثابت : لقد رضى الله عن أبى حيث قبضه قبل أن يرى هذا المنظر ، يعنى : أن بلالاً الحبشى الأسود هو الذى يؤذِّن لرسول الله ، وقال الحارث : أما رأى رسول الله غير هذا الغراب الأسود يُؤذِّن ، وقال أبو سفيان : والله أحب أنْ أقول يعنى مثل قولكما ، لكنى أخشى أنْ يخبر اللهُ رسوله بما أقول[١] .

إذن : كان هؤلاء القوم يعلمون صدق رسول الله ، لكن منعهم اللدد والعناد والكبر عن قبول الحق .

أيضاً تعلمون أن سيدنا رسول الله قد زوَّج ابنتيه رقية وأم كلثوم لولدين من أولاد أبى لهب ، وكان هذا قبل البعثة ، فلما اشتدت العداوة بين أبى لهب ورسول الله أجبر أبو لهب ولديه على تطليقهما .

وفى يوم قابل أحد هذين الولدين رسول الله فى الطريق ونظر إليه ثم تفل وتنبه رسول الله لما فعل ، فدعا عليه وقال : يأكلك كلب

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره من قول ابن عباس ، ومثله عن مقاتل فى تفسير البغوى (٧/ ٣٤٧) وابن الجوزى فى زاد المسير (٥/ ٤٠٥) والخازن فى تفسيره (٥/ ٤٦٧) .

من كلاب الله[1] وبلغت هذه الدعوة أبا لهب فخاف على ولده ، وعندما خرج مع القافلة التجارية إلى الشام جمع رجالها وقال لهم : إذا عرَّسْتم - يعنى آويتم للمبيت - فاجعلوا ولدى فلاناً بينكم ، فإننى أخشى عليه دعوة محمد .

إذن : كان يعلم أن محمداً على الحق ، وأن دعوته مُستجابة ، وبالفعل جعلوه بينهم لما ناموا ، وسلط الله عليه أسداً حقيقياً اختطفه من بينهم .

فصدْق رسول الله كان معلوماً لهؤلاء ، وكانت ألسنتهم تغلبهم وتنطق بهذا التصديق ، من ذلك قولهم : ﴿**لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ** .. ⑦﴾ [المنافقون] وأخبر الحق عنهم بقوله : ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** .. ⑭﴾ [النمل]

وقوله تعالى : ﴿**لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** .. ⑦﴾ [الحجرات] ومن ذلك ما حدث منكم فى الحديبية ، فلو أطاعكم فى عدم الصلح ﴿**لَعَنِتُّمْ** .. ⑦﴾ [الحجرات] أصابكم العنت والمشقة والإثم .

(١) وذلك أنه لما أنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾ [المسد] قال أبو لهب لابنيه عتبة وعتيبة : رأسى ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ، وطلق عتيبة أم كلثوم وجاء النبى ﷺ حين فارق أم كلثوم فقال : كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه فقال ﷺ : أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه . دلائل النبوة للبيهقى (٢/٣٣٨ ، ٣٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٤/٣٩) .

ومثلها قوله تعالى : ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** .. ⑫⑧﴾ [التوبة] يعزّ عليه أنْ يراكم فى مشقة ، لأنه بكم رؤوف رحيم ، فإنْ رآكم على المعصية استغفر لكم ، وإنْ رآكم على الطاعة حمد الله ، هذا حتى بعد أنْ يموت .

﴿**وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** .. ⑦﴾ [الحجرات] لكن هنا استدراك لما سبق ، يعنى أن رسول الله لم يطعكم فيما ذهبتم إليه من التصميم على دخول مكة وأداء العمرة ، ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه فى قلوبكم ، فعُدْتم إلى رأى رسول الله ولم تقضُوا أمراً خلاف أمره ورضيتم به .

وهذا نتيجة هداية الله لكم ، وتحبيبه الإيمانَ وتزيينه فى قلوبكم ، فلولا ذلك لخرجتم عن أمره وهلكتُم بعصيانكم له ، وفى نفس الوقت ﴿**وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** .. ⑦﴾ [الحجرات] وهذا من أعظم نعَم الله عليكم .

﴿**أُوْلَٰئِكَ** .. ⑦﴾ [الحجرات] أى : الذين اتصفوا بهذه الصفات فأحبُّوا الإيمان وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك ﴿**هُمُ الرَّاشِدُونَ** ⑦﴾ [الحجرات] جمع راشد ، وهو الذى التزم طريقَ الحق والهداية فلم يَحِدْ عنه ، ومن ذلك قولنا : ترشيد النفقات وترشيد الاستهلاك ، يعنى أنْ نضعه فى موضعه المناسب .

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑧﴾

الفضل يعنى الزيادة ، والمراد هنا أن الله تعالى عاملهم بمزيد من نعمه وكرمه .

قالوا لأحد الصالحين : احكم بيننا ، فقال : بالعدل أم بما هو أحسن من العدل ؟ قالوا : وهل هناك أحسن من العدل ؟ قال : أحسن من العدل الفضل ، العدل أنْ تأخذ حقك ، والفضل أنْ تتنازل عنه تفضلاً .

كذلك نِعَم الله علينا من باب الفضل ، لأن التكليف الذى كلَّفنا الحق به يعود علينا نحن بالمصلحة ولا ينتفع الله منه بشىء ، لأنه سبحانه الغنى عن خَلْقه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه بصفات الكمال فيه خلقنا ، إذن : النعم ليستْ مقابلاً للطاعة ، إنما هى محْضُ فضل من الله .

أما فى مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾ [الزمر] فسمَّى لهم أجراً ليعلموا أن عملهم مقبولٌ ، وسيُجزون عليه الجزاء الأوفى .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾ [الحجرات] عليم وعلمه محيط لا يخفى عليه شىء من أمرك ، والسر عنده علانية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾ [غافر]

إذن : إياك أنْ يخالط عملك نفاقٌ أو رياء أو عجب أو كبرياء .

وقلنا : إن الله تعالى يريد القلوب لا مجرد عمل الجوارح . ثم هو سبحانه ﴿حَكِيمٌ (٨)﴾ [الحجرات] يدبر شئون ملكه بمقتضى حكمته تعالى ، والحكيم هو الذى يضع الشىء فى موضعه المناسب .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ
فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ
إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (٩) ﴾

كلمة ﴿طَائِفَتَانِ .. (٩)﴾ [الحجرات] مثنى طائفة وهى مفرد فى اللفظ ، وإنْ دلَّتْ فى واقعها على الجمع مثل كلمة قوم ، تُجمع طائفة على طوائف . وهذه الآية تقرر حكماً يتعلق بالحرب وضرورة الصلح بين الطائفتين المتحاربتين ، حتى لا تستمر الحروب بين المؤمنين بعضهم البعض .

ونلاحظ هنا أن لفظ ﴿طَائِفَتَانِ .. (٩)﴾ [الحجرات] مثنى . والقياس أن يقول : اقتتلتا لكن القرآن جمعها فقال ﴿اقْتَتَلُوا .. (٩)﴾ [الحجرات] لماذا ؟ قالوا : لأن الطائفة كتنظيم تتمثل فى واحد ، هو رئيس هذه الطائفة ، لكن إذا دار القتال تقابل أفراد الطائفتين ، فالقتال بمجموع الأفراد .

بدليل أنه لما تحدَّث عن الصلح عاد إلى لفظ المثنى ، فقال ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩)﴾ [الحجرات] لأن مجلس الصلح ليس بالضرورة أنْ يحضره جميع أفراد الطائفة ، بل ينوب عنهم شخص واحد يعقد الصلح .

﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى .. (٩)﴾ [الحجرات] أى : بعد أنْ تمَّ الصلح وبغَتْ إحدى الطائفتين على الأخرى . يعنى : تعدَّتْ

وتجاوزتْ الحدَّ فى العدوان ولم تحترم الصلح ﴿**فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى ..** ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] أى : لردعها ﴿**حَتَّىٰ تَفِىءَ ..** ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] ترجع ﴿**إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ..** ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] أى : إلى الحق .

وهكذا أصبح لدينا ثلاث طوائف ، طائفتان اقتتلتا ، وطائفة تحكم بينهما بالصلح ، ذلك لأن المجتمع المؤمن فى مجموعه مؤتمنٌ على هذه المهمة ، مهمة الحكم بين المتخاصمين ، ولديه ما يؤهله للعدل وعدم الميل أو اتباع الأهواء فى عملية الصلح ، وإذا لم تتوافر هذه الشروط فى الحكم لا يتم الصلح ، بل تتفاقم الأمور وتزيد تعقيداً .

ويكفى أن صاحب الهوى والميل فى الحكومة بين الطرفين يسقط من نظر الجميع ، حتى الفئة التى حكم لصالحها زوراً تمقته ، لذلك قالوا عن شاهد الزور : ترتفع الرؤوس على الخصم بشهادته ، وتدوس الأقدام على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿**فَإِن فَاءَتْ ..** ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] أى : بعد القتال وعادتْ إلى الصواب ، فعودوا أنتم إلى الصلح ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ..** ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] والمعنى : لا تتركوا الفئة التى فاءتْ إلى الحق دون أنْ تُصلحوا بينهما ، صحيح هى عادتْ إلى الحق لكن ما زال الخلاف قائماً فلابدَّ من الصلح حتى لا تفرخ حرباً أخرى وتبقى جذور الخلاف تتأجج فى الصدور فتشعل المعارك من جديد .

إذن : منعنا المعركة أولاً ، ورددنا المظالم إلى أهلها ، ونزعنا فتيل الحرب .

وكلمة ﴿**وَأَقْسِطُوا ..** ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] من أقسط يُقسط فهو مُقْسِط أى : اعدلوا بينهما ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] العادلين ، وهناك قسَط يقسِط فهو قاسط أى : جائر . ومنه قوله تعالى : ﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا** ﴿١٥﴾﴾ [الجن] فالهمزة فى أقسط همزة إزالة . أى : أزال الجور والظلم .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

وهذه المسألة لها سبب ، ففى حنين اختلفوا على شىء وتفاقم بينهم هذا الخلاف ، حتى صار معركة خاصة بين سفهاء القوم منهم واستعملوا فيها الأسلحة الخفيفة مثل العصىِّ وسعف النخيل والشماريخ ، وقبل أنْ تتحول إلى حرب حقيقية بلغ الأمر رسول الله ﷺ فقال لهم : « أصلحوا بين أخويكم »[(١)] .

ذلك لأن المؤمنينَ إخوة فى النسب من آدم عليه السلام ، وإخوة فى الإيمان ، وإخوة النسب أسبق وتبعها إخوة الإيمان ، وهذا يعنى أن

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قلت يا نبى الله لو أتيت عبد الله بن أبىّ فانطلق إليه النبى ﷺ فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة ، فلما أتاه النبى ﷺ قال : إليك عنى ، فو الله لقد آذانى نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار : لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ..﴿٩﴾﴾ [الحجرات] أخرجه الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٣) وعزاه للبخارى ومسلم كلاهما من طريق المعتمر بن سليمان .

للكافر حقَّ أخوَّة النسب ، وإنْ لم يكُنْ له حق فى أخوة الإيمان .

لذلك نقول فى إخوة النسب إخوة ، وفى الإيمان نقول ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر] لذلك تكتمل الأخوة فى إخوة الإيمان .

ويُروى أن معاوية دخل عليه حاجبه . فقال : يا أمير المؤمنين بالباب رجل يستأذن فى الدخول ، ويدَّعى أنه أخوك ، فضحك معاوية وقال : خدمتنى كذا وكذا ولا تعرف إخوتى ؟ قال : هكذا قال لى ، قال : أدخله ، فلما دخل سأله معاوية : أى إخوتى أنت ؟ فقال : أخوك من آدم ، فضحك معاوية وقال : رحم مقطوعة ، والله لأكونَنَّ أولَ مَنْ وصلها . وقضى له حاجته[1] .

ولفظ الإخوة هنا يُقرِّب النفوس ، ويُزيل ما بين الناس من طبقية أو عصبية ، لذلك نجد الأسلوب القرآنى حتى فى مسألة القصاص فى القتلى يقول : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ .. ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة]

يريد أنْ يُذكره أنه أخوه رغم ما بينهما من عداوة وشحناء ، فالله يُرقِّق القلوب حرْصاً على سلامة المجتمع المسلم ، ولمنزلة الأخوة فى العلاقات الإنسانية قالوا فى الحِكَم : رُبَّ أخ لك لم تلده أمك .

حتى أن البعض يرى أن الإنسان حينما يتعثر فى الطريق فيصيبه

---

(١) ذكره اليوسى فى (المحاضرات فى الأدب واللغة) أن معاوية جاءه إنسان فقال له : أسألك بالرحم التى بينى وبينك إلا ما رفدتنى (أى أعطيتنى) فقال : أنت من عبد مناف ؟ قال : لا . قال : أنت من قريش ؟ قال : لا . قال : أنت من العرب ؟ قال : لا . قال : أى رحم بينى وبينك ؟ قال : رحم آدم ، فقال : رحم مجفوة لأكونن أول من وصلها فأعطاه . وكذا الأبشيهى فى كتاب (المستطرف فى كل فن مستظرف) .

مكروه يقول : أخ . كأنه يستنجد بأخيه ، أى أخ له قريب منه يمكن أنْ يُسعفه .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات] أى : اتقوا الله فى عملية الإصلاح بين الطرفين .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات] ترحمون من ماذا ؟ تُرحمون من استمرار العداوات بين المؤمنين ، وهذا يعنى ضرورة إنهاء الخلافات قبل أن تستفحل وتتمادى ، وفى استفحالها ضرر يصيب الجميع ، يصيب الطرفين المتنازعين أولاً ، ثم يتعدَّى إليكم ، حيث ترى كل طائفة أنكم تنحازون للأخرى . إذن : من مصلحة المجتمع كله إنهاء العداوات وحقن الدماء بين المؤمنين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

نلاحظ هنا أن القرآن وجَّه النهى إلى القوم مرة ، وإلى النساء مرة ، وخَصَّ كُلاًّ منهما بنهى ، ذلك لأن كلمة قوم لا تُقال إلا للرجال ، لأنهم هم الذين يقومون على شئون الأسرة ، أما المرأة فليس لها قيامٌ إلا على بيتها ، يقول الشاعر :

وَمَا أَدْرِى وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِى   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

إذن : القوم تُقال للنساء وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ .. (٣٤) ﴾ [النساء] البعض يفهم من كلمة ﴿ قَوَّامُونَ ﴾ أنها للقهر وللضرب ، أبداً ، بل الرجال قوَّامون على النساء . يعنى : يقومون على رعايتهن وتدبير أمورهن .

لذلك نقول للمرأة (ست بيت) فكأن الرجل هو الخادم الراعى لها ، ونحن نقول : فلان قائم بهذا الأمر . يعنى : يتولى العمل الشاقَّ فيه .

تذكرون فى قصة سيدنا آدم لما أسكنه اللهُ الجنةَ هو وزوجه ، وحدثتْ من آدم المخالفة لأمر الله ، قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) ﴾ [طه] هذا خطاب لآدم وحواء .

والقاعدة أن يقول (فتشقيا) بالتثنية ، لكن قال ﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ أى : آدم وحده ، لأن مهمة الكدح والشقاء وتحمُّل مسئولية الأسرة للرجل فقط ، أما المرأة فهى للبيت ولها دور فيه ودور هام يملأ كلَّ لحظة فى حياتها ، لكن ماذا نفعل وهُنَّ يُردْنَ أنْ يشقيْنَ مع الرجال ؟

والنهى عن السخرية فى هذه الآية له سببٌ فى الرجال ، وله سببٌ فى النساء : فيُروى أن ثابت بن قيس[(١)] دخل على مجلس رسول الله ﷺ فوجد الصفَّ الأول قد اكتمل ، وأراد أنْ يجلس فى

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى الأنصارى ، صحابى ، كان خطيب رسول الله ﷺ وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد . وفى الحديث : نعم الرجل ثابت . ودخل عليه النبى ﷺ وهو عليل ، فقال : أذهب الباس رب الناس عن ثابت بن قيس . قتل يوم اليمامة شهيداً فى خلافة أبى بكر عام ١٢ هجرية /٦٣٣ ميلادية . [الأعلام للزركلى ٢/٩٨] .

الصف الأول لأنه كان ثقيل السمع ، فجاء إلى رجل من ضعفاء القوم وقال له : تزحزح فلم يتزحزح ، فقال له : منْ أنت ؟ قال : فلان ، قال : ابن فلانة ؟ وكانت لها سيرة سيئة بين الناس ، وسمعه رسول الله ﷺ فقال : من قال ابن فلانة ؟ قال : أنا يا رسول الله ، فقال : انظر فى مجلسنا فنظر فيه ، فقال له : ماذا رأيتَ ؟ قال : رأيت الأسود والأبيض والأحمر . قال : أفضلكم عند الله أتقاكم[(١)] .

ثم لم ينس الرجل الذى قيل له تفسح فلم يتفسح ، ونزل فى حقِّه قوله تعالى : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ .. (١١) ﴾ [المجادلة]

ويُروَى أن السيدة أم سلمة كانت قصيرة ، وفى مرة أصابها وجع فى رجلها فربطتها بقطعة من القماش ، وكان فيها بقية تتدلَّى على الأرض تجرُّها خلفها ، فرأتها على هذا الحال السيدة عائشة والسيدة حفصة . فقالت إحداهن للأخرى : تمشى ولها ذيل كذيل الكلب . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية[(٢)] .

لذلك يقول الحق سبحانه فى يوم القيامة : « جعلت نسباً ،

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره للآية : « نزلت فى ثابت بن قيس وقوله فى الرجل الذى لم يتفسح له : ابن فلانة ، فقال النبى ﷺ : من الذاكر فلانة ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله . فقال النبى ﷺ : انظر فى وجوه القوم . فنظر فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر . فقال : فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى . فنزلت فى ثابت هذه الآية . وذكره البغوى فى تفسيره (٧/٣٤٣) وفيه : أن ثابتاً قال : من هذا ؟ قال : أنا فلان . فقال ثابت : بن فلانة . وذكر أماً كان يُعير بها فى الجاهلية .

(٢) قاله الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٤) قال : نزلت فى امرأتين من أزواج النبى ﷺ سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت حقويها بسبنية وهى ثوب أبيض ، وسدلت طرفها خلفها فكانت تجره ، فقالت عائشة لحفصة : انظرى ما تجر خلفها كأنها لسان الكلب . فهذا كان سخريتها .

وجعلتم نسباً ، فجعلتُ أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيْتم وقُلْتم : أكرمنا فلان ابن فلان ، فاليوم - أى يوم القيامة - أرفع نسبى وأضَعُ أنسابكم »[1] .

ودخل رجل أعرج على أحدهم ، فراح ينظر إليه نظرة سخرية لعرجته ، ففهم الأعرجُ قصده ، فقال له : أتعيب الصَّنعة أم تعيب الصانع ؟ فأفحمه حتى ندم على سُوء أدبه معه ، وقال : والله لوددتُ عندها أنْ أكون أنا مثله وهو مثلى .

والحق سبحانه وتعالى حينما ينهانا عن السخرية ، إنما يريد المساواة بين جميع خَلْقه ، فالخَلْق جميعاً خَلْقه وصنعته وعبيده ، وليس فيهم من هو ابن الله ، ولا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، فلِمَ إذن يسخر بعضنا من بعض ؟

إياك والسخرية من الناس مهما كانوا أقلّ منك ، عليك إنْ رأيت عيباً فى دين أو خُلق أنْ تُقوِّمه وتُصلح من شأنه ما استطعت .

وإذا كان العيبُ فى الخَلْق ، وفيما لا دخْلَ للمخلوق فيه فتأدَّبْ مع الخالق ، ووالله لو علمتم ما جعله الله للمؤوف[2] - يعنى : مَنْ به آفة -

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٦٨٤ ، ٣٦٨٥) والطبرانى فى المعجم الصغير (٦٤٣) ونحوه للبيهقى فى شعب الإيمان (٤٩٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه ورفعتم أنسابكم ، فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم ، أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال الحاكم : « هذا حديث عال غريب الإسناد والمتن ولم يخرجاه » .

(٢) الآفة : العاهة . ويقال : آفة العلم النسيان . وطعام مؤوف : أصابته آفة . وقد إيف الزرع أى أصابته آفة . وآف القوم : دخلت عليهم آفة . وآفت البلاد تؤوف : صارت فيها آفة . [لسان العرب - مادة : أوف] .

لتمنيتم جميعاً أنْ تكونوا مؤوفين ، فإن الله تعالى ليس له ولد ، بل وزَّع أسبابَ فضله على عباده ، فإنْ أخذ من واحد منهم شيئاً فقد عوَّضه خيراً منه .

والسخرية والاستهزاء لا يكونان إلا من إنسان عَلا فى شىء أمام إنسان نقص فى هذا الشىء كأن يسخر الغنىُّ من الفقير ، أو القوى من الضعيف ، أو سليم التكوين من المعاق .. وهذا السلوك نتيجة الغفلة عن ميزان التفاضل بين الخلق جميعاً ، ألا وهو التقوى .

وقلنا : إنك لو نظرتَ فى الوجود كله لوجدتَ فيه قضية عادلة ، هى أن كل إنسان منَّا ، مجموع نعم الله عليه تساوى مجموع أىِّ إنسان آخر ، لأن الخالق سبحانه وزَّع فضله على عباده لكن هذا أخذ ١٠٠٪ فى العقل وهذا أخذ ١٠٠٪ فى الصحة لكن المجموع فى النهاية متساوٍ .

ذلك لأن الله تعالى لا يريد نسخاً مكررة من البشر ، إنما يريدنا متفاوتين فى المواهب لتستقيم بنا حركة الحياة وتتكامل ويرتبط البشر ببعض ارتباط حاجة ، لذلك قلنا إن الباشا قد يحتاج إلى عامل المجارى .

فقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (١٦٥) ﴾ [الأنعام] يعنى كل منا مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر . تعلمون أن بتهوفن الموسيقى الشهير كان أصم لا يسمع ، وأن تيمور لنك الذى دوَّخ الدنيا بالفتوحات كان أعرج .

هذا يعنى أنك لا تسخر من أحد ، ولا تحتقر أحداً لأنك رأيته أقلَّ منك فى شىء ما ، فكلنا سواسية فى ميزان الحق سبحانه ، وكأنه سبحانه يريد أنْ يعطينا درساً فى أنه سبحانه ليس له ولد وليس له صاحبة .

لذلك كانت الجن أفضل فهماً منا حين قالت : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[١] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾ [الجن] فكلنا عيال الله ، بل تبلغ هذه المساواة إلى أن رسول الله يأمرنا بأنْ نسوِّىَ بينَ أولادنا ولو فى القُبلة .

وسيدنا رسول الله ﷺ يُعلِّمنا كيف نتصرف إذا ما حدث بيننا شىء من التهكم أو السخرية ، وكيف نقابله ونردّ عليه . فيُروى فى سبب نزول هذه الآية أن السيدة صفية بنت حُيى بن أخطب ، وكان زعيم بنى المصطلق ، ولما غزاهم رسول الله كانت السيدة صفية فى الأسرى فأراد ﷺ أنْ يُكرمها لأنها بنت ملكهم فتزوجها فغارت منها نساء النبى ، والغيرة كما يقولون (فقاقيع) الحب .

وكانت عائشة أكثر زوجات الرسول غيرةً عليه ، فقالت لصفية : يا يهودية بنت يهوديين ، فذهبت صفية باكية إلى رسول الله وحكتْ له ما كان من عائشة ، فضحك رسول الله لأنه يعلم غيرة عائشة عليه .

لذلك لم يُؤنِّب عائشة ، إنما أرضى صفية وطيَّب خاطرها وقال لها : إنْ قالت لك هذا فقُولى لها : ولكن أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد[٢] .

(١) الجد : العظمة والمجد . قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾ [الجن] أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسير الآية عن ابن عباس أن صفية بنت حيى بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن النساء يعيرننى ويقلن لى : يا يهودية بنت يهوديين . فقال رسول الله ﷺ : هلا قلت إن أبى هارون ، وإن عمى موسى وإن زوجى محمد ، فأنزل الله هذه الآية . وكذا تفسير البحر المحيط (١٠/١١١) وابن الجوزى فى (زاد المسير ٥/٤٠١) .

انظر كيف عالج سيدنا رسول الله هذا الموقف ، وكيف أعلى من شأن صفية ، فهى سليلة الرسل والأنبياء وزوجة نبى ، نعم رد يفحم ولا يخطر على بال أحد ، ولم لا وقد أُوتى ﷺ جوامع الكلم[١] .

ومثل هذا الموقف أيضاً حدث من السيدة عائشة للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، حيث كانت تغار من السيدة خديجة ، ومن ثناء رسول الله عليها فى كل موقف ، حتى قالت له : ماذا يعجبك فى عجوز شمطاء[٢] حمراء الشدقين[٣] ، قد أبدلك الله خيراً منها ؟ كيف ردَّ رسول الله ؟ قال لها : لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، فقد آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله عز وجل ولدها إذ حرمنى أولاد النساء »[٤] .

وبعد ذلك لما قابلت فاطمة قالت لها : لا يغرنَّك ثناء رسول الله على أمك ، فقد تزوجها ثيِّباً وتزوجنى بكْراً ، فلما اشتكتْ لرسول الله

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٤٩٦) عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بُعثت بجوامع الكلم » وكذا مسلم فى صحيحه (٨١٢ ، ٨١٤) والترمذى فى سننه (١٤٧٤) ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) الشمط فى الشعر : اختلافه بلونين من سواد وبياض . والشمط فى الرجل : شيب اللحية . والشمطات : الشعرات البيض فى شعر الرأس . [لسان العرب – مادة : شمط] .

(٣) الشدق : جانب الفم . قال ابن سيده : الشِّدقان طفطفة الفم من باطن الخدين ، والأشدق : العريض الشدق الواسعه المائله . [لسان العرب – مادة : شدق] .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٧١٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٥٥٦) من حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء قالت : فغرت يوماً فقلت : ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله عز وجل بها خيراً منها » .

قولَ عائشة قال لها : إذا قالت لك هذا فقولى لها : ولكن أمى تزوجت رسول الله بكْراً وأنت تزوجته ثيباً[1] .

والبعض يقول : كيف يحدث كل هذا فى بيت رسول الله ؟ نقول : نفهم من هذه الغيرة إلى جانب أنها علامة الحب لسيدنا رسول الله ، إلا أنها أيضاً تعنى أن عائشة التى تزوجها رسول الله وهى بنت التاسعة ، ومع ذلك كانت تغار على كِبره ، وهذا يعنى أنه ﷺ غير مزهود فيه .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ .. ⦗١١⦘﴾ [الحجرات] هنا نَهْى عن صفة أخرى مذمومة لا تليق بأهل الإيمان ، هى صفة اللمز وهو أنْ تعيب الآخرين ، وتأمل دقة الأداء القرآنى فى قوله : ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ .. ⦗١١⦘﴾ [الحجرات] والإنسان لا يلمز نفسه إنما يلمز غيره ، لكنه أنزل الآخرين منزلة الإنسان نفسه ، ثم إنك حين تلمز الناس تُجرّئهم على أنْ يلمزوك ، على حدِّ قول الشاعر :

لسانُكَ لاَ تَذْكُر بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وللنَّاسِ ألْسُنُ

وَعَيْنُكَ إنْ أبدَتْ إليْكَ مَسَاوِئاً ... فَصُنْهَا وَقُلْ يَا عَيْنُ للنَّاسِ أعيُنُ

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. ⦗٦١⦘﴾ [النور] لأنك حين تُسلِّم على الناس يردون عليك السلام فكأنك سلَّمتَ على نفسك .

---

(١) أشار إليه الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) فى تفسيره لآية ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ⦗٥⦘﴾ [التحريم] .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ .. ⦗١١⦘﴾ [الحجرات] نهى آخر عن التنابز بالألقاب . أى : لا يدع أحدكم أخاه بلقب يكرهه ، والتنابز من نبز الشىء يعنى : أبعده وتركه ، كذلك حين تنادى شخصاً بلقب يكرهه ، فكأنك تبعده عنك وتُوسع الفجوة بينك وبينه .

والأسماء عندنا فى اللغة اسم ولقب وكُنية : الاسم هو ما يُطلق على المسمى فيصير علَماً مثل محمد . واللقب هو ما يُشعِر بمدح أو ذم مثل الصِّديق ، أو أن نسمى أحد الضعفاء مثلاً (سليمان بطة) ، أما الكُنْية فهى ما صُدِّرتْ بأب أو أم . مثل أبى بكر ، أم المؤمنين .

إذن : لا يجوز أنْ ننادى شخصاً مثلاً بلفظ مكروه وهو لا يحبه ولا يحب أن يُنادى به ، من ذلك ما ذكرناه من قول عائشة لصفية : يا يهودية . والتنابز بالألقاب يزرع الأحقاد والضغائن ، ويهيج الغرائز والغضب عليك ، ولم لا تناديه بأحب الأسماء إليه لتعطفه إليك .

حتى أن الفقهاء قالوا : إذا أذنب الرجل ذنباً ثم تاب منه إياك أنْ تُذكِّره به أو تُعيِّره به ، لأن ذلك يُعدُّ قذفاً له ، إلى جانب أنك تعين عليه الشيطان ، كمن تاب عن الخمر ونقول له (يا خمورجى) ، أو تاب عن القمار ونقول له (يا قمرتى) وهكذا .

لذلك قال بعدها : ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ .. ⦗١١⦘﴾ [الحجرات] يعنى : بئس ما تقول لأخيك حينما تُذكِّره بماض يريد أنْ ينساه ، وقبيح بك أنْ تُعيِّره بعد أنْ تاب ، كما أنه قبيحٌ بك الفسوق بعد الإيمان .

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات] يعنى : عن التنابز بالألقاب ﴿ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات] نعم ظالمون لأنفسهم بعدم اتباع المنهج فى هذا النهى ، وظالمون لغيرهم حين ينادونهم بهذه الألقاب المكروهة ، فمن حقِّ الذى تاب ألاَّ تذكره بعيبه ، وألاَّ تُعيِّره به .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه يأمرنا أنْ نجتنب كثيراً من الظن ، والظن هو الخاطر يخطر بالبال . وهو نوعان : ظن حسن ، وظن سىء ، الظن الحسن لا شىء فيه ولا إثمَ عليه ، بل هو من مطلوبات الشرع كما سنرى ، والمنهى عنه هنا هو ظن السَّوء الذى يؤدى إلى فساد فى العلاقات ويترتب عليه عقوبة .

لذلك علّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نجتنب ظن السَّوْء ، فلما كان ﷺ معتكفاً وجاءته السيدة صفية تطلب منه شيئاً فخرج إليها وكانت محتجبة ، ورآهما أبو بكر وعمر فانصرفا مخافة أنْ يراهما رسول الله وهو فى هذه الحالة لكنه ناداهما وقال : على رسلكما يعنى : قِفَا إنها صفية ، وعلما ما أراد رسولُ الله ، فقالا له : لا يكون هذا معك يا رسول الله ، فقال : « إن الشيطان يجرى من ابن

آدم مجرى الدم » (١) .

إذن : فسيدنا رسول الله يُعلِّمنا أنْ نغلق باب ظن السَّوء ، ونقطع أسبابه ونربأ بأنفسنا أنْ نضعها فى هذا الموضع .

وفى قصة الإفك فى سورة النور يُعلِّمنا الحق سبحانه ويحثّنا على أنْ نظن بالمؤمنين خيراً ، وأن نبتعد عن ظن السَّوْء فيهم ، فيقول سبحانه عن حديثهم فى شأن السيدة عائشة : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَـذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور]

والظن الحسن هو أن تحتاط للأمر ، ولا تجعل له أثراً سيئاً فى نفسك ، فمثلاً إنْ جاءك رجل وقال لك : إن فى هذا الطريق جماعة يتربَّصون بك ويريدون بك شرّاً ، كان عليك أنْ تأخذ بالأحوط لك وأنْ تصدقه وتحذر ما حذَّرك منه ، لأن الغالب أنه يريد لك السلامة لا يريد لك الإيذاء .

أما إنْ كان الظنُّ يترتب عليه حكم شرعى ، فقد وجب عليك أنْ تتحقق من صحته .

وتأمل دقة الأداء القرآنى واحتياطه فى قوله تعالى : ﴿ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات] يعنى : أن أكثر الظن ظن سىء يجب اجتنابه ، والقليل ظنٌّ حسن لا مانع منه ، لذلك قال بعدها : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات] لا كله ، فاحذر أنْ تقع فى الإثم

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨٩٧ ، ١٨٩٨ ، ٣٠٣٩ ، ٦٦٣٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٤٠ ، ٤٠٤١) من حديث صفية بنت حُيى بن أخطب أم المؤمنين .

حين تظنّ بالمؤمنين السوء دون بينة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا .. (١٢) ﴾ [الحجرات] لا تتبعوا عورات الناس ولا تبحثوا عن خصوصياتهم ، وفى الحديث : « مَنْ تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه فى عقر داره »[١] .

ونذكر هنا لطيفة من لطائف أسماء الله الحسنى تلاحظ أن كثيراً من أسمائه تعالى لها مقابل كما فى المحيى المميت ، المعز المذل القابض الباسط .

لكن الستار ألها مقابل فنقول الفضاح ؟ تعالى الله سبحانه عن هذه الصفة لأن ستره مسدولٌ على عباده مهما حدث منهم لا يفضحهم ، والستار صيغة مبالغة من ستر ساتر .

لذلك ورد فى بعض الأحاديث قوله تعالى : أبغض العاصى ولكنى أكره مَنْ يتتبعه ، لماذا ؟ لأن تتبع العورات والسقطات يُشيع الفاحشة فى المجتمع .

فالحق سبحانه يحمى مجتمع الإيمان من هذا ، ويكفى أن المستتر

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٢٠٢٥١) من حديث أبان وغيره أن النبى ﷺ قام بعد صلاة العصر فرفع صوته حتى أسمع العواتق فى خدورهن ، قال : يا معشر من أعطى الإسلام بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تؤذوا المؤمنين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى بيته . وفى مسند أبى يعلى الموصلى (٧٢٥٧) من حديث أبى برزة الأسلمى . وليس فى الحديث لفظة (عقر داره) بل هى (جوف بيته) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١٢٨١) عن ابن عباس ، والبيهقى فى شُعَب الإيمان (٩٣٣١ ، ١٠٧٤٨) عن البراء بن عازب .

بالمعصية ما يزال عنده حياء الإيمان .

والنبى ﷺ يقول : « إذا بُليتم – أى بشىء من المعاصى – فاستتروا »[١] .

وهذا كمن لا يقدر على الصوم مثلاً وعنده عذر ويُباح له الفطر ، لكن مع ذلك لا يجوز له أنْ يجاهر بفطره أمام الناس ، حتى لا يكون قدوة سيئة للشباب الذين لا يدركون هذه الأعذار .

فحين يرونه يفطر تتربَّى عندهم خميرة ذهنية أنه يجوز لهم الفطر فى رمضان ، إذن : عليه أنْ يستر فطره حتى لا تَحدث هذه الأسوة .

ولخطورة التجسس، قال الفقهاء[٢] : لو أن رجلاً يعيش فى عشة من البوص والعيدان ، وجاء آخر فنظر إليه من خلال الثقوب ، فجاء صاحب العشة بعود ففقأ عينه لا يكون لعينه مقابل ولا تعويض ، لأنه اقتحم على الأول منزله ، ونظر إليه دون إذنه .

ومثل هذا فى سنة رسول الله[٣] حيث بلغه أن رجلاً ينظر إليه من ثقب الباب .

---

(١) ذكره الإمام مالك فى موطئه (١٢٩٩) بلفظ « من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله فإنه من يبدى لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله » وكذا البيهقى فى السنن الصغرى (٢٧٤٧) .

(٢) مستند هذا من حديث رسول الله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لو اطلع أحد فى بيتك ولم تأذن له فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح » . أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٦١٠٩) .

(٣) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل كشف ستراً فأدخل بصره من قبل أن يؤذن له فقد أتى حداً لا يحل له أن يأتيه ، ولو أن رجلاً فقأ عينه لهدرت ، ولو أن رجلاً مر على باب لا ستر له فرأى عورة أهله فلا خطيئة عليه . إنما الخطيئة على أهل بيته » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٥٩١) .

ويُروى أن سيدنا عمر كان يتفقَّد أحوال رعيته ، ويقوم بالعسِّ[١] ليلاً ، وقد بلغه أن رجلاً يشرب الخمر مع أصحابه فى بيته ، فتسوَّر عليه داره فوجده مع رجل من أصحابه جالسين ، وليس فى المجلس خمر ولا شىء من هذا .

فلما رآه الرجل قال : لقد ظننت بى كذا وكذا ، لكن فاتك من أمور الدين ما هو أهم من ذلك . أولاً : دخلت البيت من السور ، والله يقول : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] ثانياً : دخلت علىَّ بيتى بدون استئذان ، فانصرف عمر ولم يقل شيئاً[٢] .

وفرْق بين التجسس (بالجيم) والتحسس (بالحاء) التحسس تتبُّع وبحث عن الغير ، لكن بدون قصد العورات ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوسف] أى : ابحثوا عنه حتى تصلوا إليه ، كما يفعل رجال المباحث مثلاً .

وقوله : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا .. (١٢) ﴾ [الحجرات] هنا نَهى عن الغيبة عموماً ، لأن القرآن لم يحدد مَنْ يغتاب ومَنْ يغتاب فيه .

(١) العس : الطواف بالليل . ومنه حديث عمر رضى الله عنه أنه كان يعس بالمدينة أى يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والعاسّ : الطوَّاف الحارس . جمعه عسس . [اللسان - مادة : عسس] .

(٢) أورده العسكرى فى الأوائل (١/٤٣) أن عمر كان يعس فى المدينة فسمع صوت رجل يغنى فى بيت فدخل عليه من وراء البيت فوجد عنده امرأة وخمراً ، فقال : ما هذا يا عدو الله ؟ قال : لا تعجل يا أمير المؤمنين إن كنت عصيتُ الله فى واحدة فقد عصيتَه فى ثلاث . قال الله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست . وقال ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ وقد تسورتَ ، وقال : ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلِّموا على أنفسكم ﴾ وقد دخلتَ من غير سلام . قال عمر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، لله علىّ إن عفوتَ عنى ألا أعود . فعفا عنه .

ولما سُئلَ رسول الله ﷺ عن الغيبة قال : ذكْرك أخاك بما يكره وهو غائب . فقال السائل : فإن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإنْ لم يكُنْ فيه ما تقول فقد بهته[١] ، أى : افتريتَ عليه وكذبتَ .

ثم يعطينا القرآن صورة حسِّية للغيبة ، فيقول : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ .. (١٢) ﴾ [الحجرات] تأمل كم فى هذه الصورة من منفرات تبين فظاعة هذا العمل ، فالذى يغتاب أخاه فى غيبته كالذى يأكل لحمه وهو ميت . أى : غائب عن الحياة ولا يقدر أنْ يدافع عن نفسه .

إذن : شبَّهه بصورة شنيعة تنفر منها النفس السوية .

وقالوا : إن سبب نزول هذه الآية أنها نزلتْ فى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط حينما بعثه رسول الله لجمع أموال الزكاة من بنى المصطلق ، وكان عليه لهم دية فى الجاهلية ، فلما رأوْه خرجوا لمقابلته ، فخاف منهم الثأر وعاد إلى رسول الله ، وقال : إنهم امتنعوا عن دفع الزكاة .

ورُوى أن أسامة بن زيد كان القائم على مؤنة الطعام فى بيت رسول الله ، فأراد رجلان أنْ يذهبا لكى يَطْعما فى بيت رسول الله ، فبعثوا سلمان الفارسى ليسأل أسامة الطعام ، فلما سأله قال : ليس عندنا طعام ، فعاد إليهما سلمان وقال : يقول أسامة : ليس عندنا طعام ، قالا : بل عنده لكنه بخل به ، ثم قالا لسلمان : أنت وجه وجه شؤم ، ولو ذهبت إلى بئر سميحاً يعنى : فواراً - لغاب ماؤه .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٦٩٠) وأبو داود فى سننه (٤٢٣١) والترمذى فى سننه (١٨٥٧) ، وأحمد فى مسنده (٦٨٤٩ ، ٨٦٢٥ ، ٨٦٤٨ ، ٩٥٢٢) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهكذا اغتابوا كلاً من أسامة وسلمان ، فلما رآهما رسول الله قال : إنى لأشمُّ من أفواهكم ريح لحم نتن ، قالوا : يا رسول الله والله ما أكلنا لحماً ، قال : لقد اغتبتما أسامة وسلمان ، اذهبا فارضوهما[(١)] لأنك إذا لم تُرض المغتاب فستكون عند الله أقبح من الزانى .

لذلك لما اغتاب رجل ابن سيرين[(٢)] فجاءه وقال له : يا إمام أحل نفسى منك ، فقال : لم ؟ قال : لأنِّى اغتبتك ، فقال : أنا لا أُحل ما حرم الله .

والحسن البصرى علم أن رجلاً اغتابه ، فأرسل إليه خادمه بطبق من الرُّطَب ، وقال له : قل له هذا هدية لك من سيدى ، لأنه علم أنك أهديتَ إليه حسناتك بالأمس[(٣)] .

هذا يدل على أنك تدفع حقَّ مَن اغتبته من حسناتك ، فَإنْ لم تكن لك حسنات أُخِذَ من سيئاته فطُرِح عليك ، وقد دلّ على ذلك الحديث

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى أن سلمان الفارسى كان مع رجلين فى سفر يخدمهما وينال من طعامهما ، وأن سلمان نام يوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا : ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجىء إلى طعام معدود وخباء مضروب . فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهم إداماً فانطلق فأتاه فقال : يا رسول الله بعثنى أصحابى لتؤدمهم إن كان عندك ، قال : ما يصنع أصحابك بالأدم قد ائتدموا ؟ فرجع سلمان فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ﷺ فقال : والذى بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا . قال : إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما فنزلت ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا .. (١٢) ﴾ [الحجرات] . نقله السيوطى فى الدر المنثور (تفسير آية ١٢ الحجرات) .

(٢) هو : محمد بن سيرين البصرى الأنصارى بالولاء ، أبو بكر ، إمام وقته فى علوم الدين بالبصرة ، تابعى ، من أشراف الكتَّاب ، مولده ووفاته بالبصرة (٣٣ هـ - ١١١ هـ) ، نشأ بزازاً (تاجر قماش) فى أذنه صمم ، اشتهر بالورع وتفسير الأحلام . [الأعلام للزركلى ٦/١٥٤] .

(٣) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) (٢/٣٤٧) أن رجلا قال للحسن البصرى : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

النبوى الشريف[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الحجرات] اتقوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، وتجنَّبوا أسباب عقابه ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الحجرات] أى : كثير التوبة على مَنْ تاب ، كثير الرحمة لمن أناب .

وهذا الختام يعطى العاصى الأمل فى رحمة الله ، ولا ييئس المغتابين من رحمته تعالى ، فمَنْ زلَّ لسانه بالغيبة فليبادر بالتوبة ، وإذا علم أن ربه تواب رحيم عاد من قريب ولا يستمرئ هذه الفعلة ولا يتمادى فيها .

وسبق أنْ أوضحنا أن من أعظم نعم الله علينا أنْ شرع لنا التوبة ، وفتح لنا بابَ القبول ، وإلا تمادى العاصون وفسدَت الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه[(٢)] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾

---

(١) ورد هذا فى أى مظلمة منك لأخيك المسلم ، فعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة فى نفس أو مال فأتاه ، فاستحله قبل يوم القيامة ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم إنما هى الحسنات ، قيل : يا رسول الله فإنْ لم يكن له حسنات ؟ قال : أخذ من سيئاته ، فوضع على سيئاته » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٥٣١٦) .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى ثابت بن قيس : وقوله فى الرجل الذى لم يفسح له ابن فلانة ، فقال رسول الله ﷺ : من الذاكر فلانة ؟ فقام ثابت فقال : أنا يا رسول الله فقال : انظر فى وجوه القوم ، فنظر فقال : ما رأيت يا ثابت ؟ فقال : رأيت أبيض وأحمر وأسود ، قال : فإنك لا تفضلهم إلا فى الدين والتقوى . فأنزل الله تعالى هذه الآية . أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٤) .

تلاحظ أن النداءات السابقة كانت بيأيها الذين آمنوا ، لأنها توجيهات وتشريعات خاصة بالذين آمنوا ، لأن الله تعالى لا يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

أما النداء هنا فنداء عام للناس جميعاً يلفت أنظارنا إلى آية الخَلْق ، وإلى عظمة الخالق سبحانه ، وهذه الآية تشمل الجميع ، فالخالق سبحانه خلق المؤمن والكافر ، والذكر والأنثى ، هما أصل هذا الخَلْق ، فالذكر وحده لا يتناسل ، وكذلك الأنثى وحدها .

أما قوله تعالى فى سورة السجدة : ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨)** ﴾ [السجدة] فهذا خاص بالخلق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، حيث خلقه الله وصوَّره بيديه ، وكل شىء فى الكون مقدور بقول : كُنْ فيكون .

لذلك قال تعالى لإبليس : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥)** ﴾ [ص] يعنى : كيف لا تسجد لشىء أنا خلقته بيدى ، إذن : أنت لا تسجد لآدم إنما تسجد طاعة لمن أمرك بالسجود .

وبعد أن خلق آدم من طين جعل ذريته من بعده ﴿ **مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨)** ﴾ [السجدة] وهذا يقتضى الزوجية بين الذكر والأنثى .

وفى سورة النساء قال سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (١)** ﴾ [النساء] أى آدم عليه السلام ﴿ **وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١)** ﴾ [النساء] يعنى : حواء . إذن : حينما يقول سبحانه : ﴿ **مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى .. (١٣)** ﴾ [الحجرات] لا يعنى بداية الخلق ، إنما النسل الذى جاء بعد الخلق الأول .

لذلك قال فى آخر آية النساء : ﴿ **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١)** ﴾ [النساء] وهؤلاء الرجال والنساء تفرقوا فى أنحاء الأرض وصاروا ﴿ **شُعُوباً وَقَبَائِلَ .. (١٣)** ﴾ [الحجرات] فالعرب شعب ، والروم شعب ، والفرس شعب ، ثم انقسمتْ الشعوب إلى قبائل ، والقبائل إلى بطون ، والبطون إلى أفخاذ وهكذا .

وفى داخل الأسرة الواحدة تختلف الأسماء ، لأننا لا نترك الأشخاص بدون أسماء ليتم التعارف ، فهذا محمد وهذا أحمد وهذه فاطمة .. والحكمة من ذلك هى ﴿ **لِتَعَارَفُوا .. (١٣)** ﴾ [الحجرات] على مستوى الأفراد وعلى مستوى الشعوب .

والتعارف أمر ضرورى بين البشر ، لأن مصالحهم فى أنْ يتعارفوا ، وسوف تضطرهم ظروف الحياة لهذا التعارف ، حيث سيحتاج بعضهم إلى بعض ، لأنه كما قلنا : الحق سبحانه وزَّع أسباب فضله على خَلْقه ، فما توفر لك قد لا يتوفر لغيرك .

لذلك رأينا مثلاً أوربا التى بلغت من الحضارة والتقدم مبلغاً تحتاج إلى سكان الصحراء رعاة الغنم والإبل حيث البترول وثروات الجبال من المعادن والأحجار الكريمة .

وهذا الاختلاف فى الفضائل يؤدى إلى أنْ يتعاون الخَلْق ويتساندوا ، بحيث يكمل بعضهم نقص بعض . إذن : اختلاف يؤدى إلى التكامل لا إلى التعاند .

وهذا التكامل شاهدناه فى آية خَلْق الرجل والمرأة ، فالرجل والمرأة ليسا ضدين ، بل هما عنصران متكاملان ، لأن لكل منهما مهمة لا يؤديها الآخر .

والحق سبحانه أوضح لنا هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل] فهل يقول عاقل أن الليل ضد النهار ؟

ومثل الليل والنهار الذكر والأنثى ، لذلك أقسم بعدها بخلقهما ، فقال : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) ﴾ [الليل] فالرجل لتحمُّل مشاقّ الحياة ، للكدح وللعمل ، والمرأة حنان وعاطفة ، وكل مُيسَّر لما خُلِق له[1] .

لذلك نعجب ممن ينادى بالمساواة بين الرجل والمرأة ، كيف ولكلٍّ منهما مهمته التى خُلق لها . والبعض يظلم النساء ويقول : ناقصات عقل ودين[2] ، لأن العقل مهمته الترتيب والاختيار بين البدائل ، وهذه ليست مهمة المرأة بل مهمة الرجل الذى يدير دفة الأسرة فى رحلة الحياة .

أما المرأة فمهمتها عاطفية ، تحنو على الصغير والكبير ، وتفتح

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٩٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧٨٩) من حديث عمران بن حصين قال : قيل يا رسول الله أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار ؟ فقال ﷺ : نعم . قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : « كل ميسّر لما خُلِق له » . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٤٠٨٦) .

(٢) حديث صحيح . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٣ ، ١٣٦٩) من حديث أبى سعيد الخدرى ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١١٤) من حديث عبد الله بن عمر . وعند الترمذى فى سننه (٢٥٣٨) من حديث أبى هريرة ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . ونصه : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن . قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال :" أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل . قُلْن . بلى : قال : فذلك من نقصان عقلها . أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تَصُم ؟ قلن : بلى : قال : فذلك من نقصان دينها » .

صدرها لتستوعب ، وتريح المتعب والمريض فى أسرتها ، ومع ذلك نراها إذا ترملت قامتْ بالمهمتين وحلَّتْ محلّ الزوج ، وربما كانت أكثر نجاحاً فى تربية الأولاد وصيانتهم .

الحق سبحانه وتعالى خلق آدم من طين ، وسوّاه ونفخ فيه من روحه ، لكن لم يخلق حواء بنفس الطريقة ، إنما أخذ من ضلع آدم جزءاً وخلق منه حواء ، لماذا إذن لم يخلقها كخَلْق آدم ؟ قالوا : خلقها من الرجل لتكون له القوامة عليها .

كذلك فى مسألة الحمل تأخذ منه البذرة ، ثم تكمل هى عملية النسل ، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١) ﴾ [النساء]

وقال الرسول ﷺ : « خُلقت المرأة من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه »[1] وكما شرف آدم بأن الله خلقه وسوّاه بيده ، كذلك شَرُفَتْ حواء أنها خُلقت من شىء خلقه الله بيده .

والعالم الآن مشغول بعملية الاستنساخ ، وهو يعنى أنْ نأخذ من الأصل نسخة مطابقة له ، كما نقول نسخ الكتاب . يعنى : أنْ نأتى منه بصورة أخرى مثله ، وهذه العملية نراها فى الجماد مثلاً ، نرى الزلط منه الكبير والصغير والمتوسط ، فهل رأينا (زلطة) مثلاً تكبر عن حجمها أبداً ، لماذا ؟

قالوا : لأن له مطامر تحت الأرض ، تتم فيها عملية التكاثر أو

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٨٤ ، ٤٧٨٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٧٠ ، ٢٦٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وتمامه « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » .

الاستنساخ هذه ، فإذا خرج إلى الهواء جَمُد على ما هو عليه .

كذلك نجده فى النبات ، فهل رأيتم مثلاً تقاوى القصب أو التين البرشومى ؟ أبداً ليس له تقاوى ، إنما نأخذ عقلة من عود القصب ونزرعها فتخرج عود القصب ، ونأخذ لوحاً من ألواح التين ونزرعه فيعطينا شجرة تين ، أليس هذا استنساخاً ؟

كذلك بالإمكان أنْ نجده فى الحيوان ، وبالفعل تحدَّثوا عن استنساخ تم بالفعل فى الحيوان ، كما حدث فى النعجة دوللى (١) . وهى محاولة على أية حال .

أما فى الإنسان فهى عملية لا يقدر أحدٌ عليها ، لأن الإنسانَ مختلف عن باقى أجناس الكون ، لأنه خليفة الله فى الأرض ، وهو المخلوق المكرَّم وباقى الأجناس فى خدمته ، فلو تصوَّرنا الاستنساخ فى الجماد والنبات والحيوان فلا نتصوَّره أبداً فى الإنسان ، لأن التكاثر فيه له شروط وضوابط لا مجرد استخراج نسخ مكررة منه .

لذلك لا يتم التكاثر فى الإنسان إلا من خلال اللقاء بين الزوجين الذكر والأنثى ، وداخل أسرة تحتضن الطفل وتحبه وتربيه وتعتنى به ، لا يليق بالإنسان أنْ يخرج من مفرخة مثل مفرخة الكتاكيت مثلاً .

لذلك نرى أن طفولة الإنسان هى أطول طفولة فى المخلوقات كلها ، وعندنا من الأطفال مَنْ تبلغ طفولته حتى سنِّ ١٤ سنة ، أما الطيور

(١) تعتبر النعجة دوللى أول حيوان ثديى يتم استنساخه من خلال استخدام الحمض النووى لنواة خلية من نعجة ناضجة وعرضت على الجمهور عام ١٩٩٧ قام باستنساخها البروفسور إيان ويلموت ، وماتت عام ٢٠٠٣ .

والحيوانات فتعتنى بصغارها حتى تستطيع الحركة والأكل ثم تتركها وكأنها لا تعرفها ، وربما ذُبح الحيوان أمام أمه وهى لا تدرى به .

فكيف إذن نتصور الاستنساخ فى الإنسان وهو الخليفة المكرّم ، إن الأديان كلها ترفض الزنا وتأبى أنْ يأتى الولد بطريق غير شرعى ، تأبى أنْ يُرمى المولود فى الشارع ، أو حتى يُربى فى الملاجئ ، فكيف الحال إذا تَمَّ استنساخه ؟

من هنا نقول : إن عملية الاستنساخ لا تكون أبداً فى الإنسان ، ولا يقدر عليها إلا الله خالق الإنسان ، ويريد له الصلاح ، يريد له أنْ يأتى فى أحضان أب يرعاه وأم تحنو عليه يأخذ منهما الفضائل ، ويتعلم منهما القيم .

ثم إن نجاحهم فى استنساخ الحيوان لا يعنى أبداً الطعن فى القدرة الإلهية ، بل هو دليل جديد من أدلة الإيمان بالقدرة ، فالذى استنسخ النعجة لم يأت بها من العدم ، إنما جاء بها من نعجة أخرى هى خَلْق من خَلْق الله ، والعقل الذى فكّر خَلْق من خَلْق الله .

ثم يضع الحق سبحانه القاعدة التى بها تتفاضل هذه الشعوب وهذه القبائل ، فيقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣) ﴾ [الحجرات] أى : أن أشخاص الشعوب تتميز بالتقوى .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يقول الرب : جعلتُ لكم نسباً وجعلتم لأنفسكم نسباً ، قلت : إن أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتم ، وقلتم : فلان بن فلان . فاليوم - يعنى : يوم القيامة - أرفع نسبى

وأضع أنسابكم »[1] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات] عليم بخلْقه ، يعطى كلاً منهم ما يناسب مهمته ودوره فى حركة الحياة ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فالله أعلم بخلْقه وأعلم بقدراتهم ومقدارهم ، ويسَّر كلاً منهم للعمل الذى يناسبه ، لذلك نراهم طبقات فيهم أستاذ الجامعة ، وفيهم الحداد والسباك والنجار وماسح الأحذية فيهم الصانع والزارع ، وإلا كيف تستقيم حركة الحياة لو أن الناس جميعاً دكاترة جامعة ؟

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ[2] آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم[3] مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٦٨٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وكذا الطبرانى فى المعجم الكبير (١٦٤) والمعجم الصغير (٦٤٣) « يقول الله يوم القيامة : يأيها الناس إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً ، فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان أكرم من فلان بن فلان ، وإنى اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ » .

(٢) سبب نزول الآية : نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فى سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السر وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة وجعلوا يمنُّون عليه . فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . أورده النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٥) .

(٣) لاته يلتيه حقه : نقصه ولم يؤده كاملاً . قال تعالى : ﴿ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

الأعراب : اسم جنس ليس له مفرد ، والأعراب هم سكان البادية لم يذهبوا إلى الحضر ، لذلك نجدهم على طبيعتهم تغلب عليهم الجفوة . والحق سبحانه يخبر عنهم أنهم قالوا ﴿ آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] والله سبحانه أعلم أنهم لم يصلوا إلى درجة الإيمان ؛ لأن الإيمان ليس كلمة تُقال بل عقيدة راسخة تعمر القلب .

أما الإسلام فهو الشكل الظاهرى وعمل الجوارح من صوم وصلاة وغيرها من العبادات ، لذلك صحّح لهم القول ، وقال : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

يعنى : تنفذون فقط أوامر الإسلام بعمل الجوارح ، إنما قلوبكم ليس فيها إيمان ، وساعة يقول لهم ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُوا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] فهذا دليل على أنه صادف شيئاً فى نفوسهم ، وهو سبحانه لا تخفى عليه من عباده خافية ، وهم يعلمون هذه الحقيقة .

إذن : أخبرهم بواقع فى نفوسهم ، يقول لهم : كونوا صادقين مع أنفسكم وقولوا أسلمنا والله يعلم غيبَ قلوبكم ، فهم فى هذا الموقف أشبه بالمنافقين حيث كانوا يحرصون على الصلاة فى الصف الأول ، يُنصتون لسماع القرآن ، وهذه كلها ظواهر والله يعلم سرائرهم ، ويعلم أنها خلاف ما يُظهرون .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات] لما أداة نفى مثل (لم) ، تنفى وقوع الحدث فى الزمن الماضى على التكلم ، لكنها تعطى معنى آخر هو احتمال حدوث الفعل بعد ذلك ، كما تقول مثلاً حينما تدخل البستان : البستان لمَّا يثمر بعد . أى : أنه سوف يُثمر فيما بعد .

لذلك العلماء قالوا فى هذه الآية : أنها لم تُغلق فى وجوههم باب الإيمان ، وبشَّرت بأنهم سيؤمنون فيما بعد ، ثم إن كشف القرآن لمستور قلوبهم وإخبار الرسول لهم بذلك هو الذى جعلهم يفكرون فى الأمر ويقتنعون ويدخلون ساحةَ الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿ **وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا** .. (١٤) ﴾ [الحجرات] الحق سبحانه يُطمئنهم على ثمرة أعمالهم الصالحة ، فهى محفوظة لن تضيع بل لن تنقص .

ومعنى ﴿ **لا يَلِتْكُم** .. (١٤) ﴾ [الحجرات] لا ينقصكم من الفعل : ألت يألت .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٤) ﴾ [الحجرات] وفى موضع آخر يقول : ﴿ **وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** (٢) ﴾ [سبأ] فمرة يُقدم الرحمة ، ومرة يقدم المغفرة ، وذلك بحسب الحال .

فمثلاً حينما يقف الجانى أمام السلطان مُقراً بذنبه ، لكن يلاحظ السلطان أنه رقيق الحال ، رثُّ الثياب ، مُصفر اللون فيشفق عليه ، ثم يأمر له بطعام وكسوة . وبعد ذلك يعفو عنه .

هنا قدَّم الرحمة على المغفرة ، أو العكس يعفو عنه أولاً ، ثم قبل أنْ ينصرف من مجلسه يقول لرجاله : أعطوه كذا وكذا .

وهذه المادة (ألت) وردتْ فى موضع آخر فى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** .. (٢١) ﴾ [الطور] فالكلام هنا عن جماعة مؤمنين ، وذريتهم تابعة لهم ، كذلك فى الإيمان فهم مشتركون فيه ، فما ضرورة الإلحاق هنا ؟

قالوا : ألحقناهم بهم فى الثواب ، لأن لكل منهما عملاً ، لكن عمل الآباء أكثر ودرجتهم أعلى ، فكرامة لهم نلحق بهم الأبناء ونجعلهم جميعاً فى منزلة واحدة ، فألحق الأدنى بالأعلى .

وقوله : ﴿ **وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** .. (١٤) ﴾ [الحجرات] فى ماذا ؟ تُطيعونه فى الإيمان ؛ لأنهم كانوا بالفعل مسلمين ، فأراد أنْ يحثهم على الإيمان ويُبعدهم عن الكذب والادعاء .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

الحق سبحانه يريد أنْ يوضح لهم معنى الإيمان ، وأنه ليس كلمة تُقال ، إنما عقيدة راسخة لا يداخلها شكّ ولا ارتياب ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** .. (١٥) ﴾ [الحجرات] آمنوا بالله وبوحدانيته ، وأنه سبحانه وحده الخالق الرازق المدبر لشئون هذا الكون ، آمنوا بأسماء الله وصفاته ، كذلك آمنوا برسول الله ، وأنه أمين صادق فى البلاغ عن الله ، ثم لم يرتابوا ولم يشكّوا فى شىء من هذا .

ومن صفات المؤمنين أيضاً ﴿ **وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** .. (١٥) ﴾ [الحجرات] وهل هناك أدلّ على صدق الإيمان والإخلاص فيه من أنك تجود بنفسك فى سبيل هذا الإيمان ؟

لذلك قال ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ** .. (١٥) ﴾ [الحجرات] أى : المؤمنون حقّ الإيمان ، هذه صفاتهم ، ثم فى آخر الآية يصفهم بالصدق فى إيمانهم .

﴿أُوْلَـئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ [الحجرات] نعم صادقون فى إيمانهم ، لأنهم ضحُّوا بأغلى وأعزّ ما يملك الإنسان بالمال ثم بالنفس ، والشهيد ما ضحى بنفسه وما قدَّم ماله إلا وهو على يقين من أنه سيجد عند الله أفضل مما ترك فى الدنيا .

لذلك يجزيه ربه بالحياة الباقية ، فلا يدركه موت بعد ذلك ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران]

أى : يعاملون معاملة أهل الجنة ، فيأكلون ويشربون ويتمتعون ، ولاحظ أن هذه الحياة وصفها الحق سبحانه بقوله : ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران] لا عندك أنت .

وهذا يعنى أنك لو فتحتَ على شهيد قبره لن تجده حياً ، لأنه ليس حياً عندك ، إنما هو حىٌّ عند الله .

وفى قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ [الحجرات] تعريض بهؤلاء الذين كذبوا على الله وادَّعوا الإيمان ، كأنه يقول لهم : لقد آمن أولئك وصَدقوا فى إيمانهم ، أما أنتم فكذَّبتم وتجاوزتم الحقيقة .

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٦)﴾

يعنى : تنبهوا إلى هذه الحقيقة ، فأنا خالقكم وأعلم بكم من أنفسكم ولا يَخْفى علىَّ منكم خافية ، فإياكم أنْ تقولوا آمنا وتظنون أنكم تدارون الحقيقة وتسترون كذبكم ، فأنا أعلم المؤمن من غير

المؤمن ، أعلم الصادق وأعلم المنافق .

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. (١٦)﴾ [الحجرات] أى : تخبرونه بما أنتم عليه من الإيمان ، كيف ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١٦)﴾ [الحجرات] أى : لا يخفى عليه شىء فيهما ، بل ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦)﴾ [الحجرات] يعنى : علمه تعالى لا يتوقف عند السموات والأرض ، إنما يتعدَّى ذلك .

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦)﴾ [الحجرات] لأن السموات والأرض بعض كوْن الله الفسيح ، لذلك وصفهما أى السموات والأرض وما بينهما ، فقال : مثل حلقة ألقيتها فى فلاة[1] ، فما نعرفه نحن من السموات والأرض لا يكاد يُذكر فى كوْن الله .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (١٧)﴾

---

(١) عن أبى ذر الغفارى قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه فقلت : يا رسول الله أى آية نزلت عليك أفضل ؟ قال : آية الكرسى ، ما السماوات السبع فى الكرسى إلا كحلقة فى أرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة » . أخرجه الإمام ابن بطة فى الإبانة الكبرى (٢٥٤٤) وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٦٢) وفيه طول .

(٢) سبب نزول الآية : ذكر ابن كثير فى هذا نحو ما ذكره النيسابورى فى سبب نزول آية رقم (١٤) عن ابن عباس . ولكن فيه أن رسول الله ﷺ قال : إن فقههم لقليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم . فنزلت هذه الآية ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾ [الحجرات] .

يُروى أن هذه الآية نزلت فى جماعة من الأعراب ، وقيل : من بنى أسد أتوا النبى ﷺ وهو فى المسجد ، فقالوا : جئناك نشهد أنْ لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ولم تبعث إلينا بعثاً ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان .

فأنزل الله : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [الحجرات]

إذن : مَنْ يمنُّ على مَنْ ؟ أنتم لا ينبغى أنْ تمنُّوا بإسلامكم على رسول الله ، لأن إسلامكم فى صالحكم يعود عليكم بالنفع ، فالإسلام هو الذى أمَّنكم من القتال والحرب والأسْر ، وأخذتم ما يتميز به المسلم من حَقٍّ فى الزكاة والحماية ، والله تعالى لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

إذن : لا تمنُّوا بإسلامكم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ .. (١٧) ﴾ [الحجرات] لأنه أرشدكم إلى طريق الصواب والهداية ﴿ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ .. (١٧) ﴾ [الحجرات] إذن : إنْ كان هناك منة ، فالمنّة منّ الله عليكم ، لأن طاعة الله والسير على منهجه هو الذى يحمى لكم حركة الحياة ويُنظمها حتى لا تتعارض مصالحكم .

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [الحجرات] أى : فى ادعائكم الإيمان ، وإنْ تفيد الشك فكأنهم يمنُّون بشىء هم كاذبون فيه ، وحتى لو كانوا صادقين ما كان لهم أنْ يمنُّوا به .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾

سبق أنْ أوضحنا أن السموات والأرض ظرف ، وفى هذا الظرف عجائب وبدائع من خَلْق الله أعظم من الظرف ، لأن القاعدة أن المظروف أعلى وأعظم من المظروف فيه .

لذلك الحق سبحانه يقول : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨٩) ﴾ [آل عمران] وفى موضع آخر : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٣١) ﴾ [النجم] فالسموات والأرض رغم ما فيهما من عجائب الخلْق وإبداع وهندسة كونية إلا أنهما يحويان ما هو أعجب .

هنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عما فى السموات والأرض من غيب ، والغيب كل ما غاب عن إدراكك ، والشىء قد يغيب عن إدراكك اليوم ويظهر لك غداً ، فمثلاً الكهرباء قبل اكتشافها كانت غيباً لا ندرى عنه شيئاً ، والآن أصبحتْ مشهداً نحسُّه جميعاً ونتعامل معه .

إنك لو نظرتَ إلى الموجات التى تحمل الصوت والصورة فى الهواء لوجدتَ أمراً عجيباً حقاً ، لأنك لو جئتَ مثلاً بمائة راديو ومائة تليفزيون ، ووضعتها فى مكان واحد ، ووجَّهت كلاً منها إلى جهة لوجدتَ إرسالات مختلفة بالصوت والصورة .

فكيف تداخلتْ هذه الموجات فى هواء واحد ، ووصلتْ إلينا بهذه الدقة وهذا الوضوح ، وهى من أقصى بلاد الدنيا ؟

هذه كلها أسرار من غيب السموات والأرض تدعونا إلى الإيمان بقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ورغم عظمة الخَلْق فى السموات والأرض ، فغيب السموات

والأرض أعظم من الجميع ، وسيظل هـذا الغيب مدداً لا ينفد ، وعطاء لا ينتـهى ، يُطالعنا من حـين لآخـر بشىء جـديد من غـيب الله ليظلّ القرآنُ معجزاً إلى قيام الساعة .

ومن حكمـة الحق سبـحانـه وتعالى أنْ وزَّع عطاءات القـرآن على عصور الزمان كلها حتى لا يستقبل عصرٌ القرآنَ وهو بلا عطاء .

ثم إن هذا العطاء يـأتى على قـدر العـقـول ، وعلى قـدر البـحث والتأمل فى ملكوت الله ، وبذلك نفهم مـعنى قول النبى ﷺ عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه ولا يَخْلَق عن كثرة الردِّ » (١) .

فأنت تقرأ مثلاً أعظم القصائد الشعرية ، ولابدَّ أنْ تسأم منها بعد مرة أو حتى بعد عدة مرات ، لكن تقرأ القرآن فلا تمله ، بل تزداد له حباً كـلما أمعنتَ فى القراءة ، لأنه كـلام الله وله سرٌّ مع كل تَالٍ له ، وله عطاء لكل مُتأمل فيه ، فعطـاءات القرآن متعددة يأخذ منه كل تَالٍ له على قدره .

وختام السـورة بهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ⦗١٨⦘﴾ [الحجرات] يدل على أن مُلْك الله واسع وعجائبه لا تنتهى ، وليس لها حصر ولا عَـد ، ومهما وصلت البشرية من التـقدم فسوف

---

(١) أورده المتـقى الهندى فى كنز العمال (٢٣٥٦) وعـزاه لابن أبى شيبـة ومحمـد بن نصر المروزى وابن الأنبـارى فى كتـاب المصاحف والحـاكم فى مسـتدركه والبـيهـقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعـود ، وتمام الحديث : « إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلمـوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبيـن والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ، لا يعوج فيقوَّم ولا يزيغ فيـستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد » . الحديث بتمامه أخرجه الدارمى فى سننه (٣٣٧٨) .

يبقى عند القرآن الجديد ، وفى آيات الله ما يبهر العقول .

كنا فى الماضى نتحدث عن عصـر الفحم ، ثم عصر البخار ، ثم عصـر الكهرباء ، والآن يتـحدثون عن عـصر الطاقة النوويـة والطاقة الذرية ، فأين كانت هذه الطاقات ؟

كانت غيباً فى علم الله وكشف عنها لعباده حينمـا تقدَّمتْ العقول وارتقتْ الأفكار ، وكلها اكتشـافات لم يأتِ أحدٌ بشـىء من عنده ، كلها من عند الله وفَيْض من عطائه مطمور إلى حين .

سُورَةُ قٓ

سورة ق[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۝١ ﴾

سبق أنْ تحدثنا عن الحروف المقطعة فى أوائل بعض سور القرآن ، وهنا نكتفى بالإشارة إلى أن هذه الحروف المقطعة مثل (ق) تمثل جانبَ الغيب فى القرآن ، والغيب هو محكّ الإيمان كما بيَّنا .

فالفلاح الأمى مثلاً يستخدم التليفزيون ويتنقل بين قنواته دون أنْ يعرف كيف يعمل وكيف ينتقل من قناة إلى أخرى ، فهو يستفيد به دون معرفة بكيفية عمله ، كذلك يستخدم رافعة المياه (الطلمبة) ، وهو لا يعرف (ميكانيكية) عملها .

كذلك نحن مع الحروف المقطعة هذه نؤمن بها وندع معانيها لقائلها سبحانه . والدين ينقسم إلى عناصر ثلاثة : عقائد تعمر القلوب ،

---

(١) سورة (ق) هى السورة رقم (٥٠) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٤٥ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية وهى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨ ﴾ [ق] نزلت سورة (ق) بعد المرسلات وقبل سورة البلد ، فهى السورة رقم (٣٣) فى ترتيب نزول القرآن . [راجع القرطبى ٩/٦٤٠٠ ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

وعبادات وتكاليف هى عمل الجوارح ، ثم الكلام الذى ينقل هذه الأمور كلها وهو مهمة اللسان أى التعبير .

وكل من العقائد والتكاليف والتعبير فيه غيب ومشهد ، فالله غيب ، لكن آثار قدرته فى الكون مشهد ، والصلاة من حيث ترددك على المسجد خمس مرات وما فيها من ركوع وسجود وحركات مشهد ، لكن عدد ركعاتها غيب .

فكأن الحق سبحانه يعطينا الغيب فى هذه الأشياء ليختبر فينا حقيقة الإيمان ، فما علمته دليل على صدق ما لم تعلمه .

كذلك الحال فى حروف القرآن الكريم وآياته ، فآيات القرآن على وجه العموم نفهمها ونعرف معانيها ، لكن الحروف المقطعة هى الغيب الذى يجب علينا أنْ نؤمن به حتى ولو لم نعرف معناه ، وتبقى هذه الحروف دليلَ إعجاز القرآن .

فقوله تعالى : ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾ [ق] جمعتْ بين الاثنين ، الغيب فى (ق) والمشهد فى ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾ [ق] وهما المكوِّنان للقرآن الكريم (ق) دليل الإعجاز ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾ [ق] إذن : أتى بالدليل والمستدل عليه .

و (ق) تحمل معنى القسَم ، وهى حرف واحد كما أقسم الله بالشىء الواحد ، فقال : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] وقال : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ [النجم]

كما يقسم بالحرفين مثل (يس) ، (طه) ، (حم) ، وكذلك

يقسم بشيئين من مخلوقاته مثل : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢)﴾ [الضحى] ويقسم بثلاثة أحرف مثل (الم) ، وبثلاثة أشياء مثل : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣)﴾ [الصافات]

ويقسم بأربعة فى ﴿آلَمَصَ (١)﴾ [الأعراف] وفى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣)﴾ [التين] كما يقسم بخمسة أحرف فى ﴿كٓهيعٓصٓ (١)﴾ [مريم] وفى قوله سبحانه ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ[1] مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ[2] (٦)﴾ [الطور]

إذن : جاء هذا القسم على خمسة أضرب من الواحد إلى خمسة ، ولم يزد على ذلك حتى لا يكون القسمُ ثقيلاً على اللسان ، ولأن أقصى ما يمكن فى الكلمة المجردة خمسة أحرف ، لكن فى القسَم بآياته الكونية زاد على ذلك .

اقرأ : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا[3] (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)﴾ [الشمس]

---

(١) الرق : الجلد الرقيق يُكتب عليه ، وأطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [القاموس القويم ١/٢٧٢] .

(٢) سجره يسجره : ملأه . وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦)﴾ [التكوير] أى : مُلِئت . [القاموس القويم ١/٣٠٣] وقال الربيع بن أنس : هو الماء الذى تحت العرش الذى ينزل الله منه المطر الذى تحيا به الأجساد فى قبورها يوم معادها . وقال الجمهور : هو هذا البحر . [تفسير ابن كثير ٤/٢٤٢٠] .

(٣) طحاه يطحوه : بسطه . قال تعالى : ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦)﴾ [الشمس] أى : بسطها ومهدها للسكنى . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

ولو فعل مثل ذلك فى القسم بالحروف لخرج عن بنية الكلمة فى اللغة .

ونلاحظ أيضاً أن القسم بالحروف المقطعة لم يأتِ إلا فى أوائل السور ، أما القسم بالآيات الكونية فيأتى فى أولها كما رأينا ، ويأتى فى خلالها كما فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) ﴾ [المدثر]

ثم إن القسم بالحروف المقطعة لا يأتى بالواو ، إنما تأتى واو القسم مع الآيات الأخرى التى نفهم معناها ، وهنا يقول : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق] ولم يقل و (ق) لأن الواو حرف ، و (ق) حرف ، فيحدث بينهما لَبْسٌ ، هذه من إعجازات القرآن التى ينبغى أنْ نقف عندها وقفة تأمل .

والتصديق بهذه الغيبيات هو الذى يثبت صدق الإيمان ، وإلا فما الميزة فى أنْ تكون كلُّ آيات القرآن مفهومة معلومة المعنى والمراد ؟ ما الميزة فى أنْ تكونَ كل أمور الدين معلومة لنا خاضعة للقياس العقلى وعليها دليل ؟

وسبق أنْ أوضحنا أن المشهد والإيمان بالمشهد أمر عادى الكل يؤمن به ، المهم أنْ تؤمنَ بما غاب عنك ثقةً منك فيمَنْ أبلغك به .

هَبْ أنك ذهبتَ إلى الطبيب وبعد أنْ فحص حالتك كتب لك الدواء ، بالله هل تناقشه لم كتبتَ كذا ؟ ولم كتبتَ كذا ؟ إنك لا تناقشه لأنك ذهبتَ إليه مختاراً ، ذهبتَ إليه وأنت تثق به ومستعد لأنْ تنفذ تعليماته وتتناول الدواء الذى وصفه لك وأنت لا تعرف شيئاً عنه .

فإذا كنتَ تثق بالطبيب وهو إنسان مثلى ومثلك وعُرْضةٌ للخطأ ، فما بالك بالله ؟ ألاَ تثق فى كلامه ؟

ولأهمية الإيمان بالغيب مدح الله المؤمنين به ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [البقرة] فكما نؤمن بالآيات واضحة المعنى نؤمن بالحروف غير واضحة المعنى ، فهذا قرآن مشهد ، وهذا قرآن غيب ، وكما نؤمن بالآيات الكونية المشاهدة نؤمن بالله خالقها ومبدعها ، وهو سبحانه غيب .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق] القرآن اسم لما نزل من عند الله على قلب سيدنا رسول الله ، ودلّ على صدقه فى البلاغ عنه . وسُمِّى قرآناً ليدل على أنه مقروء ، وسُمِّى الكتاب ليدل على أنه مكتوب ، فهو مُسجَّل فى السطور محفوظ فى الصدور .

وللقرآن مزية خاصة به لم تُعْطَ لكتاب قبله ، هى أن القرآن يحمل المنهج ويحمل المعجزة معاً ، أما الرسالات السابقة عليه فكان المنهج فى الكتاب ، والمعجزة منفصلة عنه .

فسيدنا عيسى مثلاً كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته أنْ يبرىء الأكمه[١] والأبرص ويُحيى الموتى بإذن الله ، وسيدنا موسى كان كتابه ومنهجه فى التوراة ، أما معجزته فكانت فى العصا ، أما سيدنا رسول الله فكانت معجزته هى عين منهجه ، لماذا ؟

لأن رسالته دائمة باقية فى الزمان كله إلى قيام الساعة وباقية فى

(١) الأكمه : الذى يُولد أعمى . أو فقد بصره . [القاموس القويم ٢/١٧٥] والأبرص مَنْ أصابه البرص ، وهو مرض جلدى يحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/٦٤] .

المكان كله ، فلها عمومية الزمان وعمومية المكان ، ونحن الآن نقول : هذا محمد رسول الله وهذه معجزته ، فى حين لا نستطيع أنْ نقول ذلك مع سيدنا موسى مثلاً أو سيدنا عيسى ، لأن معجزاتهما انتهت بانتهاء زمانيهما .

ومعنى ﴿ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق] أى : العظيم صاحب الشرف والمجد والعلو ، ومجيد على وزن فعيل ، وهى من أوزان المبالغة مثل رحيم ، وفعيل تأتى مرة بمعنى فاعل مثل رحيم أى : راحم ، وتأتى بمعنى مفعول مثل قتيل أى : مقتول .

فمعنى ﴿ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق] أى : ماجد فى ذاته وممجَّد فى ذاته فهى تحمل المعنيين ، فهو ماجد وممجد ، لأنه أعلى وأرفع كلام وأغلى الكتب وأشرفها ، فهو فى ذاته مجيد .

ثم لأنه جاء من مجيد أعلى هو الحق سبحانه ، وبلَّغه ملَك مجيد إلى رسول مجيد ، ويبقى بعد ذلك أنه أُنزل على أمة مجيدة .

لكن إذا كانت : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق] قسم فأين جوابه ؟ قالوا : قسم على أن البعث حَقّ . أى : ق والقرآن المجيد لتبعثن ، والأقرب من ذلك أنْ نأخذ الجواب من الكلام بعد القسم ، وهو قوله تعالى :

﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ (٢) ﴾

والعجب لا يكون إلا من شىء غير معتاد ، والنفس لا تهتدى إلى

سببه ، ولا إلى علَّته مثل الساحر نعجب لما يفعل لأننا لا نفهمه ، والحديث هنا عن الكفار المعاصرين لبعثة النبى ﷺ .

وقد أوضح القرآن هذه المسألة وشرحها فى موضع آخر هو قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[١] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

إذن : عجبهم أو اعتراضهم ليس على القرآن ، إنما على محمد ﷺ ، كيف ينزل عليه القرآن وهو من عامة الناس ، ولماذا لم ينزل على أحد عظماء القوم ثم أتوا بشبهة أخرى ، لماذا لم ينزل على ملَك .

وقد ردّ القرآن عليهم وبيَّن لهم هذه الشبهة ، فمحمد ﷺ رسول وقدوة ، والقدوة لا تتم إلا إذا كان الرسولُ من جنس المرسل إليهم ، وإلا كيف نقتدى بملك وله طبيعة غير طبيعتنا ، وقدرة غير قدرتنا .

ولو أمرنا بعمل ما كان من حقنا أنْ نقول له : لا نستطيع أنْ نفعل مثلك ، لأنك ملَك تقدر على ما لا نقدر عليه ، فلا تتم الأُسْوة إذن .

فمن عظمة الرسالة أنْ يكون الرسولُ منكم ، لذلك منَّ الله عليهم بذلك ، فقال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة] أى :

(١) القريتان هما : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود . فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل ، قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

جنسكم بل من قومكم ، ومن أقرب الناس لكم ، وأنتم تعرفون صدقه وأمانته حتى قبل الرسالة ، وشهدتم له بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾ [ق]

يعنى : أن الكافرين هم الذين تعجبوا من اختيار محمد ﷺ للرسالة ، إذن : غير الكافرين لم يتعجبوا من ذلك ، وإذا كان القرآن نزل على مدى ثلاث عشرة سنة ، فمن الناس مَنْ آمن بمحمد وصدَّقه من أول آية نزلتْ عليه . وقال : نزل علىَّ اليوم كذا وكذا .

بل إن سيدنا أبا بكر صدَّق رسول الله وآمن به بمجرد أنْ قال : إنى رسول الله دون أنْ يسأله عن شىء ، لماذا ؟

فماضيه فى قومه يُؤهله لهذه المكانة ، ولم لا يصدقه وهو الصادق الذى ما جُرِّب عليه كذبٌ قط ، والذى لا يكذب على الخَلْق أحرى ألاَّ يكذب على الخالق .

كذلك صدّقه فى خبر الإسراء والمعراج ولم يناقش مثل غيره ، بل قال عن رسول الله : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، لقد أخذها بالعقل ، وبما لديه من مقدمات من سيرة رسول الله .

لذلك كلمة (محمد) ذاتها دليل على صدقه ، فقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ .. ۝٢٩ ﴾ [الفتح] محمد مبتدأ أخبر عنه بأنه رسول الله ، ومحمد بمعنى محمود يحمده الناس ويثنون عليه .

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره لآية ١ من سورة الإسراء من حديث سعيد بن المسيب وأبى سلمة بن عبد الرحمن مرسلاً ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٢٢) وذكره عبد الرزاق فى مصنفه (٥/٣٢٨) من طريق الزهرى أيضاً .

إذن : هو من بدايته ونشأته مُعَدٌّ لهذه المهمة ، لذلك ما جربوا عليه كذباً أبداً ، ولا شيئاً مما كان يفعله أترابه فى الجاهلية ، فكأنه يقول لهم : محمد هذا الذى تعرفونه ، وتعرفون ماضيه وسيرته فيكم هو رسول الله ، وكأن علة الإيمان بالرسول أنه محمد .

وسبق أن بيَّنا كيف عصمه الله من الزلل ؟ وكيف عصمه من انكشاف عورته ؟ لذلك ورد على لسانه ﷺ وهو يجادل قومه : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦ ﴾ [يونس]

يعنى : أنتم تعرفون عنى كل شىء ، تعرفون أنِّى لا أكذب ، ولم يسبق لى أنْ وقفت خطيباً فيكم ولا شاعراً . إذن : لماذا تُكذِّبوننى ؟ .

وكلمة ﴿ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾ [ق] ليستْ تكراراً للتعجب فى ﴿ بَلْ عَجِبُوا .. ۝٢ ﴾ [ق] بل عجيبٌ بالذى قيل ، عجيبٌ قالها الكافرون ، وقد شرحها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ ﴾ [الإسراء]

فردَّ عليهم : ماذا تريدون ؟ قالوا : نريده ملَكاً ، فقال لهم : إذا كان ملَكاً فسوف يأتيكم فى صورة بشر ، إذن : ستظل الشبهة كما هى .

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾

هنا نقلوا المسألة من الاعتراض على بشرية الرسول إلى التشكيك فى عملية البعث بعد الموت ، وهكذا أصبح لدينا جوابان للقسم ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ ﴾ [ق]

الجواب الأول : إنك لمنذر والثانى : لتبعثُنَّ ، الأول : أخذناه من

قوله : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ .. (٢) ﴾ [ق] والثانى : من قوله سبحانه : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق]

ومعنى ﴿ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق] أى : رجوع إلى الحياة بعد أنْ نموت ونصير تراباً ، هذا أمر بعيد عن أذهانهم ، لماذا ؟ وأنتم عندكم آثار سيدنا إبراهيم وإسماعيل وبقايا الديانات السابقة ، وتعرفون الله وتعترفون أنه خالقكم وخالق السموات والأرض .

فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حكى القرآن قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

وقلنا : إن السؤال هنا ليس شكاً من سيدنا إبراهيم فى قدرة الله على إحياء الموتى ، إنما سؤال عن الكيفية فقط ﴿ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

فأراه الله سبحانه الكيفية ليستْ قولاً إنما فعلاً وتجربة مشاهدة ، يُجربها هو بنفسه ، وكأن الله تعالى يقول له ولنا : أن إحياء الموتى ليس صعباً ولا معجزاً لى ، بل إذا أردتُ أُعدِّى قدرتى إلى عبد من عبادى ، فيفعل ذلك بإذنى .

﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ[1] إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] أى أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً . وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم أى : وقطعهن . [تفسير ابن كثير ١/٣١٥] .

هذا أثر من آثار قدرة الله يمنحه لعبد من عباده .

وفى قصة سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

والقرآن يرد على منكرى البعث ، فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾

يعنى : لِمَ تعجبون وتنكرون البعث بعد الموت ، والله علم مُكوِّناتكم وجزئيات وعناصر هذا الجسم وكمية كل عنصر منها ، ويعلم ما تأخذه الأرض منكم وقادر على جمعه وإعادته كخَلْقه الأول هو هو ، وإن كانت العناصر التى خرجتْ منه لا تزال خارجة ، إذن : نحن نختلف باختلاف عناصر التكوين ، لا باختلاف مجموع العناصر .

ومعنى ﴿ قَدْ عَلِمْنَا .. (٤) ﴾ [ق] أى : أن هذه العملية تقوم على علم وعلى دراية لا مجرد كلام ، ثم تستند إلى توثيق آخر : ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق] فهذا العلم مُؤيّد بكتاب مسجَّل مسطور مشهود يحصى فيه كل شىء .

فإنْ قلتَ : فما فائدة الكتاب بعد العلم ؟ نقول : علم الله واسع ، وهو صفة من صفاته تعالى ، وهو سبحانه لا ينسى ، لكن يكتب فى كتاب ليكون الكتابُ حجةً على مَنْ أنكر ، كما فى مسألة الحسنات والسيئات .

فالله تعـالى يعلمها ويُحـصيهـا ، ولا يحتاج مَنْ يُذكِّره بها ، لكن يكتبها للعبد لتكون حجة عليه يوم يقول له : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

وكلمة ﴿ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ق] مبـالغة على وزن فـعيل ، وهى هنا بمعنى فاعل . أى : حـافظ لكل شىء ، مسجل لكل صغيـرة وكبيرة ، وهو أيضاً محفوظ فلا تمتد إليه يد فتـختلس منه شيئاً ، أو تغير فيه شيئاً .

لذلك قال : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[1] ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة]

وقال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

والذى يحاول التشكيك فى البعث أو نَقْضه هم الناس المستهترون المسـرفـون على أنفـسهم ، فـهـؤلاء لو صَحَّ البـعثُ وصَحَّ الحسـاب والجـزاء ، فسـتكون العاقبـة بالـنسبـة لهم سوداء ، فـحظهم إذن أنْ يُشككوا فى البعث ، وأنْ يُكذّبوه ، بل الدين كله فى نظرهم كذب .

وتأمل مثلاً إفلاسهم فى الحجـة حين يقولون فى تكذيبهم بالبعث : لو أن رجلاً مـات وزُرعت فوق بقـاياه شجـرة تفاح مـثلاً ، فـسوف

(١) قال ابن الجـوزى فى زاد المسـير آية ٧٨ سـورة الواقعـة : فى المكنون قولان : أحـدهما مستور عن الخلق . قـاله مقاتل . والثانى : مصون . قاله الزجاج . قـال الشوكانى فى فتح القدير : قيل مـحفوظ عن الباطل وهو اللوح المحفـوظ قاله جماعة . وقال مـجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

تتحلل عناصـره وتتغذّى منهـا هذه الشجرة ، فـسوف يأتى مَنْ يأكل منها .

وبذلك تصله بعض عناصـر الأول ، فإذا مات الثـانى فكيف تُبعث هذه العناصر من الأول أم من الثانى ؟

وهذه شبهـة واهية ، وللرد عليها نقول : لو أن رجـلاً وزنه مثلاً مائة كيلو ، وأصابه مرض أنقص من وزنه النصف حـتى صار شبحاً ، ثم مَنَّ الله عليـه بالشفـاء حتى استـعاد صـحته ووزنـه الأول ، فهل عادت إليه نفس عناصره الأولى ؟

أبداً ، لأنه يأكل عنـاصر أخـرى غيـر التى فـارقـتـه لكن تبـقى الشخصية وتبقى المعنويات المميزة لها ، وحين تعود تعود كما كانت هى هى .

إذن : المســألة ليست مسألة نفـس العناصر ، إنما مسـألة إعادة شـخص بعينه . ومـا دام الحق سبـحانه قـال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [ق] فهو سـبحانه قادر على جمعـها وتكوينها من جديد ، بقوله تعالى : كُنْ فيكون .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾

فهمنا من قولهم ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ [ق] أنهم مُنكرون للبـعث لا يُصدِّقون أنهم سـيُبعـثون بعـد الموت ، وهذا الإنكار لا يغير من الواقع شيئاً ، فالبعث حَقّ وسيحدث لكنهم يكذبون به لأنه ليس فى صالحهم .

لذلك قال هنا ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [ق] والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير أبداً مهما طرأتْ عليه من أحداث ، فسوف تمضى الأحداث والوقائع ويبقى الحق ثابتاً .

والحق سبحانه أعطانا مثلاً محسوساً للحق وللباطل ، فقال سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[1] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

كذلك سيذهب إنكارهم وتكذيبهم وتبقى الحقيقة ويبقى الحق ثابتاً لا يتغير ، وفى القرآن آيات كثيرة تحمل هذا المعنى ، اقرأ : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة]

فـ (كلمة) الأولى مفعول به ، أما الأخرى فهى مبتدأ لإنشاء كلام جديد غير معطوف على الأول .

فالأولى مجعولة ، والأخرى أمر ثابت أزلاً ، جعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله عليا بداية ، يعنى : لم تكُنْ سُفلى فجعلها عليا ، هذا يعنى أن الحق شىء ثابت أزلاً وباقٍ لا يتغير .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق] معنى مريج . أى :

---

(١) جفأ السيل غثاءه : رماه وقذفه . ويقال : جفأت القِدْر: أى رمت زبدها عند الغليان . ومن عادة الطهاة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] أى : لا ينتفع به ويلقى بعيداً أو يذهب ضياعاً . [القاموس القويم ١/١٢٤] .

مختلط ، فهم مذبذبون مترددون ، مرة : تعجبوا وقالوا ﴿ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾ [ق] ومرة أنكروا ، ومرة كذَّبوا ، فالأمر بالنسبة لهم مختلط من قولهم : مرج الخاتم فى الإصبع إذا كان واسعاً سهل الحركة .

والدليل على أنهم فى أمر مريج أنهم استقبلوا سيدنا رسول الله ﷺ بمجموعة من الاتهامات ، كلما خاب سعيهم فى واحدة قالوا بالأخرى ، لأن القرآن لهم بالمرصاد يرد كيدهم عن رسول الله .

لذلك سمعناهم يقولون : ساحر ، شاعر ، مجنون ، كاهن .

إذن : ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق] لا يدرون ماذا يقولون ، فكلما قالوا تهمة كشف القرآن كذبها ، فالحق شىء واحد ، لذلك نراه ثابتاً ، أما الباطل فمتعدد لذلك لا يثبت .

وهذه المسألة نشاهدها فى الشهادة أمام القاضى ، فشاهد الحق يأتى قوله واحداً لا يتغير لأنه يصف واقعاً ، أما شاهد الزور فيغير ولا يصمد أمام محاورات القاضى ، وسرعان ما يقع وينكشف كذبه ، لأنه لا يصف واقعاً ، إنما يؤلف الأحداث من عنده .

ثم ينقل الحق سبحانه وتعالى مجالَ الحديث إلى الآيات الكونية التى تثبت قدرة الله تعالى وتمسّ مسألة العقيدة ، فحين نُصحح لهؤلاء عقيدتهم ونعطفهم إلى الإيمان بالله سيفكرون فى رسالة محمد ، ويهتدون إلى الحق .

لذلك ترك الحديث عن تكذيبهم لرسول الله وللبعث ، إلى الحديث عن الآيات الكونية فى السموات والأرض .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) ﴾

الاستفهام فى ﴿ **أفلم ينظروا** .. (٦) ﴾ [ق] غرضه الحثّ على النظر والتأمل فى خَلْق السموات وما فيها من آيات ومعجزات ، لأن هذه الآيات هى دليل القدرة ، وكلمة ﴿ **بَنَيْنَاهَا** .. (٦) ﴾ [ق] دلتْ على أن السماء على اتساعها مبنية ، ومع اتساع هذا البناء لا نجد له عمداً ترفعه .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** .. (٢) ﴾ [الرعد] إذن : طالما ليس لها عَمد تحملها ، فهى ممسوكة من أعلى ، ولا يمسك هذه السماء إلا قوة عظمى هى قدرة الله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا** .. (٤١) ﴾ [فاطر]

وهذه الفكرة رأيناها فى بناء الكبارى الطويلة التى ليس لها قواعد وأعمدة تحملها ، فيعلقونها من أعلى ، وتُسمّى الكبارى المعلّقة .

والحق سبحانه وتعالى يُقرِّب لنا هذه المسألة بقوله : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ**[1] **وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ**

(١) الطير الصوافّ أى التى تصف أجنحتها فلا تحركها ، باسطات أجنحتها فى الطيران . [لسان العرب – مادة : صفف] ثم يقول بعدها (ويقبضن) أى يثنين ويطوين أجنحتهن .

شَىْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ [الملك] فكما يمسك الطير فى السماء يمسك السموات أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه .

ثم لم يقف الأمر عند بناء السماء ، بل ﴿ **وَزَيَّنَّاهَا** .. (٦) ﴾ [ق] بما فيها من الكواكب والنجوم التى تُضىء ﴿ **وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** (٦) ﴾ [ق] يعنى : ليس فيها شقوق ولا فتوق ، بل نراها مستوية ملساء ، انظر إليها وهى صافية تجد روعة الألوان .

وبعد أنْ حدَّثنا عن الآيات العليا فى السماء يُحدِّثنا عن آياته سبحانه فى الأرض ، وإذا كانت الآيات فى السماء بعيدة عنا ، فالآيات فى الأرض قريبة منا وتحت إدراكاتنا .

﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا** .. (٧) ﴾ [ق] بسطناها وجعلناها مستوية صالحة للمعيشة ، والمد هو البسط ، والشىء المنبسط الممتد ليس له نهاية ، وهذه صفة الأرض ، فأينما سرتَ تجدها أمامك منبسطة ليس لها حافة تنتهى عندها ، وهذا الامتداد فسَّر لنا كروية الأرض .

﴿ **وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ**.. (٧) ﴾ [ق] هى الجبال الثابتة التى تثبت الأرض ، فلا تميد ، كما قال سبحانه ﴿ **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** (٧) ﴾ [النبأ] أى : هى للأرض مثل الأوتاد للخيمة ﴿ **وَأَنبَتْنَا فِيهَا** .. (٧) ﴾ [ق] أى فى الأرض ﴿ **مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** (٧) ﴾ [ق] من النبات والزوج أى الصنف ، وهو فرد معه مثله .

فالنبات لكى يعطى إنتاجاً لابدَّ له من زوجين ذكر وأنثى ، كما فى الإنسان والحيوان ، لذلك قال تعالى : ﴿ **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ** .. (٤٩) ﴾ [الذاريات] لأن التناسل لا يتم إلا بهما .

ومعلوم أن التلقيح فى النبات يتم بواسطة الفراشات والحشرات

الطائرة التى تنقل حبوب اللقاح من عنصر الذكورة لعنصر الأنوثة ، لذلك لما كَثُرتْ الحشرات فى أحد البساتين وضعوا لها المبيد الحشرى فماتت ، فلاحظوا أن الأشجار فى البستان لم تزهر ولم تثمر ، لماذا ؟ لأن الفراشات والحشرات التى تلقح الزرع ماتت .

وقد لاحظوا أن الحشرات تتلوَّن بلون الزهرة التى تلقحها ، بحيث يكون بينهما توافق بديع فى الألوان ، فلا تكاد ترى الفراشة وهى على الزهرة ، وهذه الألوان فى تناسقها مظهر من مظاهر الإبداع فى الخلق .

وقوله : ﴿ بَهِيجٍ ⑦ ﴾ [ق] أى : جميل حسن المظهر .

وقد فهم العلماء من قوله تعالى ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ.. ⑦ ﴾ [ق] أن الأرض غير ثابتة ، وأنها تدور ، فلو كانت الأرضُ مخلوقةً على هيئة الثبات ما احتاجتْ إلى الجبال الرواسى لتثبتها فلا تميل بأهلها .

وهذه كلها كانت من غيب السموات والأرض كشفه الله لنا بتقدّم العلوم وتطور الحضارات ، لذلك نقرأ مثلاً : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. ⑧⑧ ﴾ [النمل] نعم السحاب يمر ويتحرك بحركة الهواء ، فكيف تتحرك الجبال وهى راسية مستقرة مُثبتة على سطح الأرض ؟

إذن : الجبال لا تتحرك إلا مع حركة الأرض ، ولأنك ستتعجب من هذه الحقيقة ، قال الحق بعدها ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ .. ⑧⑧ ﴾ [النمل] فما دام الفعل لله والصنعة لله ، فلا تتعجب ولا تستبعد الأمر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ .. ⑧ ﴾ [ق] أى : أن هذه

الآيات الكونية فى السموات وفى الأرض تعطى بصيرة للناس ، وتُذكِّرهم بقدرة الخالق سبحانه ليتفكروا فى خَلْق هذا الكون وما فيه من هندسة وإبداع .

والتبصرة هى الآية الثابتة ، و﴿ وَذِكْرَىٰ .. ⑧ ﴾ [ق] هى الظاهرة تأتى وتتغير ، مثل الأرض تكون جرداء قاحلة ، فإذا نزل عليها المطر اخضرتْ .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ⑧ ﴾ [ق] كثير الرجوع إلى الله بالتوبة ، ويأخذ من آيات الله فى الكون دليلاً على قدرته تعالى ، فيذعن لها ويؤمن بها .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ(1) ⑨ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ(2) لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⑩ ﴾

قوله ﴿ وَنَزَّلْنَا .. ⑨ ﴾ [ق] مادة نزل أتت بلفظ أنزلنا ونزّلنا ، أنزلنا للشىء ينزل جملة واحدة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① ﴾ [القدر] أى : أنزلناه فى هذه الليلة جملة ، ثم نزل به الروح الأمين مُتفرقاً حسب الأحداث ، فقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ①⑨③ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. ①⑨④ ﴾ [الشعراء]

(1) حب الحصيد أى حب ما يُحصد كالشعير والقمح والأرز . والزرع محصود وحصيد وحصيدة وحصَدٌ . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

(2) الباسقات : الطويلات العاليات . يقال : بسقت النخلة بسوقاً : طالت . [لسان العرب - مادة : بسق] .

كذلك الماء لا ينزل من السماء جملة واحدة ، إنما ينزل متتابعاً متفرقاً ، فقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا .. (٩) ﴾ [ق] وقوله : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ .. (٩) ﴾ [ق] أى : من جهة السماء ، لأن المطر فى السحاب وأصله من الماء المالح فى الأرض ، حيث تتم عملية البخر ويتكثف بخار الماء فى السحاب فيتكوَّن الماء الذى يسوقه الله تعالى بقوة الهواء حيث ينزل حينما يصادف الأماكن الباردة .

وقال عنه ﴿ مَاءً مُّبَارَكًا .. (٩) ﴾ [ق] لأن الله بارك فيه وجعله صالحاً للشرب ولسقى النبات ، فهو عذْب سائغٌ للشاربين .

وساعة ينزل هذا الماء المبارك على الأرض تهتز الأرض وتُخرج ما فيها من نبات ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ .. (٩) ﴾ [ق] جمع جنة ، وهى المكان الملىء بالأشجار التى تجنُّ مَنْ يسير فيها . أى : تستره فسُميتْ جنة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .. (٧٦) ﴾ [الأنعام] يعنى : ستره بظلمته .

ومعنى ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) ﴾ [ق] أى : الحب الذى يُحصد مثل القمح والشعير والذرة والأرز ، وهو يُزرع كل عام ويُحصد ليزرع من جديد ، أما الجنات فهى الشجر الدائم الذى يعمر لعدة سنوات ويثمر فنجمع منه الثمار فقط وتبقى الشجرة كما هى للعام التالى .

وقوله : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ .. (١٠) ﴾ [ق] عاليات مرتفعات ، والعلو فى النخل من عجائب الخَلْق ودقة الإبداع ، لأننا رأينا العواصف تقتلع بعض الأشجار الضخمة ، لكن لم نَرَ نخلة وقعتْ من العاصفة فجأة كما تقع الشجرة . لكنْ إذا ضعفت النخلة نراها تميل شيئاً فشيئاً على فترات حتى تصل إلى الأرض ، ففيها رِفْعة ، وفيها شموخ .

وذكر الحق سبحانه النخل بعد شجر الجنات وحبِّ الحصيد لأن النخل يجمع الصفتين معاً لأنْ يعطى ثماره مثل الشجر كل عام ، لكن إذا لم يلقح جاءت الثمار كما يقولون : صيِّص يعنى بلح لا ينفع ولا فائدة فيه فيُقطع ويُرمى .

ومعنى ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) ﴾ [ق] الطلع كوز أخضر يتفتح وتخرج منه السباطة ، والسُّباطة هذه تحتوى على الشماريخ التى تحمل حبات البلح ، ومن عجائب الخَلْق أنك ترى هذه الحبات مُنضدّة ، يعنى : مرصوصة بنظام دقيق فى الشمروخ الذى يحملها ، فلا تجد مثلاً بلحة أمام الأخرى ، لكن موزَّعة على الشمروخ بالتساوى على شكل رِجْل غراب كما يقولون .

إذن : الحق سبحانه أعطانا طرفاً من آياته فى السموات والأرض ، وقلنا : أن السموات والأرض ظرف لما فيهما ، ومع عِظَم خَلْق السموات والأرض ، إلا أن المظروف فيهما أعظم .

والإنسان فى هذه الظرفية له خصوصية لأنه خليفة الله فى الأرض ، فالناس باعتبار أنهم مظروف ليس لأحد منهم حَظٌّ أوفر من الآخر ، فهم فى هذه الظرفية سواء ، لأن الظرف مهمته حماية المظروف فيه فيستوى فى الحماية ورقة بخمسين مع الورقة بمائة ، ويستوى الذهب والفضة والحديد ، فالصيانة للجميع وإنْ كان المصون مختلفاً .

كذلك الإنسان له حظه من الصيانة مع أن قيمة الناس تختلف ، وهذا الاختلاف جاء لحكمة أرادها الحق سبحانه لصالح المجتمع كله : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فالناس منهم القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، العالم والجاهل ، والذكى والغبى يتم بينهم التكامل فى حركة الحياة ، وقلنا : ماذا لو

أن الناس جميعاً تخرجوا فى الجامعة ؟ فمَنْ إذنْ سيقوم بالأعمال الدنيا ، إذن : لابدّ أنْ يوجد ناس للقمة ، وناس دونهم للخدمة ، وإلا ما استقامتْ حركة الحياة .

ومع هذا الاختلاف فى القيمة من حيث عمل كل إنسان وإجادته لعمله يبقى أننا جميعاً عيالُ الله وعبيده ، ليس منا من هو ابن الله ، فليلزم كلٌّ منا أدبه وحدوده ، فكلٌّ منا مرفوع فى شيء ومرفوع عليه فى شيء آخر ، يعنى (مفيش حد أحسن من حد) .

يقول الحق سبحانه :

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

فقد أنبت سبحانه جنات وبساتين ومزروعات ، منها ما يعطى حباً يكون قوتاً للناس وهو ما يحصد مثل القمح مثلاً ، وأنبت أيضاً نخلاً عالياً باسقات فى جو السماء تعطى الخير للناس لأجيال طويلة .

لذلك قال تعالى : ﴿ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [ق] وهو رزق لكل عباد الله مؤمنهم وكافرهم ، طائعهم وعاصيهم ، لأنه خلق الجميع ولابد أن يتكفل لمن خلق برزقه الذى يعيش به ، حتى ولو لم يؤمن به سبحانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [ق] الضمير فى (به) يعود على الماء المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴿٩﴾ ﴾ [ق]

هذا الماء ﴿ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. ﴿١١﴾ ﴾ [ق] أى : أحيينا به أرض بلد ميْت . وهى الأرض الميتة الجدباء الجرداء الخالية من النبات ، فإذا نزل عليها الماء أحياها بالنبات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

والحق سبحانه جعل إحياء الأرض الميتة دليلاً ومثلاً حياً على

البعث والإعادة بعد الموت ، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق] ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف]

ومثل قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم] أى كمثل ذلك تُخرجون وتبعثون ، فمن أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرض الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها . فالأرض تكون ميتة هامدة جرداء لا أثر فيها لحياة ، فلما ينزل عليها الماء ويسقيها المطر تتحرك وتهتز وتزيد فتنغلق الشقوق التى فى التربة بفعل العطش ثم تنبت من كل زوج بهيج ، فهى نموذج حىٌّ مشاهد للخلق وللحياة .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ(١) وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ(٢) وَقَوْمُ تُبَّعٍ(٣) كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : اختلفوا فى أصحاب الرس على خمسة أقوال :
أحدها : أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة فبعث الله إليهم نبياً من ولد يهوذا بن يعقوب فحفروا له بئراً وألقوه فيه فهلكوا . قاله على عليه السلام .
الثانى : أنهم قوم كان لهم نبى يقال له : حنظلة بن صفوان ، فقتلوا نبيهم فأهلكهم الله . قاله سعيد بن جبير .
والثالث : أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها وكانت لهم مواشى وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فتمادوا فى طغيانهم فانهارت البئر فخُسف بهم وبمنازلهم . قاله وهب بن منبه.
الرابع : أنهم الذين قتلوا حبيباً النجار ، قتلوه فى بئر لهم ، وهو الذى قال : ﴿ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يس] .
والخامس : أنهم قتلوا نبيهم وأكلوه . قاله ابن السائب .

(٢) قال الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) : روى أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف » وقد أرسل شعيب إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة ، وقد أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة .

(٣) قوم تبع أناس سكنوا اليمن ، وسموا بالتبع لأنهم يتبعونه ، والتبع المقصود فى هذه القصة استناداً إلى روايات لم يتسن التأكد من صحتها هو أسعد أبا كرب . وذكر ابن الجوزى فى زاد المسير « قالت عائشة : لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه ، وذكر بعض المفسرين أنه كان يعبد النار ، فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذَّبوه » .

هذه تسلية لرسول الله ، وتخفيف عنه لما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وقد عرضت الآيات موقفهم أولاً ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [ق] ثم كذَّبوا بالبعث الذى أخبر به ، فقالوا : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ [ق]

فأراد الحق سبحانه أن يعرض على رسوله موكب الرسالات السابقة عليه ، وكم حدث فيها من تكذيب لإخوانه الرسل .

وكأنه يقول له : يا محمد لست بدعاً فى ذلك ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [ق] أى : قبل قومك كذَّب ﴿ قَوْمُ نُوحٍ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [ق] مع أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك كذَّبوا ولم يؤمن معه إلا القليل(١) منهم .

لكن هل تركهم الله ؟ لا بل انتقم منهم بالغرق الذى أبادهم عن آخرهم ، فما كان الحق سبحانه ليترك أهل الفساد وأهل التكذيب ومصادمة الرسل دون عقاب ، بل يُملى لهم ثم يأخذهم بلا هوادة .

فقوم نوح عليه السلام كانوا يسخرون منه ، وهو يصنع السفينة، فيقول لهم : سيأتى اليوم الذى نسخر نحن منكم كما تسخرون منا ، وكأنه على ثقة من نصر الله وتأييده لدعوته ، وكما كذب قوم نوح كذب ﴿ أَصْحَابُ الرَّسِّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [ق]

والرسُّ اسم بئر معروفة ﴿ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ ﴾ [ق] وهم قوم سيدنا

(١) قال تعالى فى سورة هود عن نوح عليه السلام : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود] ذكر ابن الجوزى فى تفسيره (زاد المسير) ثمانية أقوال فى عددهم : ومنها أن نوحاً حمل معه ثمانين رجلاً معهم أهلوهم . رواه عكرمة عن ابن عباس . ومنها أنهم كانوا ثلاثين رجلاً ، وأنهم كانوا ثمانية على اختلاف بين المفسرين .

صالح ﴿ وَعَادٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [ق] قوم سيدنا هود ﴿ وَفِرْعَوْنُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [ق] وقصة فرعون مع سيدنا موسى معروفة ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [ق] أى قومه ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [ق] والأيكة الحديقة كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان ، وسكان هذه الحديقة هم قوم سيدنا شعيب .

﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [ق] تبع كان ملكاً من ملوك اليمن يُقال له أبو كرب الحميرى . وكل هؤلاء المكذبين كانوا أصحاب حضارة وأهل نعمة ورفاهية ، لكن بعد أنْ كذَّبوا الرسل وخالفوا منهج الله بدّل الله حالهم ، وقلبَ أوضاعهم فأهلكهم بذنوبهم .

لذلك يقول هنا ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ق] أى : لما كذَّبوا رسلى حَقَّ عليهم ما وعدتهم به من العذاب ووجب لهم الهلاك.

وفى آية أخرى فصل ذلك الانتقام فقال : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

عاد السياق هنا إلى مناقشة المنكرين للبعث الذين قالوا : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ [ق] عاد إلى هذا الموضوع ليقول لهم : لِمَ تنكرون البعث ؟ أليس أمامكم الخلْق الأول ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ..﴿١٥﴾ ﴾ [ق] أى : هل عجزنا عنه وهل أعيانا ؟ أبداً بل قدرنا عليه وأنشأناه من العدم .

والخلق الأول خلق السموات والأرض وخلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام والقادر على الخلق بداية قادر على إعادته من باب أولى .

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق] أى : فى خلط وتردد ، كما قال عنهم فى الآيات السابقة ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق] أى : مختلط .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١) ﴿١٦﴾﴾

بعد أنْ حدثنا الحق سبحانه عن آياته الكونية فى السموات والأرض يُحدِّثنا عن آياته فى خَلْق الإنسان ، وقد بيَّن لنا الحق سبحانه أن آيات السموات والأرض أكبر من الآيات التى فى خَلْق الناس .

(١) حبل الوريد : هو حبل مرتبط بالقلب يسمى فيه الوتين ، وإلى الظهر ويسمى فيه الأبهر ، وإلى الذراعين والفخذين ويسمى فيهن الأكحل والنسا ، وفى الخنصرتين الأسلم وهو نهر الجسد ، وفى العنق اثنان هما الوريدان مكتنفان لصفحتى العنق فى مقدمهما . [تفسير أطفيش فى تفسير الآية] فالغالب فى كلام المفسرين أن (أى حبل الوريد) هو عِرْق مرتبط بالقلب يسرى فيه الدم إلى كل أجزاء الجسم . ولكن ذهب الدكتور أحمد المزين رئيس مركز الإعجاز العلمى للبحوث والدراسات إلى أن (حبل الوريد) المقصود فى الآية هو ما يعرف بجذع المخ (Brain Stem) فهو حبل (عصب) ليس مجوفاً ، ووظيفته نقل السيالات العصبية بين نصفى الدماغ ثم إيصالها إلى النخاع الشوكى ، فهو أقرب شىء لمكان تولد الفكرة (الوسوسة) المذكورة فى الآية ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ..﴿١٦﴾﴾ [ق] ، وهو حبل وعصب واحد .

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ..﴿٥٧﴾﴾ [غافر] ووعدنا سبحانه بقوله ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ..﴿٥٣﴾﴾ [فصلت] آفاق السموات والأرض ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]

يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ..﴿١٦﴾﴾ [ق] وأكد لهم الكلام بـ (اللام) و بـ (قد) لأنهم مُنكرون لهذه الحقيقة مُكذِّبون بها ، وهذا الإنكار جحود منهم ، لأنه سبحانه قال فى موضع آخر : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف]

وما دام الحق سبحانه قد قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ..﴿١٦﴾﴾ [ق] فلا يتأتى أن يقال أنه من الممكن أن يتم استنساخ الإنسان ، فالإنسان الذى يكوّن أسرة من أب وأم لا يمكن استنساخه أبداً ، إنما يستنسخه مَنْ خلقه فقط .

بدليل أنه خلق آدم وأخذ منه ضلعاً جعل منه حواء ، أما أنتم فلن تستطيعوا هذا ، قد تستطيعون استنساخ نبات أو حيوان ، فإنه ليس مطلوباً من هذه الكائنات أن تكوّن أسرة .

فالمطلوب من النبات أو الحيوان التكاثر فقط ، أما الإنسان فليس مطلوباً منه التكاثر فقط بل مطلوب منه القيم أيضاً ككائن فى مجتمع .

فالإنسان يسعى لتكوين أسرة وله مواصفات فيمن يتزوجها ، وكيف يعيش معها وكل منهما يقوم بمهمة فى التربية تناسبه ، هو يكدح خارج البيت وهى تقوم بمهمتها فى البيت ومهمتها أعلى وأهم من مهمته .

لذلك نجد اللقيط شقياً فى حياته ، لأنه ليس له أب ينسب إليه ، أما من له أب فابنه محسوب عليه ومسئول عنه أمام المجتمع ، يقوم

له بأمور معيشته ودراسته ، فلو فرضنا أنه من الممكن أن يكون هناك إنسان مستنسخ فترى كيف تكون حياته ؟

فالله هو خالق الإنسان ومُبدعه ، والخالق هو الأعلم بمن خلق ، والأعلم بأسراره وما يصلحه ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .. (١٦)﴾ [ق] يعنى :لا نعلم ظواهر عمله فحسب ، إنما نعلم بواطنها ، ونعلم ما يختلج فى نفسه من خواطر وأفكار .

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

الذى يعلم دقائق الأمور وخفاياها ، كالصانع يعلم دقائق صنعته ، فالساعة مثلاً حين تتعطل منك لا تعرف فيها شيئاً ، فتذهب بها إلى الساعاتى ، وبمجرد أنْ ينظر إليها يعرف مكان العطل بها ويُصلحه بحركة بسيطة جداً .

فالحق سبحانه خلق الإنسان ، فالإنسان صنعته وإبداعه ، لذلك يعلم خفايا نفسه لا مجرد ظواهر عمله ، لأن ظواهر العمل معروفة للناس ، فلا مزية فى معرفتها ، أما ما تُوسوس به النفس فهو أمر غيبى عن الآخرين لا يطلع أحدٌ عليه ولا يعلمه إلا الله ، وهذه من آيات الله فى الأنفس ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

وسمَّى الخواطر التى ترد على البال وسوسة ، وهى فى الأصل صوت الحلى ، والوسوسة تكون مرة من النفس ومرة من الشيطان ، لذلك لا تكون إلا بشرٍّ ، وقد بيَّن الإمام علىٌّ الفرق بينهما حينما سأله سائل : كيف أعرف مصدر هذه الوسوسة ، أهى من النفس أم من الشيطان ؟

فقال : النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، أما

الشيطان فيريدك عاصياً على أىِّ صورة ، فإنْ خالفته فى معصية زين لك الأخرى وهكذا حتى يوقعك .

والنفس هى الأصل فى الوسوسة ، لأننا لو أخذنا معصية إبليس الأولى وقلنا مَنْ وسوس له بها ؟ نفسه ، والشاعر لما نظم هذا المعنى قال : إبليس لما عصى مَنْ كان إبليسه ؟

فالمسألة إذن راجعة للنفس ، وإبليس يستغل شهوة النفس وينميها ويُزينها لصاحبها ، والعجيب أن هذه الوساوس حينما تلح على الإنسان تُغرقه فى الهموم والتخيلات التى لا أساسَ لها ، فينشغل بأشياء لم تحدث يتصور أنها حدثت ، أو أحداث ماضية يعيدها من جديد .

وهكذا تحاصره الهموم فتكلمه تجده ساهياً أو يمشى يُكلِّم نفسه ، والعاقل هو الذى لا يترك نفسه نهباً لهذه الوساوس ، ويعلم أن له رباً يعلم ما توسوس به نفسه .

رب كريم يفرج الكروب ويزيل الهموم ، العاقل هو الذى يعلم أن ما مضى فات والمؤمل غيب ، ولك الساعة التى أنت فيها .

وخُلق المؤمن أنْ يكون عنده رصيد من إيمانه يعصمه ، فإنْ عزَّتْ عليه الأسباب لجأ إلى المسبِّب ، فهو أبداً لا ييأس ولا يستسلم .

قلنا : لو أن رجلاً معه جنيه واحد لا يملك غيره وضاع منه لا شكَّ أنه يحزن ، خاصة إذا كان غريباً مثلاً ، لكن لو ضاع منك جنيه وفى البيت عشرة ، فالحزن يكون أقلّ ، فما بالك إنْ كان معك رصيد من رب العالمين ؟

لذلك يقولون : لا كرب وأنت رب . وهذا الرصيد الإيمانى رأيناه فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ، فلما ضاقت به أسبابه قال :

﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) ﴾ [ق]

حبل الوريد عرقان فى الرقبة يحملان الغذاء إلى الجسم كله ، وإذا انقطع الوريد انتهت الحياة ، والكلام هنا فيه كناية عن قُرْب الحق سبحانه من عبده ، وكأنه يقول له : أنا قريب منك وأعرف تفاصيلك ، وأعرف وسوسة نفسك .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾

بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن علمه محيط لا يعلم مجرد عمل الجوارح ، إنما يعلم ما يدور فى النفس ، يعلم خلجاتها وأفكارها قبل أنْ تترجم إلى عمل . إذن : العلم بالوسوسة أوْلَى من العلم بالجوارح وعملها ، لكن قد يقول العبد : أختبئ فلا يرانى أحد .

فبيَّن الله له أنه إذا اختبأ من الناس فلا يختبئ من الله ، ولا يخفى عمله على الملكين الكاتبين اللذين يتلقيان عمله ويحفظانه ، ملك عن يمينه يكتب الحسنات ، وملك عن شماله يكتب السيئات .

ومعنى ﴿ قَعِيدٌ (١٧) ﴾ [ق] يعنى : كلٌّ منهما قاعد له بالمرصاد متفرغ له يرقبه ولا يغيب عنه ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق] فإنْ قلت ما دام أن الله تعالى عالم بعمل العبد ، ولا تخفى عليه خافية ، فلم يكتب عمله ولم يُسجِّله عليه ؟

قالوا : يكتب الأعمال لتكون حجة على صاحبها يوم القيامة ، فكما أن الله تعالى سيُنطق الجوارح لتشهد على صاحبها ، كذلك سينطق هذا الكتاب . واقرأ : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

وقال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت] وقال : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ (٢٩) ﴾ [الجاثية]

ومن رحمة الله بعباده فى كتابة الأعمال أن الحفظة تكتب الحسنة بعشر أمثالها ، وتكتب السيئة بواحدة ، تكتب الحسنة بمجرد أنْ تفكر فيها[1] ولا تُكتب السيئة إلا بعد الوقوع فيها ، بل وتعطيك فرصة لعلك تتوب أو تراجع نفسك .

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) ﴾

معنى ﴿ سَكْرَةُ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [ق] غشيته أو الغيبوبة التى تأخذ الإنسان وهى وقت الغرغرة وخروج الروح ، وسُميت سكرة الموت لأنها مقدمة للموت ، وقوله : ﴿ بِالْحَقِّ .. (١٩) ﴾ [ق] لأن الحق هو الموت ، فهو حق وواجب لكل مخلوق ، وسَهْم أُطلق إلى كل مولود ، وعمرك بقدر وصوله إليك .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، وإن عملها كتبت » [أخرجه مسلم فى صحيحه ١٨٦ - وأحمد فى مسنده (٦٨٩٨ ، ٨٩٥٧ ، ١٠٠٦١)] .

لذلك يموت الإنسان جنيناً ، ويموت طفلاً ، ويموت شاباً ، ويموت شيخاً .

ومن آيات الله فى الموت أن أبهمه زمانـاً ، وأبهمه مكاناً ، فـجاء الإبهام أوضح بيان ، لأن الإبهام جعلك تنتظره فى كل وقت ، وجعلك تستعد له بالتوبة والعمل الصـالح ، جعلك تستحى من الله أنْ يفاجئك الموت وأنت على معصية .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [ق] أى : الموت ﴿ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق] أى : تمـيل عنه وتخـاف منه ، نـعم كلنا يخـاف المـوت ويبعده عن نفسه ، يتصور أنّ كل الناس سيموتون إلا هو .

لذلك ورد فى الحديث : لا أرى يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت[1] .

والابتعاد عن شبح الموت له حكمة مرادة للحق سبحانه وتعالى ، فلو استحضر كلٌّ واحد منا حقيقة الموت ما هنىء له عيش ولا قرَّ له قرار ، وما انتفع أحد منه بعمل .

إذن : الأمل فى الحـياة هو الأوْلَى ، الأمل هو الذى يعـمر حـركة الحيـاة ، حب الحيـاة هو الذى يأخذنا لعمـارة الحيـاة ، المهم أن هذا الأمل لا يُنسيك الموت ، فكُنْ على استعـداد له بالتوبة والاستغفار إنْ بدر منك ذنب .

(١) أورده القرطبى فى تفسيره لقوله تـعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر] وعزاه لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وفيه زيادة (ثم لا يستعدون له) من قول عمر . وذكره الميدانى فى (مجمع الأمثال) من قول الحسن البصرى .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾

وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ[1] ﴿٢١﴾ ﴾

هنا يعطينا مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُنفخ فى الصور ، قالوا : هى النفخة الثانية التـى يقوم الناس لها من قبورهم . والصُّور هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام .

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ق] أى : الذى توعدناكم به وخوَّفناكم منه . والوعيـد عكس الوعد ، الوعيـد يكون بشرٍّ آت والوعد بالخـير . والموت لا يخاف منه إلا صاحب الأعمال السيئة ، كامتحان آخر العام لا يخاف منه إلا التلميذ المهمل أما المجتهد فيفرح به .

كذلك صـاحب الأعمال الصـالحة يفرح بلقـاء الله ، لأنه قادم على الجزاء الأوفى من الله ، لذلك حين يمـوت الرجل الصالح نقول : اللهم ألحقنا به .

وقوله سبـحانه : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق] سائق يسوقها إلى أرض المحشر ، وشهيد يشهد عليها بما عملتْ .

﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ

غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ ﴾

(١) اختُلف فى معنى السائق والشهيد فى الآية على أقوال :
- والسائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم الأيدى والأرجل . قاله ابن عباس .
- السائق الملك والشهيد العمل . قاله أبو هريرة .
- السائق قرينها من الشياطين ، سُمى سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها . قاله ابن مسلم .
- السائق والشهيد ملكان . قاله مجاهد .

(نقله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٤١٣) .

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٢٢) ﴾ [ق] فى غفلة ونسيان لهذا اليوم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ .. (٢٢) ﴾ [ق] أى : كشفنا عنك غطاء الغفلة .

﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق] أى : حاد ونافذ يستطيع أنْ يدرك الأمور على حقيقتها ، أى : أمور الآخرة وما فيها من بعث وحساب وجزاء .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ﴾

معنى ﴿ قَرِينُهُ .. (٢٣) ﴾ [ق] أى : الملك المقارن والملازم له عن يمينه وعن شماله يُسجِّل عليه كل أعماله وكل نَفَس من أنفاسه ، يأتى ويقول : ﴿ هَـٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) ﴾ [ق] هذا ما عندى لهذا العبد ، وهذا ما سجلته عليه جاهز ومُعد .

كما نرى مثلاً رجل البوليس حينما يُقدِّم تقريراً للنيابة يقدم فيه الأدلة ويقول : هذا ما عندى وقد انتهت مهمتى وعلى النيابة الحكم فى المسألة .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾ [ق] هذا أمر من الحق سبحانه وتعالى لكل من السائق والشهيد أنْ يُلقيا فى جهنم كلَّ (كفار) شديد الكفر متمكن فيه .

والكفر إما كفر للنعمة كما حدث من أهل سبأ ، فقال الله فيهم :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا .. (١٧) ﴾ [سبأ] أى : كفروا نعمة الله ، أو كفر المنعم سبحانه وهو كفر الألوهية .

وكلمة ﴿ كَفَّارٍ .. (٢٤) ﴾ [ق] صيغة مبالغة من كافر ، أى كفر مرة واحدة إنما كفار يعنى يتكرر منه الكفر ، لذلك وصفه بعدها بأنه ﴿ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾ [ق] أى : عنيد فى كفره مُصرٌّ عليه مُتماد فيه .

والكفر فى اللغة هو السَّتْر ، وكفر النعمة يأتى على قسمين : ستر النعمة فى مكانها ، بمعنى أنهم لم يذهبوا إليها بجهد العمل والسعى والاستنباط ، أو أنهم جمعوها وأتوا بها فى جيوبهم ثم بخلوا بها على المحتاجين .

كذلك كلمة ﴿ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾ [ق] فيها مبالغة نقول معاند وعنيد ، فالعنيد هو الذى يعاند كلما دعوْتَه للحق ويُصر على موقفه ، ولا شكَّ أن دعوة الرسول للناس بأنْ يؤمنوا تتكرر دائماً ، لكن العنيد يعاند ولا يقبلها ولا يهتدى ، ويتمادى مُتمسكاً برأيه ، لا يقبل حجة ولا يقبل نقاشاً .

إذن : كفر بالنعمة وكفر بالمنعم .

وقوله تعالى : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ﴾ [ق] هذا هو الوصف الثالث للكافر العنيد ، فبالإضافة إلى شدة كفره ، وعناده ، هو ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ .. (٢٥) ﴾ [ق] ومناع أيضاً صيغة مبالغة من مانع ، فهو كثير المنع للخير يمنعه حتى عن نفسه بعد أنْ منعه عن الآخرين حين وقف فى وجه الدعوة للإيمان ، وحين منع ماله ولم يعط المحتاجين .

ثم هو بعد ذلك كله ﴿ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ﴾ [ق] فلم يكتف بمنع

الخير ، بل تعدى على الخير عند غيره فأخذه دون وجه حق ، أخذه مرة بالسرقة ، ومرة بالرشوة ، ومرة بالخطف والغصب ، ومرة بالتدليس ، ومرة بالغش .. إلخ .

فهو إذن مُعتد بأىِّ وجه من وجوه التعدى ، وهو ﴿ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ق] أى : شاكٌ مُرتاب فى هذا اليوم ، ولو كان مؤمناً به وبالحساب والجزاء ما فعل ذلك ، لو كان يؤمن بالمقابل لأعطى ولم يمنع .

ومن صفاته أيضاً ﴿ الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [ق]

الخطأ هنا فى القمة فى مسألة الإيمان بالله ، والله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ..﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء]

لذلك كان الجزاء ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ق]

إذن : عندنا نوعان من العذاب : عذاب مطلق لم يُوصف بأنه شديد فى قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [ق] وهذا لمن عصى الله وارتكب من الكبائر ما دون الشرك بالله .

ثم عذاب يُوصف بأنه شديد لمن أشرك بالله تعالى ، ذلك لأن مرتكب الكبيرة ينطق بلا إله إلا الله ، ويمكن أن يتوب لأن كلمة التوحيد لها أثر فى حماية النفس حتى فى العاصى .

أما المشرك فلا ينطق بكلمة التوحيد ، وليس لها أثر فى نفسه ، ولو أدخلنا هذا مع هذا لكانت كلمة التوحيد ليس لها معنى ولا أثر .

والمغفرة فى قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء] قد تكون المغفرة مُعجَّلة له ونهائية وهو حى ، وذلك لمَنْ تاب وأناب وبدّل عمله السيء بالعمل الصالح .

فيدخل تحت قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا

فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان]

وإما أنْ تُؤخر له المغفرة ، فيُعذَّب فترة فى النار ، ثم تتداركه رحمة الله وتشمله بركة لا إله إلا الله ، فتُخرجه من النار كرامة لكلمة التوحيد .

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

القرين هنا بمعنى الصاحب والملازم له الذى زيَّن له الضلال سواء من الجن أو من الإنس ، وهذا القرين يقول معتذراً لنفسه ومُدافعاً عنها ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ق] يريد أنْ يتبرأ من صاحبه الضال ويتركه فى المأزق الذى وقع فيه .

والقرآن الكريم شرح لنا فى أكثر من موقف هذا الحوار الذى دار بين التابع والمتبوع ، ممَّنْ سلكوا طريق الضلال ، وكيف أن كل طرف منهما يُلقى باللائمة على الآخر .

يقول تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الصافات]

كذلك يتبرأ الشيطان ممن اتبعه ، فيقول : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم] يعنى : لا أحد منّا يستطيع أنْ يدافع عن صاحبه .

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨)
مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُنهى هذا الحوار وهذه الخصومة بين الضال والمضل ، وينهى هذه المعركة ويقول لهما ﴿ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ .. (٢٨) ﴾ [ق] لأن الخصومة لا تنفعكم الآن فلا يلقى كُلٌّ منكم بالمسئولية على الآخر ، فأنا أعلم بكم ، أعلم بالذنب وبالمذنب ، بالضال وبالمضل .

فلا فائدة إذن من هذه الخصومة ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) ﴾ [ق] أى : قدمتُ لكم الوعيد فى الدنيا وبيَّنتُ لكم المنهج والحلال والحرام ، والجزاء عليه فى الجنة أو فى النار .

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ .. (٢٩) ﴾ [ق] يعنى : تخاصمكم الآن لن يغير شيئاً فيما قضيته ، ولن أرجع فى كلامى ، والمراد قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾ [ق]

وهذا قطع للعشم والرجاء وتيئيس لهم من رحمة الله ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾ [ق] يعنى : قضائى حَقّ وعدل تحكمه حكمة لا جبروت وظلم .

فهذه المدافعة وهذه المخاصمة بينكم لن تشفع لأحد منكم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾ [ق] كلمة (ظلام) صيغة مبالغة من ظالم ، فقولنا : فلان ظلام يعنى أنه من باب أَوْلى ظالم لكن فى النفى ، فنَفْى ظلام لا تنفى ظالم .

إذن : فقوله تعالى ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾ [ق] نفتْ ظلاَّم

لكن لم تنْف ظالم ، فهل يعنى هذا إثبات صفة ظالم لله تعالى ؟

نقول : قد تكون المبالغة فى تكرار الحدث ، فحين نقول مثلاً فلان أكول قد يكون لا يأكل كثيراً ، إنما يأكل رغيفاً واحداً لكن يأكل عدة مرات فى اليوم .

كذلك هنا الحق سبحانه لا يتحدث عن واحد ، إنما عن الناس جميعاً عن العبيد كلهم ، وعلى هذا المعنى يكون نَفْى (ظلام) نفياً لظالم أيضاً .

وقد يكون المقصود نفى الحدث نفسه ، لأن الظلم قدرة ظالم على مظلوم ، إذن : فالظلم يتناسب قوةً وضعفاً مع قوة الظالم ، فلو فرضنا أن الحق سبحانه وتعالى يُوصف بالظلم ، تعالى الله عن ذلك - لكان ظلمه قوياً شديداً ، فنقول : ظلام لا ظالم .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾

سبق فى الآيات قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾ [ق] وهنا يسأل الحق سبحانه جهنم ﴿ هَلِ امْتَلَأْتِ .. (٣٠) ﴾ [ق] وأيضاً سبق الوعد من الله أن يملأ جهنم ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة]

إذن : لابدَّ أنْ يُوفيها هذا الوعد ، فالسؤال هنا ﴿ هَلِ امْتَلَأْتِ .. (٣٠) ﴾ [ق] سؤال إقرار ، ويأتى الجواب ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق] يعنى هى امتلأت ، لكن تريد المزيد ، فأين تضعهم فيها ؟

تذكرون أننا قلنا زمان أن الخالق سبحانه أزلاً خلق الجنة لتسع

الناس جميعاً لو آمنوا ، وخلق النار لتسع الناس جميعاً إنْ كفروا ، وبذلك تخلو أماكن المؤمنين فى النار ، وتخلو أماكن الكافرين فى الجنة ، فالنار تقول ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق] لتملأ الأماكن الخالية فيها .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) ﴾

بعد أن تحدثت الآيات عن جهنم والعياذ بالله تذكر هنا المقابل وهو الجنة ﴿ وَأُزْلِفَتِ .. (٣١) ﴾ [ق] أى : قُرِّبت من المتقين ، لأنهم بشّروا بها فى الدنيا ، وبأن الله تعالى لا يخلف الميعاد .

أما الآن ونحن فى موقف الآخرة فهى تقرب منهم ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) ﴾ [ق] أى : أزلفتْ منهم إزلافاً غير بعيد .

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا .. (٣٢) ﴾ [ق] إشارة إلى ما تقدَّم من تقريب الجنة للمتقين ﴿ مَا تُوعَدُونَ .. (٣٢) ﴾ [ق] أى : وعد الله به ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ (٣٢) ﴾ [ق] أوّاب صيغة مبالغة نقول : آيب وأوّاب يعنى كثير الأوْب والرجوع إلى الله إنْ حصلت منه معصية ، فسرعان ما يندم عليها ويتوب .

والحق سبحانه وتعالى شرح لنا هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ .. (١٧) ﴾ [النساء] يعنى : لا يسعوْنَ إليها ولا يرتبون لها .

﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ .. (١٨) ﴾ [النساء]

والأوّاب كثير الرجوع إلى الله بالتوبة ، لا يعنى أنه كثير الخطايا ، إنما إنْ حدثت منه غفلة عن الطاعة سارع بالتوبة ، لأن الذى يرجع فى توبته من الذنب ثم يعود إليه وتتكرر منه هذه ، فقد شبَّهه رسول الله بالمستهزىء بربه ، وهذه صفة لا تليق بالأوّاب .

ومعنى ﴿ حَفِيظٍ (٣٢) ﴾ [ق] هى أيضاً صيغة مبالغة من حافظ ، والحفيظ هو كثير الحفظ لحدود الله وحُرمات الله ، يحفظ نفسه من الوقوع فى المعصية ، بل يحفظ نفسه من الاقتراب منها .

وهذا هو معنى الحديث الشريف : « احفظ الله يحفظك »[1] وحِفْظ الله يكون بحفظ حدوده والوقوف عند أوامره ونواهيه .

ومن صفات المتقين الذين وعدهم الله هذا الوعد ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ (٣٣) ﴾ [ق] الخشية معناها الخوف وهو على نوعين : تخاف وأنت تكره مَنْ تخافه وتلعنه لأنه أقوى منك ، أو لأنه يذلُّك ويقهرك ، فأنت تخافه وتحتقره ، وهذا خوف العباد من العباد .

وهناك خوف بحب وهيبة وإجلال على حَدِّ قول الشاعر :

أخافك إجلالاً وما بك قدرة ... علىَّ ولكن ملْءُ عين حبيبها

(١) عن ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال : يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٤٠) وأحمد فى مسنده (٥٣٧ ، ٢٦٢٧ ، ٢٦٦٦) عن ابن عباس .

فأنت تحب مَنْ تخافه ، وتعلم أن له جميلاً عندك ، وأنك لا تستطيع أنْ تُوفيه حقه ، وهذا هو الخوف من الله . ويساعدنا على فهْم هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[1] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

الحق سبحانه هنا لم يأت بحكم شرعى يلزمنا به أو يُخوِّفنا من التهاون فيه ، إنما تحدث عن آيات كوْنه ، أرادنا أنْ نبحث فيها ونتأملها ، وأنْ نُنقب عن أسرارها وما فيها من جمال .

فكلما نظرنا فى آيات الكون من حولنا ازددنا لله خشية ، ومهابة وإجلالاً لعظمته ونعمته علينا ، والعلماء هم أوْلَى الناس بهذا النظر ، وأقرب الناس إلى خشية الله وتقديره حَقَّ قَدْره .

وتأمَّل هنا الأداء القرآنى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ .. (٣٣) ﴾ [ق] فاختار صفة الرحمة ، ولم يقل مَنْ خشى القهار أو الجبار ، لأن الخشية هنا مغلَّفة بالحب وبالرحمة والتعظيم والإجلال لله الذى نخافه ونخشاه .

ثم قيد هذه الخشية بأنها ﴿ بِالْغَيْبِ .. (٣٣) ﴾ [ق] يعنى : ليست معلنة أمام الناس ، فالمؤمن الحق يخشى الله فى سرِّه قبل جهره ، وفى خلْوته قبل جلوته ، يخافه بينه وبين نفسه .

(١) الغربيب : الشديد السواد وجمعه غرابيب . [النهاية فى غريب الأثر] وهو تشبيه بلون الغراب . ومن الجبال غرابيب سود وهى ذوات الصخر الأسود . قال ابن الجوزى فى زاد المسير : « وللمفسرين فى المراد بالغرابيب ثلاثة أقوال : أحدها : الطرائق السود . قاله ابن عباس . والثانى : الأودية السود . قاله قتادة . والثالث : الجبال السود . قاله السدى .

أما ضعيف الإيمان فيخاف الله أمام الناس ، وإذا كان فى جمع منهم تحدَّث عن الحلال والحرام ، لكن إذا خلا بنفسه انتهك حرمات الله .

إذن : فخشيته من الله فيها رياء ويخالطها شرك ، لذلك وصف المتقين ، ووصف أهل الجنة بأنهم يخشون الله بالغيب .

ومن معانى الغيب أيضاً أن المؤمن لمّا تُخوِّفه عذاب الله وتذكر له النار وهو ما يزال فى سَعَة الدنيا يخاف منها ، ويؤمن بوجودها وهو لم يرها ، فهذه خشية بالغيب ، لأن النار بالنسبة لنا الآن غيب وما صدَّقنا بوجودها إلا لأن الله أخبرنا بها .

والمؤمن يأخذ الخبر عن الله كأنه واقع يراه بعينه ، ويلمسه بحواسه ، فالخبر من الله أصدق من رؤية العين . وهذه المسألة أوضحناها فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل]

فالخطاب هنا لسيدنا رسول الله ، وهو لم يرَ حادثة الفيل ، فقد وُلد فى هذا العام ، فلماذا لم يخاطبه بقوله : ألم تعلم وعدل عنها إلى : ألم تر ؟ قالوا : لأن الخبر من الله أصدق من رؤية العين ، نعم لأن الرؤية قد تخدعك ، أما إخبار الله فصدْق مطلق .

﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ﴾ [ق] أى : قلب أخلص لله وصدق فى الطاعة ، والقلب هو موضع الإيمان ، والله تعالى - كما ذكرنا - يريد منا القلب لا القالب ، فالقالب يمكن أنْ تقهره على أنْ يؤمن ، أما القلب فلا يأتى إلا بالحب والطواعية .

لذلك جعل الحق سبحانه الإيمان أمراً اختيارياً لا إجبار فيه ، وإلا لو شاء سبحانه لأجبر الخلق جميعاً على أنْ يؤمنوا به سبحانه ، كما أجبر السموات والأرض ، لكن أراد لعباده أن يأتوه طواعية واقتناعاً .

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

أى : ادخلوا الجنة ﴿ بِسَلامٍ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] سلامة خالية من المنغِّصات ، ولا تنتقل إلى غَمٍّ أو ضيق أبداً بعد ذلك . وهذا القول ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] هو قول الملائكة حين يلقونهم بالسلام .

وكذلك يقولها لهم الحق سبحانه فى قوله : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس] والذى يلقاه ربه بالسلام فلا شقاءَ له بعدها أبداً .

أو ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] أى : مسلِّمين على إخوانكم ، تقولون لهم : السلام عليكم كما كنتم تُسلِّمون عليهم وتُحيونهم بها فى الدنيا ، كذلك فى الآخرة تُحيون بها مالكاً على باب الجنة ، وتحيون بها إخوانكم .

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] ذلك إشارة إلى يوم القيامة ﴿ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] يوم البقاء والدوام والنعيم الذى لا ينقطع ولا يزول ، وهذا هو الفرْق بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة .

نعيم الدنيا مهما كان يؤرقه على صاحبه أمران : أنْ يفوت النعيم بالموت ، أو يفوته النعيم بالفقر أو المرض ، أما نعيم الآخرة فسالم من كلِّ المنغصات .

وقوله سبحانه : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق] أى : فى الجنة . وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يقولون : كيف يثبت لهم مشيئة فيما يريدونه وقد ورد : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(١) .

والمشيئة تعنى أنهم يعرفون ما يريدونه ؟

قالوا : يشاء ما كان يعلمه ويتلذذ به من نعيم الدنيا ، فى حين أن نعيم الآخرة غيره تماماً ليس له منه إلا الأسماء ، أما حقيقة الشيء فتختلف ، لذلك قال بعدها ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق]

وقد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله سبحانه :

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

يعنى : إذا اشتاقت نفسه مثلاً لأنْ يأكل المانجو يجدها غير ما عرفه فى الدنيا ، فإنْ طلبها فى اليوم التالى وجدها غير التى أكلها فى اليوم الأول وهكذا ، فهى متشابهة لكن ليست هى هى .

إذن : جعل لهم مشيئة فيما يعرفون من نعيم الدنيا وفيما يشتهونه منها ، أما فى الآخرة فشيء آخر بدليل « فيها ما لا عين

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦ ، ٤٤٠٧ ، ٦٩٤٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠ ، ٥٠٥١ ، ٥٠٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وفى رواية مسلم زيادة : مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة] .

رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

لأنك إذا اشتهيتَ شيئاً طلبته باسمه ، والاسم فرع لمعرفة المعنى ، وما دام أنها أشياء غريبة عنا فنحن إذن لا نعرفها ولا نعرف لها اسماً .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ⁽¹⁾ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

(كم) هنا خبرية تفيد الكثرة ، أى كثيراً ما أهلكنا ﴿ قَبْلَهُم .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [ق] أى : قبل قومك قريش ﴿ مِّن قَرْنٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [ق] هم الجماعة الذين عاشوا فى زمن محدود ، وقدَّروه بمائة عام .

وقد يزيد القرن فى المعنى عن هذا إذا ارتبط بنبى مثل قوم نوح عليه السلام ، فقد اقترنوا جميعاً فى نبوته التى استمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالقرن من الاقتران ، سواء أكان الاقتران فى زمن ملِك أو نبى أو حدث .

وفى آية أخرى بيَّن الحق سبحانه كيف أهلك الأمم المكذبة بهم قبلهم ، فقال سبحانه :

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير آية الأنعام ٦) : القرن اسم أهل كل عصر وسُموا بذلك لاقترانهم فى الوجود ، وللمفسرين فى المراد بالقرن سبعة أقوال أنه (أربعون سنة - ثمانون سنة - مائة سنة -- مائة وعشرون سنة - عشرون سنة - سبعون سنة) . أما القول السابع فهو أهل كل مدة كان فيها نبى أو طبقة من العلماء قلَّت أو كثرت ، بدليل قوله ﷺ « خيركم قرنى » يعنى أصحابى « ثم الذين يلونهم » يعنى التابعين .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

وكل هؤلاء كانوا أشد من قريش قوة وبطشاً ، وأين هم من إرم ذات العماد التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ؟ وأين هم من فرعون ذى الأوتاد .

﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [ق] تنقلوا فيها وسافروا خلالها ، والتنقُّل دليل القوة والتمكين ، وأنهم غير مشغولين بأمور حياتهم .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن الانتقال والسير فى الأرض قد يكون للاعتبار كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [النمل] وقد يكون لطلب الرزق والسياحة كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام]

إذن : ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [ق] ساروا خلالها للمتعة وللانتفاع ، حيث لم يكتفوا بما فى أوطانهم ، بل جابوا أوطاناً أخرى ، ولا يفعل ذلك إلا القوى ، أما الضعيف فلا يبرح مكانه ويرضى بالقليل .

وفى موضع آخر قال عنهم ﴿ وَأَثَارُوا⁽¹⁾ الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ﴿٩﴾ ﴾ [الروم]

---

(١) أثاروا الأرض أى قلبوها للحرث والزراعة كما قال الفراء . وقيل : لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك . (تفسير الألوسى الروم آية ٩) قال الشوكانى فى فتح القدير : « ولم يكن أهل مكة أهل حرث » . وذكر الزمخشرى فى تفسير الكشاف أن الثور سُمى ثوراً لإثارته الأرض ، وسميت البقرة بقرة لأنها تبقرها أى تشقها .

وكلمة نقب تدل على البحث عن غير الظاهر عن المستور فى باطن الأرض . إذن : لم يكتفوا بالظاهر من النعم وبحثوا عن المستور منها .

وقوله : ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ [ق] أى : ملجأ يلجأون إليه ويحميهم من العذاب ، والمعنى أن هؤلاء مع ما هم فيه من القوة والتمكين والسير فى جنبات الأرض لما نزل بهم العذاب لم يجدوا لهم ملجأ يحميهم ، ولا مأوى يدفع عنهم عذاب الله .

وكلمة ﴿مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ [ق] من حاص فهو حايص . نقولها حتى فى العامية يعنى : حائر يذهب إلى هنا ، ويذهب إلى هناك ، فلا يغيثه أحد ، فلا مهرب ولا مفرّ .

وجاء بالمعنى المراد فى صيغة الاستفهام ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ [ق] لتجيب أنت وتقر بالواقع ، هل وجدوا ملجأ يلجأون إليه من العذاب ؟ والجواب لا .

وهذه الآية وردت لتسلية سيدنا رسول الله والتخفيف عنه لما يلاقيه من عنت قومه وعنادهم ، كأنه تعالى يقول لنبيه : لا تحزن يا محمد وخُذْ أسوة بإخوانك من الرسل السابقين ، فالغلبة لك فى نهاية الأمر .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ
أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (٣٧)﴾ [ق] أى : فى قصص الأمم السابقة الذين أخذهم الله ﴿لَذِكْرَىٰ .. (٣٧)﴾ [ق] تذكير لكم كان يجب عليكم أنْ تعتبروا بهم ، وقد بلغكم خبرهم ، إما بمشاهدة

آثارهم وبقايا ديارهم ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

وإما بلغكم بسماع خبرهم من الكتب السماوية ، والسمع والبصر أهم وسائل الإدراك فى الإنسان ، لذلك قال هنا ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق] يعنى : سمع وشاهد .

وقوله سبحانه : ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ .. (٣٧)﴾ [ق] أى : قلب واعٍ متأمل ومدرك غير لاه ولا غافل ، وإلا فما فائدة السمع لمنْ ليس له هذا القلب ، إنه يسمع من هنا ويُخرج من هنا ، فلا يستفيد بما يسمع .

وكلمة ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ .. (٣٧)﴾ [ق] فيها كناية عن الاهتمام بالمسموع ، فلم يقل مثلاً لمن يسمع : إنما ألقى أذنه وأنصت ليستمع بحضور قلب ليعى المسموع ويستقبله بما يناسبه من البحث العقلى .

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق] وشهيد صيغة مبالغة على وزن فعيل تدل أيضاً على الاهتمام بما يشاهده وعلى الانتفاع به ، فهو يسمع ويشاهد بقلب حاضر وفهم واعٍ بعيد عن الغفلة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس أن اليهود أتت النبى ﷺ ، فسألت عن خلق السماوات والأرض فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق السماوات يوم الأربعاء والخميس ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشجر والقمر . قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش . قالوا : قد أصبت لو تممت ثم استراح ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فنزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩)﴾ [ق] .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(١) ﴿٣٨﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا أنه خلق السموات والأرض وما فيهن وما بينهما من الآيات الكونية فيما مجموعه ستة أيام ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق] ما أصابنا من تعب ولا نَصَب .

وهذه الآية لها نظائر فى القرآن الكريم دلتْ على أن أيام الخَلْق ثمانية أيام ، اقرأ : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت] إذن : معنا الآن يومان .

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] هكذا يكون المجموع ستة أيام ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. ﴿١٢﴾﴾ [فصلت]

إذن : المجموع الظاهر ثمانية أيام ، وهذا جعل بعض المستشرقين يتهمون الآيات بالتضارب ، أهى ستة أيام أم ثمانية . وهذا الاتهام وليد عدم فهمهم لأساليب اللغة ومراميها .

فالحق سبحانه تكلم أولاً عن خَلْق الأرض كجرم مستقل ، ثم تكلم عن خَلْق ما يتبع الأرض فى تمام أربعة أيام ، فالزمن هنا متداخل ، واليومان الأولان داخلان فى تتمة الأربعة ، لأنها فى خلق شىء واحد هو الأرض .

---

(١) اللغوب : الإعياء والتعب . ذكره البغوى فى تفسير الآية ، وقال الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب : أى ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة .

لذلك بعد أنْ تحدَّث عن خَلْق الأرض قال سبحانه : ﴿فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] أى : استوتْ تتمة الأربعة أيام مثل لو قلت : سِرْنا من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ساعتين . إذن : ليس فى الآيات تعارض ، بل هى منسجمة مع بعضها البعض .

ومن القضايا التى أثاروها حول هذه الآية قولهم : إن كان الحق سبحانه ينفذ إرادته ولا يحتاج فى الفعل إلى معالجة ، فلماذا لم يخلق هذا الكون بكلمة كُنْ ، ولا يستغرق الخلق ستة أيام ؟

وقلنا فى بيان ذلك أن هناك فرقاً بين خَلْق الشىء وبين جَعْل مُقدِّمات للخلق ، ثم يدور الشىء فى نفسه ويتفاعل إلى ما يصير إليه .

ووضحنا هذا بصناعة علبة الزبادى ، حيث نأتى باللبن والخميرة ونخلطهما ، ثم نجعل هذا الخليط تحت درجة حرارة معينة ، وبعد مدة تتفاعل هذه المكونات وتعطينا الزبادى .

إذن : عالجت هذه المسألة فى عدة دقائق لكنها تفاعلت فى عدة ساعات ، حتى صار إلى ما نريد بعد أنْ وضعنا فيه الأصول والمواد التى تكوِّنه ، كذلك فى مسألة خَلْق الكون فى ستة أيام طبعاً من الأيام التى نعرفها .

ومعنى اللغوب هو القصور الذى يأتى بعد التعب من العمل ، إذن : النَّصَب والتعب يصاحب العمل ، واللغوب قصور واسترخاء بعد الانتهاء ، فإذا نفى الأقل فالأكثر من باب أوْلَى لم يحدث .

إذن : المراد لم يحدث القصور ولم يحدث التعب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة] والسِّنَة غفلة تسبق النوم ، فنَفْى السِّنة يعنى نفى النوم من باب أوْلَى .

﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ
قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩ وَمِنَ
ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُسلِّي رسوله ﷺ بعدما لاقى من إيذاء قومه . يقول له : باشر أمر دعوتك ولا تحزن لما يقولون ، ولا تيأس من نصرك عليهم ، لأن رسول الله وصحابته لما اشتد بهم الإيذاء استبطأوا النصر .

وفي ذلك قال تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. ٢١٤ ﴾ [البقرة] وهنا يقول له ﴿ فَاصْبِرْ .. ٣٩ ﴾ [ق] لأن كل صبر على بلاء وإيذاء بأجر ومنزلة ، فكلما ازدادوا في الإيذاء اصبر على أذاهم ، فهم يزدادون إثماً وأنت تزداد أجراً .

وقوله تعالى :﴿ وَسَبِّحْ[1] بِحَمْدِ رَبِّكَ .. ٣٩ ﴾ [ق] أي : نزِّه ربك تعالى عن كلِّ نقص ، وعن كل ما لا يليق به سبحانه من صفات يتصف بها خَلْقه ، فالله له يد لكن ليستْ كأيدينا ، وله سمع ولكن

(١) اختُلفَ في معنى التسبيح هنا على أربعة أقوال :
الأول : هو تسبيح الله تعالى في الليل . قاله أبو الأحوص .
الثاني : إنها صلاة الليل كله .. قاله مجاهد .
الثالث : إنها ركعتا الفجر . قاله ابن عباس .
الرابع : أنها صلاة العشاء الآخرة . قاله ابن زيد .
[نقله القرطبي في تفسيره ٩/٦٤٢٤] . قلت : كلها أقوال محتملة ، فالتسبيح بالذكر في الليل يعضده ما جاء في الصحيح : « من تعارَّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » الحديث . والصلاة تسمى تسبيحاً لما فيها من تسبيح الله [عادل أبو المعاطي]

ليس كسمعنا ، فخذ هذه الصفات في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١ ﴾ [الإسراء]

لذلك الحق سبحانه وتعالى استهلَّ خبر الإسراء والمعراج بقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ١ ﴾ [الإسراء] أي : نزّه الله عن صفات النقص ، ونزّه الله عن مشابهة خَلْقه ، لأن في القصة خرقاً للنواميس التي يعرفها الخَلْق .

إذن : لا تستبعد هذا الحدث لأنه منسوب إلى الله لا إلى البشر ، فمحمد لم يقُلْ : سريتُ بل قال : أُسْرى بي .

والسرعة هنا في قطع المسافة تُحسب بقوة الفاعل ، فأنت تسافر من القاهرة إلى الإسكندرية بالحصان في عشر ساعات ، وبالسيارة في ثلاث ساعات ، وبالطائرة في نصف ساعة ، وبالصاروخ في عدة دقائق .

وهكذا تتناسب السرعة مع فاعلها ، فكلما ازدادت القوة قل الزمن ، فإذا كان صاحب السرعة هو الحق سبحانه وتعالى ، فالزمن هنا لا يُذكر ، وكوْن رسول الله استغرق في هذه الرحلة ليلة ، فهذا لأنه تعرَّض لمرائي عدة استغرقتْ هذا الوقت .

ومعنى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ٣٩ ﴾ [ق] أي : سبِّح ربك تسبيحاً مقروناً بالحمد على النعم ، لذلك تجد أن لفظ التسبيح يأتي دائماً مقروناً بنعمة من نعم الله ، وآية لا يستطيعها أحد سواه ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ١ ﴾ [الإسراء] ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ٣٦ ﴾ [يس]

لذلك رأينا على مرِّ التاريخ الكفار والمشركين والملاحدة يعبدون

أصنامهم وآلهتهم ويقدسونها ، ومع ذلك لم يقُلْ أحد لمعبوده : سبحانك أبداً لأنها لا تُقال إلا لله .

كما أن لفظ الجلالة الله لم يُسمِّه أحد رغم وجود الملاحدة ومُنكرى الألوهية ، لكن لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسمى ولده هذا الاسم ، لأنه يخاف أنْ يُسمِّى ولده الله .

لذلك قال تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] إذن : أمران لم يجرؤ أحد عليهما لعظمة الله سبحانه ، حتى فيما للخَلْق فيه اختيار .

كما نفهم من قوله تعالى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. (٣٩)﴾ [ق] أن السُّبحانية هذه من النعم التى تستوجب الحمد ، فكوْنُ الحق سبحانه مُنزّه عن الشبيه ، مُنزه عن المثيل ، مُنزه عن الشريك ، هذه من أعظم النعم على العباد .

فلو أن لله تعالى مثيلاً أو شريكاً أو نظيراً لفسدتْ حياتنا ، ولَشقينا نحن بهذه المثلية ، وما هنىء لنا عيش .

لذلك يقول تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢)﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

ومعنى ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ [ق] يعنى : سبِّحه تسبيحاً دائماً لا ينقطع ، فهذه الأوقات المذكورة تستوعب اليوم والليلة ، لأن من الناس مَنْ

يعمل بالنهار وينام بالليل ، ومنهم مَنْ يعمل بالليل وينام بالنهار ، فهذا انقطع تكليفه بالليل ، وهذا انقطع تكليفه بالنهار .

وهذه الآية لها نظائر فى آيات أخرى لكن لكل منها معنى ، يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا .. (١٣٠)﴾ [طه] فهنا قال ﴿الْغُرُوبِ (٣٩)﴾ [ق] وهناك قال ﴿غُرُوبِهَا .. (١٣٠)﴾ [طه] فقالوا : إذن : ما الفرق بينهما ؟ وأيهما أبلغ ؟

نقول : كلٌّ لفظ منهما بليغ فى موضعه ، فالشمس حين تغرب ، منا مَنْ يشاهد آية الغروب ، ومنا مَنْ لا يشاهده لغيم أو غيره ، ويحكم بالغروب بشواهد أخرى تدل عليه .

لذلك فى رمضان مثلاً ، كثيرٌ منّا لا يرى غروب الشمس ، ومع ذلك يفطر لأن لديه أدلة أخرى على الوقت . إذن : قوله تعالى ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ..(١٣٠)﴾ [طه] لمن شاهد الغروب ، وقوله : ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩)﴾ [ق] لمن لم يشاهده .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ [ق] وقال فى موضع آخر : ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ..(١٣٠)﴾ [طه] فالأوْلَى لمن يريد أنْ يسبح فى وقت واحد من الليل ثم ينام ، والأخرى لمَنْ أراد أنْ يُسبِّح ثم ينام ، ثم يُسبِّح ثم ينام ، يعنى مرات متعددة أثناء الليل .

ومعنى ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ [ق] يعنى : عقب الصلوات ، وقد بيَّن لنا سيدنا رسول الله ﷺ كيفية التسبيح عقب الصلوات .

﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ(١) ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾

المنادى هنا إسرافيل الملك المكلَّف بالنفخ فى الصور ، والمراد بالصيحة النفخة الثانية التى تُخرج الناس من القبور للبعث ، الحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ : ﴿ **وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ..** ﴿٤١﴾ ﴾ [ق]

والكلام هنا يأتى بعدما تعرّض له رسول الله من الإيذاء بالقول وبالفعل ، فكأن ربه عز وجل يُواسيه ، يقول له : إنْ كانوا فعلوا ذلك فانتظر هذا اليوم يوم ينادى عليهم المنادى يوم يقفون للحساب والجزاء .

واستمع لما يحدث منهم فى هذا الموقف ، وكيف سيندمون ويتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً ، ويشتم بعضهم بعضاً ، كما يقولون فى المثل الفلاحى (بكره نقعد على الحيطة ونسمع الظيطة) يعنى : انتظر يا محمد وسوف تسمع بهم .

---

(١) أكثر المفسرين على أن المكان القريب المقصود به صخرة بيت المقدس على ما روى عن يزيد ابن جابر وكعب الأحبار وابن عباس وقتادة ، وهى على ما رُوِى عن كعب أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً قال الألوسى فى تفسير (روح المعانى) فى تفسير الآية أن مثل هذا لا يُقبل إلا بوحى ، ثم إن كون صخرة بيت المقدس وسط الأرض مما تأباه القواعد فى معرفة العروض والأطوال ، ومن هنا قيل : المراد قريب ممن يناديهم . فقيل : ينادى من تحت أقدامهم . وقيل : من منابت شعورهم فيسمع من كل شعرة : يا أيتها العظام النخرة . أ هـ
قلت : بهذا يكون تأويل الشيخ الشعراوى الآتى بعد سطور هو الصواب فى تفسير الآية (سيكون قريباً من كل واحد كأنه ملازمه وكأن كل واحد منا معه مناديه) [عادل أبو المعاطى]

وقوله ﴿ **مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ** ﴿٤١﴾ ﴾ [ق] أى : أن المنادى سيكون قريباً من كل واحد كأنه ملازمه ، وكأن كلَّ واحد منا معه مناديه ﴿ **يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ..** ﴿٤٢﴾ ﴾ [ق] أى النفخة الثانية ﴿ **بِالْحَقِّ ..** ﴿٤٢﴾ ﴾ [ق] الحق الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويُكذِّبون به وهو البعث .

وقد حكى القرآن قولهم : ﴿ **أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ..** ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد] وقوله سبحانه : ﴿ **ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ** ﴿٤٢﴾ ﴾ [ق] أى : البعث والخروج من القبور ، والنفخة الثانية ستكون بعد موت جميع الخلائق بالنفخة الأولى .

لذلك كان سيدنا رسول الله دائماً يقرأ بسورة (ق) فى العيدين لقوله تعالى فيها ﴿ **ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ** ﴿٤٢﴾ ﴾ [ق] والخروج مُستحب فى العيدين حتى الحائض تخرج ليس للصلاة ، إنما لتشهد الخير وجماعة المسلمين فى هذا اليوم .

ولذلك سَنَّ لنا رسول الله أنْ تكون صلاة العيدين فى الخلاء ، لأنها صلاة يحضرها مَنْ لا تصح الصلاة منه .

كما أن فى القراءة بسورة (ق) فى العيدين إشارة إلى أن يوم العيد والخروج والفرحة والزينة ينبغى ألاَّ تُنسينا يوم الخروج الأكبر ، يوم القيامة .

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ ﴾

بعد أنْ قال سبحانه ﴿ **ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ** ﴿٤٢﴾ ﴾ [ق] يقرر هذه الحقيقة ويأتى بالنتيجة ، فيقول ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ..** ﴿٤٣﴾ ﴾ [ق]

ولأن البعض ينكر هذه الحقيقة أكدها سبحانه بتكرار الضمير .

﴿إِنَّا نَحْنُ .. (٤٣)﴾ [ق] فهو وحده سبحانه القادر على ذلك ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)﴾ [ق] أى : المرجع والمآب ، فالبداية منا والنهاية إلينا .

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا .. (٤٤)﴾ [ق] أى : يخرجون منها مُسرعين لأنهم يستجيبون للصيحة فى وقت واحد فيخرجون مُسرعين دون تأخير .

﴿ذَلِكَ .. (٤٤)﴾ [ق] إشارة إلى ما يحدث فى ذلك اليوم من تشقُّق الأرض وخروج الناس من قبورهم مُسرعين ، وجمعهم فى مكان واحد للحشر ، وهذا الحشر ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤)﴾ [ق]

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾

وما دام أننا أعلم بهم وبما يقولون فدَع الجزاء لنا ، لأنك إنْ جازيتهم تُجازيهم على قدر قوتك ، ونحن نجازيهم على قدْر قوتنا ، ولن نرحمهم ولن يفلتوا من العقاب ، إذن : اترك لنا هذه المسألة فنحن أقدر على تأديبهم .

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. (٤٥)﴾ [ق] فمهمتك البلاغ فلا تتعب نفسك معهم ، ولا تكلف نفسك فوق طاقتها ، كما عاتب الحق سبحانه

بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[١] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

ومعنى ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. (٤٥)﴾ [ق] أى : تجبرهم على الإيمان ، لأنى لو أردتُ ذلك لأجبرتهم على الإيمان كما أجبرت غيرهم ، إنما أنا أريدهم طواعية مختارين .

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ .. (٤٥)﴾ [ق] فهذه مهمتك أنْ تُذكِّر الناس بهذا القرآن .

ثم قيَّد التذكير هنا بقوله : ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾ [ق] أى : يخاف وعيدى وإنذارى ، ولا يخاف الوعيد إلا مؤمن وعنده استعداد وقابلية للتلقِّى والاستجابة .

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين الفعل والقابل للفعل ، فليس كل مَنْ يستمع القرآن سواء ، فمن الناس مَنْ يستمع ويثمر فيه السماع فيستجيب ، ومنهم مَنْ يستمع دون وعى ودون تأمل ، فكأنه لم يسمع شيئاً .

لذلك قال تعالى فى وصفهم : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..(١٦)﴾ [محمد]

فهذا السماع عمل الجارحة فقط بلا قلب يستقبل ويعى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد لكن المستقبل مختلف ، منهم مَنْ يستمع

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] قال الفراء : أى مُخرج نفسك وقاتل نفسك . وبخع الوجد نفسه إذا نهكها . [لسان العرب – مادة : بخع] .

بقلب وَاعٍ ونفس صافية وذهْن خالٍ من الضد ومن العقائد الفاسدة فيتأثر ويستجيب ، ومنهم مَنْ يستمع بقلب معاند وذهن مشغول بعقائد مخالفة تمنعه من الاستجابة .

لذلك قلنا لمن يفاضل بين أمرين : ينبغى أنْ تُخرجَ الجميع من قلبك ، ثم تخلو مع نفسك وتفكر وتبحث فى الأمرين .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ..** (٤٦) ﴾ [سبأ] فالتفكير الجماعى تفكير غير منظم ولا يصل إلى الصواب غالباً .

تذكرون أننا قلنا فى توضيح اختلاف الأثر للفعل الواحد أنك تنفخ فى يدك فى الشتاء للتدفئة وتنفخ فى الشاى مثلاً لتبرده .

فالحق سبحانه وتعالى هنا خَصَّ بالتذكير ﴿ **مَن يَخَافُ وَعِيدِ** (٤٥) ﴾ [ق] لأنه صاحب القلب الواعى والذهن الخالى من المخالف الخالى من الغش ومن الضلال ، وهذا هو المستقبل الصحيح للقرآن .

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

سورة الذاريات[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢
فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾

الواو هنا واو القسم ، فهذه أقسام يقسم بها الحق سبحانه ، ونحن لا نقسم إلا بالله لأنه لا توجد عند المؤمن عظمة فوق عظمة الله ، أما الحق سبحانه فيقسم بما يشاء من مخلوقاته لأنه سبحانه أعلم بأوجه العظمة فيها ومواطن الحكمة فى كل قسم منها .

فمثلاً يقسم سبحانه فيقول ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى] فلماذا أقسم سبحانه بالضحى والليل إذا سجى بالذات ، ولم يقسم بشىء آخر ؟

---

(١) سورة الذاريات هى السورة رقم (٥١) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٦٠) آية . وهى سورة مكية فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٤٢٩) . نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية فهى السورة رقم (٦٦) فى ترتيب نزول القرآن . (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/ ٢٧) .

جاء هذا القسَم رداً على كُفار مكة عندما فتر الوحى عن رسول الله فرحوا وقالوا : إن رب محمد قد قلاه[1] .

فالقسم هنا له مغزى ومناسبة ، فالضحى محلُّ الحركة والعمل ، والليل محل الراحة والسكون ، وكل منهما لا يستغنى عن الآخر .

فهنا إشارة إلى الحكمة من فتور الوحى ، كأنه يقول لهم : تأملوا فى الزمن الذى يشملكم ، وكيف أنه ليل للراحة ونهار للعمل ، وكلٌّ منهما يكمل الآخر .

كذلك مسألة الوحى لما نزل على رسول الله بداية الأمر كان شاقاً عليه مُرهقاً له ﷺ ، وقد وصف رسول الله هذه المشقة فقال عن الملَك « ضمَّنى حتى بلغ منِّى الجهد »[2] ولما عاد إلى بيته قال : « زمِّلونى زمِّلونى » « دثرونى دثرونى » .

فكان فتور الوحى عن رسول الله فرصة يستريح فيها من العناء ، ويشتاق فيها لمباشرة الملَك من جديد ، فشبَّه نزول الوحى أولاً بالنهار وفتوره بالليل .

هنا الحق سبحانه يقسم بالذاريات ، وهى الرياح ، والرياح قوة وطاقة ضرورية للحياة فى هذا الكون ﴿ ذَرْوًا (١) ﴾ [الذاريات] أى :

(١) أورده الطبرى فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل ، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودّعه ، فأنزل الله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] . وقد أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٣٢٢٢ ، ٥٥٥٨) من حديث جندب .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٤٥٧٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣١) من حديث عائشة رضى الله عنها ، ولفظ الحديث (غطّنى) .

تذرو الأشياء وتحركها ، والذاريات هى التى تحمل بخار الماء إلى مواطن تكوّن السحاب .

فقال بعدها ﴿ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) ﴾ [الذاريات] وهى السُّحب تحمل الماء وتتجمع حتى تصير ثقيلة ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[2] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

والوقر : الحمل الثقيل ، يقول سبحانه : ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) ﴾ [الرعد] ثم إن هذه السُّحب بعد أنْ تتكوَّن لا تقف فى مكانها إنما تحركها الرياح .

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) ﴾ [الذاريات] أى : السُّحب تجرى جرياً خفيفاً ، وتسبح فى الفضاء فى خفَّة ونعومة .

وقوله : ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا .. (٤) ﴾ [الذاريات] أى : التى تقسِّم هذه السحب ، وتسُوقها إلى مواطن سقوطها ، كما قال سبحانه : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. (٤٣) ﴾ [النور] ثم يأتى جواب هذه الأقسام الأربعة :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) ﴾

أى : ما تُوعدون من البعث والحساب ﴿ لَصَادِقٌ .. (٥) ﴾ [الذاريات] حق

(١) يزجى سحاباً : يسوقه برفق . ومنه قوله تعالى ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أى يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤]

(٢) الودق : المطر . ودقت السحابة : أمطرت . ومعنى أن الودق يخرج من خلاله ، أى من خلال السحاب المتراكم فى السماء . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧]

وواقع ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝ ٦ ﴾ [الذاريات] الدين يعنى يوم الدين ، يوم الجزاء على الأعمال ﴿ لَوَاقِعٌ ۝ ٦ ﴾ [الذاريات] جارٍ وحادث لا شكّ فيه .

لكن ما مناسبة القسَم بهذه الأشياء على صدق يوم الدين ؟

قالوا : حين تنظر إلى الكون الذى نعيش فيه تجد أن الخالق سبحانه خلق فيه كل شىء وكل المقومات هذه كما هى فى كون الله منذ خلقها الله ، وهى باقية إلى يوم القيامة ، بحيث لا يُعاد فى الخَلْق إلا الإنسان .

خذ مثلاً الماء أو الهواء اللذين أقسم الله بهما تجد الماء هو هو منذ خلق اللهُ هذا الكون ، لا يزيد ولا ينقص ، لأنه يدور فى دائرة تعود به إلى الماء الطبيعى الذى خلقه الله .

فأنت مثلاً تشرب فى رحلة الحياة عدة أطنان من الماء مثلاً ، هل تبقى فيك ؟ أبداً إنما تخرج منك على هيئة بول وعرق وخلافه وتعود مرة أخرى إلى مصدرها ، وهكذا حتى القدر القليل الذى يتبقى فى جسم الإنسان تمتصه الأرض بعد موته ويعود إلى المياه الجوفية .

إذن : هنا إشارة إلى أنك تُولد وتموت وتعود ونأتى بك مرة أخرى ، فخذ من الكون المادى حولك دليلاً على إمكانية إعادتك مرة أخرى ، خذ المادى المشاهد دليلاً على صدق الغيب الذى أخبرك الله به ، إذن : لا تستبعد أن الشىء الذى يفنى يعود مرة أخرى .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ ٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝ ٨
يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ ٩ ﴾

هذا قسم آخر يقسم الحق سبحانه بالسماء ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ ٧ ﴾ [الذاريات] من مادة (حَبَكَ) نقول مثلاً : هذا الشىء محبوك يعنى : صُنع بدقة لا زيادةَ فيه ولا نقصان ، وهكذا السماء نراها ملساء مستوية ليس فيها شقوق ولا فطور ، لأنها خُلقتْ بدقة وإحكام، وقالوا ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ ٧ ﴾ [الذاريات] أى : الطرق التى تسلكها الكواكب فى سَيْرها .

وجواب هذا القسم ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝ ٨ ﴾ [الذاريات] والكلام عن كفار مكة المعاندين لرسول الله الذين اختلفت أقوالهم فيه كأنَّ الحق سبحانه يعطيهم إشارة إلى أن القول يجب أنْ يكون واحداً قصداً لا التواءَ فيه ، كما فى خَلْق السماء خَلْقاً محكماً لا اختلافَ فيه .

كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ ٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا[1] الْمِيزَانَ ۝ ٩ ﴾ [الرحمن] فالسماء استوت واستقامت لأنها خُلقت بميزان الحق ، فإن أردتم أنْ تستقيم أموركم فأقيموها على وفق هذا الميزان ، وإلا اختلفتم واختلفتْ أقوالكم .

ومعنى ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ ٩ ﴾ [الذاريات] أى : يُصرف عنه أى عن رسول الله وعن الإيمان به ﴿ مَنْ أُفِكَ ۝ ٩ ﴾ [الذاريات] صرفته الشياطين عن الإيمان ، فمن مهمة الشيطان أنْ يصرف أهل الحق عن الحق ، وأنْ يُزيِّن لهم الباطل ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

---

(١) أخسر الميزان : أنقصه . أى لا تنقصوا فى المكيال والوزن . وقال أبو عمرو : الخاسر الذى ينقص المكيال والميزان إذا أعطى ، ويستزيد إذا أخذ . [بتصرف من القاموس القويم ١/١٩٣ ، ولسان العرب] .

﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾
يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾
ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

معنى ﴿ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الذاريات] أى : الكذابون ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف] لكن كيف يقول ﴿ قُتِلَ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الذاريات] وهم أحياء ؟ قالوا : المراد هنا لُعنوا منى وأبعدوا عن رحمتى ، والقتل يُخرجك من نعيم الدنيا ، أما اللعن فيُخرجك من رحمة الله فى الآخرة ويُدخلك فى عذابه والعياذ بالله .

كأنه سبحانه يقول لهم مَنْ تقتلون ومَنْ تلعنون ، بل أنتم الذين ستُقتلون وتُبعثون وتُحاسبون ، وأنتم الذين ستُلعنون وتُطردون من رحمة الله .

ثم يصفهم سبحانه بقوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الذاريات] يقولون : غمره الماء إذا شمله وأغرقه ، فكأن هؤلاء غمرهم الجهل حتى غرقوا فيه فأعماهم ، ومعنى ﴿ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الذاريات] غافلون لاهون منصرفون عما يُراد منهم .

ومثل هؤلاء لا نجاة لهم يوم القيامة ، هذا اليوم الذى يُكذِّبون به ويسألون عنه سؤال الشك والاستهزاء ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الذاريات] متى هذا اليوم ؟

فيُبيِّنه الله لهم ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الذاريات] يوم الدين الذى تكذبون به هو هذا اليوم الذى ستُلْقَون فيه فى جهنم وتذوقون فيه العذاب ألواناً ، جزاء استهزائكم وسخريتكم .

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الذاريات] ذوقوا آثار فتنتكم فى الدنيا ، والنار أيضاً تُسمَّى فتنة حين تُصهر المعدن مثلاً لتنقيه وتُخرج شوائبه .

فيوم الدين الذى تسألون عنه سؤالَ استهزاء وإنكار له هو يوم تُفتنون على النار وتُحرقون بها كما يفتن الذهب والحديد ، وإنْ كان الذهب والحديد يفتن ليخرج منه خبثه وشوائبه فيصير صلْباً فأنتم تفتنون على النار لتعذَّبوا بها وتُقاسوا الآلام التى لا تنتهى .

﴿ هَٰذَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الذاريات] أى : عذاب يوم القيامة ﴿ الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الذاريات] واستعجالهم له نتيجة تكذيبهم به ، فلو آمنوا بأنه حَقٌّ ما استعجلوه .

وقد حكى القرآن قولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحقاف]

إذن : سؤالهم عن يوم الدين ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الذاريات] استهزاء به وإنكار له ، لأنهم لا يؤمنون بشىء غيبى أخبر الله عنه ، مع أنهم أخذوا النعم المادية التى أنعم الله بها عليهم ، وخلق بها النفع لهم ، لكنهم أخذوا النعمة ولم يلتفتوا إلى المنعم ، بل اغتروا بالنعمة فقالوا ما قالوا من إنكار واستهزاء .

لذلك نجد آيات كثيرة تجادلهم بالحجة وبالبرهان ، وتثبت لهم أن

القيامة حق ، فلما قالوا : ﴿ أئذا كُنَّا عظامًا ورُفاتًا[1] أئنَّا لمبعوثون خلقًا جديدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء] رد عليهم : ﴿ قُلْ كُونوا حجارةً أو حديدًا (٥٠) أوْ خلقًا ممَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُم فسيقولون من يُعيدنا قُلِ الذى فطرَكُمْ أوَّلَ مرَّةٍ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

فلأنهم استبعدوا إحياء العظام نقلهم نقلة أعلى من العظام ، فالعظام لها أصل فى الحياة ، فيقول لهم : حتى لو كنتم جماداً حجارة أو حديداً مما يتصف بالصلابة ولا صلةَ له بالحياة ، فنحن قادرون على إحيائكم .

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن المعاندين لرسول الله المكذبين بالقيامة يذكر سبحانه المقابل ، وقلنا فى ذكر المقابل توضيح للصورة ، والضد يظهر حُسْنه الضد ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٥) ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِٱلْأَسْحَارِ[2] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (١٩) ﴾

(١) الرفات : الحطام من كل شىء تكسَّر . والرفات : الدُّقاق . [لسان العرب مادة : رفت] قال مجاهد فى تفسير آية الإسراء ٤٩ رفاتاً أى تراباً . وقال ابن عباس : رفاتاً أى غباراً . [تفسير ابن كثير ٣/ ٤٤] .

(٢) السَّحَر : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر وجمعه أسحار . [القاموس القويم ١/ ٣٠٥] .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ .. (١٥) ﴾ [الذاريات] (إن) تفيد توكيد الكلام ، و (المتقين) جمع المتقى ، والتقوى كما قلنا أنْ تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية ، لذلك نجد القرآن يقول مرة : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٨) ﴾ [الحشر] ومرة يقول ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١) ﴾ [آل عمران]

والمراد : الزموا طاعة الله ، وتجنَّبوا معصيته وأسباب عذابه ، لأن الله تعالى صفات جمال وصفات جلال ، والتقوى أنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية من صفات الجلال التى تزجر المخالف وترده عن الشر .

فمن صفات الجمال أن خلق لنا ما ننتفع به فى الدنيا ، ومن ذلك النار ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

لكن هذه النار التى تنتفعون بها فى الدنيا وتُعد نعمة من نعم الله عليكم احذروها فى الآخرة ، لأنها ستكون أداة تعذيب ، ستكون جنداً من جند الله لقهر المخالفين ، فاتقوها . إذن : المعنى واحد : اتقوا الله ، واتقوا النار .

وتلاحظ هنا أن ﴿ الْمُتَّقِينَ .. (١٥) ﴾ [الذاريات] فى زمان التكليف وهى جمع و ﴿ جَنَّاتٍ .. (١٥) ﴾ [الذاريات] فى زمن الجزاء وهى جمع ، وكذلك ﴿ وَعُيُونٍ (١٥) ﴾ [الذاريات] فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إن لكل مُتّق جنة وعيناً تجرى خلالها ،

(١) تورون أى تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها . [ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٢٩٦] . وأورى الزند إيراء : خرجت ناره . وأورى القادح زنده : أخرج منه النار . فهو لازم ومتعد . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٣] .

نعم جنة خاصة به ، لأن القاعدة إذا قُوبل الجمع بالجمع اقتضى القسمةَ آحاداً .

كما يقول المدرس مثلاً للتلاميذ : أخرجوا كتبكم ، والمراد أنْ يُخرجَ كلّ منهم كتابه ، لكن نجد فى سورة (الرحمن) يقول سبحانه : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن]

فكيف نجمع ونُوفِّق بين الآيتين ؟ قالوا : لأن سورة الرحمن جاء الخطاب فيها للثقلين الجن والإنس ، فالمعنى : ولمَنْ خاف مقام ربه من الإنس أو الجن جنة ، جنة للإنس وجنة للجن .

أو أن المعنى : له جنتان بالفعل ، وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه خلق الجنة على فرض أنْ يؤمن جميعُ البشر ، وخلق النار كذلك تكفى للبشر جميعاً إنْ لم يؤمنوا .

وقلنا : هناك لا توجد أزمة مساكن ، فإذا دخل أهلُ النار النارَ فرغتْ أماكنهم فى الجنة فورثها المتقون ، فكأنه أخذ جنته وجنة الكافر الذى تركها ، وذهب إلى النار .

والجنة هى البستان الملىء بالأشجار متشابكة الأغصان بحيث تستر مَنْ يسير فيها وتُجنّه ، أو أن فيها كلَّ مقومات الحياة بحيث لا يحتاج إلى الخروج منها ، كما نقول فى كلمة قصر يعنى : قصرك فى مكانه عن الأمكنة الأخرى ، فلا تخرج منه إلى مكان آخر لتلتمس أسباب الحياة ..

وقال : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) ﴾ [الذاريات] أى : عيون الماء ، لأن الجنات الأصل فيها الخضرة والنماء والثمار ، وهكذا الأشياء

وليدة وجود الماء ، فالعيون فى الجنات لاستبقائها ودوامها كجنة .

لذلك لما تحدَّث القرآن الكريم عن أنهار الجنة وتوفير الماء اللازم لها قال مرة ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة] وقال مرة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.. (١٢) ﴾ [الصف]

فمن هنا تفيد أن الماء ذاتى فيها ، حتى لا نظن أن الماء الجارى الذى يمرُّ بها قد ينقطع فيقول لك : اطمئن فماء الجنة مضمون لأنه نابع منها .

وقوله سبحانه : ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٦) ﴾ [الذاريات] يعود السياق هنا إلى الماضى ويُحدِّثنا عن الحيثية ، فهؤلاء المتقون نالوا هذا الجزاء ، لأنهم أخذوا منهج الله برضا وقبول .

﴿ آخِذِينَ ..(١٦) ﴾ [الذاريات] جمع آخذ اسم فاعل ، وهو الذى يتناول الشىء بعشق ولهفة ، ويأخذه برضى وقبول ، والإنسان لا يمدُّ يده ليأخذ إلا لشىء فيه نفع له على خلاف شىء يُرْمى عليك فتأخذه وأنت كاره .

فكأن هؤلاء سمعوا منهج الله ، وعلموا أن فيه قوامَ حياتهم وصيانة حركتهم ونجاة آخرتهم فأخذوه ، أخذوه بلهفة وحب وعشق ، أخذوه بقوة كما قال تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ..(٦٣) ﴾ [البقرة]

فالقوة فى الأخذ تدل على أن الآخذ يقدر المنفعة الجميلة التى ينالها ، ثم إنك أخذتَ وغيرك ترك ، فأحسنتَ وأساءوا ، مع أنك مختار ولك مطلق الحرية تأخذ أو تترك .

لقد أحسنتَ وأنت قادر على الخير وعلى قبول الشر ، فكونُكَ تسمع وحى الله وتطيع وتتحمل التكاليف عن رضا وقبول ، فأنت أهلٌ لهذا الجزاء .

ثم تبين الآيات أن الأخذ هنا أخذٌ مقيد ، لا نأخذ كل شيء وكل ما يأتينا بل نأخذ ماجاءنا من ربنا وخالقنا ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [الذاريات] واختار هنا صفة الربوبية لأنها عطاء ، فالرب هو الذى خلق من عدَم وأمدَّ من عُدْم ، وأبقى لك مُقوِّمات الحياة بقيوميته ، نقول : فلان قائم على الأمر يعنى : مهتم به لا يتركه لغيره .

فالله بحكمته وقدرته خلق ، وبقيوميته استدام الخير ، لذلك ساعة يأتيك الخير تذكر الربوبية التى منحتك . والربوبية أسبق فى حياة الإنسان من الألوهية ، لأن الله تعالى أعطاك وأمدَّك قبل أنْ تُخلق وما كلَّفك إلا بعد سنِّ البلوغ .

وما دُمت قد أخذتَ عطاء الربوبية وتمتعتَ به فقد وجب عليك أنْ تأخذ عطاء الألوهية ، وكما أخذتَ العطاء الأول بحب ورغبة وعشق ، فعليك أنْ تأخذ العطاء الآخر أيضاً بحب ورغبة وعشق ، لا يليق بك أن تأخذ الأول وتترك الثانى وتتنكر له لأنك لو تأملت عطاء الألوهية لوجدته أنفع لك من عطاء الربوبية وأدوم .

فعطاء الربوبية الأول أعطاك مقومات الحياة الدنيا وهى موقوتة فانية ، أعطاك مقومات القالب الزائل ، أما عطاء الألوهية فعطاء يضمن لك الآخرة الباقية ويحيى فيك الروحَ الباقية التى لا تفنى . إذن : فأيُّهما أحقُّ بالأخذ ؟

لذلك الحق سبحانه وتعالى حينما حدثنا عن هذه المسألة قال سبحانه : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ(١) وَرِيشاً(٢) وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف]

فاللباس الذى يوارى السوأة يمثل الضروريات والريش للزينة والكماليات ، وهذا قصارى ما نأخذه فى الدنيا . ثم يلفت الأنظار إلى ما هو أهم ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف] خير من نعيم الدنيا وزينتها وزخرفها ، لأن هذا زائل وهذا باقٍ دائم ، لباس الدنيا يسترك فى الدنيا ، ولباس التقوى يسترك فى الدنيا وفى الآخرة .

ولما كان لعطاء الألوهية هذه الأهمية لم يُعطه الله إلا لمن آمن به مختاراً ، فلم يكلف إلا المؤمن ، لذلك نقرأ دائماً فى مجال التكاليف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة]

ثم تذكر الآيات صفة أخرى من صفات المتقين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الذاريات] أى : ما استحقوا هذه المنزلة إلا لأنهم ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الذاريات] والإحسان درجة

---

(١) السوءات جمع سوْءة ، وهى العورة ، وما يقبح إظهاره وينبغى ستره . [القاموس القويم ١/٣٣٤] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٠٧) : « اللباس ستر العورات وهى السوءات والرياش والريش ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات . وقال ابن عباس : الريش المال وهكذا قال مجاهد وعروة وغير واحد ، وقال ابن عباس : الرياش اللباس والعيش والنعيم » .
ومنه قولنا فى العامية : رجل مريِّش أى غنى . ومنها بالإنجليزية Rich .

عالية من درجات الإيمان عرَّفها العلماء فقالوا : الإحسان هو ما جاء فى حديث رسول الله ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك »[(١)] .

والإحسان هو الزيادة فى الطاعات فوق ما أمرك الله به ، لذلك نزلت هذه الآية فى مكة قبل أنْ تُفرض الزكاة فى مكة ، قال تعالى : ﴿ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] ولم يقل حق معلوم ، فالحق المعلوم هو الزكاة وقد فرضت بالمدينة ، أما الصدقة فكانت فى المرحلة المكية .

إذن : معنى الإحسان أنهم ذهبوا إلى مراتب الإحسان قبل أنْ يُكلَّفوا بها ، وهذا يعنى أن مراتب الإحسان فطرية وطبيعية ، وفى إمكانك ولا تكلفك ، وهكذا كل أمور الطاعة والاستقامة تأتى طبيعية لا تكلُّف فيها على خلاف المعصية .

لذلك نقول : إن المستقيم مثلاً يوفر ثمن الجلوس على القهاوى وشرب الدخان والقهوة والمخدرات والمسكرات ، فالاستقامة من الناحية الاقتصادية أوفر لصاحبها .

حتى فى عمل الجوارح تأتى الاستقامة طبيعية ، أما المعصية فتحتاج إلى تكلُّف وتلصُّص واحتيال ، لذلك فى الاشتقاق اللغوى عبَّر القرآن عن الطاعة بـ (كسب) وعن المعصية بـ (اكتسب) .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨ ، ٤٤٠٤) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠، ١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وأخرجه مسلم فى صحيحه (٩) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

فالكسب أمر طبيعى ، و (كسب) على وزن فعل ، أما (اكتسب) ففيها افتعال وهى على وزن افتعل ، وهذا الافتعال تراه مثلاً فيمن يحتال لينظر إلى ما حرَّم الله عليه ، كيف يتلصص ويُسارق الناسَ النظرات ، كذلك تراه فيمن يذهب إلى المسجد ومَنْ يذهب إلى الخمارة وهكذا .

وقد عرَّف العلماء درجة الإحسان فى العبادة ، فقالوا : الإحسان أنْ تؤدى ما فرضه الله عليك من العبادة ، وتزيد عليها من جنس ما فرض الله ، فالمؤمن يؤدى الصلوات الخمس والمحسن يؤديها ويزيد عليها ما استطاع من النوافل .

المؤمن يؤدى الزكاة بمقدار نصف العشر أو ربع العشر ، والمحسن يؤدى فوق ذلك وهكذا .

إذن : المحسن هنا له معنيان : أنه أحسن قبل التكليف وبادر بعمل الخيرات قبل أنْ تُفرض عليه ، أو أدَّى ما فُرِض عليه ثم زاد على ما فرض من جنس ما فرض الله عليه .

ثم يصف الحق سبحانه وتعالى المحسنين بقوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الذاريات] والهجوع هو : الثبات عن الحركة فى الخير وعدم عمل الشر ، ونقول للولد المشاغب الذى تزيد حركته : اهجع . يعنى : كُفّ عن الحركة المزعجة .

ومن هنا قالوا : نوم الظالم عبادة ، نعم عبادة لأنه يكفُّه عن الظلم ، فهؤلاء لهم أنْ يصلُّوا العشاءويناموا بعدها إلى الفجر ، لكن حبهم للطاعة جعلهم لا يهجعون من الليل إلا قليلاً ، ونَفْى الهجوع نَفْىٌ للنوم من باب أوْلَى .

والإحسان نتيجة لحب العبد لربِّه ، فالله أحسن إليك حين كلَّفك وحيَّاك بهذا التكليف ، فعليك أنْ ترد التحية بأحسن منها ، فإنْ كلَّفك

بخمس صلوات تجعلها عشراً ، وإنْ كلَّفك بنصف العشر أو بربُع العشر فى الزكاة تجعلها أضعاف ذلك ، وهكذا فى سائر العبادات وأوجه الخيرات .

ولما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الإحسان قال : « هو أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك » والذى تراه يكون حاضراً ليس غيباً ، وتصوَّر أنك أجير عند رجل يجلس خلفك يراقب ويرصد كل تحركاتك ، هل تستطيع عندَه إذن أنْ تتهاون فى عملك أو تقصر فيه ؟

كذلك حال المحسن فى عبادته ، وقد ورد فى الحديث القدسى : يا عبادى إنْ كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنى أراكم ، فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات]

الأسحار جمع السَّحَر ، وهو آخر الليل وقبل طلوع الفجر ، حيث يظهر ضوء بسيط يخيَّل للإنسان أنه ضوء الشمس وهى لم تطلع بعد ، ولذلك يُسمَّى ضوءاً تخيلياً .

ومنه كلمة السِّحر ، فالسحر قلْبٌ للحقائق بطريق التخيُّل ولا حقيقة له ، ومنه قوله تعالى : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ..﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف]

ووقت السَّحَر من أفضل الأوقات للاستغفار ، لكن ممَّ يستغفر

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم فى شرح الحديث (١٨) من قول أبى الجلد قال : أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ، إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

هؤلاء الذين وصفهم ربهم بالتقوى ، وأنهم أخذوا ما آتاهم ربهم ، وأنهم نالوا درجة الإحسان ، وكانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ؟

إذن : ليس لهم ذنوب يستغفرون الله منها ، قالوا : إن لهؤلاء استغفاراً يليق بدرجة الإحسان ، فهم لا يستغفرون الله من ذنوبهم ، بل يستغفرونه للتقصير الذى يظنونه فى عباداتهم وأعمالهم وكأنهم استقلُّوا ما فعلوه ورأوه دون ما يستحق الله تعالى من التقدير والعبادة . وهذا من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

وقوله تعالى :﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]

نسب إليهم المال ، فقال ﴿أَمْوَالِهِمْ .. ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات] لأنه يتملكه الآن وإنْ كان فى الحقيقة مال الله ، والإنسان مستخلف فيه إلى حين .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .. ﴿٧﴾﴾ [الحديد]

والإنسان خليفة لله فى الأرض ، وعليه بمقتضى هذه الخلافة أنْ يطيع أمر مَن استخلفه بأنْ يعطى السائل والمحروم من مال الله المستودع عنده ، يعطى العاجز غير القادر على العمل والكسب ، حتى لو يعطيه شكراً لله الذى منحه القوة ليعمل ، فى حين أن غيره عاجز محروم من هذه القوة .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمرنا بذلك إنما يُؤمِّن حياة ومستقبل القادر وغير القادر على العمل ، لأن الدهر يتقلب بالناس ، وأحداث الحياة دائمة التغيير ، وربما أصبح القادر اليوم غير قادر غداً ، وعندها يجد مَنْ يمد إليه يد المساعدة .

لذلك قلنا : إن الشارع الحكيم علمنا أنْ نعمل على قدر الطاقة

لا على قدر الحاجة ، فحينما تعمل على قدر الطاقة التى وضعها الله فيك فإنك ستأخذ حاجتك وتتصدَّق على غير القادر أنْ يعمل ، ولو توفر لنا هذا التضامن وهذا التأمين لَعاش الإنسانُ لا يهاب أحداث الحياة ولا يخشى الفقر عليه وعلى ذريته من بعده .

وقوله تعالى : ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات] السائل هو المحتاج وتضطره الحاجة لأنْ يسأل الناس ، ومثله المحروم هو أيضاً محتاج لكنه يتعفف عن المسألة فيحرم وربما يجوع أو يهلك ، وهو فى هذه الحالة يكون آثماً فى حقٍّ نفسه ، لأن الله تعالى شرع له أنْ يسأل ، فهو محروم من التملك أولاً ، وحرم نفسه ثانياً من السؤال الذى شرع له .

ومن هنا حثَّ الإسلام على التعارف وعلى حضور الجماعات التى يتعارف فيها الناس ، ويسأل بعضهم عن بعض ، ومن خلال هذا التعارف نعرف المحتاج فنساعده ونعرف المريض فنزوره ، وهكذا .

وأحد الصالحين جاءه سائل فأعطاه حاجته ، ثم دخلتْ عليه زوجته فوجدته باكياً ، فقالت له : ما يُبكيك وقد أعطيته حاجته ؟ فقال : أبكى لأنِّى تركته حتى يسألنى .

إذن : الواجب أنْ يصل الحق إلى أصحابه دون سؤال ؛ واجب على الغنى أنْ يكفى الفقير مذلة السؤال .

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾

الأرض هى الأرض التى نعيش عليها وهى مفردة ، وفى الحقيقة هى أراض متعددة ، كما قال تعالى : ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢)﴾ [الطلاق] فهى إذن سبع أرْضين .

قالوا : لأن الأرض بيئات متعددة من حيث الطقس حرارة وبرودة ، ومن حيث التربة وما تحويه من عناصر وما تُخرجه من خيرات . ومن هنا تعددت الأراضى ، لذلك العلماء يقولون : هذا حزام القمح مثلاً ، وهذا حزام الموز ، وهذا حزام كذا .

فالحق سبحانه أعطى كل أرض ما يصلحها لنبات معين يناسب السكان عليها ، والعيب أننا ننقل إنتاج أرض إلى أرض أخرى لا يصلح لها ، ولو صلح للسكان هنا لكان موجوداً عندهم .

لذلك نجد النبات فى غير أرضه تصيبه الآفات ، فلو نظرنا مثلاً إلى حزام الموز تجده فى أماكنه قوياً لا تصيبه آفة ولا عطب ، فإذا نقلته إلى غير أرضه كثرتْ فيه الآفات وأصابه العطب .

كأن الخالق سبحانه يقول لنا : هذا ليس مخلوقاً لبيئتك ، بل له بيئته التى يجود فيها ، حيث تتوفر له مقومات نموه .

والآيات جمع آية ، وهى العلامة الدالة على قدرة الخالق سبحانه ، وأول الآيات فى الأرض نلحظها فى توزيع رقعة الأرض بين الماء واليابسة ، الماء منه عَذْب فراتٌ ، ومنه ملح أُجَاج .

العذب نشرب منه ، ونسقى الزرع والدواب ، والمالح نأخذ منه الأسماك ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢)﴾ [فاطر]

والأرض فيها الخصب السهل الصالح للزراعة ، ومنه الصحارى والجبال ، وفى كل منها الخيرات التى تناسبه . ومن الآيات فى الأرض أن الماء ثلاثة أرباع اليابسة ، والحكمة من ذلك أنْ تتسع رقعة

الماء ، وتتسع رقعة البخر التى تعطينا بعد ذلك المطر الذى يكفى للشرب وللزراعة .

إذن : الماء المالح هو مخزن الماء فى الأرض ، وجعله الله مالحاً ليحفظه من العطب ويصونه من التغيُّر ، يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا[(١)] ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف]

ومن الآيات فى الأرض أن مجارى المياه العذبة أعلى مستوى من مجارى المياه المالحة ، ولو أن المالح كان أعلى لأفسد المياه العذبة ولما انتفعنا بها ، يقول تعالى : ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[(٢)] لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن]

ومن عجائب القدرة فى خَلْق النبات أنْ تجد أجود أنواع النخيل والتين مثلاً على الشواطىء المالحة كما فى العريش وغيرها ، وهذه من طلاقة القدرة التى لا تخضع للأسباب ، إنما تفعل ما تريد ، فمن الماء المالح نأكل أشهى وأحلى الثمار .

---

(١) أقلَّ الشىء : حمله ورفعه . فالرياح ترفع السحاب وتحمله وتسوقه إلى مناطق أخرى .

(٢) البرزخ : الحاجز بين الشيئين . ومعنى أن (بينهما برزخ لا يبغيان) أى بين البحرين حاجز من الأرض يحجز كلاً منهما فى مجراه فلا يبغى ولا يطغى على الآخر فهو يمزجهما حين يلتقيان فلا يبقي العذب عذباً ولكن بينهما من الأرض برزخ قبل التقائهما يحفظ كلاً منهما فى مجراه ، وأما من يفسر الآية بأن بينهما حاجزاً من القدرة يمنع امتزاج أحدهما بالآخر فيبقى العذب عذباً والملح ملحاً فهذا ليس تفسيراً علمياً ولا يطابق الواقع ، فبعد ميلين أو ثلاثة أميال من مصب النهر على الأكثر لا نجد قطرة واحدة من الماء العذب وأحياناً بعد ميل واحد إذا كان البحر هائجاً ، وإلا لشرب الناس الماء العذب وهم مسافرون فى البحار . ولكن الأنهار حين تصب فى البحار يبقى الماء العذب طافياً لخفته مسافة قصيرة ثم ينمحى ويمتزج بالماء الملح امتزاجاً تاماً » .

ومن الآيات فى الأرض الجبال : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر] والجبال كما قلنا هى مخازن الخصب ، ومخازن القوت ، ومخازن للخيرات الكثيرة من المعادن والأحجار الكريمة .

وسبق أن أوضحنا أن الحق سبحانه نثر الخيرات ووزّعها على الأرض كلها ، بحيث إذا أخذنا من الأرض قطاعاً من محيط الأرض إلى مركزها لوجدنا فيه من الخيرات ما يساوى القطاع الآخر ، فهذا به معادن ، وهذا بترول ، وهذا مزروعات ، وهكذا .

ومن الآيات فى الأرض أنْ تجد التربة واحدة وتُسقى بالماء الواحد ، ومع ذلك تعطى مختلف الثمار ومختلف الطعوم ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ[(١)] وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد]

نعم يعقلون قدرة الله فى الخلق ، وأن هذه الآيات مخلوقة لقادر حكيم قيوم .

وهنا قال ﴿آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات] أى : الذين يوقنون بذلك ويؤمنون به ، فأعظم درجات العلم هى العلوم الكونية التى تبحث فى الكون ، وتستدل بآياته على قدرة الله .

---

(١) صنوان : جمع مفرده صِنْو بكسر الصاد ، والصُّنو بضمها : المثل . وهو إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد قيل لكل واحد منها صنو . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤) قلت : منه حديث رسول الله « العم صنو الأب » لأنهما من أصل واحد .
[عادل أبو المعاطى]

اقرأ مثلاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ [١] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

لاحظ أنه تعالى لم يذكر هنا حكماً شرعياً يتعلق بصوم ولا صلاة ولا زكاة . إذن : المراد بالعلماء هنا علماء الطبيعة والكونيات الذين يبحثون فى النبات والحيوان والإنسان والجماد ، ويستدلون بالقدرة على القادر سبحانه ، ويأخذون بأيدى الخلق إلى ساحة الإيمان بالخالق ، وهذه حقيقة تنفعهم فى الدنيا وفى الآخرة .

والمتأمل لقوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) ﴾ [الذاريات] يفهم منه أن الإنسان إذا نظر فى الكون من حوله ويستدل منه على وجود الخالق سبحانه ، لذلك أوقع الكافرين فى الفخ عندما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٣٨) ﴾ [الزمر]

نعم لم يقولوا غير ذلك لأنها مسألة واضحة وضوحَ الشمس ولم يدعها أحد لنفسه ، وكيف يدعيها وقد خُلق رضيعاً لا يقدر على شىء فكيف يقول : خلقتُ نفسى ، وقد طرأ على الكون كما هو فكيف يدعى أنه خلقه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] أى : كما أن فى الأرض آيات كونية دالة على قدرة الله ، كذلك فى أنفسكم

(١) غرابيب : جمع غربيب وهو الشديد السواد . ووصفها بـ (سود) للتأكيد .

آيات ، فإذا لم تصل إلى آيات الكون من حولك فانظر فى نفسك التى بين جنبيك .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] لأن آيات الكون من حولك إنْ بعُدَتْ عليك فإن آيات نفسك قريبة منك ، وأوْلَى بالنظر والتأمل .

والآيات فى النفس كثيرة ، خُذْ مثلاً درجة حرارة الجسم تجدها واحدة هى ٣٧° لمن يعيش عند القطب المتجمد ، ولمَنْ يعيش عند خط الاستواء ، ولا تستقيم حركة الأعضاء والجوارح إلا عند هذه الدرجة ، ولو زادت لاختلَّ نظام الجسم كله واضطربت حركته .

أما فى داخل الجسم فكل جهاز من أجهزته له درجة حرارة تناسبه دون أنْ يحدث استطراق حرارى فى الجسم الواحد كما نعلم ، فإذا كانت الحرارة العامة فى الجسم ٣٧° فإن حرارة العين مثلاً تقف عند تسع درجات لا تزيد عنها ، ولو زادت عن ذلك لانفقأت العين .

أما الكبد فلا يؤدى دوره فى الجسم إلا عند أربعين درجة ، والعجيب أن هذا التفاوت داخل جلد واحد وجسم واحد ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

كذلك لو تأملتَ الدم الذى يجرى فى العروق ، التنفس ، القلب ، المخ ، العظام كل شىء فى جسمك فيه آية ، بل آيات حين تتأملها تقول : سبحان الخالق المبدع ، سبحان مَنْ له طلاقة القدرة .

إذن : لا حجة لمَنْ لم يؤمن بعد ما رآه من الآيات فى نفسه وفى الكون من حوله .

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾

هذا الأسلوب يُسمَّى فى البلاغة أسلوبَ قصر ، بتقديم الجار والمجرور على المبتدأ ، فالرزق فى السماء فقط لا فى غيرها ، الرزق يأتيك من أعلى من الله ، والرزق كل ما يُنتفع به ، فالمال رزق ، والصحة والعافية رزق ، والعقل رزق ، والأمن رزق .

ومعنى أن الرزق فى السماء . أى : أنه أمر وتقدير أزلىّ مكتوب فى اللوح المحفوظ ، فإنْ أردتَ الحياة المادية التى نعيشها ، فهى أيضاً مصدرها الماء النازل من السماء ، لأنه قوام الحياة ومصدر القوت .

﴿ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات] أى فى السماء أيضاً ، فكل شىء مقدور ومكتوب فى اللوح المحفوظ ، كل صغيرة وكبيرة ، وشاردة وواردة ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ من وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

إذن : ما دامت الأرزاق مُقسَّمة عند الله ، وما دام كل شىء مكتوباً أزلاً ، فأجملوا فى الطلب ، ولا تنشغلوا بمسألة الرزق ، إلا أنْ تذهب إليه وأنْ تسعى فى طلبه ، فأنت لا تخلقه ولكن تذهب إليه كما قال سبحانه : ﴿ فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا[1] وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ .. (١٥) ﴾ [الملك]

فالمشى والسعى سببٌ للرزق المقسوم لك أزلاً ، وهذا الدرس تعلمناه من السيدة هاجر أم إسماعيل لما تركها سيدنا إبراهيم هى

(١) مناكب الأرض : طرقها وجبالها وجوانبها وأنحاؤها . والمنكب من الأرض الموضع المرتفع . قال الأستاذ إبراهيم أحمد عبد الفتاح فى القاموس القويم (٢/ ٢٨٤) : « فى ذكر المناكب حث على احتمال المشقة فى سبيل الرزق » .

وولدها عند الكعبة وانصرف فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لن يُضيِّعنا[1] .

فهى واثقة أن الرزق عند الله ، وما كان سعيها سبعة أشواط بين الصفا والمروة إلا نموذجاً للسعى ، فكأن الحق سبحانه أراد أنْ يجعلها شاهداً على صدق هذه الآية ، فلما استنفدت السيدة هاجر أسبابها فى السعى عادتْ إلى وليدها مطمئنة بقولها : إن الله لن يضيعنا .

وعندها ضرب الوليدُ الأرضَ برجله فتفجَّرت من تحتها زمزم ، وبعد ذلك جعلها الله لنا مشعراً من مشاعر الحج والعمرة ليُذكِّرنا دائماً بهذه الحقيقة ، وهى أن الرزق عند الله ، لكن السعى إليه مطلوب ، والحركة فى اتجاهه سببٌ من أسبابه .

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾

حكى الأصمعى[2] أنه قابل يوماً أعرابياً ، فسأله الأعرابى : من

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] عن ابن عباس قال : جاء نبى الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر ، فوضعهما بمكة فى موضع زمزم ، فلما مضى نادته هاجر : يا إبراهيم إنما أسألك ثلاث مرات : من أمرك أن تضعنى بأرض ليس فيها ضرع ولا زرع ولا أنيس ولا زاد ولا ماء ؟ قال : ربى أمرنى . قالت : فإنه لن يضيعنا .

(٢) الأصمعى هو عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى ، أبو سعيد راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، نسبته إلى جده أصمع ، ومولده ووفاته فى البصرة ، كان كثير التطواف فى البوادى يقتبس علومها ، وله تصانيف كثيرة ، توفى عام ٢١٦ هجرية [الأعلام للزركلى] .

أين ؟ فقال : من أصمع[1] ، قال : من أين أتيتَ ؟ قال : من المسجد ، قال : وماذا تصنعون فيه ؟ قال : نقرأ قرآن الله ، قال : فاقرأ علىَّ .

فقرأتُ عليه سورة الذاريات حتى وصلتُ إلى قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات] فأتى بأدوات الصيد التى كانت معه فكسرها ، وقال : مادام رزقى فى السماء والله لا يكذب .

قال الأصمعى : فخرجتُ مع هارون الرشيد للحج ، فلقيتُ هذا الأعرابى لكنه كان هذه المرة نحيفاً مُصفرَّ اللون فقلتُ له : ألستَ فلاناً ؟ قال : ألستَ الأصمعى ؟ قلت : نعم ما الذى صيَّرك إلى هذا ؟

فقال : اقرأ علىَّ ما قرأته سابقاً فقرأتُ عليه إلى قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات] فتعجب وقال : ومَنْ أغضب الجليل حتى ألجأه أنْ يقسم . وظلَّ يرددها ، فما انتهى من الثالثة حتى فاضتْ روحه معها .

وحكيت مرة أننى كنتُ أحج أنا والشيخ أحمد أبو شقرة ، فعَنَّ لنا أنْ نصعد إلى غار حراء ، فقال لى : نريد دليلاً يرشدنا فقلت له : نحن نعرف الطريق وسِرْنا ، لكن وجدنا أنهم كسروا الطريق المؤدية إلى الغار فضللنا .

ثم تنحَّى صاحبى عنى جانباً ليبول ، وفجأة قال لى : انظر يا شيخ . فنظرتُ . فإذا بحشرة أتتْ وأخذت تشرب من بوله ، فقلت :

(١) أصمع : من قبائل بنى سعد بن قيس من غطفان .

سبحان الله وكأننا ضللنا الطريق لنسقى هذه الحشرة ، ثم مرَّ بنا رجل عرف أننا ضللنا الطريق فأرشدنا .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقسم بذاته سبحانه ، وربوبيته للسماء والأرض ، لأن السماء ينزل منها المطر ، والأرض تستقبل هذا المطر ، وتنبت به النبات الذى به قوام المعيشة والحياة .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ..﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات] أى قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات] هذا قول حقٌّ لا شك فيه ، لأنه تقدير أزلى سُجِّل فى اللوح المحفوظ .

ثم يعطينا مثالاً يُجسِّم لنا هذه المسألة ، فيقول ﴿ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات] فكما تدرك أنك تتكلم ، وكما أنك متأكد من هذه الحقيقة ولا تشك فيها لأنك تباشرها بنفسك ، فكذلك لا تشكّ فى مسألة الرزق ، وأنه من عند الله وثِقْ بهذا الخبر ، لأن الذى أخبرك به صادق .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولأنه خبر هام وعجيب بدأه الحق سبحانه بهذا الاستفهام ﴿ هَلْ أَتَاكَ ..﴿٢٤﴾ ﴾ [الذاريات] وهل تلازم دائماً الشىء العجيب الذى يستحق أنْ نلتفت إليه .

ويشوِّقنا الحق سبحانه إلى معرفته ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصف] يُشوِّقنا لنقول : نعم يا رب دلنا .

ولأن قصة ضيف سيدنا إبراهيم قصة عجيبة قال الله عنها ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ .. (٢٤) ﴾ [الذاريات] أى نبأ ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) ﴾ [الذاريات]

وسيدنا إبراهيم أبو الأنبياء كرَّمه الله بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً[١] .. (١٢٠) ﴾ [النحل] لأن فيه من الفضائل ومن خصال الخير ما يوجد فى أمة بأكملها ، لأن الله تعالى وزع الفضائل على الخَلْق جميعاً ، فأنت لك فضيلة ، وغيرك له فضيلة ثانية وثالثة وهكذا .

هذا ليتكاتف الخَلْق ويتعاون الناس ، وإلا لاستغنى بعضنا عن بعض ولحدث التفكك فى المجتمع ، لذلك تجد العاقل لا يحتقر أحداً مهما رأى نفسه أفضل منه لأنه يعلم ميزان المساواة بين الخَلْق فى هذه الفضائل ، فيقول فى نفسه : إنْ كنت أفضل منه فى شىء فلا بدَّ أنه أفضل منى فى شىء آخر .

وسيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته . فلا تحتقرن طاعة مهما قلَّتْ ، فإن الله قد غفر لرجل لأنه سقى كلباً يأكل الثرى من العطش .

وأخفى غضبه فى معصيته فلا تحتقرن معصية مهما صَغُرَتْ ،

---

(١) عن ابن مسعود أنه سُئل : ما الأمة ؟ قال : الذى يُعلِّم الناس الخير . أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه والفريابى وسعيد بن منصور والحاكم فى مستدركه وصححه . قال ابن الجوزى فى زاد المسير : للمفسرين فى المراد بالأمة هاهنا ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه الأمة الذى يعلم الناس الخير .
الثانى : أنه المؤمن وحده فى زمانه . قاله مجاهد .
والثالث : أنه الإمام الذى يُقتدى به . قاله قتادة ومقاتل .

فإن الله تعالى أدخل امرأة النار فى هِرَّة حبستها ، فلا هى أطعمتها وسقَتْها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش[١] الأرض . وأخفى أسراره فى خلقه فلا تحقرن عبداً ما »[٢] .

والإمام على رضى الله عنه يقول : عندما ترى مَنْ هو أدنى منك فى شىء فتحسّر ، لأنك لا تعرف الفضيلة التى فضِّل بها عليك ، ولا بدَّ للخَلْق أنْ يعى هذه الحقيقة لأنهم أمام الله سواسية ، والله تعالى لم يلد ولم يولد ، وخَلْقه عنده سواء ، لا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح .

كلمة ﴿ حَدِيثُ .. (٢٤) ﴾ [الذاريات] يعنى الخبر المتداول ، وفيه حقيقة أو حكمة ، لذلك يتداوله الناسُ ويهتمون به ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ .. (٢٤) ﴾ [الذاريات] جاءت كلمة (ضيف) مفردة مع أنهم كانوا جمعاً من الملائكة ، فلم يقل ضيوف ولا أضياف ، إنما اختار اللفظ المفرد ، فقال : (ضيف) .

قالوا : لأن (ضيف) تُطلق على المفرد والمثنى والجمع ممَّن

---

(١) الخشاش بالكسر : الحشرات. قال أبو عبيد : هوام الأرض وحشراتها ودوابها وما أشبهها . [لسان العرب – مادة : خشش] .

(٢) وجدت نحو هذا فى الزهد الكبير للبيهقى (٢/٢٧٢) (رقم ٧٦٧) أن أبا الحسن يحيى ابن الحسين القاهرى قال : قدمت مصر فجئت إلى حلقة ذى النون فرآنى وفى استظهار على الحاضرين فقال لى : « لا تفعل فإن الله تعالى أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى غضبه فى معصيته ، وأخفى رضاه فى طاعته ، وأخفى ولايته فى عباده ، فلا تحقرن شيئاً من معاصيه فلعله أن يكون فيه غضبه ، ولا تحقرن شيئاً من طاعته فلعله يكون فيه رضاؤه ، ولا تحقرن أحداً من خلق الله فلعله أن يكون ولياً من أوليائه » .

استدعيته إلى بيتك أو جاءك فصار ضيفاً عليك ، والمستضيف ينبغى أنْ يعامل الأضيافَ جميعاً معاملة واحدة ويستقبلهم بوجه واحد لا يُفضل أحداً على أحد ، ولا يحتفى بأحد دون الآخر .

فكأنهم عنده شخص واحد لا يميز أحداً ، لا فى مجلسه ولا فى نظره إليهم ، لذلك عبَّر القرآن عنهم بصيغة المفرد ، فهم فى حكم الرجل الواحد .

وقد علمنا سيدنا رسول الله ﷺ هذا الدرس ، فقد روى عنه ﷺ أنه كان يُسوى بين جُلسائه حتى فى نظره إليهم[1] حتى ليظن كل منهم أنه لا يوجد فى المجلس غيره .

وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة تستخدمُ المفرد وتريد به الجماعة ، ذلك حينما يكون توجههم واحداً وهدفهم واحداً ، وحينما يجتمعون على أمر الله ، وأمر الله دائماً واحد لا اختلافَ فيه ، والجماعة حينئذ فى حكم الواحد .

اقرأ هذا مثلاً فى قوله تعالى فى قصة سيدنا موسى وسيدنا هارون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء]

إذن : ضيف يعنى أضياف ، ومعنى ﴿ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الذاريات] جمع مكرم ، وهو الذى يقع عليه الكرم من غيره ، والفاعل مُكرِم

(١) أخرج الطبرانى فى معجمه الكبير (١٧٨٦٨) من حديث هند بن أبى هالة فى حديث طويل فى وصف رسول الله ﷺ : « وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه » وكذا فى الشمائل المحمدية للترمذى (١٦٨) عن على . وبنحوه أبو الشيخ الأصبهانى فى أخلاق النبى وآدابه (٢٢) .

والمفعول مُكرَم ، فوصف الملائكة بأنهم مكرمون فمَنْ أكرمهم ؟

قالوا : لها معنيان : أكرمهم الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء]

أو مُكرمون أكرمهم سيدنا إبراهيم حينما أعدَّ لهم طعاماً وباشر خدمتهم بنفسه لا بعبيده ، وجعل امرأته تشاركه فى خدمتهم ، مع أن المرأة مستورة وأكرمهم بأنْ بادرهم بالتحية .

ثم إنه لم يقدم لهم الطعام الحاضر ، إنما أكرمهم وذبح لهم عجلاً مرة وصفه بأنه سمين ، ومرة وصفه بأنه حنيذ[1] وهذا كمال فى الوصف ، فهو سمين فى ذاته . أى : ليس هزيلاً فى تكوينه . وهو حنيذ ، والحنيذ هو أفضل أنواع الشواء عندهم ، فهو من حيث طريقة طهيه حنيذ مشوى ، وهذا منتهى الإكرام .

وقوله : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ.. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الذاريات] أى : الملائكة فى صورة بشر ﴿ فَقَالُوا سَلامًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الذاريات] فردَّ عليهم ﴿ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الذاريات] أى : غير معروفين لنا ، ويقال : إنه قالها فى نفسه ولم يجهر بها .

ونلاحظ هنا فرقاً بين سلام الملائكة وردّ السلام من سيدنا إبراهيم ، لأنهم حيَّوْه بقولهم ﴿ سَلامًا ..﴿٢٥﴾ ﴾ [الذاريات] هكذا بالنصب فردَّ عليهم ﴿ سَلامٌ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الذاريات] بالرفع ، هم بادروه

(١) حنذ اللحم : شواه على الحجارة ، فهو حنيذ أى مشوى ، ولحمه يكون أطيب من المسلوق والمطبوخ فى الماء . [القاموس القويم ١٧٥/١] . وقال فى لسان العرب (مادة : حنذ) : هو الذى يقطر ماؤه وقد شُوى . قاله شمر .

بالسلام ، لأن القادم قد يخشى المقدوم عليه منه ، فبادروه بالسلام ليأمن جانبهم .

وكلمة ﴿سَلامًا ..(٢٥)﴾ [الذاريات] بالنصب دلَّتْ على أنها مفعول لفعل مقدَّر أى : نسلم عليك سلاماً ، والجملة الفعلية تدل دائماً على حدث سيحدث ، وهو الأمر الذى جاءوا من أجله .

أما ردُّ السلام فكان بالرفع ﴿سَلامٌ.. (٢٥)﴾ [الذاريات] أى : سلام عليكم ، فهى جملة اسمية ، والجملة الاسمية تدلُّ على الثبوت ، وهو حال المستقبل سيدنا إبراهيم .

﴿فَرَاغَ(١) إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾

معنى ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِه ..(٢٦)﴾ [الذاريات] أى : ذهب خُفْية من الضيوف إلى امرأته ، لأن العادة ساعة يدخل الضيف يقوم المضيف ليعدَّ له ما يكرمه به ، فيقول له الضيف : اجلس والله ما أنت قايم ، لذلك تسلَّل سيدنا إبراهيم خُفْية من أضيافه ليُعدَّ لهم الطعام دون أنْ يشعروا به ، ودون أنْ يقولوا له اجلس لا نريد شيئاً .

فلما جاءهم بالعجل السمين المشوى قرَّبه إليهم وقدَّمه أمامهم ليأكلوا ، فرأى أنهم لا يُقبلون على الطعام كعادة الناس ، قال لهم

---

(١) راغ إلى أهله : أى مال إلى أهله فى إخفاء من ضيفه لئلا يعوقوه عن إحضار الطعام لهم شأن الرجل الكريم . وراغ إلى الشىء : مال إليه سراً فهو قد حاد عن الناس حتى لا يروه . [القاموس القويم ١/٢٨١]

﴿أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧)﴾ [الذاريات] يحثهم على الأكل ، لكنهم لم يأكلوا ولم تمتدَّ أيديهم إلى الطعام فأحسَّ بالخوف منهم :

﴿فَأَوۡجَسَ(١) مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ(٢) فَصَكَّتۡ(٣) وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾

لما بدت على إبراهيم علامات الخوف بادرته الملائكة تُطمئنه ﴿لا تخَفْ ..(٢٨)﴾ [الذاريات] ثم بشَّروه بغلام عليم هو سيدنا إسحاق ، ووصفه بأنه عليم يعنى يبلغ فى العلم مبلغاً ، لكن كيف ذلك وسيدنا إبراهيم رجلٌ عجوز وامرأته سارة عقيم لا تلد .

﴿فَأَقْبَلَت امْرَأَتُه فِي صَرَّةٍ .. (٢٩)﴾ [الذاريات] فى ضجة وصيحة شديدة ﴿فَصَكَّت وَجْهَهَا ..(٢٩)﴾ [الذاريات] لطمتْه مُتعجبة من هذه

---

(١) أوجس : وقع فى نفسه الخوف . والوجس : الفزع يقع فى القلب أو فى السمع من صوت أو غير ذلك . [لسان العرب – مادة : وجس] .

(٢) الصَّرة : أشد الصياح . وقيل لامرأة : أى النساء أبغض إليك ؟ فقالت : التى إن صخبت صرصرت . والصرة : الضجة والصيحة والجلَبة . [لسان العرب مادة : صرر] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٣٧٤) : أى فى صرخة عظيمة ورنة وهى قولها : يا ويلتى .

(٣) صكت وجهها أى ضربت بيدها على جبينها . قاله مجاهد وابن سابط . وقال ابن عباس : لطمت أى تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب . [ابن كثير فى تفسيره ٤/٢٣٦] .

البشرى ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات] يعنى : كيف ألد وأنا عجوز عقيم .

إذن : قاستْ المسألة بمقياس الأسباب البشرية ، فالأسباب البشرية تقول أنها مستحيل أنْ تلد ، لكن الله تعالى مقياساً آخر ، ولقدرة الله كلام آخر نطقتْ به ملائكة الله .

﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات] كلمة ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات] يعنى : ما دام قد قال سبحانه فهو أمر واقع لا شكَّ فيه ، لأن قدرة الله فوق الأسباب .

وهذا التعجب من السيدة سارة لما بُشِّرتْ بإسحق ، رأيناه من السيدة مريم لما بُشِّرت بعيسى عليه السلام ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .. ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات] الحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه ، والعليم هو الذى يحيط علمه بكل شىء ، ويعلم أنه إذا أمر بشىء أطاعه ولم يمتنع عليه .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا
أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً
مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿قَالَ .. ﴿٣١﴾﴾ [الذاريات] أى : سيدنا إبراهيم عليه السلام للقوم الذين دخلوا عليه ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ .. ﴿٣١﴾﴾ [الذاريات] يعنى : ما شأنكم ؟ وما حكايتكم ؟ وما الأمر الخطير الذى جئتم من أجله ؟

كلمة الخطب تدل على الأمر الخطير وحدث هام أراد أنْ يعرف ما هو وهل هو متعلق به أم بغيره ؟

وهذه الكلمة جاءت بهذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ .. ﴿٥١﴾﴾ [يوسف] أى : الأمر العجيب الذى حملكن على هذا الفعل .

وقالها سيدنا موسى لما رأى ابنتىْ سيدنا شعيب قد خرجتا لسَقْى الغنم ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا .. ﴿٢٣﴾﴾ [القصص] أى : ما الذى ألجأكنَّ للخروج ، فكأنه أمر عجيب غير عادى . إذن : هذه الكلمة وُضعت للأمر الخطير الذى يدعو إلى الدهشة والتعجب .

فردَّ الملائكة ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الذاريات] وهنا اطمأن سيدنا إبراهيم ، وعرف أن الأمر لا يتعلق به ، والقوم المجرمون فى هذا الوقت هم قوم لوط ، ثم بيَّنوا مهمتهم ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات]

ومفهوم أن الحجارة تختلف عن الطين ، الحجارة فيها صلابة وقساوة تختلف قوة وصلابة حسب نوع الحجر بداية من المرمر ، ثم الجرانيت والرخام والجير .

فكيف تكون الحجارة من طين ، وهما وصفان فى الظاهر متناقضان ؟ قالوا : هو طين أُحْمى عليه فى النار حتى صار صلْباً قاسياً ، كما نفعل مثلاً فى صناعة الفخار .

ومعنى ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات] أى : مُعلَّمة ، فكلُّ حجر منها يحمل اسم صاحبه وعنوانه ، فهو مُخصص له لا

لغيره ومُوجَّه إليه لا يخطئه .

وقوله ﴿عِندَ رَبِّكَ .. (٣٤)﴾ [الذاريات] دلّ على أنها نزلتْ من السماء وليستْ من حجارة الأرض ، وأنها مُعلَّمة من عند الله جاءت هكذا جاهزة ، ونحن مهمتنا أنْ نرميهم بها بأسماء أصحابها ، فلا يختلط حجر بحجر .

ومعنى ﴿لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ [الذاريات] المسرف هو الذى تجاوز الحدَّ فى المعصية فكأن هناك حدوداً للأمور ، وحدوداً للحلال وحدوداً للحرام ، وقد بيَّنها الحق سبحانه ، وعلَّمنا كيف نقف عند هذه الحدود ، فقال تعالى فى الحلال : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وقال فى الحرام ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة]

أى : قِفْ عند حدود الحلال لا تتجاوزه إلى غيره ، أما الحرام فإياك أنْ تقربه . احذر مجرد الاقتراب منه ، لأنك لو اقتربتَ منه تُوشك أنْ تقع فيه فهى حماية لك .

كما قال سبحانه لآدم ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة] وقال ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى .. (٣٢)﴾ [الإسراء] ففى الحرام لا يمنعنا من الفعل ، بل يمنعنا من الاقتراب من أسبابه .

ففى أىِّ شىء أسرف هؤلاء المجرمون المسرفون ؟ أسرفوا فى فعل مُحرَّم يناقض الطبيعة النقية التى خلقها الله ؛ لأن الله تعالى لما أراد أنْ يجعل خليفة فى الأرض خلق آدم وخلق معه زوجه ليتم التكاثر ، وتأتى القبائل التى تعمر الأرض ، لأن عمارتها لا تقوم

بواحد أو اثنين إنما تحتاج إلى جمهرة من الناس .

ثم جعل التكاثر أيضاً فى كل شىء يريد له النمو والاستمرار ليخدم هذا الخليفة ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩)﴾ [الذاريات]

فإذا كان الإنسانُ سيتكاثر فلا بدَّ أنْ تكبر رقعة الأرض التى يعيش عليها ويتكاثر النبات الذى يعيش عليه ، قال تعالى : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١)﴾ [النساء] إذن : نحتاج إلى زرع يتناسب وهذه الزيادة .

والمتأمل فى مسألة التكاثر هذه فى النبات وفى الإنسان يجدها بحسب أهمية الشىء ومدى الاستفادة منه والانتفاع به . قلنا مثلاً : حينما تزرع الفجل يمكن أنْ تأكل منه بعد عشرة أيام ، والخيار بعد أربعين يوماً ، والتمر بعد أربعة أعوام .

فكل شىء قبل أن يعطيك يأخذ منك على قدر أهميته ، فإنْ أردتَ الإنسان فإنه ولا شكَّ يحتاج إلى كثير من الجهود والتبعات ، لذلك ربطه الخالق سبحانه فى مسألة التكاثر بلذة جامحة تفوق كلَّ لذة أخرى يشعر بها الإنسانُ فى كُلِّ جوارحه تفوق لذة العين حين ترى ، والأذن حين تسمع ، واللسان حينما يتذوق ، والأنف حينما يشم ، واليد حينما تلمس ، لأن الجوارح لكل منها مهمته ووجهته .

أما لذة الجنس فهى تستغرق الجوارح كلها ، ولولا أن الخالق سبحانه ربط التكاثر بهذه اللذة ما أقبل أحدٌ عليه ولا تحمَّل تبعاته .

ولك أنْ تتصور الفرق بين تربية طفل وتربية حَمَل أو عجل مثلاً ، الحَمَل يقوم ويمشى خلف أمه بعد عدة دقائق من ولادته ، والطفل

يمشى بعد عام ونصف العام .

ومَشْيه يأتى على مراحل ، فبعد عدة شهور يستطيع أنْ يجلس ، وبعد عدة شهور أخرى يحبو ثم يقف ثم يمشى .

لذلك نرى طفولة الإنسان أطول طفولة فى المخلوقات كلها ، ومن هنا ربط الخالق سبحانه عملية التكاثر فى الإنسان بهذه اللذة الجارفة التى لا يستطيع الإنسانُ مقاومتها لتكون حافزاً له على التكاثر ، وإلا ما أقبل على تحمُّل هذه المسئولية وهذه المعاناة .

ومن هنا أيضاً اهتم الإسلام بتكوين الأسرة ، ووضع لها من الضوابط ما يكفل لها النجاح ، فهذه الغريزة لا تأتى هكذا كما فى الحيوانات ، إنما جعل لها قواعد لاختيار الزوجة الصالحة ، وحثَّ على اختيار ذات الدِّين ، وجعل فترة للخطوبة ليتعرَّف كلُّ طرف على الآخر .

وأباح لكل منهما أنْ ينظر إلى الآخر ليختار كلٌّ من الزوجين ما يناسبه ويُرضى ذوقه ورغبته فى الجنس الآخر ، ثم شرع المهر وعقد القران ، كل ذلك لتكون نواة الأسرة قوية متينة ، مُعدَّة لاستقبال الحياة بكلِّ ما فيها من تبعات ومسئوليات .

والجريمة التى ارتكبها هؤلاء القوم واستحقوا بها ما حاق بهم من ألوان العذاب أنهم صرفوا هذه الغريزة التى جعلها الله فى الإنسان عن وجهها الحلال إلى وجه آخر محرم لا فائدة منه ولا ثمرةَ له .

وجه ينافى الفطرة السليمة والأذواق المستقيمة ، فكانوا يأتون الذكران بدل أنْ يأتوا النساء كما أحل الله ، ومعلوم أن الإتيان مقصور على مكان الحرث والاستنبات .

﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ(١) أَنَّى شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

إذن : فعلتهم هذه كانت إسرافاً منهم على أنفسهم ، ومجاوزة للحد الذى شرعه الله ، والإتيان فى غير المحلِّ يستوى فيه إتيان الرجل وإتيان المرأة فكله محرم .

ولما كان هذا الفعل زنا يستحق الرجم رجمهم الله لا بحجارة من الأرض ، إنما بحجارة من السماء تنزل على كلِّ واحد منهم باسمه تخصُّه دون غيره ، بحيث لم تُبْقِ منهم أحداً وأبادتهم عن بَكْرة أبيهم .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾

أى : قبل أنْ ينزل بهم العذاب أخرجنا مَنْ كان فى القرية من المؤمنين ، والمعنى : ما قلنا لهم اخرجوا ، إنما هيأنا لهم سبيل الخروج بخواطر قذفناها فى نفوسهم ، فخرجوا ولم يُصبْهم العذاب .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا .. (٣٦) ﴾ [الذاريات] أى : فى القرية ﴿ غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ [الذاريات] إذن : تكلم أولاً عن المؤمنين ثم عن المسلمين ، ومعلوم أن الإيمان أعم من الإسلام ، فالإيمان أمر عقدىّ ،

(١) الحرث : المزدرع . وكنى به ها هنا عن الجماع ، فسماهن حرثاً لأنهن مزدرع الأولاد كالأرض للزرع . ومعنى ﴿ أنى شئتم ﴾ أى كيف شئتم مقبلة أو مدبرة وعلى كل حال إذا كان الإتيان فى الفرج ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطية والسدى وغيرهم . وهناك قول آخر أى : إن شئتم ومتى شئتم وهو قول ابن الحنفية والضحاك . قاله فى زاد المسير لابن الجوزى .

والإسلام أمر سلوكى ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

والإيمان والإسلام يلتقيان فى أنك لا تُسلم زمامك فى التكليف إلا لمَنْ آمنتَ بحكمته فى التكليف ، أما إنْ نافق المؤمنُ أو راءى فموضوع آخر ، لذلك قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ[1] آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] فردَّ عليهم ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : الإسلام الظاهرى ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

إذن : هنا قال فى الناجين المؤمنين والمسلمين ، وفى موضع آخر قال : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] لأن الأهلية على حقيقتها ليستْ أهلية الدم والنسب ، إنما أهلية الدعوة ، أهلية اتباع بدليل قول النبى ﷺ : « سلمانُ منَّا أهل البيت »[2] .

وسيدنا نوح لما قال لربه عز وجل : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود] قال له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧) ﴾ [الذاريات] أى : فى القرية والمكان الذى حدثت فيه هذه العملية ، قالوا :

---

(١) الأعراب هم أهل البوادى والصحارى فليسوا من أهل الحضر فى القرى والأمصار ، وفيهم غلظة وقسوة قد يكون ناتجاً عن بيئتهم وبيوتهم التى يسكنون فيها من خيام فى العراء ، ومنهم : ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾ [التوبة] .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٦١٦ ، ٦٦١٨) والطبرانى فى معجمه الكبير (٥٩٠٨) والبيهقى فى دلائل النبوة (١٣٠٦) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٢٩٥٦) من حديث كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده .

الآية الباقية بعد هلاكهم هى الحجارة التى أهلكهم الله بها ما تزال موجودة ، ومَنْ يراها يقول : هذه ليست من حجارة الأرض ، بل هى نوع آخر هى الحجارة التى نزلتْ على هؤلاء المجرمين فأهلكهم الله بها . وهكذا تظل هذه الآية باقية لردْع كلّ مَنْ تُسوِّل له نفسه أنْ يفعل فعلهم .

وقالوا[1] : بل الآية التى تركها الله شاهداً عليهم هى عَيْنٌ مُنتنة ، لا يطيق الإنسانُ أنْ يشمَّها .

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ[2] وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) ﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن طرف من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام تُحدثنا الآن عن سيدنا موسى عليه السلام ، لماذا ؟ لأن القرآن كثيراً ما يأتى بإبراهيم وموسى فى قرن واحد لما بينهما من

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : أى تركنا علامة للخائفين من عذاب الله تدلهم على أن الله أهلكهم . وقال فى تفسير آية العنكبوت ٣٥ : فى الآية ثلاثة أقوال : أحدها : أنها الحجارة التى أدركت أوائل هذه الأمة . قاله قتادة . والثانى : الماء الأسود على وجه الأرض . قاله مجاهد . والثالث : الخبر عما صُنع بهم .

(٢) قوله (بركنه) قال مجاهد : بأصحابه . وقال أبو عبيدة : (بركنه) و (بجانبه) سواء ، إنما هى ناحيته . قاله ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير الآية . وقال الماوردى فى تفسيره للآية : فيه أربعة وجوه : أحدها : بجموعه وأجناده . قاله ابن زيد . الثانى : بقوته . قاله ابن عباس . الثالث : بجانبه . قاله الأخفش . الرابع : بميله عن الحق وعناده بالكفر . قاله مقاتل . ويحتمل خامساً بماله لأنه يركن إليه ويتقوى به .

تشابه فى مسيرة الدعوة إلى الله .

اقرأ : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى] وقال : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم]

فالقرآن يربط بينهما لأن سيدنا إبراهيم أول ما تعرَّض فى أمر الدعوة تعرَّض للرجل الذى حاجَّه فى ربه ، ويبدو من سياق القصة أنه ادَّعى الألوهية بدليل قوله ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ..(٢٥٨)﴾ [البقرة]

وبعد ذلك كان لإبراهيم مواقف فى إظهار آيات الله للناس ، فهو أول مَنْ علَّمهم أنْ ينظروا فى الآيات الكونية ، ثم كانت له مواقف مع عبدة الأصنام ، خاصة مع أبيه آزر ، ثم جاءت أحداث إلقائه فى النار ، ثم رُزقَ الولد ، وابتُلِى بالأمر بذبحه ، ثم جاءت قصة بناء البيت ، إلى آخر أحداث قصته .

لذلك قال الله فى شأنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[١] فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة] أى : أدَّاها كاملة لا بالمنطق العادى فى الأشياء ، إنما بمنطق الإجادة والإحسان ، لذلك مدحه ربُّه فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل] أى : يجمع من خصال الخير ما لا يتوفر إلا فى أمة كاملة .

كذلك مَرَّ سيدنا موسى عليه السلام بمواقف وابتلاءات مشابهة

(١) قال الشوكانى فى (فتح القدير) : اختلف العلماء فى تعيين الكلمات . فقيل : هى شرائع الإسلام . وقيل : ذبح ابنه . وقيل : أداء الرسالة . وقيل: خصال الفطرة . وقيل : هى قوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ..(١٢٤)﴾ [البقرة] . وقيل : بالطهارة . قال الزجاج : هذه الأقوال ليست متناقضة لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم .

فى رحلة دعوته لفرعون الذى ادَّعى الألوهية ، فقال لقومه : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي .. (٣٨)﴾ [القصص]

الواو فى ﴿وَفِي مُوسَىٰ .. (٣٨)﴾ [الذاريات] عاطفة ، فالمعنى فى موسى آية من آيات الله معطوفة على قوله تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾ [الذاريات] كذلك فى موسى آيات ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨)﴾ [الذاريات] أى : بحجة واضحة بيِّنة .

وسبق أنْ أوضحنا أن السلطان قد يكون سلطانَ قوة وقهر تخضع المقابل ، أو سلطانَ برهان وحجة يقنعه .

سلطان القهر يقهر القالب ، وسلطان الحجة يقنع العقل ويستميل القلب ، وموسى عليه السلام لم يكُنْ يملك إلا حجةَ الإقناع ، ولا قوة له على فرعون يقهره بها ، فأعطاه الله سلطاناً مبيناً يقنع به فرعون ، وهو الآيات والمعجزات التى صاحبتْ دعوته .

والمعجزة لا تؤتى ثمارها فى القوم إلا إذا كانت من جنس ما نبغوا فيه وأتقنوه ، ولو تحداهم بشىء لا يعرفونه ما كان للتحدى معنى ، لذلك كانت معجزة سيدنا رسول الله ﷺ القرآن ، لأن العرب نبغوا فى البلاغة والفصاحة ، فتحدَّاهم بما نبغوا فيه .

أما قوم فرعون فقد نبغوا فى السحر فكانوا سحرة ، لكن مُكرهين على السحر بدليل أن فرعون لما استدعاهم من الآفاق لمقابلة موسى بسحرهم قالوا ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١)﴾ [الشعراء] لأن الأعمال التى كانوا يعملونها كانت سُخْرة بدون أجر ، كما رأينا مثلاً فى بناء الأهرامات .

والأصل فى دعوة سيدنا موسى أنه ما جاء ليدعو فرعون إنما ليأخذ منه بنى إسرائيل ، ولينقذهم من بطشه ، هذا هو الأصل لكن جاءتْ دعوته لفرعون على هامش هذا الأصل وتابعة له ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. (٤٧) ﴾ [طه]

فقبل أنْ يدعو موسى بنى إسرائيل كان عليه أنْ يخلصهم من فرعون واستبداده بهم ، ومعلوم أن فرعون اضطهد بنى إسرائيل لأنهم ساعدوا الهكسوس لما أغاروا على مصر وتعاونوا معهم ضد فرعون ، حتى انتصر الهكسوس وألغوا الفرعونية وجعلوها ملكية .

لذلك عرفنا أن الهكسوس دخلوا مصر فى عهد سيدنا يوسف عليه السلام ، لأن القرآن لما تكلَّم عن حكام مصر تكلم عن فرعون ، لكن لما ذكر يوسف ذكر لفظ الملك ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ .. (٥٠) ﴾ [يوسف] ولم يأت بلفظ الفرعون .

فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُخلِّص بنى إسرائيل من قبضة فرعون أرسل موسى لهذه المهمة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) ﴾ [الذاريات]
أى : فرعون أعرض عن موسى ودعوته ﴿ بِرُكْنِهِ .. (٣٩) ﴾ [الذاريات]
أى : أعرض بسبب ركنه . أى : قوته وسلطانه وجبروته واستعلائه فى الأرض . أو برُكْنه يعنى بجانبه .

وحين تُعرض عن إنسان تعطيه جانبك ، ثم تدير له ظهرك بعد أنْ كنتَ فى مواجهته ، وهذه المسألة صوَّرها القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .. (٣٥) ﴾ [التوبة]

وبهذا الترتيب يكون الإعراض عن طالب الحاجة ، حيث يُعرض أولاً بوجهه ، ثم بجنبه ، ثم بظهره ، وهكذا يكون الكَىُّ يوم القيامة جزاءً وفاقاً ، وعلى قَدْر حركات الامتناع عن الخير .

وقوله : ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) ﴾ [الذاريات] تأمل التناقض حتى فى الاتهام ، فالساحر له قدرة على ترتيب الأشياء ، وعنده ذكاء بحيث يُخيِّل للناس رؤية الأشياء على خلاف ما هى ، أما المجنون فعلى خلاف ذلك ، لأنه لا يُرتِّب الأشياء ، ولا قدرةَ له على السيطرة على مراداته ونزوعه ، لكنه تخبُّط الباطل وإفلاسه .

ثم ينتقم الحق سبحانه من فرعون ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ[1] وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) ﴾ [الذاريات] أخذهم الله بأنْ ألقى فى نفوسهم حبَّ اللحاق بموسى وأغراهم بذلك حتى تبعوهم وخاضوا البحر خلفهم .

فأطبق الله عليهم الماء فأغرقهم بعد أنْ نجَّى موسى وبنى إسرائيل ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (٤٠) ﴾ [الذاريات] ألقيناهم فى البحر (وهو) أى فرعون ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) ﴾ [الذاريات] أى : فعل ما يُلام عليه من عُتوه وجبروته وادعائه للألوهية .

والمعنى : أن الله تعالى لم يُهلكه وجنودَه بظلم أو جبروت ، إنما أهلكهم بما يستحقون من العذاب .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾

(١) اليم : البحر الذى لا يُدرك قعره ولا شطاه . ويقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحاً زعاقاً وعلى النهر الكبير العذب الماء . [لسان العرب - مادة : يمم] .

أيضاً هنا الواو عاطفة تعطف ﴿ وَفِى عَادٍ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [الذاريات] على ﴿ وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الذاريات] وعلى قوله ﴿ وَفِى مُوسَىٰ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الذاريات] والمعنى : وفى عاد آية لكم ، فكأن القرآن يُسلِّى سيدنا رسول الله يقول له : لا تحزن من عناد قومك لك ، ووقوفهم فى وجه دعوتك .

فالعاقبة لك ، ومصيرهم سيكون مثل مصير أمثالهم من المكذِّبين للرسل السابقين ، فلك فيهم عبرة .

﴿ وَفِى عَادٍ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [الذاريات] أتى باسم القبيلة ولم يذكر النبى. وفى موضع آخر قال : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] فذكر القبيلة لأنه يتحدث عن سوء عاقبتها وما نزل بها لما كذَّبتْ نبيها ، وعاد عند الأحقاف .

وقد قال الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر] ثم ذكر بعدها ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ ﴾ [ص]

فكأن حضارة عاد كانت أقوى وأعظم من حضارة الفراعنة ، لكنها مطمورة تحت التراب ، لأن الله أهلكهم بالريح فدفنتهم تحت الرمال ، ولا عجب فى ذلك فهذه منطقة رملية إذا هبَّتْ فيها عاصفة فيمكن أنْ تطمر قافلة كاملة تبتلعها الرمال .

لذلك نجد آثار هذه الأمم حفائر تحت الأرض[1] .

---

(١) من هذه الأمم أمة عاد التى قال الله عنها : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر] فعن طريق أحد مكوكات الفضاء استطاعت ناسا الوصول لوجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية إلى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التى تملأ حوض الربع الخالى ، وقد أثبتوا أنها قلعة ذات ثمانية أضلاع سميكة الجدران بأبراج فى زوايا مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى ٩ أمتار وقطرها ٣ أمتار (إرم ذات العماد) [مجلة تايم الأمريكية ١٧/٢/١٩٩٢] .

ومعنى ﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الذاريات] أى : الريح المدمرة المهلكة ، لأن الريح قد تهبُّ ليِّنة سلسة رقيقة ، وتسمى النسيم ، وقد تشتد فتكون إعصاراً مدمراً ، فهى آية من آيات الله تكون نعمة وتكون نقمة .

الريح هى الهواء الذى نتنفسه ، وهو أهم عنصر فى عناصر استبقاء الحياة ، ولو مُنع عن الإنسان يموت ولو نَفَس واحد ، والهواء عنصر أساسى فى تكوين الماء وبه تسير السُّحب وينزل المطر ، وبه يحيا الحيوان والنبات وهو الذى يُلقِّح الثمار والمزروعات .

وسبق أنْ قلنا إن الريح تأتى فى الشر وفى الهلاك ، أما الرياح بالجمع فتأتى فى وجوه الخير ، فقال هنا ﴿ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الذاريات] أى المدمِّرة ، وقال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ..﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر]

ووصف الريح هنا بأنها عقيم ، لأنها لا فائدةَ منها ولا تأتى بخير ، لا مطر ولا لقاح ، إنما تأتى بالشر والخراب .

وقوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات] معنى (تذر) أى : تترك ومثله الفعل تدع ، وكل منهما مضارع ليس له ماض فى اللغة إلا فى قراءة : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] فى قراءة (مَا وَدَعَكَ) بفتح الدال من غير تشديد .

أما الفعل (يذر) فليس له ماضٍ ، فهذه الريح لا تأتى على شىء ولا تمر على شىء إلا أهلكته وتركته ﴿ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات] وهو الشىء الجاف الذى تفتت وصار هباءً تذروه الرياح .

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥)﴾

معنى ﴿ **وَفِي ثَمُودَ ..** (٤٣) ﴾ [الذاريات] أى : وآية أيضاً فى ثمود، وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام ﴿ **إِذْ قِيلَ لَهُمْ ..** (٤٣) ﴾ [الذاريات] أى : اذكر إذ قيل لهم ﴿ **تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ** (٤٣) ﴾ [الذاريات] وهذا تهديد لهم ووعيد بعد ما فعلوه مع نبى الله صالح ، يقول لهم تمتعوا إلى حين ، فسوف يعاجلكم العذاب ، وسيأخذكم الله أخْذَ عزيز مقتدر .

ومع هذا التهديد والتوعُّد ظلوا على عنادهم ﴿ **فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ..** (٤٤) ﴾ [الذاريات] فلم يُجد معهم التهديد ، والعتو يعنى : مالوا عن أمر ربهم وتركوه وهجروه .

وهذا الفعل (عتى) عُتواً يتعدى بـ (على) كما فى قوله تعالى : ﴿ **أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا** (٦٩) ﴾ [مريم] وهنا تعدَّى بعن ﴿ **فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ..** (٤٤) ﴾ [الذاريات] فقد عتوا عن الأمر لا على الآمر ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ** (٤٤) ﴾ [الذاريات] الصاعقة صوت مزعج يأتى من أعلى تصاحبه إما نار حارقة ، أو ريح مدمرة .

﴿ **فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ..** (٤٥) ﴾ [الذاريات] أى لهول ما نزل بهم فزعوا فزعاً أقعدهم ، فلم يستطيعوا القيام ولا الهرب من باب أولَى ، فالصاعقة صعقتهم وأفقدتهم القوى ﴿ **وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ** (٤٥) ﴾ [الذاريات] يعنى : لم يستطيعوا نصر أنفسهم ، ولم ينصرهم

أحد ، ولم يدافع عنهم أحد .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾

وقوم نوح أيضاً آية وعبرة ﴿ **مِّن قَبْلُ ..** (٤٦) ﴾ [الذاريات] قبل فرعون وقبل عاد وثمود ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** (٤٦) ﴾ [الذاريات] خارجين عن طاعة الله مُكذِّبين لنبيه نوح عليه السلام .

وقد بسط القرآن قصتهم فى مواضع أخرى بالتفصيل ، وأن نوحاً لبث فى دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وأنهم صمُّوا آذانهم عن دعوته واستغشوا ثيابهم ، وأصرُّوا واستكبروا استكباراً إلى أنْ يئس منهم نوح فدعا عليهم .

﴿ **رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا** [1] (٢٦) **إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** (٢٧) ﴾ [نوح]

وهنا أجمل القول فيهم ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** (٤٦) ﴾ [الذاريات] أى : خارجين عن طاعة الله من قولنا : فسقت الرطبة عن قشرتها . أى : انسلختْ منها .

والرطب هو البلح اللين الذى توفر له الماء ففيه مائية ، لذلك جعله الله تعالى طعاماً للسيدة مريم ، فقال سبحانه : ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا** (٢٥) **فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ..**

(١) قال ابن قتيبة : ديَّاراً أى أحداً . يقال : ما بالمنازل ديَّار أى : ما بها أحد وهو من الدار . أى : ليس بها نازل داراً . قاله ابن الجوزى فى زاد المسير . وقال الماوردى : فيها وجهان . أحدهما : أحداً . قاله الضحاك ، والثانى : من يسكن الديار . قاله السدى .

﴿ (٢٦) ﴾ [مريم] أى : كانت الرطب بالنسبة لها طعاماً وشراباً فى آنٍ واحد .

فهذه صورة بيانية تُصوِّر شرع الله بالغشاء الذى يحمى الثمرة ، فالشرع يحمى المؤمن كما تحمى القشرة الثمرة ، فاحذر أنْ تخرج عن هذا الغشاء الذى يسترك ويحميك ويُزينك .

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ(١) لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾

السماء يُراد بها كلّ مَا علانا ﴿ **بنيْناها بأيْدٍ** .. (٤٧) ﴾ [الذاريات] أى بقوة واقتدار وحكمة والبناء يتطلب العملية التى فيها مكين . ثم قال ﴿ **والأرْض فرشْناها** .. (٤٨) ﴾ [الذاريات] أى : مهَّدناها وبسطناها .

فالسماء فيها صفة الثبات ، فقال ﴿ **بنيْناها** .. (٤٧) ﴾ [الذاريات] والأرض صفتها التغيير ، فالمرتفع منها يصير إلى منخفض والتضاريس عليها يطرأ عليها التغيير ، فقال ﴿ **فرشْناها** .. (٤٨) ﴾ [الذاريات] وهيأناها على وضع يُريح سكانها كما نُهيء للطفل فراشه ، فلا يكون فيه ما يقلقه .

﴿ **فنِعْم الْماهِدُون** (٤٨) ﴾ [الذاريات] من كلمة المهد ، وهو الفراش

(١) زوجين : أى صنفين ونوعين مختلفين . قال مجاهد : يعنى الذكر والأنثى والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجن والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشى . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٤٥٣] .

المريح ، وحتى فراش الطفل دائماً ما ننظفه ونغيره من حين لآخر ، فكذلك الأرض من صفتها التغيُّر وعدم الثبات .

وقوله سبحانه ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** (٤٩) ﴾ [الذاريات] وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** (٣٦) ﴾ [يس] هذه الكلمة ﴿ **وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** (٣٦) ﴾ [يس] جعلتنا ننتظر زوجية لا نعرفها .

ومع تقدم البحث العلمى وجدنا زوجية فى الذرة ، ووجدنا أن المطر لا يتكوَّن إلا إذا حدث له تلقيح ذرى ، وعرفنا الزوجية فى التيار الكهربائي ، ووجدوها حتى فى الجمادات .

وما يزال فى جُعْبَة العلماء الكثير ، وكلها مسائل كانت العقول لا تطيقها قبل ذلك ، لأن الأمة العربية التى نزل فيها القرآن كانت أمة أمية ، ليس عندها شيء من الثقافة ، ولو كُشفتْ لهم هذه الأمور ربما ضاقوا بها وانصرفوا بسببها عن أصل الدعوة .

لذلك الحق سبحانه وتعالى يعطيهم برقية موجزة فى ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ(١) وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** .. (٥٣) ﴾ [فصلت] ليظلّ الباب مفتوحاً يستوعب كل التطورات ويحتاط لكل جديد .

فالسين دلتْ على المستقبل و(نريهم) مضارع يفيد الاستمرار ، فهذه الاكتشافات باقية ، ومعينها لا ينضب إلى يوم القيامة .

(١) الأفق : الناحية . وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين ويستعار لمدى الاطلاع والذكاء فيقال : هو واسع الأفق وجمعه آفاق . قال تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ** .. (٥٣) ﴾ [فصلت] وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ** (٢٣) ﴾ [التكوير] أى : ما بين السماء والأرض .

وإذا كانت عملية التكاثر فى الغالب والجمهرة أنها تأتى من ذكر وأنثى ، فالحق سبحانه يحتفظ لنفسه بطلاقة القدرة ، ويعطينا نماذج من البشر جاءتْ على غير هذه القاعدة .

وكأنه سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أننى أقف عند هذه الأسباب بل أخلق ما أشاء ، أخلق من زوجين ، وأخلق بلا زوجين أصلاً ، وأخلق من زوج واحد .

يعنى : استوعبت طلاقة القدرة فى هذه المسألة كلّ أوجهها ، ثم ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠) ﴾ [الشورى] فيتوفر الزواج ، لكن لا يأتى التكاثر .

ولأن مسألة خلق الأزواج كلها مسألة عجيبة استهلها الحق سبحانه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ..(٣٦) ﴾ [يس] يعنى : لا تتعجب لأنك أمام قدرة الله ، وتنزه سبحانه عن أنْ تقيسه بشىء آخر .

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٥٠) وَلَا تَجۡعَلُواْ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ (٥١) ﴾

هذا أمر بالفرار ، والفرار أى الهرب يكون من مخُوف يقبل عليك وأنت تخاف منه ، وتريد أنْ تنجو بنفسك منه وتفر إلى مأمن يحميك ، وهذه العملية عناصرها فارٌّ ، ومفرور منه ، ومفرور إليه .

والمخاطبون هنا من الله تعالى هم عباده يقول لهم ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [الذاريات] من أى شىء يفرون ؟

إذا كان الفرار إلى الله ، فهم يفرّون من كل ما يناقض الله ، ومن كلِّ ما يخالف شرعه ، يفرون من إبليس الذى ينازع الله فى التكاليف ، يفرون من شهوات نفوسهم ، يفرون إلى الله من الأهواء والنزوات ، يفرون من العذاب إلى النعيم المقيم .

إذن : معنى الفرار هنا الانتقال من شىء مخيف إلى شىء آمن ، ولن تجدوا لكم ملجأ أأمن لكم من حضن خالقكم سبحانه ، ففيه الأمن والراحة والسعادة والنعيم ، حتى العقوبة حينما يُشرِّعها على المخالفة يُشرِّعها من أجل أنْ تعودوا إليه وتفروا إلى ساحته .

فهو سبحانه حريص عليكم لأنكم عباده وصنعته ، وكلُّ صانع يحرص على سلامة صنعته وحمايتها مما يتلفها .

ونحن بدورنا نتعلم من ربنا تبارك وتعالى هذا الدرس فنتقن أعمالنا ، كما علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أنْ يُتقنه »(١) .

فإتقان الصَّنعة يزيد النغمة الإيمانية العقدية فى الكون ، ويكفى أن كل مَنْ يرى صنعتك يقول : الله الله ، فتكون أنت سبباً لذكر الله ، وهذه النغمة لا يرددها الإنسان فحسب ، إنما يرددها الكون كله ويطرب لها ، فالإنسان ما هو إلا فرد فى هذه المنظومة الذاكرة .

إذن : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ..(٥٠) ﴾ [الذاريات] تعلقوا بحبله ، واستمسكوا بهديه ، وكونوا فى جانبه ، كونوا مع شرعه ، سيروا

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٩٠٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (٥٠٨٠ ، ٥٠٨١ ، ٥٠٨٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

معه حيث سار ، كما يقولون عندنا فى الفلاحين (اتشعلق فى ربنا وحط رجلك زى ما أنت عايز) فما دُمْتَ فى جنب الله فلن يضرك شىء ، وصدق القائل :

يا رب حُبك فى دمى وكيانى   نورٌ أغر يذوبُ فى وجدانى

أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى   أنا لا أخافُ وفى رضاك أمانى

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [الذاريات] المتكلم هنا رسول الله فهو النذير من عند الله ، وقال ﴿نَذِيرٌ.. (٥٠)﴾ [الذاريات] لأن الفرار يناسبه الإنذار لتفرّ مما يخيفك إلى ما يُؤمِّنك . و﴿مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [الذاريات] أى : نذارتى لكم واضحة ، وحجتى بيِّنة ظاهرة .

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾ [الذاريات]

أى : لا تتخذوا إلهاً إلا الله تأتمرون بأمره ، ومعلوم أن الذين عبدوا الأصنام أو عبدوا ما دون الله تعالى ، عبدوها لأنها لا أوامرَ لها ولا تكاليف ولا منهجَ ، لذلك كانت عبادتها باطلة .

أما الله تعالى فهو الإله الحقّ الذى يستحق أنْ يُعبد وأنْ يُطاع فى أمره ونهيه ، والنهى فى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ.. (٥١)﴾ [الذاريات] متعلق بالأمر فى ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ.. (٥٠)﴾ [الذاريات] حيث لا إله غيره ، ولا ملجأ لكم إلا هو .

وهذا هو الدين الحق الذى ارتضته الفطْرة السليمة منذ كُنَّا فى مرحلة الذر ، وأخذ الله علينا هذا العهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ.. (١٧٢)﴾ [الأعراف] وما شذَّ الخَلْق عن هذا العهد إلا بسبب الغفلة أو وسوسة

الشيطان ونزغات وشهوات النفوس ، وما عبد الكفارُ الأصنام إلا لإرضاء فطرة التدين فيهم ، عبدوها تديناً بها ؛ إرضاء للفطرة ، وارتياحاً لعدم التبعة ؛ لأنها لا أمر لها ، ولا نهى .

وعلى العاقل قبل أنْ يقدم على العمل أنْ يستحضر عواقبه والجزاء عليه ، فحينما يُقبل على المعصية يتصوَّر العذاب الذى ينتظره عليها ، وحينما يكسل عن الطاعة يتصوَّر النعيم الذى أُعدّ له ، ولو فعل الناسُ ذلك ونظروا فى العواقب لفرُّوا من المعصية إلى الطاعة .

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)﴾

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ.. (٥٢)﴾ [الذاريات] أى : كما حدث لمَنْ تقدم ، وحصل لهم ما حصل من نزول العذاب بهم بالصاعقة وبالريح العقيم فانتظر أنْ ينزل بهم مثل هذا ، فما هم عنه ببعيد ، ولا تحزن فلستَ أول رسول يُكذِّبه قومه ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)﴾ [الذاريات]

وسبق أن اتهموا رسل الله بالسحر وبالجنون ، فاصبر ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

يعنى : إن لم ينزل بهم العذاب فى الدنيا فهو ينتظرهم فى الآخرة .

وقد رحم الله هؤلاء المكذِّبين لرسوله رغم كفرهم وعنادهم تقديراً لوجود رسول الله بينهم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

وقد كان سيدنا رسول الله حريصاً على هداية قومه مهما حدث منهم ، وكان يناجي ربه دائماً يقول : أمتي أمتي[١] .

وسبق أنْ بيَّنا بطلان هذا الاتهام ، فالنبي لا يكون أبداً ساحراً ولا مجنوناً ، فهاتان الصفتان أبعد ما تكونان عن وصف النبي ، لأنه قدوة في السلوك وما شاهدتم عليه أبداً علامة من علامات السحر أو الجنون .

ولو كان ساحراً لسحركم فآمنتم به كما آمن غيركم ، ولو كان مجنوناً لما استطاع ترتيب الأمور على هذه الصورة ولما بلَّغكم رسالة ربه ، ثم إن الاتهام بالسحر ينافي الاتهام بالجنون ، فكيف جمعتم عليه هاتين الصفتين ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ .. (٥٣) ﴾ [الذاريات] كأن الأمم المكذِّبة على مَرِّ التاريخ أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول : قولوا للنبي ساحر ومجنون ، وكأنه اتفاق مسبق بينهم وإصرار منهم على تكذيب الرسل ، والتمادي في اللدد والعناد .

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي .. (٣٦) ﴾ [إبراهيم] . وقال عيسى عليه السلام " ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك . فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم . فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : «إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» أخرجه مسلم في صحيحه (٣٠١) والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٦٨) والطبراني في المعجم الكبير (١٥١٥) وفي الأوسط (٩١٤١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٧٠٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

لذلك يُضرب الله عنهم وعن اتهاماتهم ، ويقول : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾ [الذاريات] أي : دعْكَ من هؤلاء ، فهم قوم طاغون . أي : متجاوزون للحدود[١] .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾

معنى ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ .. (٥٤) ﴾ [الذاريات] أعرض عنهم ودَعْكَ منهم ، فأنت غير مطالب بأن تحملهم على الإيمان ، وما عليك إلا البلاغ وفقط ، وفي أكثر من موضع خاطب الحق سبحانه نبيه بهذا المعنى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[٢] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

أنت ستهلك نفسك من أجلهم وحرصاً على هدايتهم ، والهداية ليست مهمتك ، مهمتك البلاغ والهداية من الله ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

يعني : لو شئتُ لجعلتُهم مؤمنين قهراً كإيمان السماء والأرض ، لكنني أريد إيمانَ القلب لا إيمانَ القالب .

﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) ﴾ [الذاريات] يعني : لا لوم عليك في عدم إيمانهم ، وإنْ حدث لوْم لرسول الله فهو لوْم له لا عليه ، لوْم

(١) قال القرطبي في تفسيره (٩/٦٤٥٥) : « أي لم يُوص بعضهم بعضاً بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحد في الكفر » .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

لصالحه ورحمة به ﷺ ، كما لامه ربه فى مسألة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم [١] فقال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ ﴾ [عبس] لامه لأنه كلَّف نفسه فوق طاقتها ، وأعرض عن هذا المؤمن حرْصاً منه على هداية صناديد قريش [٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْ .. ۝٥٥ ﴾ [الذاريات] يعنى مهمتك أنْ تُذكِّر الناس بالله وبمنهج الله ، ذكِّر وفقط ، ذكِّر مَنْ جاءك ومَن انصرف عنك ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ ﴾ [الذاريات] ، فالمؤمن هو الذى ينتفع بالتذكير ويتمسَّك بالإيمان .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦
مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ [٣] ۝٥٧
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾

---

(١) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم ، صحابى شجاع كان ضرير البصر ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ فى المدينة مع بلال وكان النبى يستخلفه على المدينة يصلى بالناس فى عامة غزواته ، حضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٣] .

(٢) الصناديد : جمع صنديد وهو الملك الضخم الشريف . وقيل : السيد الشجاع . والصناديد : سادات الناس وهم حماة العسكر [لسان العرب – مادة : صند] وقال فى تاج العروس للزبيدى : « كل عظيم غالب صنديد . فهو الغالب لمن عاداه وعارضه » .

(٣) قوله : ليعبدون . أى : ليوحدون . وقال على رضى الله عنه : أى إلا لآمرهم بالعبادة . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أى إلا ليقروا لى بالعبادة طوعاً وكرهاً . وقال مجاهد : إلا ليعرفونى . [ذكره القرطبى فى التفسير ٩/٦٤٥٦] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ .. ۝٥٦ ﴾ [الذاريات] الخَلْق هو إيجاد المادة من عدم وتصويرها على غير مثال سابق ، والخَلْق بهذه الصورة لا يكون إلا لله وحده ، ومع ذلك لم يحرم خَلْقه من هذه الصفة ، فأعطاهم صفة الخَلْق على قدرهم .

وقال سبحانه عن نفسه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون] فأنت خالق حينما تبرز للوجود شيئاً جديداً لم يكُنْ من قبل ، كالذى يصنع الكوب مثلاً من الرمل يُسمَّى خالق لأنه أوجده ، نعم هو خالق ولم يُحرم ثمرة جهده .

أما الحق سبحانه فهو أحسن الخالقين ، ومعلوم أن البشر يخلقون من مادة موجودة ، أما الحق سبحانه فيخلق من غير موجود ، البشر يخلقون مادة جامدة لا حياةَ فيها ، أما الخالق سبحانه فيخلق خَلْقاً حياً مُتجدداً ينمو ويكبر ، إلى غير ذلك من الوجوه فى هذه المسألة ، فنحن نخلق لكن الله أحسنُ الخالقين .

ثم إن الحق سبحانه خَصَّ هنا الجنَّ والإنس فى مسألة العبادة ، ولم يذكر خَلْقاً آخر أعظم هم الملائكة ، قالوا : لم يذكر الملائكة فى هذا المقام لأنهم خُلقوا للعبادة وليس لهم اختيار فيها ، فهم مخلوقون بدايةً ، ومُهيَّئون لعبادة الله ، وجُبِلوا على ذلك ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التحريم]

والحديث هنا عن الخَلْق المختار الذى ينتظر منه الطاعة ، وينتظر منه العصيان . فإنْ قلتَ : فلماذا قدَّم الجن على الإنس فى هذه المسألة ؟

قال بعض العلماء : قدَّم الجن على الإنس ، لأن العبادة إما سرية

وإما جهرية ، وعبادة الجن سرية لأننا لا نراهم ، والعبادة السرية أفضل لأنها لا يدخلها الرياء ، أما عبادة الإنس فجهرية فى الغالب ويدخلها الرياء .

وهذا القول يمكن الردّ عليه بأن عبادة الجن سرية بالنسبة لنا ، لأننا لا نراهم لكن جهرية بالنسبة لجنسه ، ويمكن أيضاً أنْ يدخلها الرياء ، فهم يرى بعضهم بعضاً .

لكن يمكن توجيه المسألة توجيهاً آخر ، فنقول : لو أنك قرأتَ القرآن باستيعاب لوجدتَ أن الجن خُلقوا قبلنا ﴿ **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** (٢٧) ﴾ [الحجر] فقدَّمه على الإنس لأنه خُلِق قبلهم .

ثم إنْ معظم انصراف الإنس عن العبادة بسبب الشيطان وهو من الجن ﴿ **إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ..** (٥٠) ﴾ [الكهف] ولهذا قدِّموا علينا فى مسألة العبادة .

والأسلوب فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) ﴾ [الذاريات] أسلوب قصر . أى : قصر خَلْق الإنس والجن على العبادة ، فهى العلة الوحيدة لهذا الخَلْق ، ما خلقهم لشىء آخر سوى عبادته سبحانه .

والعبادة تعنى طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، وهذه العبادة بهذا المعنى هى العبادة الحق ، وهى مطلوب الله من العباد ، لذلك لا يقبل الله إلا ما كان له خالصاً .

وهذه العبادة الحق لا يأتى بها كُلُّ الخلق ، بل يأتى كُلٌّ منهم على قدر روحه وعلى قدْر نظره للإله الحق الذى يعبده .

والناس كبشر متفاوتون فى هذه المسألة ، وأعلاهم فيها هم الرسل ، وأفضل الرسل خاتمهم محمد ﷺ ، فهو الذى حقَّق العبادة على وفْق مراد الحق سبحانه منها .

لذلك البعض يغالى فيقول : ما خُلق الكون كله إلا من أجل محمد ﷺ ، ونقول : يكفى أنه ﷺ أحسنُ عابد لله ، لأن العبادة معنى ، والمعنى لا يتحقق إلا بعابد حَقٍّ ، وهو الذى يؤدى المراد لله .

وهذا العابد الحق لا يأتى من الناس العاديين ، إنما يأتى من الأنبياء وسيد الأنبياء وخاتمهم سيدنا رسول الله ، فهو خير مَنْ حقق العبادة لله .

إذن : علَّة الخَلْق هى العبادة ، والله تعالى مُنزَّه فى أفعاله عن العلة ، فهو سبحانه يفعل ما شاء لما شاء فيما شاء . والعلة الممنوعة فى أفعاله تعالى العلة التى تعود عليه سبحانه .

أما العلة التى تعود على غيره فلها تعليل ، فالعبادة ليستْ له سبحانه إلا لمصلحة الخَلْق جميعاً ، لأنها هى التى تسعدهم فى الدنيا وتُنجيهم فى الآخرة ، ولا يعود على الله منها شىء ، لأنه سبحانه الغنى عن خَلْقه ، فلا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم .

فقد خلق الخَلْق بكامل صفات الكمال فيه ، فلم يزدد بهذا الخلق صفة لم تكُنْ له من قبل ، فهو خالق قبل أنْ يخلق ، ورازقٌ قبل أنْ يرزق ، ومُسبَّح قبل أنْ يُوجد ما يُسبِّحه .

وإذا كانت العبادة كما قلنا طاعة العابد للمعبود فى أمره افعل ولا تفعل ، فهى بهذا المعنى تشمل حركة الحياة كلها ، ولا تقتصر على

الصلاة والصيام والزكاة كما يريدها البعض من الذين يعزلون الدين عن حركة الحياة .

يقولون : لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة . وهذا قول باطل وغير صحيح ، والذين فعلوا ذلك يريدون أنْ يجعلوا لأنفسهم سلطة زمنية تخضع لأهوائهم ليفعلوا ما يريدون .

لقد تعمدوا عدم الارتباط بمنهج السماء فى إدارة شئون الأرض ، لأن منهج السماء يقيد حركتهم ، ونسُوا أنه أيضاً يقيد حركة المحكومين لمصالحهم .

إذن : منهج الله شمل الحياة كلها ، من قمة لا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق[(١)] ، ولو كان الأمر كما يقولون أنترك القاتل فلا يُقتل ، ونترك الزانى فلا نقيم عليه الحد ، ونترك شارب الخمر ، ونترك المفسدين يفسدون ، ونترك الناس لا يتناهون عن منكر فعلوه ؟

إذن : ماذا يريدون من تعطيل شرع الله وعزله عن حركة الحياة ، الحق سبحانه جعل العبادة لصالح الخلق ، تنظم حركة حياتهم وتسعدهم .

ودائماً فى هذه المسألة نذكر الحديث القدسى : « يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٥١) وكذا الترمذى فى سننه (٢٥٣٩) والنسائى فى سننه (٤٩١٩) وابن ماجه فى سننه (٥٦) .

وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[(١)] .

فكيف نُقصى دين الله عن حركة حياتنا ، وقد تدخل فى أبسط الأمور ، فدخل رجل عاص الجنة لأنه سقى كلباً[(٢)] ، ودخلتْ امرأة النار فى هرة حبستها[(٣)] ، فما بالك بالإنسان الذى كرَّمه الله ، أنهتم بسياسة الكلاب ونترك سياسة البشر ؟

وورد أيضاً فى الحديث القدسى : « يا بن آدم ، خلقتُك لعبادتى فلا تلعب »[(٤)] يعنى جدّ فى حركة الحياة ، لأن اللعب حركة بلا فائدة وبلا مغزى ، والله يريد لحركة العباد أنْ تكون حركة نافعة ذات مغزى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٦٧٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (٩٣/٦) والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٧٧١٤) والبيهقى فى شعب الإيمان (٦٨٢٣) من حديث طويل عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (١٦٨) وأحمد فى مسنده (١٠٣٣٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفَّه فجعل يغرف له به حتى أرواه ، فشكر الله له فأدخله الجنة .

(٣) أخرج البخارى فى صحيحه (٢١٩٢ ، ٣٠٧١ ، ٣٢٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٤١٦٠) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار . قال : لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستيها ، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض » . وهذا لفظ البخارى .

(٤) أورده ابن كثير فى تفسيره لآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] قال : فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : « ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن جدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » ، وهو من الإسرائيليات كما قاله ابن تيمية فى مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨٨/٢) .

فلو أنك أخذت جانب العبادة وأهمها الصلاة مثلاً ، ألستَ تحتاج لإقامة هذا الواجب إلى ستر العورة كيف ؟ ثياب تلبسها ، كيف تصل إليك هذه الثياب ؟

تأمل من أول زراعة القطن إلى أنْ يصلك ثوب تلبسه ، إنها رحلة طويلة من السعى والعمل والجد ، يشترك فيها آلاف يخدمونك فى هذه المسألة .

إذن : حركة الحياة ليست هى الصلاة فحسب ، بل كل ما يعيننى على أداء الصلاة وكل ما يعيننى على أداء الزكاة والصوم والحج .

إذن : العبادة أمر شائع فى كل حركة الحياة ، فكيف نفصل الدين عن حركة الحياة كلها ، فضلاً عن أنْ نفصله عن سياسة أمر الخَلْق وتدبير شئونهم ؟

وقوله سبحانه : ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧)﴾ [الذاريات]

أى : ما أريد من خَلْقى أنْ يرزقونى ، نعم لأنه هو سبحانه الرزاق المتكفل بأرزاق كُلِّ الخلق ، فكيف ينتظر منهم رزقاً ، وهو يرزق مؤمنهم ، ويرزق كافرهم ؟ كيف وهو موجود سبحانه قبل أنْ يُوجدوا ، وله صفات الكمال كلها قبل أنْ يخلقهم .

ومن باطن هذا الرزق يرزق الناسُ بعضهم بعضاً ، فرزق هذا من يد هذا ، والحق سبحانه وتعالى يشجع العبد على أنْ يعطى فيقول له : حينما ترزق عبدى فكأنك رزقتنى ، وحينما تعطيه كأنك أعطيتنى .

ذلك لأنه تعالى هو الذى خلق الناس واستدعاهم إلى الوجود ،

وتكفَّل لهم بالرزق ، فيد الله ممدودة لخَلْقه بخَلْقه ، لذلك سمَّى الصدقة على الفقير قرضاً ، فقال : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

وفى الحديث القدسى : « يا بن آدم مرضتُ فلم تعدنى ، فيقول العبد : يا رب كيف أعودك وأنتَ رَبُّ العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتنى عنده . يا بن ادم استطعمتك فلم تطعمنى ، فيقول : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : لقد استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندى ... »[١] .

إذن : فعل الخير يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد العبد ، والحق سبحانه وتعالى لو أراد لأنزلَ رزقه إلى عباده مباشرة ، لكن جعله من أيدى الناس لأيدى الناس ليزرع بينهم الألفة والمودة والمحبة ، ويشيع بينهم التراحم وعدم الاستكبار ، فالله يريد للمجتمع أنْ يتكاتف وأنْ يتعاون .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧)﴾ [الذاريات] فعطف الطعام على الرزق ، لماذا ؟ سبق أنْ بيَّنا أن الرزق هو كلّ ما يُنتفع به ، وعلى هذا فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والكرم رزق ، والصحة رزق وهكذا ، فالرزق هنا الرزق العام لذلك خَصَّ بعده الطعام لأنه أظهر شىء فى الرزق ، وبه تقوم الحياة وتستبقى . قالوا : ولم يذكر الشراب لأنه داخل فى الطعام .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٦٦١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٨٨٧٩) وابن حبان فى صحيحه (٢٦٨ ، ٩٤٩ ، ٧٤٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات] السياق هنا يؤكد على هذه الحقيقة ليرسخها فى الأذهان ، ليطمئن كلٌّ منا على أن رزقه مضمون ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ .. (٥٨) ﴾ [الذاريات] فاستخدم إن ثم الضمير المنفصل هو ﴿ ذُو الْقُوَّةِ .. (٥٨) ﴾ [الذاريات] أى : صاحب القوة . وهذا يعنى أن الذات شىء ، والقوة شىء منفصل عنها .

وفى موضع آخر يتكلم عن القوة والغلبة فيقول : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] فالقوة هنا فى الذات ، فلم يقل هنا ذو قوة . لأن المقام مقام بيان للغلبة فى وجه المعاندين .

لذلك قال ﴿ قَوِيٌّ .. (٢١) ﴾ [المجادلة] والقوى هو الذى يغلب ، لكن قد تتكاتف عليه قوى أخرى تغلبه ، فقال ﴿ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] يعنى : غالب لا يُغلب أبداً . وهنا قال ﴿ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات] أى : الشديد فى قوته ، لأن القوة قد يصيبها الوهن فتضعف .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا(١) مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) ﴾

من أساليب القرآن أنْ يذكر المتقابلات ، فبعد أنْ تكلم عن المؤمنين يتكلم عن كفار مكة ، فهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ

(١) قال الفراء : الذَّنوب فى كلام العرب : الدلو العظيمة ، ولكن العرب تذهب بها إلى النصيب والحظ . وقال ابن قتيبة : أصل الذَّنوب الدلو العظيمة وكانوا يستقون فيكون لكل واحد ذنوب . [زاد المسير لابن الجوزى] . وقد ذكر الماوردى فى تفسيره أربعة أوجه : أولها : عذاباً مثل عذاب أصحابهم . قاله عطاء . الثانى : سبيلاً . قاله مجاهد . الثالث : الدلو . قاله ابن عباس . الرابع : النصيب .

لِلَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٥٩) ﴾ [الذاريات] ظلموا بتكذيبهم وعنادهم لرسول الله ووقوفهم فى وجه الدعوة ، فاستحقوا أنْ يكون لهم ﴿ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ .. (٥٩) ﴾ [الذاريات] أى : نصيب من العذاب مثل نصيب أصحابهم من المكذِّبين فى الأمم السابقة عاد وثمود وفرعون .

والذَّنوب هو الدلو الذى نُخرج به الماء من البئر ، والحبل الذى يُشدُّ به الدلو يسمى الرِّشاء ، فإنْ كان الماء كثيراً خرج الدلو ثقيلاً بطيئاً ، لذلك قالوا :

وأبطأ الدِّلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها .

والشاعر العربى يُعبر عن هذا المعنى ، فيقول :

وإذا امْرؤ مدح امرءاً لِنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءَه

لو لم يقدّر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءَه

لأن بُعْد الماء فى البئر يستدعى طول الرشاء ، كذلك بُعْد النوال عند الممدوح يستدعى طول المديح .

إذن : استخراج الماء بالدلو كانت عادة عربية ، وإن كان الذَّنُوب يُصب له الماء ليشربوا فى الدنيا ، لكن الذنوب هنا سيصب عليهم العذاب صباً .

كما قال تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج] يصب على المكذبين من قريش ، كما صبّ على قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ، لأن الكفر ملة واحدة على مرِّ العصور .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن عذاب قوم لوط قال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا

﴿ عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(١) مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً(٢) عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود] فالعذاب الذى نزل بالسابقين ليس بعيداً عن اللاحقين .

وهنا أكد على هذا المعنى فقال : ﴿ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الذاريات] لأنه واقع بهم لا محالة وغير بعيد عنهم ، والمسألة مسألة وقت وأوان ينتظرهم .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

كلمة (ويل) قالوا : واد فى جهنم(٣) ، وقالوا : ويل . يعنى : هلاك وعذاب ولَعْن من الله لهؤلاء الذين خرجوا عن طاعته ولم يُؤدوا المهمة التى خُلقوا من أجلها وهى عبادة الله وحده .

فلما استغنوا عن الله استغنى الله عنهم ، فأبعدهم من رحمته وخلَّدهم فى عذابه ، فلا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها .

لذلك حكى الله عنهم : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

(١) السجيل : الطين المتحجر . [القاموس القويم ١/٣٠٤] وهى كلمة معربة أصلها سنك وكِلْ أى حجارة وطين . [لسان العرب – مادة : سجل] والسجيل المنضود أى المتتابع المنتظم السقوط عليهم . [القاموس القويم ٢/٢٧١] .

(٢) مسومة عند ربك : عليها خواتيم بأسماء المعذبين . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٣) ويل : كلمة مثل ويح ، إلا أنها كلمة عذاب . والويل : حلول الشر . وقيل هو تفجع والويل الحزن والهلاك والمشقة من العذاب . وقد جاء فى الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً » [لسان العرب – مادة : ويل] .

مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] وقال عنهم : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الذاريات] أى : يومهم الذى وعدهم الله به وحذَّرهم منه ، فالله تعالى لم يأخذهم على غرَّة ، ولم يتركهم فى غفلة ، إنما بيَّن لهم العواقب . فقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت]

سُورَةُ الطُّورِ

سورة الطور(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣﴾

نلاحظ أن مطلع سورة (الطور) يتشابه ومطلع سورة (الذاريات) قبلها ، ففى الذاريات يُقسم الحق سبحانه : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾ [الذاريات] وجواب القسم ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات]

وهنا يقسم الحق سبحانه : ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطور] وجواب القسم : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور] فكلاهما يقسم على صدق الإخبار بيوم القيامة ، وما فيه من العذاب الذى لا يُرد ولا يُدفع .

---

(١) سورة الطور هى السورة رقم (٥٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٤٩ آية ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . نزلت بعد سورة السجدة وقبل سورة الملك ، فهى السورة رقم (٧٥) فى ترتيب نزول القرآن . [انظر الإتقان فى علوم القرآن ١/ ٢٧] .

وحينما نتأمل المقسَم به فى الموضعين نجده فى سورة الذاريات أقسم بأشياء مادية ، أقسم بالرياح والسُّحب التى تحمل الماء الذى يُحيي الأرض .

وفى الطور أقسم بأشياء روحية قيمية ، فالمادة تسعدك فى الدنيا ، والقيم تُسعدك فى الدنيا والآخرة ، والدنيا مهما طالتْ تنتهى إلى الآخرة الباقية التى لا نفادَ لنعيمها .

لذلك خاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] يخاطبهم وهم أحياء يُرزقون ، إذن : يقصد حياة أخرى غير هذه الحياة ، يقصد حياة القيم ، حياة النعيم الدائم الذى لا يزول .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] الحيوان أى : الحياة الحقيقية التى لا يُهدِّدها فناء .

لكن لماذا أقسم الحق سبحانه هنا بالطور ؟ قالوا : لأن الرسل كُلِّموا بالوحى ، أما موسى عليه السلام فكلَّمه الله مباشرة بالكلام المباشر من على هذا الجبل ، ومن هنا كانت لجبل الطور منزلة خاصة .

ذلك لأن بنى إسرائيل قوم عندهم لدد وعناد فى الخصومة ، ويميلون إلى المادية فى كل شىء حتى فى الدين ، لذلك قالوا لموسى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة] فلو قال لهم إن الوحى أتانى سراً ما صدّقوه .

قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ (١) ﴾ [الطور] الواو هنا واو القسم ، فالحق سبحانه يقسم بالطور أى جبل الطور . وقلنا : إن الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، والطور وردتْ فى القرآن عشر مرات لِعظم هذا المكان عند الله .

ومن على جبل الطور كلم الله سيدنا موسى ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) ﴾ [الطور] كتاب أى مكتوب وهو التوراة وفيها الألواح . ومسطور يعنى : كتابة منظمة فى سطور (مش منعكش) .

وقوله : ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) ﴾ [الطور] الرقّ : كل ما يُكتب فيه من جلد ، وهو أول ما كتبوا فيه أو عظم أو غيره ﴿ مَّنشُورٍ (٣) ﴾ [الطور] مبسوط غير مطوى أو مُغلق ، مثل تاجر القماش ينشر لك الثوب ويعرضه عليك ، وهذا يعنى أنه ثوبٌ جيد لا عيبَ فيه ولو كان فيه عيب ما نشره ، وما أعطاك الفرصة لتتفقده .

فالحق سبحانه نشر كتابه وعرضه على الخَلْق ليقرؤوه ، وهذا يعنى أنه كتاب مُحكم دقيق ، لا عيبَ فيه ولا خلل .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥)
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) ﴾

معنى ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) ﴾ [الطور] قسم بالبيت وهو الكعبة ، وهذا دليل على وجود أُناس فى هذا الزمن استجابوا لمنهج الله وذهبوا إلى البيت وعَمَروه . وقالوا : البيت المعمور فى السماء وتطوف به الملائكة .

وكأن الله تعالى يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أنى أترجى فيكم لتؤمنوا ولتأتوا إلى عمارة بيتى ، فعندى البيت المعمور فى السماء السابعة يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، مَنْ دخله مرة لا يدخله أخرى(١) وهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

ومعنى ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) ﴾ [الطور] أى : السماء سقف مرفوع بلا عمد ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) ﴾ [الطور] كلمة مسجور لها معنيان : مسجور يعنى مليء بالماء ، والبحر قسمان : مالح وعذب .

والعجيب أن الله تعالى قال عنهما ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٢) ﴾ [فاطر] فلا نأكل الفسيخ من البحر المالح ، إنما نأكل منه السمك كالذى نأكله من الماء العَذْب ، فملوحة الماء لم تؤثر فى طعم السمك .

المعنى الآخر : مسجور يعنى مشتعل ، نقول : سجره يعنى : صيَّره ناراً تشتعل ، ومعلوم أن الماء والنار من المتناقضات ، فهذه البحار التى تزخر بالماء تأتى يوم القيامة وقد اشتعلتْ ناراً بعد أنْ تبخَّر ما فيها من ماء .

ثم يأتى جواب القسم :

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ (٨) ﴾

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٦٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولفظه « رُفع لى البيت المعمور فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم » الحديث بطوله .

أى : عذاب الآخرة واقع أى حادث لا شكَّ فيه ، لأن الذى وعد به وأخبر به هو القوى والقادر الأعلى الذى لا يردُّ أحدٌ كلمته ، ولا يقف أحدٌ ليمنعه عن إرادته ، فالله سبحانه ليس له نِدٌّ وليس له شريك ، وليس له نظير ولا معارض .

وما دام الأمر كذلك ﴿ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) ﴾ [الطور] أى : لا أحد يستطيع أنْ يدفع عذاب الله إنْ وقع ، ولا يمنعه إنْ جاء موعده ، ومتى موعده ؟(١) .

يقول :

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ(٢) (١٢) ﴾

الحديث هنا عن يوم القيامة ، وفيه تمور السماء موراً ، فهذه السماء وهذا السقف المرفوع المحفوظ ، وهذا البناء المحكم الذى قال الله فيه ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ .. (٤٧) ﴾ [الذاريات] أى : بقوة وإحكام ،

(١) قال جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ فى أسارى بدر ، فوافيته يقرأ فى صلاة المغرب (والطور) إلى قوله ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) ﴾ [الطور] فكأنما صُدع قلبى ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٤٦٣] .

(٢) فى خوض يلعبون : أى فى تردد فى الباطل واندفاع فيه يلهون لا يذكرون حساباً ولا يخافون عقاباً . والمعنى : أنهم يخوضون فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء . وقيل : يخوضون فى أسباب الدنيا ويعرضون عن الآخرة . [فتح القدير للشوكانى] .

وقال : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ [النبأ]

هذه السماء تمور يعنى : تتحرك وتضطرب أو تتقطع ، كما يحدث للقماش القديم المهترئ ، وفى موضع آخر عبَّر عن هذا المعنى بقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ ﴾ [المعارج]

وهذا يعنى أن بناء السماء تهدَّم وتفككتْ أوصاله كما تهدَّم كل شىء فى الكون ، حيث لم يَعُدْ لها مهمة ، فمهمة السماء فى الدنيا أنها كانت من أسباب الحياة الدنيا .

أما فى الآخرة فلا حاجة للأسباب ، لأننا هناك نعيش بالمسبِّب سبحانه ، لا حاجة لنا فى هذه الأسباب التى نحيا بها .

لذلك يقول سبحانه فى هذا اليوم : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : لسنا فى حاجة إلى الشمس ، لأننا نستضىء بنور ربِّ الشمس ومسبِّبها سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطور] كما قال : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ [التكوير] هذه الرواسى الثابتة كالأوتاد على ضخامتها تسير وتتحرك ، ثم تتفتتْ وتتناثر .

قال سبحانه : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج] أى : الصوف المندوف المتناثر ، نعم فلم يَعُدْ لها مهمة ، كانت مهمتها تثبيت الأرض ، والآن تهدَّم كلُّ هذا النظام وتفكك .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الطور] ويل لهم ، لأنهم أخذوا بالأسباب وانتفعوا بها ونسوا المسبب ، فها هى الأسباب تفنى ولم يَبْقَ إلا مُسبِّبها الله الذى كفرتم به وكذَّبتم رسله ، والآن لا يأخذ خير المسبب إلا من آمن به وصدق رسله ساعة بقاء الأسباب .

لذلك نقول : إياك أنْ تغترَّ بالأسباب مهما طاوعتك ومهما أعطتْك ، واعلم أن وراء الأسباب مُسبِّبها .

تذكرون أن باكستان فى فترة من الفترات خططتْ لزراعة مساحات واسعة من القمح ، وجاءت دراسة الجدوى تُبشِّرهم بالاكتفاء الذاتى ثم التصدير حتى لأمريكا ، وفعلاً زرعوا القمح حتى قارب على الاستواء ، فنزلتْ عليه آفة أفسدته ، وفى هذا العام استوردوا القمح لأنهم اعتمدوا على الأسباب ونسُوا المسبِّب سبحانه .

أيضاً فى قصة قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فلما اغتر بعلمه وفَهْمه تركه الله وقال : احفظ مالك أيضاً بعلمك ، ثم جاءته الطامة التى لا يستطيع أنْ يدفعها ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] فأين عنديتك الآن ؟

نعم ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الطور] الذين كذَّبوا بالله الموجد الأعلى وكذَّبوا رسله ، وظنوا أن الحياة الدنيا هى الغاية ، وهى نهاية المطاف كما يقول الذين يؤمنون بالطبيعة ويكفرون بالله .

لذلك زاد فى تعريفهم ، فقال : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الطور] وفى موضع آخر قال : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [المعارج]

والخوض يكون فى الماء ، وفيه إشارة إلى التخبُّط وعدم الهدى ، فأنت مثلاً حينما تسير على قدميك على الأرض تستطيع أنْ تتحسَّس مواضع قدمك ، وتشعر بأماكن الخطر فى الطريق لأنك تسير فيه على هدى وبصيرة .

لكن حينما تسير فى الماء فأنت لا تعرف أين تضع قدميك ولا

تأمن العطب ، لذلك حين نتأمل القرآن الكريم نجده لم يستخدم الخوض إلا فى الباطل ، فقال : ﴿ ثم ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ .. (٦٨) ﴾ [الأنعام]

وقد عبَّر القرآن عن هذا المعنى ، فقال : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) ﴾ [الذاريات] كأنهم فى ماء يغمرهم ويتخبطون فيه .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)
هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) ﴾

الفعل ﴿ يُدَعُّونَ .. (١٣) ﴾ [الطور] من دعَّ نقول دعه . أى : دفعه بشدة وعنف حتى كفأه على وجهه ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) ﴾ [الماعون] أى : يدفعه بقسوة .

فالذى جاءه يتيم ليطلب منه حاجة تقيم حياته ، وكان بوُسْعه أنْ يُعطيه أو يردّه ويسكت عنه دون أذىً ، لكنه دعَّه ودفعه وآذاه ، لذلك استحقَّ هذا الجزاء .

كذلك الحال هنا مع هؤلاء المكذِّبين ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور] أى : يُساقون إليها دَفْعاً شديداً قوياً ، دَفْعاً فيه إهانة لهم ، ومن الذى يدفعهم نحو النار ؟ إنهم الملائكة .

ووالله لو كانوا بشراً لكان كافياً فى إذلالهم ، كما ندفع المجرم فى الدنيا إلى باب السجن مثلاً ، فما بالك حين تدفعهم ملائكة العذاب

إلى داخل النار ، فإذا دخلوها تتلقَّاهم ملائكة أخرى لهم معهم مهمة أخرى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) ﴾ [القمر]

إذن : الدَّعّ هنا يتناسب وقوة الملائكة ، فكيف يكون ؟ ومن الإهانة لهم أنْ يقابلهم الملائكة بهذه الحقيقة : ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) ﴾ [الطور] أصبحتْ عياناً تشاهدونها ، وتقاسون حرَّها .

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥)
اصْلَوْهَا(١) فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ
إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

تأمل هذا التوبيخ والتقريع ، فقد كانوا يتهمون الرسول ويقولون ساحر ويقولون للقرآن سحر ، فالآن يخاطبهم بنفس كلمتهم ، يقول لهم ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا .. (١٥) ﴾ [الطور] أى : هذا العذاب الذى تُقاسُونه أهو سحر ؟

السحر تخييل لا تتألمون منه ، لكنكم تتألمون . إذن : ليس سحراً بل هو حقيقة ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) ﴾ [الطور] إما هذه وإما هذه .

﴿ اصْلَوْهَا .. (١٦) ﴾ [الطور] ادخلوها أى جهنم ، وذوقوا حرّها وعذابها .

﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا .. (١٦) ﴾ [الطور] هذه أول مرة نرى الصبر لا فائدة منه ، وليس له أجر ، إنه صبر هؤلاء على حرِّ جهنم .

---

(١) صَلِى النار : قاسى حرّها . وأصلاه الله النار : أدخله إياها . ومنها قوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر] أى : سأدخله النار . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [الطور] يستوى عندنا صبرتم أو لم تصبروا ، فالأمران سيان ، ولن تخرجوا منها أبداً ، وهذا ليس ظلماً لهم إنما جزاءً وفاقاً .

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الانفطار] لم نأت بشيء من عندنا ، إنما هى أعمالكم نُوفيكم إياها ، فأنتم الذين وضعتم أنفسكم هذا الموضع .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ(١) بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

ذكْر المتقابلات سمة من سمات الأسلوب القرآنى ، ومظهر من مظاهر عظمته ، فكما قلنا : الضد يظهر حُسْنه الضد ، لذلك كثيراً ما نقرأ هذه المتقابلات كما فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار]

وهنا بعد أنْ تكلَّم عن الكافرين وجزائهم فى جهنم والعياذ بالله يُحدِّثنا سبحانه عن المتقين وما ينتظرهم من النعيم .

فساعة نقرأ هذه الآيات ونستحضر الصورتين المتقابلتين يقول

(١) فكه : مرح ومزح وتحدث بالفكاهات والطرائف فهو فاكه . والفاكه : الناعم العيش . [القاموس القويم ٢ / ٨٨] .

المؤمن : الحمد لله أن إيمانى أنقذنى من هذا المصير المخزى . ويقول الكافر : يا حسرتى لقد أبعدنى الكفر وحرمنى هذا النعيم .

فالمقابلة تُفرح المؤمن وتُحزن الكافر ، تُعز المؤمن وتُذل الكافر ، لذلك قال تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الطور] معنى التقوى أنْ تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية ، وقلنا : إن الحق سبحانه قال : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة] وقال ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ .. ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة] والمعنى واحد هو أنْ تجعلَ بينك وبين صفات الجلال لله وقاية ، وحين تقى نفسك من النار فإنك تقى نفسك من الله ، لأنها جُند من جنود الله .

وتلاحظ هنا ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الطور] (المتقين) جمع و (جنات) جمع . وهذا يعنى أن لكلِّ مُتَّق جنة خاصة به ، كما لو قلنا للتلاميذ : أخرجوا كتبكم . أى : ليُخرج كلُّ واحد منكم كتابه ، فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً .

لذلك قلنا فى آية الرحمن : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن] فكيف نجمع بينهما ؟ قالوا : جنتان ، لأن الحديث هنا عن الإنس والجن الثقلان ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن]

فالمراد : مَنْ خاف مقام ربه من الجن له جنة ، ومن خاف مقام

ربه من الإنس له جنة[1] .

وحرف الجر ﴿فِي جَنَّاتٍ .. (١٧)﴾ [الطور] يعنى : أن الجنات ظرف والمتقين مظروف ، الجنة محيطة بالمتقى ، ثم قال ﴿وَنَعِيمٍ (١٧)﴾ [الطور] لأن مَنْ فى الجنة ليس بالضرورة أنْ يكون فى نعيم .

كما نرى مثلاً الباشا يجلس فى حديقة منزله ، وفيها الأشجار والزهور والثمار ، وعنده العامل يقصف الأشجار يُقلِّمها ويرويها ، فالحديقة نعيم فقط لصاحبها ، لكنها ليستْ نعيماً لمَنْ يعمل فيها .

أما هؤلاء المتقون فهم فى جنات وفى نعيم ، فهم يتنعَّمون فيها ، لذلك أكّد الحق سبحانه هذا المعنى ، فقال بعدها : ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ..(١٨)﴾ [الطور] أى : فاكهين بما هم فيه من النعيم ، وفاكهين يعنى : فرحين . هذه إضافة أخرى لأن الإنسان قد يكون فى جنة وفى نعيم لكنه غير فرح بما هو فيه .

وهذه المسألة رأيناها مثلاً فى مصر بعد الثورة ، حيث رأينا الباشا فلان عنده الحدائق والبساتين وفيها ألوان الفاكهة والثمار ويأكل منها ، لكنه غير فرح بها ويُنغِّصها عليه خوفُ التأميم ، لأنهم كانوا يأخذون الأرض منهم ويؤممونها للدولة ، فهو فى جنة ، وفى

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية : فى هاتين الجنتين أربعة أوجه :
أحدها : جنة الإنس ، وجنة الجان . قاله مجاهد .
الثانى : جنة عدن ، وجنة النعيم . قاله مقاتل .
الثالث : أنهما بستانان من بساتين الجنة وروى ذلك مرفوعاً .
الرابع : أن إحدى الجنتين منزلته ، والأخرى منزل أزواجه وخدامه . كما يفعله رؤساء الدنيا .
ويحتمل خامساً : أن إحدى الجنتين مسكنه ، والأخرى بستانه .
ويحتمل سادساً : أن إحدى الجنتين أسافل القصور ، والأخرى أعاليها .

نعيم ، لكنه غير فاكه بها .

ومعنى ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٨)﴾ [الطور] أى : بالمسبِّب لا بالأسباب .

فالمتقون فى جنات وفى نعيم وهم فرحون به فاكهون بما آتاهم ربهم ، وفوق ذلك وقبله : ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨)﴾ [الطور] وهذا من تمام النعمة ، فيمكن بعد أنْ يدخل الجنة يخاف أنْ يخرج منها إلى النار .

فيقول له : لا لأن الذى يدخلها يبقى فيها لا يخرج منها ، أو وقاهم عذاب الجحيم بداية قبل أنْ يدخلوا الجنة كما قال سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)﴾ [الطور] وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤)﴾ [النساء] أى : فى الجنة كلوا منها واشربوا هنيئاً مريئاً .

فالهنىء هو الطعام أو الشراب تتناوله فتجد له طعماً ولذة تمتعك لحظة تأكل أو تشرب ، لكن ربما أحسستَ بعدها بآثار غير مرغوب فيها ، كأنَّ بعده حموضة فى المعدة مثلاً أو غازات وانتفاخات وغير ذلك .

فهو إذن هنىء لكن ليس مريئاً ، فالله يصف طعام الجنة وشرابها بأنه هنىء ومرىء . يعنى : يمرى عليك ولا تجد له آثاراً ضارة .

وإنْ كان طعام الجنة وشرابها ليس فيه شىء من هذا لأن الإنسان هناك لا يأكل عن جوع ، بل يأكل تفكُّهاً ، وحتى لو لم يأكل لا فرق .

ثم يذكر سبحانه ألواناً أخرى من ألوان النعيم .

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]

الاتكاء هيئة من هيئات الجلوس ، لا يجلس على مقعدته إنما يجلس على جنب ، وهى جلسة تدل على الراحة والطمأنينة ، وأنه لا يوجد شىء يُنغصها .

أما المهموم والعياذ بالله فتجده فى جِلْسته قلقاً لا يكاد حتى يسند ظهره إلى مسند ، لماذا ؟ لأن عنده ما يشغله حتى عن الراحة فى الجلسة .

فقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] دلّتْ على هدوء البال وخُلوّه من المنغِّصات والهموم ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] جمع سرير ، وهو ما يُجلس عليه . ولفظه يدل على السرور ﴿ مَّصْفُوفَةٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] منظمة مُنسّقة ، موصولاً بعضها ببعض .

لذلك لما ذهبنا إلى فرنسا شاهدنا هناك فنادق غاية فى الروعة والجمال والراحة ، اندهش منها الناس ، فقلت لهم : تندهشون من هذا الذى أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

ومعنى : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] أى : قرناهم بالحور العين ، والفعل زوّج يتعدّى بنفسه تقول : زوّجتُ فلاناً فلانة ،

(١) سرر مصفوفة . أى : وُضع بعضها إلى جانب بعض . [زاد المسير لابن الجوزى] وقال الرازى فى مفاتيح الغيب : « يحتمل أن يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لأن قوله (مصفوفة) يدل على أنها لواحد لأن سرر الكل لا تكون فى موضع واحد مصطفة » .

لأن الزواج هنا مصلحة متبادلة يتمتع بها الزوج والزوجة معاً .

أما فى تزويج الحور العين فهى مصلحة من جانب واحد ، فالمؤمن فى الجنة يتمتع بالزواج بالحوراء ، أما هى فليس لها متعة فى ذلك ، فقال ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] فتعدّى الفعل بالباء .

ومعنى : الحور العين ، جمع حوراء وهى شديدة بياض العين وشديدة سوادها ، والعِين جمع عيناء ، وهى واسعة العينين فى جمال وملاحة .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾[1]

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور] أى : آمنوا بالله وحده لا شريك له ، وأنه واحد أحد ، واعتقدوا ذلك ، واحد أى ليس معه غيره ، وأحدٌ أى فى ذاته ، وأحد ليس له أجزاء ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص]

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية : فيه أربعة تأويلات :
أحدها : أن الله يدخل الذرية بإيمان الآباء الجنة . قاله ابن عباس .
الثانى : أن الله تعالى يعطى الذرية مثل أجور الآباء من غير أن ينقص الآباء من أجورهم شيئاً . قاله إبراهيم .
الثالث : أنهم البالغون عملوا بطاعة الله مع آبائهم فألحقهم الله بآبائهم . قاله قتادة .
الرابع : أنه لما أدرك أبناؤهم الأعمال التى عملوها تبعوهم عليها فصاروا مثلهم فيها . قاله ابن زيد .

والإيمان لا يكون كاملاً إلا إذا صحبه عملٌ بمقتضى هذا الإيمان ، عمل بالمنهج الذى وضعه لك مَنْ آمنت به ، لذلك قرن فى مواضع كثيرة بين الإيمان والعمل الصالح ، فقال : ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (١١)﴾ .. [الطلاق]

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ .. (٢١)﴾ [الطور] فالرجل آمن وعمل صالحاً واتبعتْه فى هذا ذريته من بعده ، آمن مثله ، لكن عمله دون عمل أبيه وأقلّ منه ، فالحق سبحانه بكرمه ورحمته بالذرية ، وكرامةً للأب المؤمن يرفع إليه ابنه إلى المرتبة الأعلى .

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] ما نقصناهم شيئاً ، زدنا الأبناء ولم ننقص الآباء ، لأن شرط الإيمان متوفر فى الاثنين ، أما العمل فإنْ قَلَّ يُجبر تفضّلاً من الله وتكرّماً .

معنى ذرية هى النسل المتسلسل ، فذرية الرجل أولاده وأولاد أولاده ، فالأب من الذرية ، والابن من الذرية ففيها تسلسل النسب ، والذرية قسمان : ذرية قبل التكليف وذرية بعد التكليف . والمراد هنا الذرية المكلّفة والمطلوب منها الإيمان والعمل الصالح . وكلمة ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] أى : أىّ شىء مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾ [الطور] رهين صيغة مبالغة على وزن فعيل ، وهذا الوزن يأتى فعيل بمعنى فاعل مثل رحيم أى : راحم . وتأتى فعيل بمعنى مفعول مثل قتيل أى : مقتول .

وهنا رهين بمعنى مرهون من الرهن ، والرهن كما تعرفون شىء عينى يجعله المحتاج للمال عند صاحب المال ضماناً له حتى يقضى دَيْنه ، فالرهن موقوف على المال حتى يعود إلى صاحبه ، كذلك العبد يوم القيامة مرهون بعمله محبوس عليه .

أو نقول : رهين بمعنى راهن فاعل أى : راهن عمله إنْ خيراً وجده خيراً ، وإنْ شراً وجده شراً .

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢)
يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم .. (٢٢)﴾ [الطور] يعنى : أن هذا عطاء جديد فوق ما سبق وزيادة عليه ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا .. (٢٣)﴾ [الطور] أى : فى الجنة يتنازعون الكأس أى : يتجاذبونه . وهذا التجاذب ليس عن خلاف أو بغضاء ، إنما عن موادعة وملاطفة وأُنْس ، فكأنهم يشربون فى متعة وانسجام وتدلُّل .

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا .. (٢٣)﴾ [الطور] الكأس هو الوعاء الذى يُشرب فيه الخمر ، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان ممتلئاً فإنْ كان فارغاً فهو كوب[1] .

(١) قال الثعالبى فى فقه اللغة فيما نقله السيوطى فى المزهر (١/١٤١) : باب الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها : لا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب وإلا فهى زجاجة . ولا يقال مائدة إلا إذا كان عليها الطعام ، وإلا فهى خوان . ولا يقال كوز إلا إذا كان له عروة وإلا فهو كوب . ولا يقال قلم إلا إذا كان مبرياً وإلا فهو أنبوبة . ولا يقال خاتم إلا إذا كان فيه فص وإلا فهو فتخة ... » وهكذا .

ومعنى ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا .. (٢٣) ﴾ [الطور] اللغو : العمل الذى لا فائدة منه ، وهو الكلام الساقط الذى لا معنى له لكن لا إثم فيه ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ﴾ [الطور] لا إثم فيه ولا يجرّك إلى محرم .

وهذه ميزة خمر الآخرة ، والفرق بينها وبين خمر الدنيا ، أن خمر الدنيا تذهب بالعقل وتحمل شاربها على الهذيان وفقدان العقل ، وبالتالى يحدث منه اللغو ، ويحدث منه الإثم .

أما خمر الآخرة فمنزّهة عن هذا ، لذلك وصفها الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] إذن : صفَّاها الحق سبحانه من عيوبها ، فليس لها من خمر الدنيا إلا الاسم ، وإذا رأيتَ الذى يشرب الخمر تراه (يدلقها) فى حلقه هكذا مرة واحدة لماذا ؟ لأنها كريهة الطعم والرائحة .

أما فى الآخرة فيتذوقها ويتمتع بلذتها ، فإذا كانت خمر الدنيا بهذه الصفة فلماذا يشربونها ؟ حين تسأل يقول لك : لأنسى همومى وأحزانى ومشاكلى .

وهذا عجيب لأن الله تعالى لا يريد منّا أنْ ننسى الهموم والأحزان ونفر منها ، إنما يريد منا أنْ نُعايشها ونعرف أسبابها ، ونحاول التغلب عليها . إذن : لا فائدة من نسيانها وسترها .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ(١) كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) ﴾

(١) ذكر الماوردى فى تفسيره للآية (الطور ٢٤) : فيه وجهان (نقلاً عن ابن بحر) :
أحدهما : أن يكون الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فأقرَّ الله بهم أعينهم .
الثانى : أنهم من أخدمهم الله إياهم من أولاد غيرهم .

أى : يطوف عليهم فى الجنة غلمان بكئوس الشراب . والغلمان جمع غلام وهو الولد الصغير جميل الصورة . وفى موضع آخر قال تعالى فى وصفهم : ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ .. (١٩) ﴾ [الإنسان] يعنى فى سنٍّ صغيرة ثابتة لا يكبرون عنها ، لأن الغلام إذا كبر صار إلى الشيخوخة ، أما هؤلاء فيقفون عند هذه السِّن ولا يكبرون .

ومعنى ﴿ لَّهُمْ .. (٢٤) ﴾ [الطور] أى : مخصصين لخدمتهم ، لأن اللام تأتى للملكية وتأتى للاختصاص ، تقول : المال لزيد يعنى ملكه . واللجام للفرس . أى : يخصه لأن الفرس لا يملك اللجام ، وكلمة (لهم) دلَّتْ على أن هذا الساقى يخدمهم دون أجر يأخذه منهم ولا منفعة .

وقوله سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) ﴾ [الطور] يعنى : هؤلاء الغلمان فى البياض والصفاء أمثال اللؤلؤ ، واللؤلؤ مشهور بصفائه وبياضه ولمعانه ، فما بالُكَ إذا أضيف إلى ذلك أنه مكنون . أى : مصُون ومحفوظ فى أصدافه ، قالوا : لأنه حين يخرج من أصدافه يتعرَّض للغبار وللأتربة التى تشوب صفاءه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓاْ إِنَّا
كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) ﴾

الكلام هنا ما يزال عن أهل الجنة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)﴾ [الطور] يتسامرون ، أو يسأل بعضهم بعضاً ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ .. (٢٦)﴾ [الطور] أى : فى الدنيا ﴿فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)﴾ [الطور] الإشفاق الخوف ، والخوف يكون بكراهية المخوف منه ، ويكون هيبة وتعظيماً لمن تخاف منه .

والمراد هنا خوف الهيبة والتعظيم لأنهم خائفون من الله ، لكن لماذا ؟ قالوا : يخافون التقصير فى عبادة الله ، نعم أطاعوا وأدّوا حقَّ الله لكن ما عبدوا الله حقَّ عبادته ، فهو يستحق أكثر من هذا .

إذن : خوفهم فيه رجاء وفيه أمل فى الله أنْ يتدارك هذا التقصير ، لذلك قال الله تعالى عن الملائكة : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦)﴾ [الأنبياء] وهم ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم] ، ومع ذلك قال عنهم : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ..(٥٠)﴾ [النحل] أى : خوفَ مهابة وتعظيم .

أو يكون المعنى ﴿فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)﴾ [الطور] أى : يخافون الموت أنْ يُفرقهم ويُشتِّت شملهم بعد اجتماع ، فإذا بهم فى الآخرة أحسن مما كانوا فيه فى الدنيا . أو خائفين من عذاب الله فى الآخرة .

ومعنى ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا .. (٢٧)﴾ [الطور] أى : تفضّل علينا وأعطانا فوق ما نستحق فضلاً منه تعالى وتكرُّماً ، منَّ علينا منّاً لا يعقبه ضرر ، ولا يعقبه عذاب ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الطور] السموم والعياذ بالله هى اللهب الخالص ، وسُمِّىَ السَّموم لأنه ينفذ من مسامّ الجسم .

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨)﴾

يذكر هنا حيثية دخولهم الجنة ونجاتهم من النار ، فالسبب أنهم كانوا كثيرى الدعاء ، لم يقولوا بأعمالنا ، ولكن بدعائنا وتضرُّعنا ورجائنا فى الله ، ندعوه رباً رحيماً ، براً كريماً ، ونطمع فى رحمته التى سبقت غضبه .

﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ [الطور] فاستجاب لنا استجابة ظهرتْ آثارها فى أننا دخلنا الجنة ، وصِرْنا إلى أفضل مما كنا فيه بدون تعب ولا همٍّ ولا حزن ، صِرنا إلى نعيم لم يكُنْ يخطر لنا على بال .

و ﴿الْبَرُّ .. (٢٨)﴾ [الطور] واسع الكرم والإحسان ﴿الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ [الطور] كثير الرحمة بخَلْقه تعالى ، لأنه ربهم وخالقهم والمتكفِّل بهم ، خلقهم من عدم وأمدهم من عدم ، ولم يُكلِّفهم إلا بعد البلوغ واستواء العقل إلى غير ذلك من النعم .

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ (١) وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩)﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ أنْ يُذكِّر قومه . والتذكير أنْ تعيد ما أخبرت به وتكرره مراراً ، والتذكير لا يكون إلا للنسيان ، وهذه

(١) كهن الرجل : صار كاهناً كهانة : أخبره بالغيب على سبيل الظن والتخمين وكانت شائعة فى الجاهلية ، وقد رموا النبى ﷺ بها فنفاها الله بقوله عنه ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ..(٢٩)﴾ [الطور] . [القاموس القويم ٢/١٧٦] .

طبيعة البشر التى جبلهم الله عليها .

والتذكير ينفع من وجوه عدة : أولاً ينفع المذكِّر لأنه حين يُكرِّر التذكرة لا يُحرَم ثوابها ، ثم ينفع المؤمن الذى تُذكره ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ٥٥ ﴾ [الذاريات]

فأحداث الحياة تمر على المؤمن ، ويمكن أنْ تُضبِّب عنده صفاء العقيدة ، فالتذكير يزيل هذا الضباب ويمسح غبار الغفلة والنسيان .

لذلك كان سيدنا معاذ كثيراً ما يسأل سيدنا رسول الله ﷺ عن المسائل الفائتة .

فقال ﷺ : « تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيّما قلب أُشْرِبها نُكتتْ فيه نكتة سوداء ، حتى تكون على قلبين : أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ما دامت السموات والأرض ، وآخر كالكوز[1] مجخياً[2] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً »[3] .

كذلك التذكير لا مانعَ أنْ ينفع الكافر بدليل أن صناديد الكفر فى مكة آمنوا بالتذكير ، المهم أنْ يصادف التذكيرُ قلباً صافياً ليطفىء فيه حمية الجاهلية .

---

(١) كلمة الكوز كلمة عربية صحيحة . قاله ابن سيده . وهى من كاز الشىء : جمعه . وهو إناء من الأوانى له عُرْوة بعكس الكوب فهو بلا عروة . [لسان العرب - مادة كوز - بتصرف] .

(٢) المجخى : المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبَّه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [لسان العرب - مادة جخا] .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٧) وأحمد فى مسنده (٢٣٣٤٣) وأبو عوانة فى مستخرجه (١١٢) من حديث حذيفة بن اليمان .

وقد رأينا هذه المسألة فى قصة إسلام سيدنا عمر[1] ، وكان جباراً فى الجاهلية ، ومع ذلك لما سمع القرآن تأثر به ورقَّ له قلبه ، لأنه لما لطم أخته حتى سال الدم من وجهها تحركتْ عنده عاطفةُ الأخوة وما يلزمها من الحنان ورقة القلب ، فلما انفتح قلبه دخله نور الهدى فأسلم ، إذن : نفعه التذكير .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝ ٢٩ ﴾ [الطور] الحق سبحانه ينفى عن رسوله هذه التهمة التى اتهموه بها ، وأكد هذا النفى باستخدام أسلوب الخطاب .

﴿ فَمَا أَنتَ .. ۝ ٢٩ ﴾ [الطور] واستخدام الباء فى ﴿ بِكَاهِنٍ .. ۝ ٢٩ ﴾ [الطور] يعنى : ما فيك شىء من الكهانة أبداً ، والكاهن هو

---

(١) ذكر ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/٣٢) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين .. فلقيه نعيم بن عبد الله فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال : أريد محمداً هذا الصابىء الذى فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامهم وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً ﷺ على دينه فعليك بهما . فرجع عمر عائداً إلى أخته فاطمة وعندها خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها .. فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها .. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى كنتم تقرأون آنفاً ، انظر ما هذا الذى جاء به محمد . ولم ترض أخته إلا أن يغتسل قبل أن يمس الصحيفة فاغتسل فلما قرأ منها شيئاً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فذهب إلى رسول الله حيث هو وأصحابه فأسلم .

العرّاف الذى يدّعى علم الغيب ، وكانوا كثيرين فى هذا الوقت .

وكانت لهم خِلْقة شاذة عن الخلق ، فمثلاً كان منهم (شِقّ أنْمار) له نصف عين ، ونصف أنف ، ونصف فم ، ونصف يد ، ونصف رِجْل .

ومثل هذا ربنا رضى له شيئاً من الصفاء ، فكان الشياطين ينزلون عليه ويُوحون إليه بأشياء من استراق السمع قبل بعثته ﷺ ، وقبل أنْ تُغلَق السماء فى وجوههم ، فكانوا يغرُّون الناس بأشياء فيها قليل من الحقيقة وكثير من الباطل يزيدونه من عندهم فيضلونهم .

وهؤلاء الكهان كانت لهم كلمة مسموعة ، وكان الناس يستشيرونهم ويأخذون برأيهم فى كلِّ أمور دينهم ودنياهم .

وسيدنا رسول الله ﷺ أبعد ما يكون عن هذه الصفة ، كذلك نفى عنه صفة الجنون ، والمجنون الذى لا عقلَ له ، ولا يستطيع أنْ يُرتِّب الأشياء ولا أنْ يُدبر حركة حياته .

فهل شاهدتم شيئاً من هذا على رسول الله ، وقد عُرِفَ بينكم برجاحة العقل وحُسْن التصرف والصدق والأمانة ؟ كيف وقد مدحه الله بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]

وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور] أى أن نعم الله عليك كثيرة ، ومنها أنك لستَ كما يقول ، لا كاهن ولا مجنون ، أو ذكِّر بنعمة ربك لا بنعمة الكاهن ولا بنعمة المجنون . ثم ينفى عنه تهمة أخرى ، فيقول :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

قالوا عن رسول الله بعد أنْ أعيتهم الحيل ولم يجدوا صدىً لقولهم : كاهن ومجنون قالوا (شاعر) ولم يفلحوا فى هذه أيضاً ، لأن رسول الله جاء فى أمة أفصح ما يكون . عندهم ملَكة البلاغة ودقّة الأداء اللغوى والبيانى ، فهم أدرى الناس بالشعر ، ويعرفون أن ما جاء به محمد وما يتلوه عليهم ليس شعراً وما جرَّبوا عليه شيئاً من هذا قبل بعثته .

لذلك قال تعالى فى إبطال دعواهم : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

أين عقولكم المفكرة ، فقد عشْتُ بين أظهركم أربعين سنة ما جرَّبتم علىَّ قول الشعر ، فهل تفجَّر عندى بعد الأربعين ، ومعلوم أن العبقريات تأتى فى العقد الثانى من العمر .

ثم ما الذى كان يضمن لى أن عندى عبقرية تأتى بهذا الكلام قبل

(١) قال قتادة : قال قوم من الكفار : تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بنى فلان . قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر . أى يهلك عن قريب كما هلك من قبل من الشعراء . [تفسير القرطبى ٦٤٧٢/٩] .

أنْ أموت ؟ ثم أنا لا أقول لكم هذا كلامى أنا .

إنما هو من عند الله بوحى من الله لا يُعطى لكاهن ، لأن الكاهن إنما يتلقَّى عن الشياطين ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام] ولا يُعطى لمجنون ، ولا يُعطى لساحر ولا لشاعر .

فلما فشلوا فى هذه أيضاً قالوا ﴿ أَسَاطِيرُ[١] الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [القلم]

وقالوا : إن محمداً يختلف إلى[٢] رجل من أهل الكتاب يُعلِّمه هذا الكلام ، لكن فضحهم القرآن وبيَّن كذبهم وتضارب أقوالهم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

إذن : هذا كله عناد ولدد فى الخصومة لا يثبت أمام العاقل المتأمل .

ومعنى ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور] ننتظر ما يجرى عليه من أحداث الحياة ومباغتة الموت الذى يُريحنا منه ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الطور]

فالأمر هنا ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الطور] أمر للتهديد ، كما تقول لخصمك (أعلى ما فى خيلك اركبه) يعنى : افعل ما شئت ، والمعنى : مهما فعلتَ فلن تنال منى شيئاً .

(١) الأساطير : جمع أسطار أو أسطورة وهى الأحاديث التى لا نظام لها أو لا أصل لها . فهى حكايات عن الأولين كتبوها ولا أساس لها فهى أكاذيب لا تصدق بزعمهم . [القاموس القويم ١/٣١٣] .

(٢) يختلف إلى فلان : يتردد عليه ويجلس إليه من وقت لآخر .

فالله يقول لهم : تربَّصوا كما تريدون ، فلنْ تنالوا منا ولن تكيدوا لنا ، لأننا فى حضانة الله وفى أعين الله .

وسبق أنْ جرَّبتم ، آذيتمونا بالكلام فلم تنالوا منَّا ، وآذيتمونا بالفعل فما تخلينا عن رسالتنا ، آذيتمونا بالمكر والتبييت على قتلنا ، فردّ الله كيدكم فى نحوركم ، ولما لم تفلحوا فى الكيد الظاهر ذهبتم إلى الكيد الخفى واستعنتم علينا بالجن وبالسحرة ، فما وصلتُم إلى بُغيتكم ، وخيَّب الله سعيكم .

إذن : تربَّصوا كما شئتُم ، واعلموا أننا أيضاً نتربَّص بكم ، وقد شرح الله تعالى هذه المسألة فى آية أخرى ، فقال سبحانه ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة]

أى : ماذا تنتظرون فينا إما النصر عليكم ، وإما أنْ نُقتل فننال الشهادة وكل منهما حُسْنى ، ونحن ننتظر فيكم : إما أنْ يُعذِّبكم الله فى الآخرة بكفركم ، أو يُعذِّبكم بأيدينا حينما ننتصر عليكم . فتربصوا بنا فلن تصلوا من الكيد لنا إلى شىء ، لأننا فى حضانة الله وفى أعين الله .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم[١] بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(١) كلمة (الأحلام) لها هنا معنيان :
الأول : العقول . وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله . أى لم يصحبها بالتوفيق .
الثانى : الأذهان . لأن العقل لا يُعطى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة والذهن يقبل العلم جملة ، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهى . [بتصرف من تفسير القرطبى ٩/٦٤٧٤] .

معنى الأحلام : العقول ، والعقول حينما تأمرهم ﴿ بِهَٰذَا .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الطور] أى : بهذا العناد ومصادمة دعوة الله دليلٌ على فساد هذه العقول وفساد هذا التفكير ، لأن العقول لو تُركَتْ للفطرة التى جُبلَت عليها ولو تحرَّرتْ من الأهواء ما انتهتْ إلا إلى الإيمان بالله ورسوله ، وما وقفت هذا الموقف .

﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الطور] الحق سبحانه وتعالى كرر (أم) هنا فى عدة مواضع ليعرض كلَّ المواقف والاحتمالات التى مرُّوا بها ، ومعنى ﴿ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الطور] متجاوزون للحدِّ فى الكفر وفى العناد ومصادمة الدعوة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ تَقَوَّلَهُ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الطور] اختلقه وأتى به من عند نفسه ، ولما لم تنطل هذه الفرية قالوا ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل] فردَّ الله عليهم ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

وهنا يرد عليه الحق سبحانه ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الطور] يعنى المسألة ليست مسألة قرآن من عند محمد ، إنما المسألة أنهم لا يريدون أنْ يدخلوا ساحة الإيمان ، هكذا ظُلْماً وعناداً واستكباراً عن قبول الحق دون نظر ودون تأمل أو تفكير .

فكلُّ هذه التهم التى حاولوا إلصاقها برسول الله أو بكتابه يعرفون

أنها باطلٌ أتوْا بها من عند أنفسهم ، ليصرفوا محمداً عن دعوته ، وهم يعلمون أنه صادق ، وأن القرآن حَقٌّ ، وأنه من عند الله ، لكنهم لا يريدون أنْ يؤمنوا .

لذلك يُعلّمهم الحق سبحانه كيفية التفكير السليم الموصِّل إلى الحق ، فيقول لهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ[١] ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ]

أى : اتركوا التفكير الجماعى والكلام الجماهيرى ، لأنه لا يُوصِّل إلى الحق .

إذن : إذا فكرتم وأعملتم عقولكم بطريقة صحيحة فلابدَّ أنْ تصلوا إلى حقيقة ، هى أن محمداً صادق فيما جاءكم به .

والقرآن لا يدعوهم إلى التفكر إلا إذا كان هذا التفكّر سيصل بهم إلى هذه الحقيقة ، لذلك نقرأ كثيراً ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يس] ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس] ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله سبحانه : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور] يعنى : إنْ كان القرآنُ مختلقاً كما يدَّعون فليأتوا بقرآن مثله أى مختلق ، وهم أقدر الناس على الكلام والبيان ، وأكثر الناس فصاحة ، ولهم أسواق للخطابة وللشعر ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور] أى : فى هذا الادعاء .

(١) قال الشوكانى فى فيض القدير (آية ٣٤ سورة سبأ) : هى قيامكم وتشميركم فى طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، لأن الاجتماع يشوِّش الفكر . وقال الألوسى فى (روح المعانى) « فإن فى الازدحام على الأغلب تشويش الخاطر والمنع من الفكر وتخليط الكلام وقلة الإنصاف » .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يسوق لهم البراهين العقلية التى تثبت صدق رسوله فى البلاغ عن الله ، ويتعجب من فعلهم ، وكيف يكفرون بالله ويعاندون دعوة رسوله .

لذلك يسأل : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ .. (٣٥) ﴾ [الطور] كيف والخَلق إيجاد من عدم ، فهل جاءوا إلى الكون هكذا دون خالق ؟ والعقل يقول : إنه لا يمكن أنْ يوجد شىء إلا بموجد حتى فى أتفه الأشياء .

فى هذا الكوب الذى نشرب فيه الآن كوب كريستال شفاف بعد أنْ كنَّا نشرب فى الصاج أو الفخار ، هل يعقل أن نقول إن هذا الكوب وُجِد هكذا بدون مُوجد ؟ إذن : لابد لهذا الخَلْق من خالق .

ثم ينتقل إلى جزئية أخرى فى مسألة الخلق : ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ [الطور] أى: الخالقون لهذا الخَلْق ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

نعم لا يستطيعون أنْ يقولوا غير هذا ، لأن الإنسان طرأ على كون بديع فيه شمس وقمر ونجوم وأرض وماء وهواء وسماء وجبال ، فكيف يقول : أنا الذى خلقته وهو أقدم منه ، ولا يستطيع أنْ يقول خلقتُ نفسى ، ولو قالها فمن الذى خلق أباك وسلسلها إلى أن تصل إلى آدم عليه السلام .

إذن : هذا التسلسل المنطقى لا بدَّ أنْ يصل بنا إلى خالق خلق ولم يُخلق ، هو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك قال بعدها : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾ [الطور] فإذا لم يستطيعوا خَلْق أنفسهم فهم من باب أَوْلى ما خلقوا السموات والأرض .

وسبق أن قلنا : إن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعها أحد لنفسه ، والقضية تسلم لمن ادعاها إلى أنْ يظهر له معارض ، ولم يقُلْ أحد أنه خلق السماوات والأرض .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ[1] أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) ﴾

يعنى : أهُمْ يملكون خزائن الأرزاق ، فيرزقون مَنْ يريدون ، ويحرمون مَنْ يريدون ، أو يملكون خزائن الرحمة فيرحمون مَنْ يريدون ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) ﴾ [الطور] أصحاب السلطة والسيطرة والأمر والنهى والغلبة .

والجواب : لا هذه ولا هذه ، لأن الله تعالى فقط أمسك عنهم المطر فجاعوا ، حتى أكلوا أوراق الشجر والعلهز[2] ، وهو الدم

---

(١) قال ابن الجوزى فى (زاد المسير) فيه ثلاثة أقوال :
أحدها : المطر والرزق . قاله ابن عباس .
والثاني : النبوة . قاله عكرمة .
والثالث : علْم ما يكون من الغيب . ذكره الثعلبى .

(٢) العلهز : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير فى سنى المجاعة ، قاله الجوهرى فى (الصحاح) مادة : علا . وقال أبو الهيثم : العلهز دم يابس يُدق به أوبار الإبل فى المجاعات ويؤكل . قاله النووى فى تهذيب اللغة مادة علهز .

المخلوط بالوبر ، ثم ذهبوا يستسقون[1] بعم النبى ﷺ .

واعترفوا أن الخزائن خزائن الله وليس لهم من الأمر شىء ، بدليل أنهم مرة أغنياء ومرة فقراء ، مرة أقوياء ومرة ضعفاء .

إذن : ليس عندهم خزائن شىء ، الخزائن عند مَنْ تكرهه وتكذب به . كذلك ليس لهم غلبة ولا سيطرة على مقاليد الكون ولا إدارة الأمور ، بدليل أن القلة المؤمنة هزمتهم على كثرتهم يوم بدر ، وأسرتْ صناديدهم وجاءوا يُفاوضون رسول الله على أنْ يَفْدوهم .

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول لهم : أعندكم ﴿ سُلَّمٌ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الطور] أى : مَرْقى ومصعد تصعدون به إلى السماء فتأتون بمثل ما أتى به محمد ، إذن : هذا إقرار منك بأن السماء فيها شىء ، لكن ينقصكم السُّلم تصعدون به ، والذى ليس عنده سلم أتاه الوحى من السماء إلى عنده .

﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الطور] أى : إنْ كان عندهم

(١) عن أنس قال : كانوا إذا قحطوا على عهد رسول الله ﷺ استسقوا بالنبى ﷺ فيستسقى لهم فيسقون ، فلما كان زمن عمر رضى الله عنه قحطوا فأخرج عمر العباس يستسقى به فقال : اللهم إنا كنا إذا قحطنا على عهد نبيك استسقينا به فسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . ، قال : فسقوا . أخرجه ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى ، وابن حبان فى صحيحه .

مستمع فليأتِ بحجة واضحة يغلب بها محمداً .

وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الطور] الآية تُسفِّه أحلام القوم فى مسألة البنات ، فقد كانوا يحتقرون الإناث ويفضلون الذكور .

وقد سجَّل القرآن عليهم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[1] ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

وذكر وأدهم للبنات فقال : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير] ثم نسبوا لله الأدنى ولأنفسهم الأعلى ، قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر يبين الحق سبحانه تعديهم فى هذه المسألة فيقول : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم] أى : قسمة جائرة ظالمة . فكيف يكون لله الخالق الجنس الأدنى ولكم الجنس الأعلى ؟

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ما زالت الآيات تتساءل عن سبب إعراض هؤلاء القوم وتكذيبهم

(١) كظم : سكت وصبر على ما فى نفسه من الغيظ فهو كظيم . ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظمه الغيظ أى كربه وأحزنه وأسكته وشقّ عليه . [القاموس القويم ٢/١٦٣] .

لمنهج الحق ، فهل سألهم رسول الله أجراً على دعوته لهم ، فأثقل عليهم ذلك ولم يقدروا على أدائه ؟

والمَغْرم هو المال الذى يُدفع فى غير جناية أو حَقٍّ ، ومعنى ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الطور] مُتعبون لا يقدرون عليه .

وقد سجل القرآن فى عدة مواضع أن الرسل لم تطلب أجراً على دعوتهم للناس ، وأن أجرهم فى ذلك على الله الذى بعثهم ، قال تعالى : ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس]

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ[1] فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

أم اطلعوا على الغيب فوجدوا أنهم أسياد فى الآخرة كما كانوا أسياداً فى الدنيا ، وأن آخرتهم ستكون أفضل من دنياهم ، كالذى قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] والمعنى : أن دعوتك يا محمد لا تهمهم فى شىء ، لأنهم سيدخلون الجنة على أية حال ومن أىِّ طريق !!

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أى : يريدون بك كيداً ، والكيد هو الاحتيال والتدبير فى الخفاء لإلحاق الضرر برسول الله ﷺ ، وخطورة الكيد أنه يُدبَّر فى خفاء فلا

---

(١) (أم عندهم الغيب) فيه قولان :

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس . قاله ابن عباس .

والثانى : أعندهم علم الغيب فيعلمون أن محمداً يموت قبلهم ، فهم يكتبون أى يحكمون فيقولون : سنقهرك . ذكره ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير الآية ٤١ الطور .

تراه لتواجهه ، لذلك هو دأب الضعيف العاجز الذى لا يقدر على المواجهة .

وحين ينتهز الفرصة لا يضيعها كما قال الشاعر :

وضعيفة لما أصابت فرصة   قتلت وتلك طبيعة الضعفاء

وقوله سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الطور] أصحاب الكيد والتدبير ﴿ هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الطور] كما قال سبحانه ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] لأنهم حين يكيدون يُخفون كيدهم عن أمثالهم من الناس ، لكن حينما يكيد لهم الله فلا أحدَ يستطيع ردَّ هذا الكيد ، فكيده سبحانه بالكافرين أليم وشديد .

ومعنى ﴿ هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الطور] أى : الواقع عليهم الكيد ، فهى اسم مفعول .

والدليل على أن الله خيَّب سعيهم أنه أبطل كيدهم لرسول الله ، بل وجعل كيدهم ينقلب عليهم ، فهم كادوا لرسول الله ليلة الهجرة ، وأجمعوا على قتله وتآمروا عليه بحيث يتفرَّق دمه بين القبائل ، ومع ذلك التدبير والاحتيال هُزِىء بهم وألقى التراب على رؤوسهم ، ونجا هو ولم يُصبْه أذى .

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذا استفهام آخر : ما الذى صرفهم عن دعوة الله ؟ ألهم إله غير الله الإله الحق ، ولو كان أين هو من مسألة خَلْق السماوات والأرض ؟ ولماذا سكتَ ولم يردّ ؟

والحق سبحانه وتعالى يناقشهم فى هذه المسألة ويقول : ﴿ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

ثم يأتى عَجُز الآية ليوضح الاستفهام فى أولها ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الطور] تعالى وتنزَّه ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الطور] وعما يدَّعُون ، لأن الله واحد أحد فَرْد صمد ، ليس له ولد ، وليس له شريك ، وليس كمثله شىء .

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ كِسفًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الطور] جمع كسفة ، وهى القطعة العظيمة من السحاب . ومعنى ﴿ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الطور] يعنى : مجموع بعضه فوق بعض ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ(١) يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور]

انظر كيف تخدعهم الظواهر الكونية ، حيث يظنونها نعمة فإذا بها نقمة وعذاب ، فحينما يرَوْنَ قطع السحاب تمرّ بهم يظنون أنها تحمل المطر والخير ، فإذا بها تسقط عليهم عذاباً .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : سحاب يسقينا ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

(١) الودق : المطر . وهو المطر كله شديده وهيِّنه . وودقت السماء : أمطرت . وأصل كلمة (ودق) أى دنا . فهو نزول الماء وقربه إلى الأرض .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] دعْهم واتركهم ، والمعنى أنه لا فائدة منهم ولا أملَ فيهم ، فاتركهم ولا تُحمل نفسك فى سبيل هدايتهم ما لا تطيق ، وقد خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [النحل]

إذن : فاتركهم ﴿ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] أى : تصيبهم الصاعقة والهلاك ، والمراد يوم القيامة ، ثم يزيد هذا اليوم بياناً فيقول : ﴿ يَوْمَ لا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الطور] أى : كيدهم لرسول الله وتآمرهم عليه .

﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الطور] ليس لهم ناصر من الله ولا دافع يدفع عنهم العذاب ، لأن الأمر لله وحده فى هذا اليوم .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ(١) وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(١) هناك أقوال كثيرة فى ماهية العذاب الأدنى من عذاب يوم القيامة :
- أى : لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى عذاب فى الدنيا دون عذاب يوم القيامة . أى قبله وهو قتلهم يوم بدر .
- هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . قاله ابن زيد .
- هو الجوع والجهد . قاله مجاهد .
- عذاب القبر . [فتح القدير للشوكانى] .

المراد هنا كفار مكة ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وحرموها من نعمة تدوم فى الآخرة إنْ هم آمنوا ، كما قال تعالى : ﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ ولَـكن كانوا أنفسَهُم يظلمون (١١٨) ﴾ [النحل] فهؤلاء لهم ﴿ عذابًا دون ذلك .. (٤٧) ﴾ [الطور] أى قبل عذاب الآخرة سيلحق بهم العذاب فى الدنيا ﴿ ولَـكنَّ أكثرهم لا يعلمون (٤٧) ﴾ [الطور]

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) ﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ بالصبر لحكم الله وقضائه ، وهو أمر مصحوب بهذه الرعاية وهذه العناية التى ما اختصَّ بها إلا سيدنا رسول الله وسيدنا نوح عليهما السلام ، وقد خاطبه ربه بقوله : ﴿ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحْيِنا ..(٢٧) ﴾ [المؤمنون]

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطمئنه : اصبر يا محمد على أذى القوم وأنت تحت نظرنا وفى رعايتنا وحفظنا ، فلا تهتم لما يفعلون .

وهذه المكانة خصّ بها أيضاً سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

إذن : فقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٤٨) ﴾ [الطور] منزلة أعلى تناسب مقام سيد الأنبياء محمد ﷺ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) ﴾ [الطور] أى : سبِّحه تسبيحاً مقروناً بالحمد ﴿ حِينَ تَقُومُ (٤٨) ﴾ [الطور] أى : حين تقوم من مجلسك تقول : سبحان الله والحمد لله ، فهى

كفارة لما قد يكون حدث فى مجلسك وهى تطهير للمجلس وخاتمة له ، والقعود والجلوس بمعنى واحد وهيئة واحدة ولكن القعود يكون عن قيام ، والجلوس يكون عن اضطجاع ، نقول : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائماً فقعد .

أو ﴿ حِينَ تَقُومُ (٤٨) ﴾ [الطور] أى : حين تقوم من نومك فتُسبِّح الله وتحمده على أنْ أعاد عليك روحك ، وأعاد إليك نشاطك بعد النوم ، وقد علّمنا رسول الله ﷺ أنْ نقول عندما نقوم : سبحان الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور(١) ، وأن نقرأ عند القيام من المجلس سورة العصر فهى كفارة لما حدث فيه(٢) .

كذلك ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ .. (٤٩) ﴾ [الطور] أى : سبِّح ربك آناء الليل ، فى أوله وفى آخره ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) ﴾ [الطور] أى فى وقت السَّحَر حينما تغيب النجوم ، فالمعنى سبِّح ربك فى كل هذه الأوقات فهو تسبيح موصول ، ذلك لأن الله أنعم عليك وخصَّك بنعم تستوجب هذا التسبيح وهذا الحمد .

---

(١) عن حذيفة بن اليمان قال : كان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : باسمك أموت وأحيا . وإذا قام قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٨٣٧ ، ٥٨٣٩) وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث البراء بن عازب (٤٨٨٦) .

(٢) عن أبى مدينة الدارمى وكانت له صحبة قال : كان الرجلان من أصحاب النبى ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر] ثم يسلم أحدهما على الآخر . [أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط ٥٢٨١] .

سُورَةُ النَّجْمِ

سورة النجم (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ (٢) إِذَا هَوَىٰ (٣) ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② ﴾

---

(١) سورة النجم هى السورة رقم (٥٣) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٦٢ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن البصرى وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. (٣٢)﴾ [النجم] وقيل : إن السورة كلها مدنية . ولكن قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٤٨٣) : « الصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال : هى أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة » .

(٢) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : فى المراد بالنجم خمسة أقوال :

أحدها : أنه الثريا . رواه العوفى عن ابن عباس . وابن أبى نجيح عن مجاهد .

ثانيها : الرجوم من النجوم يعنى ما يرمى به الشياطين . قاله ابن عباس .

الثالث : أنه القرآن نزل نجوماً متفرقة . قاله ابن عباس ومجاهد أيضاً .

الرابع : نجوم السماء كلها . وهو مروى عن مجاهد أيضاً .

الخامس : أنها الزهرة . قاله السدى .

(٣) معنى هوى فى الآية يتوقف على معنى (النجم) .

- فعلى قول من قال (النجم) : الثريا . يكون (هوى) بمعنى غاب .
- ومن قال (النجم) هو الرجوم . يكون هويها فى رمى الشياطين .
- ومن قال (النجم) القرآن يكون معنى (هوى) نزل .
- ومن قال (النجم) نجوم السماء كلها ففيه قولان :

أحدها : أن هُوِيها أن تغيب .

والثانى : أن تنتثر يوم القيامة . [زاد المسير لابن الجوزى] .

الحق سبحانه وتعالى يقسم بما يشاء من مخلوقاته وهنا يقسم بالنجم ، فالواو واو القسم (النجم) مُقسَم به ، والنجم يُطلق فى اللغة على معنيين : النجم الذى فى السماء كالشمس والقمر .

وقد قال الله فيه ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل] أى : فى سيرهم ليلاً ، والنجم هو العُشْب الذى لا ساقَ له وترعاه الإبل فى الصحراء .

وقد جمع الحق سبحانه المعنيين فى قوله تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن]

وجمعهما الشاعر فقال :

أراعِى النجْمَ فِى سَيْرِى إليْهَا ... وَيرْعَاهُ مِنَ البيدا جوَادِى

وتأمل هنا دقة الأداء القرآنى ، فالشمس والقمر دلَّتْ على نجم السماء ، والشجر دَلَّ بالمصاحبة على نجم الأرض ، والجميع يسجد لله ويخضع له أعظم شىء وأدنى شىء ، الكل فى الانقياد سواء .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة] فالقسم بالنجم قسَم بآية عظيمة من آيات الله ، والقسَم بالنجم هنا يخصُّ حالة من حالاته .

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١)﴾ [النجم] أى : سقط ، فالنجم علامة فى السماء تهدى السائر وتدلُّه ، فإذا سقط امتنعتْ الهداية ، وامتنعت الفائدة ، لكن محمداً ﷺ ما ضلَّ وما غوى .

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ [النجم] وهذا هو جواب القسم ،

(١) حسب الشىء يحسبه : عدَّه . وأحصاه حساباً وحسباناً . قال تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن] أى : سيرهما بحساب دقيق ونظام ثابت . [القاموس القويم ١/١٥٢] .

وكأنه سبحانه يقول : وإنْ سقط النجم الذى يهدى السائرين ، فنجم محمد لا يسقط أبداً ، نجم السماء يهدى للماديات وهى موقوتة ، ونجم محمد يهدى للقيم وللمعنويات وهى باقية دائمة .

ومعنى ﴿مَا ضَلَّ .. (٢)﴾ [النجم] أى : ما حاد عن الحق ولا مال عنه ، ولا عدل عن سبيل الهدى ﴿صَاحِبُكُمْ .. (٢)﴾ [النجم] هو محمد ﷺ ، وصاحب القوم واحد منهم مُحبَّب إليهم ذو مكانة بينهم ﴿وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ [النجم] الغواية هى الاعتقاد الباطل ، فما اعتقد محمد اعتقاداً باطلاً أبداً حتى قبل بعثته .

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ[1] فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾

هذه الآيات امتداد لجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ [النجم] وهنا يقسم الحق على صفة أخرى لسيدنا رسول الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣)﴾ [النجم] النطق هو القول ، أى ما يقول عن هواه ، ولا يأتى بشىء من عنده ولا باجتهاده .

﴿إِنْ هُوَ .. (٤)﴾ [النجم] أى : ما هو والمراد القرآن الكريم الذى نطق به محمد ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم] أى : من عند الله ، وهذا أسلوب قصر : ما القرآن إلا وحى وليس شيئاً آخر .

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم] الذى علَّمه محمداً وأوحاه إليه ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم] وهو أمين الوحى جبريل عليه السلام . والقُوَى جمع قوة ، فله قُوى متعددة تناسب مهمته ، له قوة ذكاء فى

(١) المرَّة : القوة . وأصل المرَّة : إحكام الفَتْل . وإنه لذو مرة : أى عقل وأصالة وإحكام . [لسان العرب – مادة : مرر] .

الاستقبال ، وقوة فى الحفظ ، وقوة فى الإرسال والإلقاء ، وليس لديه هوى يغير ما جاءه ولا خيانة ولا كذب . وهذه الصفات هى التى حمتْ القرآن من التغيير كما غُيِّرتْ الكتب السابقة .

وقد حكى الله تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

وكلمة ﴿ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ [النجم] فسرَّها فى آيات أخرى فقال ، حتى قبل نزول القرآن : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[1] (٧٨) لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة]

وقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] ، وقال : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾ [التكوير] هذه كلُّها صفات جُمِعَتْ لجبريل عليه السلام .

وهنا قال : ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) ﴾ [النجم] أى صاحب (مِرَّة) وهى القوة فى كل ما يتناوله ، وهى الدقة التى لا تخطئ ، والمرَّة صفة تقوى الشيء ، ترونَ الحبل مثلاً عندما يُفتل يكون فَتْله مناسباً لمهمته ، فحبل الغسيل مثلاً غير الحبل الذى يُشدُّ به شراع المراكب .

كذلك مهمة سيدنا جبريل مع سيدنا محمد ، أنْ يؤدى هذه المهمة بقوة ودقة وذكاء بحيث يأتى رسول الله بصورة مقبولة لا تُرد ، صورة فيها تشويق لتلقِّى الوحى ولا تردها طبيعة محمد البشرية ، كذلك كان للكلام حلاوة لأنه كلام الله ليس كلام البشر ، وله ظواهر تدل عليه وعلى مصدره الإلهى .

(١) كتاب مكنون : أى اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً . [القاموس القويم ٢/١٧٦] .

وأول ما جاء الوحىُ رسولَ الله أجهده ، لأنها المرة الأولى التى تلتقى فيها الطبيعة البشرية بالطبيعة الملائكية ، لذلك تصبَّب عرقاً وبرد وقال : زملونى دثرونى ، إذن : أثَّر فى جسده ونفسه ، حتى أنه خاف أنْ يكون ما حدث له شيئاً من مسِّ الشيطان .

ولما أخبر السيدة خديجة بالأمر وكان لها فطنة فى هذه المسألة فقالت له : عندما يأتيك أخبرنى ، فلما جاءه الوحى أخبرها فجلستْ على ركبته وقالت : أتراه ؟ قال : نعم ، فكشفتْ عن صدرها وقالت : أتراه ؟ قال : لا ، قالت : إذن هو ملَك وليس شيطاناً[1] .

وتأمل هنا حصافة السيدة خديجة وما تتمتع به من فقه قبل نزول الإسلام ، وكأنَّ الحق سبحانه أعدَّ للإسلام أناساً من الرجال والنساء يستقبلون خبره الأول ويؤيدونه ويُصدِّقونه دون أنْ ينتظروا معجزة يرونها ليصدِّقوه ، لأن معجزة رسول الله عندهم كائنة فى شخصه وفى سيرته بينهم ، معجزته بالنسبة لهم فى صدقه وأمانته وكرمه ومروءته .

ويكفى أنْ نذكر فى هذا المقام موقف الصِّديق لما قالوا له : إن

(١) أورده ابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/١١٧) من حديث إسماعيل بن أبى حكيم مولى آل الزبير أنه حدث عن خديجة أنها قالت لرسول الله ﷺ : أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك . قال : نعم . قالت : فإذا جاء فأخبرنى به فجاء جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . قال فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . ثم على الفخذ اليمنى ثم فى حجرها كل ذلك يقول نعم . فتحسرت فألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا قالت : يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله إنه لملك ما هذا بشيطان .

صاحبك يدَّعى أنه نبىٌّ ويُوحى إليه ، فقال الصِّدِّيق وكان عائداً من سفر : إنْ كان قال فقد صدق[١] ، إذن : دليل صدقه فى نظر الصديق أن يقول ، مجرد أن يقول يكفى قوله ليصدق .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ..(٢٩)﴾ [الفتح] يعنى : يكفى فى تعريفه أنه (محمد) الذى تعرفونه هو رسول الله ، فمنزلة رسول الله بين قومه لا تحتاج إلى وصف ولا إلى تعريف فوق ذلك .

وكان المنتظر منهم أنْ يقولوا : ومن أوْلَى بالرسالة منه ، لكنهم قالوا كما حكى القرآن ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

ومن معانى ﴿ذُو مِرَّةٍ .. (٦)﴾ [النجم] أى : صاحب الخُلق الحسن والمنظر الحسن الجميل ، فكان يأتى رسول الله بالمنظر الحسن الذى يحبه ، وكان ﷺ يحب النظر إلى دحية الكلبى[٢]

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم ، إنه لأصدقه بما هو أبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٢١٣ ، ٦٣) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) دحية الكلبى : هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبى ، صحابى بعثه رسول الله ﷺ برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام ، حضر كثيراً من المواقع ، شهد اليرموك ، ثم نزل دمشق وسكن المزَّة وعاش إلى خلافة معاوية . توفى عام ٤٥ هجرية . (الأعلام للزركلى ٢/٣٣٧) .

فكان يأتى على صورته[١] .

إذن : معنى ﴿ذُو مِرَّةٍ .. (٦)﴾ [النجم] أى : فيه كل الصفات الطيبة التى تجعله مقبولاً غير مردود ، وهو موصوف مع ذلك بالقوة ، فلما ظهر لرسول الله بصورته الحقيقية ظهر فى صورة طائر جميل له أجنحة .

كما قال تعالى : ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. (١)﴾ [فاطر] ويكفى فى بيان قوته أنه ضرب قرى لوط بريشة واحدة من جناحه فدكها وجعل عاليها سافلها .

وما أدراك بمَنْ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم] فالمتعلّم يشرُف بشرف المعلم ، كما نرى مثلاً خطيباً مُفوَّهاً لا يلحن[٢] فى خطبته لحناً واحداً ، فنقول : نعم فالذى درس له فلان .

كذلك الذى علَّم رسول الله هو جبريل بكلِّ ما عنده من صفات القوة والذكاء والأمانة والصدق .. ﴿ذُو مِرَّةٍ .. (٦)﴾ [النجم]

ومعنى ﴿فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] علَّمه جبريل حتى استوى

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الكبير (٧٥٧) عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : يأتينى جبريل عليه السلام على صورة دحية الكلبى . قال أنس : وكان دحية رجلاً جميلاً أبيض . وقد أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١٣٦١) عن عائشة أن رسول الله ﷺ سمع صوت وثبة شديدة ، فخرج إليه فاتبعته أنظر فإذا هو متكىء على عرف برذونه وإذا هو دحية الكلبى - فيما كنت أرى - وإذا هو معتم مرخ من عمامته بين كتفيه ، فلما دخل علىَّ رسول الله ﷺ قلت : لقد وثبت وثبة شديدة ثم خرجت ، فذهبت أنظر فإذا هو دحية الكلبى . قال : أو رأيته ؟ قلت : نعم . قال : ذاك جبريل أمرنى أن أخرج إلى بنى قريظة » .

(٢) لحن فى كلامه : أخطأ . قال الزمخشرى فى أساس البلاغة مادة لحن : « لحن فى كلامه إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ أو صرفه عن موضوعه إلى الإلغاز » .

رسول الله ونضج فى عملية التحصيل الكافى لهداية العالم ، فحمَّله هذه المهمة ليهدى الناس ، ومنه قوله تعالى فى سيدنا (موسى) :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

لكن كان الوحى فى أوله يثقل على رسول الله كما قال سبحانه : ﴿ سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) ﴾ [المزمل] فأراد الحق سبحانه أنْ يريح رسوله من هذا التعب ليعطيه الفرصة ليتذوق حلاوة ما ألقى إليه ويشتاق إليه من جديد ، فيكون الوحى أخفَّ على قلبه وتهون عليه معاناته .

ومعلوم أن الإنسان عادة يتحمل المشاق فى سبيل ما يحب ، لذلك لما فتر الوحى عن رسول الله ستة أشهر ، فأخذها أعداء الدعوة فرصة وقالوا : إن رب محمد قلاه[1] ، سبحان الله ، الآن وفى المصيبة يعترفون برب محمد .

لذلك ردّ الله عليهم ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[2] (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

أى : ما ودعك ربك يا محمد وما قلاك ، إنما أراد لك أنْ ترتاح .

ثم أعطاه مثالاً من واقع حركة الكون ، فما أنت بالنسبة للوحى إلا مثل الضحى والليل ، فالضحى للعمل ، والليل للراحة ، ثم يعاود من

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل ، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودعه . فأنزل الله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] .

(٢) سجا الليل يسجو : سكن وهدأ كل شىء فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٠٤] .

جديد لتقبل عليه فى نشاط وقوة ، كذلك الوحى سيعاودك وسيكون أحبّ إليك وأيسر عليك ، وستكون الآخرة خيراً لك من الأولى .

ثم إن كلمة الوداع ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] تدل فى ذاتها على المحبة ، فلم يقُل هجرك مثلاً إنما ودَّعك ، والوداع يكون على أمل اللقاء كما يودع الحبيب حبيبه عند سفره .

﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ[1] أَوْ أَدْنَىٰ (٩) ﴾

قالوا : الكلام هنا عن رسول الله ﷺ ، حيث كان بالأفق الأعلى فى رحلة الإسراء والمعراج ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ﴾ [النجم]

يعنى : رآه مرة فى الأرض ومرة فى السماء ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) ﴾ [النجم] أى : أنه ﷺ بعد أن استوى وبلغ الغاية التى تؤهله لأداء رسالته فى البلاغ عن ربه تعرَّض لكثير من المتاعب والأذى من قومه بالقول وبالفعل فى مكة حتى لجأ إلى الطائف فأغروا به سفهاءهم ، ورموه بالحجارة حتى أدْمَوا قدميه .

وفى نفس العام ماتت زوجه خديجة التى كانت تُخفف عنه عناءَ ما يلاقى من قومه ، ومات عمه أبو طالب الذى كان يحميه ويدفع عنه عداوة قريش .

(١) قاب قوسين أى : قدر قوسين عربيتين ، أو قدر ذراعين . [القاموس المحيط] والقاب ما بين مقبض القوس والسِّية ، ولكل قوس قابان . [مختار الصحاح (مادة قوب)] .

لذلك سُمِّى هذا العام بعام الحزن كما تعلمون ، حتى أنه ﷺ لما عاد من الطائف عاد مكسور الخاطر ، ولم يجد فى مكة مَنْ ينزله فى داره ، وكما عزَّ عليه النصير فى الطائف عَزَّ عليه الجوار فى مكة ، إلى أن استقبله المطعم بن عدى وكان كافراً ، فأنزله فى جواره ، مما يدلنا على أن الله تعالى قد يؤيد رسوله ودعوته حتى بالكفار .

لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يجبر خاطر نبيه ، وأنْ يُعوِّضه عن أذى أهل الأرض له ، فقال له : إنْ كانت هذه حفاوة أهل الأرض بك فسأريك حفاوة أهل السماء فأخذه فى رحلة الإسراء والمعراج لتكون تخفيفاً عنه ﷺ .

وهناك رأى الأفق الأعلى ، وكان قاب قوسين أو أدنى من مقام ربه عز وجل ، وهذه هى المراد من قوله : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤)﴾ [الضحى]

وبعد ذلك نصر الله دينه وأيَّد نبيه ، وتساقط أهل الكفر وصناديد قريش ، واحداً بعد الآخر ، حتى أن خالد بن الوليد يقول لعمرو بن العاص : يا عمرو لقد استقام الميسم لصاحبك . يعنى : استتبَّ الأمر لمحمد وعلا نجمه ولم يَعُدْ له منازع[١] ، فليس هناك فائدة إلا أنْ نذهب إليه ونؤمن به ، بعدها فُتحتْ مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

إذن : الكلام هنا ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨)﴾ [النجم] أى : رسول الله

(١) أخرجه الحارث فى البغية باب (٢٧) حديث (١٠٣٣) باب إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٢٩٩ ، ٥٩٤٧) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/٢٨١) وعزاه لأحمد والطبرانى وقال : رجالهما ثقات .

دنا من مقام ربه ومن سدرة المنتهى . ومعنى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩)﴾ [النجم] أى : مقدار قوسين . والقوس هو أداة الرمى المعروفة ﴿أَوْ أَدْنَىٰ (٩)﴾ [النجم] أو أقرب من ذلك ، فأو هنا تأكيد لمقدار قاب قوسين .

كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)﴾ [الصافات] فالزيادة هنا تؤكد وجود العدد مائة ألف ، بحيث لا ينقص عن ذلك بل يزيد . كذلك قاب قوسين أو أقرب من القوسين .

ومن المفسرين مَنْ يرى أن الكلام هنا عن جبريل ، فيقولون ﴿فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] أى : ظهر جبريل لمحمد على صورته الحقيقية وبأجنحته التى تسدّ الأفق ، وقوله : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨)﴾ [النجم] دنا جبريل من محمد ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩)﴾ [النجم] أى : قرب من رسول الله وصار منه على هذه المسافة .

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠)﴾

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١)﴾

أى : أوحى الله تعالى إلى ﴿عَبْدِهِ .. (١٠)﴾ [النجم] محمد ﷺ[١] ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١)﴾ [النجم] هذا يعنى أن رسول الله لم يرَ

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٩/٦٤٩٣) أقوالاً أخرى :
– قيل : المعنى ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ .. (١٠)﴾ [النجم] جبريل عليه السلام ما أوحى .
– المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة .
– أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . قاله قتادة .

الله تعالى بعينه ، بل رآه بفؤاده وقلبه ، فموسى سمع الكلام فى الأرض ، ومحمد رأى ببصيرة قلبه فى السماء .

ومعنى ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ .. (١١) ﴾ [النجم] تحذير للذين يُشكّكون فى هذه المسألة أو ينكرونها ، لذلك يأتى بعدها بهذا الاستفهام الإنكارى :

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)
عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) ﴾

الهمزة هنا للاستفهام الذى يُفهم منه الإنكار والتعجُّب من تكذيبهم لرسول الله فيما أخبرهم به بعد رحلة الإسراء والمعراج من صعوده للسماء ورؤيته لربه عز وجل .

والفعل ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ .. (١٢) ﴾ [النجم] من المراء وهو الجدل ، لكن جدل بالباطل يُراد منه التكذيب والتشكيك ، ولا يُراد منه الوصول للحق .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) ﴾ [النجم] أى : رأى رسولُ الله جبريل مرة أخرى ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ﴾ [النجم] السدرة : هى شجرة السدر التى عن يمين العرش .

﴿ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ﴾ [النجم] أى : عندها ينتهى علم الخلائق ، ولا يتجاوزها أحد من الملائكة فضلاً عن البشر ، وعند هذه السدرة رأى جبريل للمرة الثانية .

وفى هذا المكان من القرب فُرضت الصلاة على سيدنا رسول الله ، والصلاة هى الفريضة الوحيدة التى فرضت مشافهة ، وهذا يعنى أن رسول الله سمع كلام الله فى هذه المشافهة .

لكن لما سُئِلَ عن رؤيته لربه عز وجل قال : « نور أنَّى أراه »(١) أى : كيف أراه ، تعبير دقيق من رسول الله ، فلما نظر لم يجد إلا نوراً ، والنور لا يُرى ، وإنما يُرى به الأشياء ، فإذا كان الحق سبحانه نوراً فلا سبيلَ إلى رؤيته سبحانه .

أما الرؤية فى مثل قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة] فالكلام هنا عن يوم القيامة ، حيث يُعاد الخَلْق على هيئة أخرى غير هيئتهم فى الدنيا .

وبهذه الهيئة سوف يتمكّنون من رؤية ربهم سبحانه وتعالى ، بدليل أننا بهذه الطبيعة الجديدة فى الآخرة نأكل ولا نتغوّط ، ونشرب ولا نتبوّل ولا نعرق ، لماذا ؟ لأن الله أعدّنا إعداداً آخر يناسب نعيم الآخرة .

ثم إننا نأكل فى الدنيا من طهينا وإعدادنا . وأما فى الآخرة فنأكل من طهى الله ، طهى بحساب دقيق بحيث لا يبقى منه فى الجسم أى فضلات .

كذلك من الإعجاز فى رحلة الإسراء والمعراج أن رسول الله أعدَّه الله إعداداً خاصاً ليتمكن من الصعود ، فمن المعلوم أن (الأكسجين) ينعدم فى طبقات الجو العليا .

وهذه الحقيقة قررها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦١) عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنى أراه » . وأخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٠٤) وقال : هذا حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٤٢٧ ، ٢٠٥٤٧) والطيالسى فى مسنده (٤٧٠) .

يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) [الأنعام]

ومسألة رؤية الله تعالى مسألة خلافية كَثُر فيها الكلام دون داعٍ ، فرسول الله رأى نوراً ، والرؤية الحقيقية تكون فى الآخرة ، ويجب أنْ نقصر الكلام فى هذه المسألة على ما ورد فيها ، ثم هو علم لا ينفع وجهل لا يضر .

المهم المنهج الذى جاء به ومدى التزامنا بتطبيقه فى حياتنا العملية ، وقمة هذا المنهج الصلاة التى فُرضتْ عليه مباشرة لأهميتها فى حركة الحياة وتقويم المعوج منها .

وسبق أنْ أوضحنا مثالاً وقلنا : إن الرئيس يبعث للموظف تأشيرة افعل كذا وكذا ، فإنْ كان الأمر أهَمّ من ذلك اتصل به تليفونياً ، وإنْ كان أهم استدعاه إلى مكتبه وأخبره بما يريد مباشرة ، هكذا كانت الصلاة .

لذلك نراها واجبة على كُلِّ مسلم ومسلمة لا تسقط أبداً على أية حال خلافاً لباقى العبادات التى تسقط بالأعذار .

والحديث : « بُنِى الإسلام على خمس .... »[1] يوضح هذه المكانة ، فالصلاة من عمد الدين وقوائمه التى يقوم عليها ، ويُوضح أيضاً أن هذه الخمس ليست هى كل الإسلام ، بل الإسلام أوسع مجالاً منها ،

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠ ، ٢١) والإمام أحمد فى مسنده (٤٥٦٧ ، ٥٤١٤) من حديث عبد الله بن عمر .

الإسلام يشمل حركة الحياة كلها ، بداية من قمة لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق[1] .

لذلك نتعجب من الذين ينادون بفصل دين الله عن سياسة الدنيا ، ويقولون : لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة . فهذا قول باطل لا يصح ، وهل يجوز أنْ نترك القاتل والزانى والسارق وغيرهم من أصحاب الجرائم يعربدون فى خَلْق الله دون عقاب أو رادع ؟

ولأهمية الصلاة فى حركة الحياة جعلها الله كتاباً موقوتاً ، ففرضيتها مقرونة بوقتها ، وهذا الوقت موزَّع على مدى اليوم والليلة ، ليظل المؤمن على صلة دائمة بربه ، وعلى ذكر دائم للمنهج ، ولا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها إلا لعذر مقبول عند الشارع الحكيم .

فمَنْ نام عن صلاة فوقتها حين يستيقظ[2] ، ومَنْ كان ناسياً فوقته حين يتذكر[3] . وفى هاتين الحالتين لا تُقضى الصلاة إنما تصلى حاضراً ، أما إذا فاتته الصلاة تكاسلاً وبدون عذر فلا تُقضَى صلاته لأن لها وقتاً مخصوصاً وقد فوَّته على نفسه بدون عذر شرعى .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥١) وأحمد فى مسنده (٨٥٧٠ ، ٩٣٧١) والترمذى فى سننه (٢٥٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرج أبو عوانة فى مستخرجه (٨٩٠) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « من نام عن صلاة فليصل إذا استيقظ » . وفى فقه هذا الحديث ما ذكره ابن خزيمة فى صحيحه (جماع أبواب صلاة الفريضة) : « لم يرد ﷺ أن وقتها حين يستيقظ لا وقت لها غير ذلك ، وإنما أراد أن فرض الصلاة غير ساقط عنه بنومه عنها حتى يذهب وقتها ، بل الواجب قضاؤها بعد الاستيقاظ ، فإذا قضاها عند الاستيقاظ أو بعده كان مؤدياً لفرض الصلاة التى قد نام عنها » .

(٣) أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٨٩٠) من حديث أنس ، وكذا أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٣٠٠٦) .

والحكمة من توقيت الصلوات بوقت محدد أن الإنسان لا يدرى متى يُفاجئه أجله ، فليبادر أولاً بأداء صلاته فى موعدها ، والصلاة فيها دوام واستمرار على مدى الساعات ، على خلاف الحج مثلاً ، فهو مرة واحدة فى العمر كله .

نقول : إذن لا داعىَ لأنْ نختلف حول رؤية الرسول لربه عز وجل فى رحلة الإسراء والمعراج ، المهم أنه انتقل إلى مكان أعلى فى التكليف ، كان يُكلف وهو فى الأرض والآن يُكلف وهو فى السماء ، ويكفى أن الله تعالى كلمه دون وحى ، ويكفى أن يقول ﷺ عن رؤيته لربه تعالى : نور أنَّى أراه ؟

ولقائل أنْ يقول : لماذا جاءت الرؤية فى السماء بالذات والله قادر أنْ يتجلى على رسوله ويظهر له وهو فى الأرض ؟ نقول : المكان لا للمرئى ولكن للرائى ، فالرائى لا يرى إلا فى هذا المكان .

كما لو قلت لكم مثلاً ونحن فى المسجد : ظهر القمر ، فقال أحدكم : لكنى لا أراه . أقول له : يراه الذى بالخارج أو فوق السطح .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [النجم] تأكيد للرؤية وترجيح لها وتحذير من التشكيك فيها ، ولم التشكيك إذا كان الأمر كله فى هذه المسألة لله ، ومحمد لم يدّع لنفسه قوة ، بل قال : أُسْرِى بى ؟

تذكرون لما تكلمنا عن قوله تعالى : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الرحمن] قال بعض العلماء : المراد سلطان العلم .

قلنا : لا بل سلطان من الله القادر على ذلك ، ولو أن المراد سلطان

العلم لما قال تعالى بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرحمن]

ولولا هذه الآية لكانت السماءُ مفتوحة يسهل للجن اختراقها .

ورؤية رسول الله لجبريل فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [النجم] تعد تشريفاً لجبريل وتشريفاً لرسول الله . والسدرة كما قلنا شجرة النبق ، وهو حب يؤكل فى حجم الزيتون .

وإذا كان النبق فى الدنيا له شوك فسدرة المنتهى لا شوكَ لها ، فهى كما قال تعالى : ﴿ فِى سِدْرٍ[2] مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الواقعة] يعنى : لا شوكَ فيه . وقال فى وصف ثمارها أنها كقلال هجر[3] أى : (كالبلاص) الكبير .

ثم لا تعجب من كون هذه الشجرة فى السماء السابعة ، فهذا من طلاقة القدرة ، ألم يجعل شجرة فى جهنم والعياذ بالله ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : شجرة الزقوم ﴿ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ

---

(١) الشُّواظ ، القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] وقيل : الشواظ لهب النار ولا يكون إلا من نار وشىء آخر يخلطه . [لسان العرب - مادة : شوظ] .

(٢) السدر : شجر النبق ، ومفردها سدرة . وهو النوع الثانى من السدر ينبت على الماء وثمره النبق أصفر مُز يُتفكّه به ، أما النوع الأول من السدر فهو برى لا ينتفع بثمره ، ولا يصلح ورقه للغسول وثمره عفص لا يسوغ فى الحلق . والعرب تسميه الضال . [لسان العرب - مادة : سدر] .

(٣) قلال : جمع مفرده قُلّة . وقلال هجر عظام تسع القلة الواحدة قربتين ، والقلة تسع فرقاً أى أربعة أصوع بصاع رسول الله ﷺ ، والصاع خمسة أمداد والمدّ الحفنة بجمع اليدين إلى بعضهما . [لسان العرب وغيره من المعاجم بتصرف] .

الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]

وقوله تعالى : ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥)﴾ [النجم] أى : التى يأوى إليها وينتهى إليها الشهداء الذين قُتلوا فى سبيل الله ، فكأنها جنة خاصة بهم غير جنة الآخرة التى تكون بعد الحساب .

فالذى مات شهيداً وضحَّى بروحه فى سبيل الله يقول الله له : لا تموت عندى فيُبرئه من الموت مرة أخرى ، كأنه يقول : أنا واهب الحياة وأنا الذى آخذها فإذا أخذها غيرى أكيده بأنْ أجعل الشهيد حياً عندى ، موصولة حياته الدنيا بحياته فى البرزخ .

تذكرون لما تكلمنا عن سيدنا يحيى عليه السلام . قلنا : إن الله تعالى هو الذى سماه (يحيى) ، ونحن حينما نسمى أولادنا نختار الاسم الحسن تفاؤلاً به ، فنسمى ذكى أملاً فى أن يكون كذلك ، ونُسمى سعيداً عسى أنْ يكون سعيداً فى حياته .

لكن قد يأتى الواقع على خلاف ما نتمنى ، نُسميه (ذكى) فيكون غبياً ، أو (سعيد) فنراه فى الواقع شقياً ، ذلك لأننا لا نملك تحقيق ما نتمناه .

فإنْ كان المسمِّى هو الله تعالى فلا شكَّ أن تسميته تطابق الواقع ، لأن الله تعالى لا رادّ لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه ، ولا أحد يستطيع الاعتراض على أمره .

فكانت تسمية (يحيى) إشارة إلى أنه سيحيا حياة دائمة موصولة ، والعلماء أصحاب الفهم عن الله فهموا من ذلك أنه سيموت شهيداً ، لأن الشهادة هى التى تضمن له استمرار الحياة ، حيث تصل

حياته الدنيا بحياة الشهادة عند الله .

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧)﴾

معنى ﴿يَغْشَى السِّدْرَةَ .. (١٦)﴾ [النجم] يغطيها أو يحيط بها ويسترها، و (ما) تفيد الكثرة والشىء العظيم المستحق للتعجب ، فسدرة المنتهى يغشاها الكثير من المخلوقات العجيبة التى لا يعلمها إلا الله .

فهى كما فى قوله تعالى قبلها ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠)﴾ [النجم] أى : أوحى إليه بأمور كثيرة عظيمة وعجيبة ، وكما تقول أكرمته ما أكرمته .

وقد ورد من هذه المخلوقات العجيبة حول سدرة المنتهى أشكالٌ وألوانٌ عجيبة من الطيور ، وإذا كنا نرى الكثير من عجائب الخَلْق فى الطيور فى الأرض وما لها من أشكال جميلة نضعها للزينة فى أقفاص فى البيوت وما لها من أصوات ، فما بالك بطيور جعلها الله حول هذه السدرة فى السماء ؟

وذكر أيضاً جراد من ذهب ، ولجراد الذهب هذا قصة مع سيدنا داود عليه السلام ، فيُروى أنه كان يجلس على سطح منزله يعبد الله ويناجيه ، وذات يوم رأى جراداً من ذهب يُحلِّق فوقه ، ففرش له ثوبه ، فصار الجراد يقع فيه فيأخذه داود ، فقال الله له : يا داود ألم أُغْنِكَ ؟ قال : بلى يا رب لكن لا غِنَى لى عن فضلك[١] .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٠ ، ٣١٤٠ ، ٦٩٣٩) والنسائى فى سننه (٤٠٦) وأحمد فى مسنده (٧٦٩٥ ، ٧٨١٢ ، ٩٩٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو فى حق أيوب عليه السلام ، وليس داود . ولفظ البخارى أنه كان يغتسل ، وعند أحمد دون ذكر الاغتسال بل قال : أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب .

وقوله سبحانه : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) ﴾ [النجم] أى : ما زاغ بصر سيدنا رسول الله فى هذه الرحلة ، و (زاغ) فِعْل بمعنى مال عن القصد ، وزاغ تعطى معنى (راغ) التى وردت فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) ﴾ [الذاريات] أى : مال إلى أهله مَيْلاً خفياً لا يدركه الحاضرون .

والفرق بينهما النقطة على الزاى ، لكن المعنى واحد وقريب منه ، قولنا : فلان زوغ . أى : خرج خُفْية بحيث لا يشعر أحد به ، وقريبٌ من هذا المعنى أيضاً قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا .. (٦٣) ﴾ [النور] أى : يتسللون خُفْية .

وقوله بعدها : ﴿ وَمَا طَغَىٰ (١٧) ﴾ [النجم] ما طغى بصره ولا تجاوز الحدَّ فى الرؤية وما مدَّه لغير غايته ، وهنا نتعلم الأدب فى النظرة ، وكيف تكون فى حدود المسموح به ، كالضيف يدخل بيتك فى وجود أهلك وبناتك فلا تمتد عينه ليرى ما لا يجوز له رؤيته .

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾

أى : رأى رسولُ الله ﷺ كثيراً من آيات الله فى رحلة الإسراء والمعراج ، آيات فى الأرض وآيات فى السماء ، وكلمة ﴿ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾ [النجم] مؤنث جمع كبيرة ، وللمذكر كبير وأكبر . والمعنى أنه ﷺ رأى كثيراً من آيات ربه التى تُوصَف بأنها آيات كبرى ، أو رأى الكبرى من الآيات كلها .

وبعد أنْ حدَّثتنا الآيات وأقسمتْ على صِدْق سيدنا رسول الله فى

البلاغ عن ربه ، وذكرت لنا بعض الآيات الكونية والمعجزات تنتقل بنا إلى المقابل ، إلى الحديث عن الأصنام وعُبَّاد الأصنام .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ(١) وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾

الاستفهام فى ﴿ أَفَرَأَيْتُم .. (١٩) ﴾ [النجم] بمعنى أخبرونى عن شأن هذه الأصنام التى اتخذتموها آلهة من دون الله ، وقد كانوا يتخذون الآلهة على أشكال شتى ، إنسان أو حيوان أو شجرة ، وربما يتخذون صنماً لا شكلَ له .

و ﴿ اللاَّتَ .. (١٩) ﴾ [النجم] صنم على شكل رجل كان عندهم يلتُّ العجين ليريح النساء من هذا العمل الشاق ، ومات ولم يترك خَلَفاً بعده يقوم بهذا العمل ، فحزنوا لموته ، وصنعوا له تمثالاً تكريماً لذكراه ثم بعد ذلك عبدوه .

و ﴿ وَالْعُزَّىٰ (١٩) ﴾ [النجم] اسم شجرة كانوا يعبدونها ، وقد

(١) كانت اللات لثقيف ، والعزى لقريش وبنى كنانة ، ومناة لبنى هلال . وقال ابن جبير : العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه . وقال قتادة : نبت كان ببطن نخلة و« مناة » صنم لخزاعة . وقيل : إن اللات فيما ذكر المفسرون أخذه المشركون من لفظ الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من منى الله الشىء إذا قدره .

وقال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح (اللاتَّ) بتشديد التاء وقالوا : كان رجلاً يلت السويق للحاج - ذكره البخارى عن ابن عباس - فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . [تفسير القرطبى ٩/٦٥٠١ باختصار] .

أمر النبى ﷺ خالداً أن يذهب ويقطعها[1] ، وكان يقول :

يا عُزَّى كفرانك لا غفرانك إنى رأيـت الله قـد أهـانك[2]

﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] مناة أيضاً اسم صنم لهم ، وقال : ﴿ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] فـهى ثالثتـهم ولم تكُنْ على شكل إنسان أو حيـوان ، فقال ﴿ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] على سبيل تحقيرهم والاستهزاء بهم وبمَنْ عبدوهم .

الحق سبحانه وتعالى جعلهم حكاماً على ما يفعلون وعلى عبادتهم للأصنام ، فقال لهم : أخبرونى عن هذه الأصنام هل تستحق أنْ تُعبد ، هل لها قدرة أو إرادة ، وهى أحـجار جئتم بها بـأيديكم وصوَّرتموها على صورة تريدونها ؟

ثم إذا سقط الصنم وأطاحت به الريح أقمتموه ، وإذا كسر ذراعه أصلحتموه ، فكيف تعبدونها ؟ وأين عقولكم ؟

لكنها طبيعة التديُّن فى الفطرة البشرية ، فقد جبل الخالق سبحانه الإنسان على التدين ، وقـبل أنْ يُخلق آدم وهو ما يزال فى عالم الذر

---

(١) فى عيـون الأثر (٢٠٧/٢) أن سرية خالد بن الوليد إلـى العزى كانت لخمس ليـال بقين من شهر رمضان سنة ٨ ليـهدمها ، فخرج فى ثلاثين فارساً من أصحابه حـتى انتهوا إليها فهدمـها ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبـره . فقال : هل رأيت شيئـاً ؟ قال : لا . قال : فإنك لم تهدمـها ، فارجع إليها فاهدمـها فرجع خالد وهو متغـيظ فجرد سيفه فـخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بـها فضربها خالد فجزلها باثنين ورجع إلى رسول الله فأخبره فقال : نعم تلك العزى .

(٢) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية لابن كثير ، وكذا الشامى فى سبل الهدى والرشاد (باب ٥٢) والواقـدى فى مغـازيه (٨٧٣/١) شأن هدم العـزى . وهى فى كل المصـادر صنم مبنى وليس شجرة .

وأخذ علينا العهد ونحن فى عالم الذر فى ظهر آدم عليه السلام .

فقـال سبـحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

إذن : عـبدوا الأصنام لمـا عندهم من إيمـان الفطرة فى النفس ، لكن الإيمان له تبعـات ومطلوبات قد تشقُّ على النفس وتقيد حركـتها نحو الشـهوات ، فيمـيل الإنسانُ إلى عبـادة إله بدون تكليف ليُرضىَ غـريزة التدين فـى نفسـه ، ومن هنا عـبدوا الأصنـام لأنها آلهـة فى زعمـهم ، لكن ليس لهـا مطلوبات وليس لها منـهج ، وما عبـدوها إلا لراحة مواجيدهم الإيمانية .

ونلاحظ هنا دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] لأنهم عبدوا أيضـاً الملائكة من دون الله ، لكن لم يذكرها مع اللات والعزى ومناة ، لأن الملائكة لا تُرى .

فلا يصح أنْ يـقول : أفرأيتم المـلائكة لأنهم لم يروا الملائـكة ، إنما سمعوا عنها وآمنوا بها غيـباً . وقالوا على كل هؤلاء : شفعاؤنا عند الله ، وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] إذن : حتى فى كفرهم بالله يتمحّكون فى الله .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [النجم] استـفهام للتـعجُّب والإنكار عليهم ، حيث نسبوا لله تعـالى الملائكة وجعلوها إناثاً لوجود تاء التأنيث بها .

والملائكة مخلوقات لله تعالى نورانية لا تأكل ولا تشرب ولا تتناسل ، ولا تُوصف بذكورة ولا بأنوثة .

فهذا تعدٍّ فى الحكم وقسمة سماها القرآن ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم] جائرة ظالمة ، لأنكم نسبتم لأنفسكم الجنس الأعلى ولله الجنس الأدنى ، فالخطأ الأول أنهم جعلوا الملائكة إناثاً ، والثانى أنهم عبدوها .

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)﴾ [الزخرف] . وقال : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ .. (٩٨)﴾ [الأنبياء] أى : وقودها الذى تتأجج به والعياذ بالله .

فالمأزق الذى وقع فيه عُبَّاد الأصنام أنهم قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر] ولو قالوا : ما نتقرَّب إليهم إلا ليقربونا إلى الله لكانت مقبولة ، لكن قالوا : (نعبدهم) وهو قول باطل ، فردَّ الله عليهم : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨)﴾ [الأنبياء]

فإنْ قلتَ : فما ذنب عيسى والعُزير ؟ وما ذنب الملائكة وقد عبدوها من دون الله ؟ والجواب فى نفس الآية ، تأمل ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ .. (٩٨)﴾ [الأنبياء] فـ (ما) هنا لغير العاقل ولم يقُلْ : ومَنْ تعبدون ، فسيدنا عيسى والعزير والملائكة لا يشملهم هذا الحكم .

وتأمل كلمة ﴿ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم] تجدها كلمة غريبة فى

(١) حصب جهنم : الحصب كل ما يلقى فى النار لتسعر به ، فتزداد بهم اشتعالاً . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

تركيبها وفى نطقها ولم تتكرر فى مفردات القرآن ، جاءت هكذا عجيبة لتدل على أن فعلهم غريب وعجيب ، وأن قسمتهم هذه جائرة ظالمة ، لأنهم نسبوا لله تعالى وهو الخالق الجنس الأدنى . أى : فى نظرهم هم .

فالعقائد لا تُفضّل الذكر على الأنثى ، فهما سواء فى ميزان الشرع ، ولبيان هذه المسألة اقرأ مثلاً فى قصة السيدة مريم : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا .. (٣٥)﴾ [آل عمران] أى : محرراً وموقوفاً على خدمة البيت ، والخدمة فى أماكن العبادة خاصة بالذكور ولا تصح لها الإناث .

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ .. (٣٦)﴾ [آل عمران] أى : ليس كالأنثى فى آداء هذه المهمة ، فبيَّن الله لها أن الأنثى التى أريدها ستأخذ منزلة لم تأخذها أنثى غيرها .

فالذكر الذى طلبْته ليس كالأنثى التى وهبتُها لك ، لأن هذه الأنثى سيكون لها منزلة فى تاريخ العقائد ، وموقف يرفعها على جميع النساء .

لذلك لما تكلم عن نماذج من النساء قال (امرأة) ولم يُسمِّ إلا مريم ، فقال : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. (١٠)﴾ [التحريم] وقال : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. (١١)﴾ [التحريم] ولم يُسمِّها إلا رسول الله ، فقال : هى آسية بنت مزاحم .

فالحق سبحانه لم يُسمِّ هؤلاء ، فهُنَّ نماذج لحالات مختلفة هدفها واحد وهو حرية العقيدة للمرأة ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يُرغم أحداً على عقيدة بعينها .

أما مريم فسمَّاها باسمها واسم أبيها ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ..﴿١٢﴾﴾ [التحريم] لأنها نموذج فريد وحالة خاصة لن تتكرر بعدها . إذن : إبهام الشخصيات له موضعه ، وتعيُّنها له موضعه ، وكُلّ له حكمته .

ففى قصة أهل الكهف ذكر قصة الفتية ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف] ولم يُعيِّن القرآن أسماءهم ولا عددهم ، ولم يذكر عنهم إلا وصف الإيمان بالله ، وهذا هو القدر المراد فى قصتهم ولا يُهم بعد ذلك عددهم أو أسماؤهم ، فهو عِلْم لا ينفع ، وجهل لا يضر كما يقولون .

فهم نموذج للفتية المؤمنين المتمسكين بعقيدتهم المجابهة للظلم فى أىِّ زمان وفى أىِّ مكان ، بأىِّ عدد وبأىِّ صورة ، ولو عيّنهم وسمّاهم لكانوا حالة خاصة ليس بالضرورة أن تتكرر .

وأحبُّ أنْ أستدرك الحديث عن مسألة رؤية سيدنا رسول الله لربه ، لأنها مسألة كَثُر فيها الكلام بين المفسرين ، وتباينت فيها الآراء بين مؤيد ومعارض .

وأقول : أولاً إنها مسألة لا تضر أصل العقيدة ، لأنها لا تأتى بشىء جديد إلا أنْ نعرف منزلة محمد من ربه ، فالذين يحبون رسول الله يريدون أنْ يصلوا به إلى مرتبة أنه رأى ربه فيُثبتون له ذلك .

وآخرون مُحبُّون أيضاً لرسول الله لكنهم يريدون أنْ يُجنِّبوا الناس

متاهات الشك ، فيحاولون تخفيف هذه المسألة بأنها رؤية على غير الحقيقة .

ونحن بدورنا نريد أنْ نُبسِّط المسألة تبسيطاً يُيسِّرها على الجميع ، ومن الطبيعى أنْ تختلف آراء العلماء ، وهو اختلاف يُعزِّز الدين فى ذاته ولا يقدح فيه .

والمتتبع لآيات سورة النجم من أولها يجدها تحدثتْ عن الوحى فى موضعين : الأول : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم] والمراد : الوحى الذى نزل به جبريل على محمد وهو فى الأرض .

إذن : فقوله تعالى بعدها : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم] ليست بالمعنى الأول ، بل تضيف جديداً ، فالوحى فيها يُقصد به الوحى المباشر من الله تعالى لنبيه محمد .

بدليل أن الآية هنا لم تذكر جبريل واسطة الوحى ، ثم أبهمتْ الوحى فقالت : ﴿مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم] والوحى الذى نزل به جبريل معلوم وغير مُبْهم .

كما أن إبهام الوحى هنا يدل على عظمه ، وأنه شىء كثير فوق الحصر ، أو أنه شىء غريب وعجيب كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه]

إذن : نحن أمام نوعين من الوحى ، وإذا كانا بمعنى واحد فما ضرورة أنْ يذهب رسول الله فى هذه الرحلة من الأرض إلى السماء ما دام جبريل ينزل عليه . ويُوحى إليه ؟

نفهم من ذلك أن ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم] عطاء جديد لرسول الله ، لكنه عطاء مُغلَّف بالغيب ، فليست كل العقول مهيئة لتقبُّله ، وعلى قدر صفاء النفس يكون الاقتناع بمثل هذه المواقف ، والناس يختلفون كثيراً فى هذه المسألة .

ومن هنا رأينا المؤيد والمعارض ، والحمد لله فهذا خلاف لا يقدح فى العقيدة ، والحق سبحانه وتعالى خاطب الجميع مَنْ اكتفى بالفرائض ، ومَنْ زاد عليها وأوغل فى النوافل ، وجعل لكلٍّ عطاءً يناسبه .

والوحى المباشر من الله تعالى لنبيه محمد يقتضى القُرْب ، ويقتضى السماع ، وقد أوضح سيدنا رسول الله الرؤية فقال : نور أنَّى أراه(١) ، فقد رأى ﷺ النور ، وهل بعد ذلك غاية تُدرك ؟

وقد ورد فى أثر ما يؤكد هذا أن رسول الله ضرب على صدر أحد الصحابة حتى أحسَّ برد أنامله . وقال : أعطانى ربى ثلاثة أوعية : وعاء أمرنى بتبليغه وهو الصلاة ، ووعاد خيَّرنى فيه (يعنى : أبلغه لأصحاب الصفاء الذين يحسنون الاستقبال عنى وأكتمه عن الذين لا يُحسنون الاستقبال) ، ووعاءً نهانى الله عنه (وفى هذا الوعاء

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٦١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٠٤) وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٤٢٧ ، ٢٠٥٤٧) .

أمور فوق مدارك البشر جميعاً ولا تتحمله عقولهم فأُمِر رسول الله بأنْ يكتمه) .

والصحابة أنفسهم كانوا يتفاوتون فى فَهْم مثل هذه الأمور ، فسيدنا عمر لما طاف بالكعبة ووقف أمام الحجر الأسود قال : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنِّى رأيتُ رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتك(١) .

يريد عمر أنْ يلفتنا إلى أن العمل العبادى لا يُؤدَّى لذاته ، إنما ثقة فى الآمر به . أما سيدنا على فعنده لَوْن آخر من الفيض ومن الفهم ، فيأتى سيدنا عمر ويقول له بينه وبينه : يا أمير المؤمنين ، ولكنى أعرف أنه يضر وينفع ، ألا يشهد لصاحبه يوم القيامة .

إذن : ليس بالضرورة أنْ نعلم كلَّ شىء ، والله يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء] مهما كنت ، وعندنا فى حياتنا اليومية نغلف الشىء النفيس فى أكثر من غلاف ، فنضعه فى ظرف ، والظرف فى خزينة مُحكمة ، والخزينة فى مكان خاص ، فما

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٦٣٥) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : حججنا مع عمر بن الخطاب فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبلتك ثم قبّله ، فقال له على بن أبى طالب : بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع . قال : بم ؟ قال : بكتاب الله . قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال : قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] وإنى أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد » فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع ، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لستَ فيهم يا أبا حسن .

بالك إذا كان الأمر خاصاً برؤية الله جلَّ وعلا ، فلا بأس أنْ تغلف فى هذه الأساليب ولكل عقل أنْ يتقبَّل منها ما يريد .

ثم فى قوله سبحانه : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ﴾ [النجم] الوحى يُرَى أم يُسمع ؟ الوحى يُسمع ، فلماذا قال ﴿ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ﴾ [النجم] إذن : لابد أن يكون هناك رؤية . والذين لا يقبلون الرؤية يستشهدون بقوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ..(١٠٣) ﴾ [الأنعام]

نعم لا تدركه الأبصار ، فقد حدد آلة الإدراك وهى (الأبصار) ، وهذا يعنى أنه لا مانعَ أنْ يدرك بغير الأبصار ، فالمنع هنا للأبصار فقط ، فحين يرد خبر معناه : انعكس بصرى على بصيرتى ، فرأيت مَنْ لا كمثله شىء لابد أن نفهم أن المسألة فيها تغليف وستْر لأمر نفيس وعجيب .

بل إن المتدبر للآيات يجدها تذهب إلى أبعد مما تتكلَّمون فيه ، اقرأ : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ﴾ [النجم] وبعدها : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾ [النجم] يعنى : رأى أكثر من الذى تتكلمون فيه ، فما حالكم لو أخبرناكم بكلِّ ما رأى ؟

وفى قصة سيدنا موسى عليه السلام لما قال لربه : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ

فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ..(١٤٣) ﴾ [الأعراف]

تأمل أولاً ﴿ لَن تَرَانِي.. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] ولم يقُلْ : لن أرى ، يعنى : لن ترانى يا موسى وأنت على هذه الهيئة لأنها لا تُمكنك من الرؤية ، لكن تجلى للجبل والتجلِّى يقتضى الرؤية . إذن : الأمر هنا فى الرائى ومدى استعداده للرؤية .

ومحمد مثل موسى فى هذه المسألة ، لكنه لما صعد إلى السماء أخذ شيئاً من الملائكية تُمكنه من الصعود والاختراق ، ملائكية غطَّتْ على بشريته وتغلَّبتْ عليها .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣) ﴾

ما زال الكلام موصولاً عن الأصنام : اللات والعزى ومناة ، فيخبر عنها الحق سبحانه ﴿ إِنْ هِيَ ..(٢٣) ﴾ [النجم] أى : ما هذه الأصنام ﴿ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣) ﴾ [النجم] أسماء من تأليفكم لأصنام من صُنْع أيديكم .

ومعلوم أن الاسم يُوضع ليدل على مُسمَّى ، أما هذه الأصنام فأسماء دون مُسمَّى فهى باطلة ، قلتم آلهة وهى حجارة لا تضر ولا تنفع .

﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٢٣) ﴾ [النجم] لأنهم ورثوها عن الآباء والأجداد كما حكى عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف] إذن : أقرُّوا بخطأ آبائهم ، وأنهم سائرون على منهجهم .

ثم يُبيِّن لهم بُطْلان معتقداتهم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣) ﴾ [النجم] أى : هى من عند أنفسكم ليست من عند الله ، ولا برهانَ ولا دليلَ على صدقها ، وأنتم وآباؤكم لستم مُشرِّعين .

فالتشريع والأمور العقدية لا تُؤخذ عن البشر ، إنما تُؤخذ عن الله ، وهؤلاء لا يتبعون هدى الله ، إنما ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ .. (٢٣) ﴾ [النجم] إنْ نافية بمعنى : ما يتبعون ﴿ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ .. (٢٣) ﴾ [النجم] لا يتبعون حقائق ولا واقع .

الظنّ نسبة من النسب الكلامية الست التى سبق أنْ بيّناها ، وهى : العلم والجهل والتقليد والشك والظن والوهم ، فالنسبة الكلامية إنْ كان لها واقع مجزوم به ، ويمكن إقامة الدليل عليها فهى علم ، وإنْ كان لها واقع مجزوم به وليس عليها دليل فهى تقليد .

فإنْ كانت النسبة الكلامية ليس لها واقع فهى جهل ، هذا فى النسبة المجزوم بها ، فإنْ كانت النسبة الكلامية غيرَ مجزوم بها يعنى تحدث أو لا تحدث ، فإذا تساوتْ الكفّتان فهذا الشك ، فإنْ كان الوقوع راجحاً فهو الظن ، وإنْ كان الوقوع مرجوحاً فهو الوهم .

والظن يمكن العمل به فى الأمور العادية ، فلو أردنا مثلاً السفر إلى الإسكندرية فقلت لصاحبى : هذا الطريق سهل وعليه متطلبات

السفر . فقال : الطريق الآخر أظن أنه أفضل لأنه حديث وكذا وكذا ، فيجوز أنْ أترك اليقين الذى أعلمه عن الطريق وأسلك الطريق الآخر المظنون ، لأن الاختيار لو كان خطأ فالضرر الحاصل به قليل .

أما فى مسائل الدين والعقيدة فيجب الأخذ باليقين لا بالظن ، والحق سبحانه يخبر عن هؤلاء أنهم اتبعوا الظن فى أمور العبادة ، فقالوا : إن الله تعالى جلالاً وكبرياء ، ولا نقدر أنْ نلتحم به ونعبده ، ولكن نعبد شيئاً آخر يُوصِّلنا إليه ويشفع لنا عنده .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ .. (٢٣) ﴾ [النجم] أى : فى العقيدة ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ .. (٢٣) ﴾ [النجم] فى السلوك والعمل يتبعون هوى النفس ، والهوى يُطلق على ما يُذم من مطلوبات النفس .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) ﴾ [النجم] اللام للتوكيد و (قد) حرف تحقيق .

يريد سبحانه أنْ يؤكد على هذه الحقيقة ، وهى أن هدى الله جاءهم وبلغهم رسول الله منهج الله ، ومع ذلك تركوا الحق واليقين ، واتبعوا الظن وما تهوى الأنفس ، ولو اتبعوا الظن والهوى قبل أنْ يأتيهم منهج الحق لكان لهم عُذر ، أما وقد فعلوا ذلك بعد أنْ جاءهم الهدى من الله فلا عذرَ لهم ولا حجة .

﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) ﴾

أيظنون وقد فعلوا ما فعلوا من الانصراف عن هدى الله إلى ظنون كاذبة ، أيظنون أن الإنسان يسير فى الدنيا على هواه ؟ وأن له ما

تمنى حتى لو كانت أمانيه مخالفة لمنهج ربه ؟ الواقع أنه ليس له ذلك ، لأن الدين والعقيدة لا تؤخذ بالأمانى ، والحق سبحانه ليس على هواك .

والتمنِّى طلب شىء لا يمكن الوصول إليه وغير ممكن الحدوث ، والتمنى لا يعنى إلا أنك تحب هذا الشىء الذى تتمناه ، نعم تحبه لكنه لن يحدث ، كما قال الشاعر :

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً ... فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ المَشِيبُ

فهم يتمنونَ ذلك ، يتمنون أنْ يكون للإنسان ما يريده وما يحبه دون ضوابط ، فهذه أمنية ، والأمنية شىء يحبه الإنسان ، لكنه لا يتحقق ، لأن الإنسان لا يملك الظروف المتعلقة به ، ولا يملك الأسباب التى تحقق له كلَّ ما يريد ، بل له ربٌّ يُقدِّر الأقدار والأفعال والخير والشر .

وفى آيات متعددة يُبيِّن الحق سبحانه أمنية هؤلاء ، فمن أمانيهم قولهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى[1] ..﴿٣﴾﴾ [الزمر] ومن أمانيهم ما حكاه القرآن عن صاحب الجنة فى سورة الكهف : ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]

وفى موضع آخر قال أحدهم : ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ..﴿٥٠﴾﴾ [فصلت] وهكذا تمنِّى الإنسان لنفسه لا يقف عند حدٍّ ، قال تعالى : ﴿لاَ يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت]

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

ومن أمانيهم ما حكاه القرآن عن الوليد بن المغيرة : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْداً ﴿٧٨﴾﴾ [مريم] لا هذا ولا ذاك ، لأنه ما اطلع على الغيب ، وليس له عند الله عهد بأنْ يعطيه ما يريد .

ثم يردُّ الله عليه : ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴿٨٠﴾﴾ [مريم]

إذن : ليس للإنسان ما تمنّى ، وكيف يكون له ذلك والأمر كله لله وحده فى الأولى وفى الآخرة ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى ﴿٢٥﴾﴾ [النجم] هنا أسلوب قصر بتقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ ، أى : لله وحده ﴿الآخِرَةُ وَالأُولَى ﴿٢٥﴾﴾ [النجم]

فقدّم الآخرة لأنهم قالوا عن الأصنام : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فأخبر أن الآخرة لله وحده ، ولا تنفعكم هذه الشفاعة لأنها باطلة ﴿وَالأُولَى ﴿٢٥﴾﴾ [النجم] أى : ما يتمنونه فى الدنيا مما لا قدرةَ لهم على تحقيقه .

وقالوا : قدَّم الآخرة على الأولى مع أن الترتيب الأولى والآخرة ، لأن الآخرة هى محلّ النزاع بين مُصدِّق بها ومُنكر لها ، ومحلّ شك فى وقوعها ، لذلك قدَّمها على الأولى للتأكيد على أنها حقّ ، وحقّ آكد من الأولى التى عاينتموها .

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

لما اعتقدوا فى الأصنام أنها تشفع لهم عند الله ، وقال : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى.. (٣) ﴾ [الزمر] فردّ الله عليهم بما يُبيِّن بطلان اعتقادهم ، فكيف تنتظرون شفاعة الأصنام عند الله ، والملائكة المقربون والعباد المكرمون عنده سبحانه ليس لهم شفاعة إلا بإذنه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ .. (٢٦) ﴾ [النجم] أى : كثير من الملائكة ، فكم هنا خبرية تفيد الكثرة ، لأنها تسأل عن عدد لا حصر له ﴿ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) ﴾ [النجم]

إذن : هنا شرطان لقبول شفاعة الملائكة ، الشرط الأول : أنْ يأذن الله للملَك أنْ يشفع ، الثانى : أنْ يرضى عن المشفوع له ، ولا يرضى الله إلا عن أهل التوحيد الخالص ، فهذه كرامة للشافع ، وكرامة للمشفوع فيه .

يقول تعالى فى آية الكرسى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

فإذا كان هذا حال الملائكة فى قبول الشفاعة وهم عباد مُكرمون لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، وقال عنهم ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم] فكيف إذن بشفاعة الأصنام ؟

ونلاحظ على الأداء القرآنى فى هذه الآية أن كلمة ﴿ مَّلَكٍ .. (٢٦) ﴾ [النجم] جاءت بصيغة المفرد ، ثم أخبر عن المفرد بصيغة الجمع ، فقال ﴿ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ .. (٢٦) ﴾ [النجم] ولم يقل شفاعته .

قالوا : لأن كم الخبرية تفيد الكثرة ، فلما اجتمعت مع المفرد

أعطته معنى الجمع ، فالمعنى ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ .. (٢٦) ﴾ [النجم] كثير من الملائكة ، والمناسب أن يقول شفاعتهم ، بصيغة الجمع .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾

الحق سبحانه يفضح اعتقادهم الكاذب فى قولهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .. (٣) ﴾ [الزمر] وفى اعتبارهم الملائكة شفعاء لهم عند الله ، فهذا مجرد كلام وحجج واهية لأنهم فى الأصل لا يؤمنون بالآخرة ، فكيف يتحدّثون عن الشفاعة ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ .. (٢٧) ﴾ [النجم] أى : الكفار ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى (٢٧) ﴾ [النجم] أى : يدّعون أن الملائكة بنات الله ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ .. (٢٨) ﴾ [النجم] ما لهم بهذا القول ﴿ مِنْ عِلْمٍ .. (٢٨) ﴾ [النجم]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : لا علمَ عندهم بخلق الملائكة ، فهم فى هذا الادعاء كاذبون يقولون ما لا يعلمون ، والمسألة أنهم يتبعون فى هذه القضية ظنهم الباطل ، ظنوا الملائكة إناثاً لوجود تاء التأنيث فى الملائكة .

﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] أى : أن ظنهم هذا ظنٌّ باطل لا يمتُّ إلى الحقيقة بصلة ولا يغنى عنها ، والحق فى

هذه المسألة ما أخبرنا الله به ، لأنه خالقهم والأعلم بهم ، فالظن لا يحلُّ أبداً محلّ العلم القاطع البيِّن .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ
إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم
مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾

بعد أنْ بيَّن الحق سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ موقف خصومه ، وكيف أنهم لا يريدون الحق ، بل يريدون الهوى والظن والشهوات ، يقول له : يا محمد أرح نفسك من هؤلاء ، فلا فائدة منهم .

وقد كان سيدنا رسول الله حريصاً كلّ الحرص على هداية قومه ، وكان يُحمِّل نفسه فى سبيل دعوتهم إلى الحق فوق ما تحتمل ، لذلك خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف] وقال له : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ .. (٤٨) ﴾ [الشورى]

وقد بيَّنا أن الله تعالى لا يريد منهم قوالب تأتى راغمة ، إنما يريد قلوباً تأتى إليه طواعية واختياراً .

لذلك يقول سبحانه لنبيه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٩) ﴾ [النجم] فأعرض : أمر من الفعل عَرَض عارض ، وأعرض مُعرض . والهمزة هنا تُسمّى همزة الإزالة . أى : إزالة العرض ، تعرفون المعرض الدولى الذى نعرض فيه المنتجات ، فصاحب المنتج

عارض يعرضه على الناس ، ويُبيِّن لهم مزاياه فهو عارض .

وهكذا كان سيدنا رسول الله يعرض الهدى ومنهج الحق على قومه ، ويُبيِّن لهم أهدافه ومزاياه ، فلم يكُن منهم إلا الصبر والأذى والإعراض عنه والانصراف .

وظل كذلك إلى أنْ أمره ربه بالإعراض عنهم ، فقال له : ﴿ فَأَعْرِضْ .. (٢٩) ﴾ [النجم] من أعرض ، وهو عكس عرض ، وهمزة الإزالة تُحوِّل الفعل إلى ضده ، فكما انصرفوا عنك فانصرف عنهم ، أعرضوا عنك فأعرض عنهم .

وهمزة الإزالة فى أعرض مثل أعجم . نقول : أعجم الكتاب . أى : أزال عُجْمته ومنه معجم ، وهو الكتاب الذى يُزيل غموض الألفاظ ، كذلك أعرض أى : أزال العرض .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٩) ﴾ [النجم] إذن : هم البادئون بالإعراض عن ذكر الله ، أى : عن القرآن وعن المنهج لأنه يُقيِّد حريتهم فى الشهوات ، المنهج تكليف ، وهم لا يريدون تكليفاً ، يريدون الانطلاق خلف شهواتهم وملذاتهم دون رقيب .

ولو تأمل هؤلاء المعرضون منهج الله لعرفوا أنه فى صالحهم ، لأنه مثلاً حين ينهاك عن السرقة وأنت فرد ينهى الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، كفَّ يدك وكفّ أيدى الملايين عنك .

إذن : قبل أنْ تنظر إلى مشقة التكاليف انظر إلى عطائها . تذكرون الصحابى الشاب الذى أتى سيدنا رسول الله وقال له : يا رسول الله إئذن لى بالزنا ، تصوروا ماذا كان ردّ فعل رسول الله على هذا المطلب الغريب ؟ لم ينهره بل أدناه منه وتبسَّم فى وجهه

وقال لـه : يا أخا العرب أتحبه لأختك ؟ فيقول : لا يا رسول الله جُعلْت فداك ، فيقول : أتحبه لأمك ؟ أتحبه لابنتك ؟ .

يقول الراوى : حتى ذكر العمة والخالة ، والرجل يقول : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداك ، ثم يقول لـه سيدنا رسول الله : كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبونه لأخواتهم ولا لأمهاتهم ولا لبناتهم .

فيقول الشاب : فانصرفت من عند رسول الله ، وليس شىء أبغض إلىَّ من الزنا ، وما هممتُ بشىء إلا تذكرت أختى وأمى وابنتى(١) .

لذلك الحق سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة يقول عن المتقين : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة] فالتكاليف الدينية والمنهج ليس عبئاً عليك ، إنما هو دابة تحملك وتُوصِّلك إلى غايتك ، فهم على الهدى و (على) تفيد الاستعلاء ، فالمنهج هو الذى يحملك ، وهو الذى يساعدك ويُسعدك .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩﴾ [النجم] أى : هى غايتهم ، فلا يعملون إلا لها وقد أقروا بذلك فقالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ..۝٢٤﴾ [الجاثية] فالآخرة ليست فى حساباتهم .

لذلك الحق سبحانه وتعالى يُسفه هذا الرأى ويقول : ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. ۝٣٠﴾ [النجم] أقصى ما وصلوا إليه من العلم الذاتى فقد وقف بهم عند هذا الحد .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢١١٨٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (٧٥٧٧) وفى مسند الشاميين (١٠٣٦ ، ١٤٩٤) وكذا البيهقى فى شعب الإيمان (٥١٨١) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ دعا للشاب : « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه ، وحصِّن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء .

والعجيب أنهم أغلقوا آذانهم وصَمُّوا أسماعهم عن الهدى ، فلم يأخذوا بعلم الله الذى أنزله عليهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾ [النجم]

نقف أولاً عند أسلوب القصر ﴿هُوَ أَعْلَمُ ..۝٣٠﴾ [النجم] حيث قصر العلم على الله وحده ، لأن الهداية والضلال أمر فى غالبه غيبى لا يطلع عليه إلا عالم السر وأخفى ، ثم إن الجميع يدَّعى أنه على الهدى ، وأن غيره على الضلال ، لذلك اختصَّ الله بهذا العلم نفسه سبحانه .

وقد جاءت هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾ [النجم] بعد قوله تعالى لنبيه : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. ۝٢٩﴾ [النجم] فهنا تناسب بين الآيتين ، لأن الله تعالى سبق علمه بخَلْقه مَنْ يضل ومَنْ يهتدى ، مَنْ سيُقبل على الدعوة ، ومَنْ سيعرض عنها .

لذلك قال لنبيه أرح نفسك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..۝٤٨﴾ [الشورى] والحق سبحانه وتعالى أخبر رسوله بمَنْ سيهتدى وبمَنْ سيظل على ضلاله ، فأبو لهب وأبو سفيان وعمرو وخالد بن الوليد كانوا جميعاً فى خندق واحد ضد الإسلام ، فشاء الله أنْ يؤمن أبو سفيان وخالد وعمرو .

أما أبو لهب فقد ظلَّ على كفره ، حتى بعد أنْ نزلت فيه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝٣١﴾

هنا أيضاً أسلوب قصر بتقديم الخبر . أى : لله وحده .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤٩) ﴾ [الشورى] فالسموات والأرض عجيبة فى ذاتها ، والذى فيها أعجب ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (٣١) ﴾ [النجم] وقال : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٧) ﴾ [النحل]

فهذه مراحل ثلاث فى مُلك الله ، يملك سبحانه الظرف السموات والأرض ، ويملك المظروف أى : ما فى السموات وما فى الأرض وكل منهما عجيب ويملك الأعجب من ذلك ، وهو ما خفى عنا فى ملكوت السموات والأرض .

وهذا يعنى أنك أيها الإنسان لا تزهد فى الاستنباط ، فالكون ملىء بما تعلمه وما لا تعلمه من الآيات والعجائب ، وفيه عطاءات لا تتناهى ولا تنفد ، ما دامت السموات والأرض ، فإذا نفدت العجائب والأسرار بنفاد الدنيا جاءت عجائب وأسرار الآخرة .

ثم يُبيِّن سبحانه أن هذا الملك في السموات والأرض يترتب عليه الجزاء فى الآخرة ، لأن الملك ملكُ الله ، والخَلْق خَلْق الله ، والرسل رسل الله ، والمنهج منهج الله ، فأمامك أيها الإنسان الكون الفسيح وما فيه من آيات كونية تدل على قدرة الخالق سبحانه فاستدل بالخلق على الخالق .

ثم أرسل لك الرسل وأنزل الكتب وشرَّع الشرائع وبيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الحدود ، وبيَّن الجزاء ، فلا بد أنْ ينتهى مُلْك السموات والأرض إلى الجزاء ، والجزاء لا بد وأنْ يكون من جنس

العمل ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) ﴾ [النجم]

والآيات ثلاث كما قلنا : آيات كونية تدل على قدرة الله ، وآيات معجزات تدل على صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وآيات الأحكام التى يضمها القرآن الكريم ، فمَنْ لم يعتبر بهذه الآيات ولم يحسن استقبالها فقد أساء فيُجزى بإساءته .

ومن أحسن استقبالها يُجزى بإحسانه وكأنه حيا المكلِّف سبحانه وتعالى بالطاعة فيُحييه الله بأحسن منها ﴿ وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) ﴾ [النجم] أى : بالأحسن مما قدَّموا ، فإذا كنا قد أمرنا فى الدنيا بأنْ نرد التحية بأحسن منها ، فالله أوْلى بذلك .

وتأمل هنا اللياقة فى التعبير والدقة فى الأداء ، فلم يقُلْ : ليجزى الذين أساءوا بالسوء ، ولكن ﴿ بِمَا عَمِلُوا .. (٣١) ﴾ [النجم] فلم يواجههم بكلمة السوء ، ولكن وضع أمامهم العمل الذى قدَّموه .

وفى هذا إشارة إلى عدل الله ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران] . ثم يقدم جزاء أهل السوء على جزاء أهل الإحسان ، ليكون الجزاء بالحسنى هو آخر ما يباشر أسماعنا .

ثم تشرح الآيات وتُفصِّل القول فى الذين أحسنوا ، ما وجوه الإحسان فى أعمالهم .

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ [1] فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢) ﴾

فمن صفات الذين أحسنوا أنهم ﴿ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. (٣٢) ﴾ [النجم] أى : يتركون بالكلية الكبائر من الذنوب ولا يقتربون من هذه المنطقة المحرمة ﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ .. (٣٢) ﴾ [النجم] وهو صغائر الذنوب .

فكأنَّ الله تعالى من رحمته بخلقه تكفّل لنا بالصغائر أنْ يمحوها ، وجعل لها (أستيكة) أى ممحاة تزيلها وهى الصلوات الخمس ، شريطة أنْ نجتنب الكبائر .

وفى الحديث : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتْ الكبائر » [2] فمَنْ فعل ذلك وسار على هذا المنهج كانت له الحسنى ، وكان من أهل الإحسان .

---

(١) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٢٦) فى سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانوا يقولون : إذا هلك لهم صبى صغير هو صدّيق ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ، فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٣٢) ﴾ [النجم] .

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى وكذا فى شعب الإيمان (٣٤٦٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد أخرجه مسلم في صحيحه (٣٤٤) وكذا (٣٤٢) بلفظ (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر) .

إذن : الإثم والفواحش هى الذنوب الكبيرة التى توعَّد الله مرتكبيها ، والفواحش ما فَحُش من الكبائر وعظم ، وقد جعل الله له عقوبة وحداً .

أما (اللمم) الذى استثناه الله وعفا عنه فهو لمم . يعنى : صغائر هيِّنة لا يترتب عليها كبيرُ ضرر ، وهذه أيضاً مشروطة بعدم الاجتراء عليها أو المبالغة فيها حتى تصير لك عادة .

وإذا عاملك الله تعالى بهذا المنطق فاستح منه سبحانه أنْ تتجرأ عليه ولو بالصغائر ، لأن الصغيرة إذا أضيفت إلى الصغيرة وكان فى الأمر مداومة وإصرار صارتْ كبيرة ، ثم للعاقل أنْ ينظر فى حَقِّ مَنْ هذه الصغيرة ، إنها فى حق الله ، إذن : فاقصر .

قلنا : إن الكبائر جمع كبيرة ما توعد الله عليه بالعذاب فى الآخرة ، أو أقام عليه الحدَّ فى الدنيا ، وهذا فيما يتعلق بحقوق العباد ، فالله سبحانه قدَّم حقَّ العباد على حقِّه تعالى ، وجعل له القصاص العادل فى الدنيا .

ألا ترون أن الله جعل أداء الدَّيْن مقدَّم على أداء فريضة الحج ؟ ورسول الله ﷺ لم يُصل على جنازة أحد الصحابة لأن عليه ديناً ، وحثَّهم على قضاء دينه أولاً .

حتى أنهم قالوا فى معنى « مَنْ حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » [1] قالوا : هذا فيما يتعلق بحقِّ الله ، أما

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٨٣٩) بلفظ « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كهيئته يوم ولدته أمه » . وعند البيهقى فى شُعبه (٣٩٣٣ ، ٣٩٣٤ ، ٣٩٣٥) وابن حبان فى صحيحه (٣٧٦٤) وابن خزيمة فى صحيحه (٢٣١٤) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كانما ولدته أمه » ليس فى الحديث لفظة « من ذنوبه » وقد أخرجها أحمد فى مسنده (٩٨٨٥) .

حقوق العباد فتظل كما هى ، إلى أنْ يكون الأداء أو القصاص ، ذلك يُحدثُ الردع ولا يجترىء الناس على التعدِّى وانتهاك الحرمات .

وقد علّمنا رسول الله هذا الدرس فى دعائه : « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عنى »[1] يعنى : إنْ لم أقدر على الوفاء به .

لذلك قلنا فى السارق الذى أسرف على نفسه وتمادى فى هذه الجريمة ، ثم أراد أنْ يتوب ماذا يفعل ؟ لا بدّ أنْ يجهد فى إعادة الحقوق إلى أصحابها ، فإذا لم يقدر يحسب جملة ما سلبه من خَلْق الله ويتصدّق به بنية صاحبه ، وحين يعلم الله منه صدق التوبة ، فقد يتحمل عنه هذه الحقوق رحمة به .

نلاحظ أن الآية عطفت ﴿ الْفَوَاحِشَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] على ﴿ كَبَائِرَ الْإِثْمِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] لأنها كلها كبائر ، لكن الفواحش تضيف إلى الكبيرة صفة الفحش والقبح ، فهى أعظم وأشدّ إثماً من الكبائر ، لأنها منكر مستبشع .

---

(١) أقرب ما وجدته فى هذا بعد طول بحث ما أورده ابن حبان فى (المجروحين) ترجمة إبراهيم بن زيد الأسلمى من حديث أبى هريرة ، وكذا الذهبى فى ميزان الاعتدال (٩٤) وابن حجر فى لسان الميزان ، وأخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (ترجمة شيخه مكى ابن أحمد بن سعدويه) مطولاً ونصه : اللهم أستغفرك وأسألك التوبة من مظالم كثيرة لعبادك علىّ اللهم فأيما خلق من خلقك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها إياه فى ماله أو بدنه أو عرضه أو دمه قد غاب أو مات نسيته أو فرطته عمداً أو خطأ لا أستطيع أداءها إليه وتحللها منه ، فإنى أسألك يا رباه يا رباه يا سيداه يا سيداه يا سيداه ، أسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت » الحديث . قال ابن حبان فى المجروحين : منكر الحديث جداً يروى عن مالك ما لا أصل له من حديث الثقات ، لا يحل الاحتجاج به بحال .

وقد تكلم العلماء فى الكبائر وربطوا بينها وبين الجوارح التى تُؤدَّى بها ، فعمرو بن عبيد[1] كان عالماً ورعاً يتجنب ما يفعله غيره من العلماء والشعراء من الدخول على الملوك والأمراء لنيْل عطاياهم ، حتى قال فيه الشاعر ، وذلك فى العصر العباسى :

كُلُّهُمْ طَالِبُ صَيْدْ   غَيْرَ عَمْرو بن عُبَيْد

عمرو بن عبيد وقف عند مسألة الكبائر هذه ، وأراد أنْ يسأل عنها أعلم أهل زمانه بالكتاب والسنة ، فلم يجد أعلم من سيدنا جعفر الصادق[2] بن سيدنا محمد الباقر بن سيدنا على زين العابدين بن سيدنا الحسين بن سيدنا على بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء .

وكان جعفر الصادق كثير البحث فى آيات القرآن واستيعاب أسراره والتفتيش عن كنوزه ، وكان يستنبط المعانى ويأتى بالدليل عليها .

ومن ذلك قوله : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ..﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران]

---

(١) عمرو بن عبيد التيمى بالولاء أبو عثمان البصرى ، شيخ المعتزلة فى عصره ومفتيها وأحد الزهاد المشهورين ، ولد ٨٠ هجرية وتوفى عام ١٤٤ هجرية عن ٦٤ عاماً . كان جده من سبى فارس وكان أبوه شرطياً للحجاج بن يوسف فى البصرة ، توفى قرب مكة ، من العلماء من يراه مبتدعاً دهرياً .

(٢) هو أبو عبد الله الهاشمى القرشى ، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم ولد ٨٠ هجرية وتوفى ١٤٨ هجرية عن ٦٨ عاماً ، أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك ، مولده ووفاته بالمدينة . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦]

وعجبت لمن اغتمّ ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكِرَ به ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾ [غافر] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ..(٤٥)﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الكهف] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ..(٤٠)﴾ [الكهف]

فهذه (روشتة) وضعها سيدنا جعفر ، أخذها بالدليل من كتاب الله وتشمل كلَّ ما يطرأ على العبد من أحوال . وراح عمرو بن عبيد يسأل سيدنا جعفر عن الكبائر ، كل كبيرة بحسب الجارحة التى تؤديها .

فقال : القلب مطلوب منه ألاَّ يشرك بالله ، وألاَّ ييأس من رَوْح الله ، وألا يأمن مكر الله . ثم أتى بالدليل من كتاب الله على كل واحدة ، ففى مسألة الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [النساء] وفى اليأس من روح الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ..(٥٣)﴾ [الزمر] وهكذا .

وكبائر اللسان : شهادة الزور ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾ [الفرقان] وقذْف المحصنات المؤمنات الغافلات ، واليمين الغموس وهو الحلف على شىء مضى وتعمد مخالفة الواقع ، كذلك من كبائر اللسان السحر .

أما البطن فيتعلق بها شُرب الخمر والعياذ بالله ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا . والفرج يتعلَّق به الزنا . واليدان السرقة والقتل . والرِّجْلان الفرار من الزحف . ولكل من هذه الكبائر دليلها الواضح من كتاب الله .

ومن الكبائر ترك الصلاة وهى كبيرة ، يشترك فيها جوارح كثيرة ، وتَرْكها كبيرة لأنها فُرضَت كما قلنا من الله مباشرة لرسوله ، فهى لا تسقط عن المسلم بحال ، لذلك قُلْنا عنها أنها ركنٌ من أركان الإسلام ، وكذلك هى ركن من أركان المسلم ، لأنها ملازمة له لا تسقط عنه .

أما اللمم فهو ما دون الكبائر من الذنوب ، وتُسمَّى الصغائر مثل النظرة ، لذلك قالوا : لك الأولى وليس لك الثانية[1] ، لأن النظرة الأولى طرأتْ عليك وبها تتعرَّف على الأشخاص .

أما النظرة الثانية ففيها قصد للتمادى ، وهذا يجرُّنا إلى النظرة المحرمة ، فالذى يطيل النظرة الأولى ليقول أنها الأولى التى رخص فيها عليه أنْ يحذر ، لأن المراقب للنظرة هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وحتى النظرة الأولى فى الواقع ليست لك ، لكنك معذور فيها ،

---

(١) عن بريدة بن الحصيب الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : يا على ، لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى ، وليست لك الآخرة » . أخرجه أبو داود فى سننه (١٨٣٧) وكذا الترمذى فى سننه (٢٧٠١) وقال : حديث حسن غريب . وأخرجه أحمد فى مسنده (٢١٨٩٦ ، ٢١٩١٣ ، ٢١٩٤٣) .

لأنها طرأتْ عليك ، فهى تلقائية ليس فيها قصد .

وكذلك من الصغائر الضربة الخفيفة التى لا تؤذى ، أو أنْ تعيب على غيرك صفة من صفاته ، أو خُلقاً من خُلقه ، إلى غير هذا من الأمور ، لذلك سماها الله (اللمم) ، وهذا السجل سرعان ما يُغفر بالاستغفار وفعل الطاعات اليومية .

لذلك يقول الحق سبحانه بعدها : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. (٣٢)﴾ [النجم] . نعم واسع المغفرة . أى : كثير المغفرة ، لأنه تعالى خلق الإنسان ويعلم مناطق الضعف فيه ، ولما كلَّفه لم يُضيِّق عليه ولم يشقّ عليه ، بل كلّفه على قدر الاستطاعة ، ولم يكلفه إلا بعد سنِّ البلوغ ، فيظل يرتع فى الكون دون تكليف أكثر من عشر سنوات .

ثم بعد أنْ يكلَّف يتحمل عنه الصغائر ، ويُبيِّن له عاقبة الكبائر حتى لا يقربها ، وهذه رحمة من الله بعبده ، لذلك قال فى موضع آخر : ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. (١٥)﴾ [المائدة] فالله واسع المغفرة ، كثير العفو ، سبقتْ رحمته غضبه ، وسبق عفوه عقابه .

ثم تأتى التوبة الكبيرة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾ [الأحقاف]

لذلك الذى يعصى ربه عز وجل بعد سنِّ الأربعين يكون (بايخ) ، نعم لأنه وصل لِلسنِّ التى لا عذر له فى أنْ يتجرأ على الله بالمعصية ،

(١) أوزعنى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] .

فإذا ما بلغ المسلم فى الإسلام الكِبَر والشيخوخة استحى الله أنْ يعذبه ، وقد شاب فى الإسلام .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٣٢)﴾ [النجم] نعم النشأة الأولى للإنسان لا يعلمها إلا الله ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١)﴾ [الكهف]

ومعنى ﴿أَنشَأَكُم .. (٣٢)﴾ [النجم] خلقكم بداية من طين الأرض ، والمراد خلق آدم عليه السلام وما دُمْنا من الأرض نشأة وهى البداية والأم ، فالابن متعلق بأمه ومردّه إليها .

ثم يذكر سبحانه طَوْراً آخر من أطوار الخلق ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٣٢)﴾ [النجم] فإذا كان آدم خُلق من طين الأرض فنسلُه جاء من التزاوج الذى تنشأ عنه الأجنة فى بطون الأمهات .

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ .. (٣٢)﴾ [النجم] تزكية النفس يعنى : مدحها وادعاء الصلاح ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾ [النجم] أى : أن الله تعالى أعلم بخفىِّ الأمور وحقيقتها ، أعلم بكم من ساسكم لرأسكم ، ولا يخفى عليه منكم شىء ، فلا مجال إذن لتزكية النفس .

حتى فى حالة مدح الآخرين والثناء عليهم علّمنا أنْ نقول : ولا نُزكى على الله أحداً ، لأن الله تعالى هو الذى يُزكّى ، وهو أعلم بأهل الطاعة وبأهل التقوى الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ[2] ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

قالوا[3] : نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة ، حيث كانت بداية علاقته بدعوة الحق أنْ تولَّى عنها وأعرض عن سماع القرآن ، ثم حَنَ قلبه وأُعجب بما يقوله رسول الله ، فأعطى قليلاً من الأمان لأمر الدعوة واطمأن لها .

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس والسدى والكلبى والمسيب بن شريك : نزلت فى عثمان ابن عفان ، كان ينفق ويتصدق فى الخير فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبى سرح : ما هذا الذى تصنع ؟ يوشك أن لا يبقى لك شيئاً . فقال عثمان : إن لى ذنوباً وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله سبحانه وتعالى وأرجو عفوه . فقال له عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النجم] فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . [أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢٢٧] قال ابن عطية : « عثمان رضى الله عنه منزه عن مثله » .

(٢) أكدى الرجل : بخل ومنع وانقطع خيره . وأصله من أكدى حافر البئر أن وصل فى أثناء حفره إلى الكدية وهى الأرض الصلبة فينقطع عن الحفر يائساً من ظهور الماء . [القاموس القويم ٢/١٥٦] .

(٣) قاله مجاهد وابن زيد ، أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فعيَّره بعض المشركين ، وقال : لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم فى النار ؟ قال : إنى خشيت عذاب الله ، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله سبحانه وتعالى ، فأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية . [ذكره الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٢٧] .

ثم تذكر عزته ومكانته بين قومه وخاف أنْ يُقال صبأ عن دين الآباء والأجداد فنكص على عقبيه وتراجع . وقالوا : جاءه رجل وحذَّره من الإيمان بمحمد . وقال له : إن كنت خائفاً من العذاب ، فأنا أتحمله عنك مقابل أنْ تعطينى كذا وكذا ، فأعطاه ثم تراجع ومنعه .

وقالوا : نزلتْ فى النضر بن الحارث[1] أيضاً : جاءه رجل وقال له : إن عذاب الله شديد وأنا أتحمله عنك ، وأعطنى خمس قلائص[2] أى : خمساً من الجمال لكنه استكثرها ، فمنع الرجل هذا العطاء . وقالوا أيضاً : نزلت فى صفوان .

هذا معنى ﴿ أَفَرَأَيْتَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [النجم] يا محمد ﴿ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النجم] أى : أعرض عنك وتركك ومضى ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [النجم] من العطاء أو من الأمان .

﴿ وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النجم] منع عطيته من الكدية يقولون : حفر فلانٌ الحفرة فاستقامتْ له . أى : وجد ما ينتظره منها ، وحفر فلان الحفرة فأكدتْ . أى : لم يجد شيئاً ، أو وجد حجراً كبيراً منعه من الوصول إلى بُغيته ، والحجر هذا يُسمى كدية . ومنه قولنا : عقبة كأداء . يعنى : تمنعك من الوصول إلى هدفك .

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النجم] أطلع على الغيب وعلم

(١) النضر بن الحارث ، قاله الضحاك ، أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه وضمن له أن يحمل عنه مآثم رجوعه . (كان صاحب لواء المشركين ببدر وقتل فيها (٢ هجرية) الأعلام للزركلى ٨/٣٣) .

(٢) قلائص : جمع قلوص ، وهى كل أنثى من الإبل حين تركب . وفى التهذيب : سميت قلوصاً لطول قوائمها ولم تجسم بعد . [لسان العرب - مادة : قلص] .

الحقيقة ، أو علم أن هذا الرجل سيَفِى فى التحمل عنه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم] يعنى : ألم يعلم هذا المعرض عن دعوة الحق ما جاء فى صحف موسى وفى صحف إبراهيم ؟

لكن ماذا يعنى بما جاء فى صحف موسى وإبراهيم ؟ يجيب القرآن ويُفصِّل المجمل فى الاسم الموصول (بمَا) فيقول سبحانه :

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١)﴾

هذا الذى ورد فى صحف موسى وفى صحف إبراهيم ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)﴾ [النجم] لا تحمل نفسٌ ذنب نفس أخرى ، فإياك أنْ تظن أن أحداً يتحمل عنك وزرك ، ويقع عليه العذاب بدلاً عنك ، لأن الحساب فى الآخرة بالقسط وبالعدل .

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم] ليس له إلا عمله ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرّ ، وهذا يقطع الأمل فى الانتفاع بعمل الغير ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر] فأنت لا تنتفع إلا بعملك وسعيك فاجتهد .

وفى آخر سورة الأعلى ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى] لكن لما كان المقام هنا مقام الحديث عن الوفاء فيمن قال له : أتحمل عنك ذنوبك ، ذكر

سبحانه صفة الوفاء فى سيدنا إبراهيم ، فقال ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم]

لذلك قال تعالى فى سيدنا إبراهيم : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ ..(١٢٤)﴾ [البقرة] نعم أتم سيدنا إبراهيم ما أمره الله به غاية التمام ، ونجح فى الامتحان بامتياز مع مرتبة الشرف ، وهذا واضح من قصة بناء البيت ، وقصة ذبح ولده إسماعيل عليهما السلام .

فلما أتمَّ ما أمر به قال الله له : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة] فكانت المكافأة على قدْر الإتمام ، وعلى قدْر صدق الأداء .

وقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)﴾ [النجم] وقالوا : كيف نجمع بينها وبين قوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ [النحل] فأيُّهما أصح ؟

نقول : كلاهما صحيح ، لأن لكل منهما معنى ، فالأولى تتحدث عن الذنب وعن الشر يرتكبه الإنسان بنفسه فى ذاته ، فهو يحمل

---

(١) فى الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم أقوال كثيرة منها :
أولها : أنها خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد . أما التى فى الرأس فالفرق والمضمضة والاستنشاق وقص الشارب والسواك . وفى الجسد تقليم الأظافر وحلق العانة ونتف الإبط والاستطابة بالماء والختان . رواه طاووس عن ابن عباس .
الثانى : أنها المناسك . الثالث : أنه ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير آية البقرة ٢ .

عقوبة ذلك ، لا يحمله عنه أحد .

أما الآية الأخرى فتتحدث عن الإنسان الذى يُضل غيره ، ضَلَّ فى نفسه وعدَّى ضلاله إلى الغير ، فيتحمل وِزْره ووزر مَنْ أضلَّه بغير علم .

وقد اختلف العلماء حول قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم] فقال بعضهم : المعنى أن الإنسان ليس له إلا ما قدّم ، ولا ينتفع أحد بعمل أحد . وقال آخرون : بل ينتفع الإنسان بعمل غيره ، وفى تاريخنا وسُنَّة سيدنا رسول الله ما يؤيد ذلك .

ونحن نُرجِّح القول الثانى ، لأن السعى هو مطلق الحركة لغاية ، وهذه الحركة قد تكون بالشر كالذى يسعى فى الأرض فساداً وظلماً ، وقد تكون بالخير كالذى يسعى لإصلاح الكون وصلاحه .

والسعى يختلف باختلاف قوة الساعى ، ومدى إيمانه بقضايا دينه ووطنه ، فواحد يسعى لنفسه ولا يرى إلا ذاته ، وآخر يسعى لأسرته ، وآخر يسعى لبلده ، وآخر يسعى لإسعاد العالم كله ، نعم :

عَلَى قَدرِ أهلِ العَزْمِ تَأتِى العَزَائمُ   وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المكَارِمُ

لذلك قالوا : للرجال أوطان تختلف باختلاف هممهم ، فرجل وطنه نفسه ، ورجل وطنه أسرته ، ورجل وطنه بلدته ، ورجل وطنه العالم كله ، وهذه من فلسفة الإيمان الذى يحثّ المؤمن على أنْ يُعدى خيره للناس جميعاً حتى الكافر منهم .

وبهذه الفلسفة ، وبهذا المعنى ينفع الرجل غيره ، والأدلة على هذا الرأى كثيرة ، فسيدنا رسول الله ألم يُبعث للعالم كله ؟ ألم تشمل

رحمته المؤمن والكافر ؟ ألم يقل الله فى حقه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

ومن رحمته بأهل الموقف فى الآخرة أنْ يشفع لهم فى أنْ يُعجِّل لهم الحساب ، لأنهم فى موقف يتمنون فيه الانصراف ولو إلى النار .

ومن شفاعته ﷺ أنْ يشفع فى أهل التوحيد الذين دخلوا النار أنْ يخرجوا منها ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

ثم ألم يأمرنا الشرع بالصلاة على الميت ؟ ولو كانت الصلاة على الميت لا تنفعه لكانت عبثاً ، بدليل أننا ندعو له فيها ، وهذا انتفاع ، لكن المعارضين لهذا الرأى يقولون : وهل نصلى على كل ميت ؟ نحن نصلى على الميت المسلم ، فالمنفعة تأتى من كونه مسلماً ، فإسلامه هو الذى ينفعه .

قلنا لهم : خذوا دليلاً آخر فى قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور] ألم ينتفع الأبناء بصلاح الآباء ؟

قالوا : انتفعوا بصلاحهم لأنهم تحملوا مشقة هذا الصلاح فى الدنيا ، فعوَّضهم الله ما حُرموا منه فى الآخرة ، بمعنى أن الإنسان المستقيم الذى يتحرى الحلال فى مأكله ومشربه لا شكّ يضيق على أولاده ، على خلاف الذى يرتع فى الدنيا طولاً وعرضاً ، ولا يلقى بالاً لمسألة الحلال والحرام ؛ فأولاده يكونون أحسنَ حالاً فى المأكل والمشرب والملبس ، وهكذا ، إذن ما يجده أبناؤه الصالحون من نعيم

---

(١) ألتناهم : نقصناهم . ألته يألته : نقصه ، أى ما أنقصناهم شيئاً من ثواب عملهم . [القاموس القويم ١/ ٢٣] .

الآخرة ، جاء عوضاً عمّا تحمّلوه فى الدنيا .

أيضاً يُروَى[1] عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه مَرَّ على رجل يصلى وحده ، منفرداً ، فقال : ألاَ رجل يتصدَّق على هذا ؟ أى : يصلى معه ليأخذ ثواب الجماعة ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

وسيدنا رسول الله لما امتنع عن الصلاة على الميت المدين[2] كان امتناعه لمنفعة الميت ، وقد انتفع بهذا الامتناع بالفعل ، رسول الله امتنع عن الصلاة عليه ، لأنه قال فى الحثّ على قضاء الدَّيْن : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه .. »[3] .

ويبدو أن هذا الميت مات وعليه دين لا يستطيع قضاءه ، فأراد رسول الله أنْ يحرك مشاعر الخير فى نفوس الصحابة ليبادروا بسداد دين صاحبهم ، وبالفعل لما قال عليه الصلاة والسلام : صلوا على صاحبكم ، قام أبو قتادة وقال : أنا أسُدُّ عنه يا رسول الله ، عندها

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٨٧) وأحمد فى مسنده (١١١٨٧ ، ١١٣٨٠) والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٧١٤) والدارمى فى سننه (١٤١٩ ، ١٤٢٠) كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وهو عند أحمد فى مسنده (٢١١٦٥) من حديث أبى أمامة وفيه زيادة « هذان جماعة » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين فيسأل : هل ترك لدينه من قضاء ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه وإلا قال : صلوا على صاحبكم . فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعلىَّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته . (أخرجه مسلم فى صحيحه ٣٠٤٠) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢١٢) وأحمد فى مسنده (٨٣٧٨ ، ٩٠٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله » .

صلى عليه رسول الله[1] ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

ولكى ننهى هذا الخلاف ونحلُّ هذا الإشكال نقول : لو تأملنا الآية : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم] سنجد فيها ما يؤيد رأينا ، فاللام هنا كما يقول أهل اللغة للملك ، كما تقول : ليس لزيد عندى إلا عشرة . هذا هو الحق .

إذن : الله تعالى ذكر العدل ولم يذكر الفضل ، فأنت حين تدخل مطعماً مثلاً لتتناول الغداء وعند الانصراف تقول للعامل : كم الحساب ؟ يقول : كذا وكذا . تقول له (خُذْ وخلى الباقى علشانك) .

هذا بين الناس فى أمور الدنيا الهيِّنة ، فما بالك بأمور الدين والشرع ؟ وإنْ كان هذا عطاؤك فكيف بعطاء الله ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ﴾ [النجم] فهذا السعى لا يُترك هكذا دون تعقيب عليه ، بل سيُراقب وسيُرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ .. (١٠٥) ﴾ [التوبة]

وكلمة (سوف) تدل على المستقبل ، فسعيك لن يذهب هباءً بل عملك فى الدنيا سيراه الله ويراه رسول الله ويراه المؤمنون . أى : فى الآخرة وسوف تنال عليه الجزاء المناسب ، ليس الجزاء بالعدل ، إنما الجزاء بالفضل .

(١) عن سلمة بن الأكوع قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة ، فقالوا : صل عليها فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه . ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صل عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم ، قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . فصلى عليها . ثم أتى بالثالثة فقالوا : صل عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صلِّ عليه يا رسول الله وعلىَّ دينه . فصلّى عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٢٧ ، ٢١٣١) وأخرج أبو داود فى سننه نحوه (٢٩٠٢) وكذا الترمذى فى سننه (٩٨٩) .

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] تأمل ، لم يقل : الجزاء العادل ، بل الجزاء بالزيادة والفضل والحوافز ﴿الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] والأوفى من صيغ التفضيل التى تدل على الزيادة .

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾

إلى ربك المرجع ، وإلى ربك المصير والمنتهى ، والآية فيها أسلوب قَصْر بتقديم الخبر على المبتدأ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾ [النجم] إلى ربك وحده دون سواه تنتهى الأمور فى الآخرة ، فالدنيا ليست هى نهاية المطاف ، وليست هى الغاية ، وهذه مسألة يُقِرُّ بها العقل قبل الشرع .

فلو كانت الدنيا هى الغاية وهى النهاية ، لكانت الحظوة لأهل الشهوات ولأهل الظلم والتعدِّى ، لأنهم حققوا ما يريدون فى الدنيا وعاشوها بالطول والعرض ، ففازوا بمتاع الدنيا ، ولم يعاقبوا عليه ولم يحاسبوا .

إذن : العقل يقول : لا لابدَّ أن هناك يوماً للحساب وللقصاص ، العدل يقتضى ذلك .

ولو أيقن الناسُ بهذه الآية وفهموا هذا المعنى لاستقامتْ أمورهم ، ولفكَّر الإنسانُ مرة وألف مرة قبل أنْ يُقدم على معصية الله أو ظلم الخَلْق ، ولعمل حساباً لهذا المنتهى الذى لابدَّ له أنْ ينتهى إليه .

وهذه الآية أيضاً تدلنا على أن العبد وإنْ خلقه ربه مختاراً يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصى ، فإن هناك منطقة أخرى قهرية لا اختيار

له فيها ، وهل لك اختيار فى غِناك أو فقرك ؟ صحتك أو سقمك ؟ حياتك أو موتك ؟

إذن : مهما كنتَ حراً ومختاراً فلا غنى لك عن ربك ، ولا ملجأ لك غيره ، فلا تتمرد عليه بالعصيان ، لأن منتهاك إليه فى الآخرة للحساب ، ومنتهاك أيضاً فى أمور حياتك الدنيوية إليه وحده ، فأنت فى قبضة قدره لا تستطيع الانفلات منها .

فالذى يتمرّد على منهج الله أيستطيع أنْ يتمرد على المرض إنْ أصابه ؟ أيستطيع أنْ يمتنع عن ملَك الموت إنْ جاء أجله ، إذن : لك منتهى فى الدنيا قبل منتهى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦)﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم] أى : خلق فيك الضحك وخلق فيك البكاء جعلك تُسر وتحزن ، أنت مثلاً حينما تشاهد عملاً (كوميدياً) تضحك ، (فالكوميديا) سبَّبتْ عندك الضحك ،

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى كتابه (أسباب النزول) ص ٢٢٧ عن عائشة رضى الله عنها قالت : مر رسول الله ﷺ بقوم يضحكون ، فقال : لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً . فنزل عليه جبريل عليه السلام بقوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم] فرجع إليهم فقال : ما خطوت أربعين خطوة حتى أتانى جبريل عليه السلام فقال : ائت هؤلاء وقل لهم : إن الله عز وجل يقول ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم] .

لكن لم تخلق فيك طبيعة الضحك .

لذلك لما كان فى هذا الفعل شبهة المشاركة أكّد الحق سبحانه تفرّده بالعمل ، فلا دخلَ لأحد غيره فيه ، فقال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٣)﴾ [النجم] فأكّد الضمير المتصل بضمير آخر منفصل ، فهو وحده الذى جعلك تضحك ، بمعنى خلق فيك هذه الطبيعة وجعلك صالحاً لها .

لذلك نجد أن المشاعر والعواطف والأمور الطبيعية فى البشر تتحد فى جميع اللغات وعند كل الشعوب على اختلافها ، فليس هناك مثلاً ضحك عربى ، وضحك إنجليزى أو ألمانى ، ليس هناك بكاء روسى ، وبكاء يابانى .

ففى هذه الأمور يتحد الناس ، حتى فى الإشارة نجدها واحدة على اختلاف اللغات ، الكل يفهمها لأنها أصل التفاهم بين البشر قبل وجود اللغات ، فالإشارة لغة عالمية .

كذلك فى قوله سبحانه : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم] أكد الضمير المتصل بالضمير المنفصل ، لأن مسألة الإحياء والإماتة فيها شبهة المشاركة ، فقد يظن البعض أن الطبيب مثلاً هو الذى أمات المريض أو أحياه ، أو يظن أن القاتل هو الذى أمات القتيل .

فالحق سبحانه يختصّ لنفسه سبحانه بهذه الأمور له وحده سبحانه دون سواه ﴿أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم] فالواقع أن القتيل حين قُتل لم يُمتْه القاتل ، إنما جاء أجله موافقاً لهذه الضربة فمات ، مات لأنه سيموت فى هذه اللحظة حتى لو لم يضربه القاتل .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [الملك] فالموت والحياة خلق لله وحده لا دخلَ لأحد فيهما ، لذلك قال الشاعر :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْره تَعدَّدَتْ الأسْبَابُ وَالمَوْتُ وَاحِدُ

وقالوا : والموت من دون أسباب هو السبب . يعنى : مات لأنه سيموت .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥)﴾ [النجم] لاحظ هنا أنه سبحانه لم يقل : وأنه هو ، لأن المسألة لا تحتاج إلى هذا التأكيد ، فقضية الخلق الكل يُسلِّم بها لله ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، وليس فيها شبهة المشاركة من الخَلْق .

ومعنى (الزوجين) أى : النوعين الذكر والأنثى . فالزوج فرد معه مثله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ .. (١٤٣)﴾ [الأنعام]

﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦)﴾ [النجم] فأصل الخَلْق نطفة وهى قطرة المنى .

﴿إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦)﴾ [النجم] أى : تُدفع وتلقى فى رحم المرأة ، فيكون منها الولد بقدرة الله .

وهذه الآية حلَّتْ لنا إشكالاً طال الخلاف فيه بين العلماء ، فقد كان البعض يعتقدون أن المرأة هى المسئولة عن النوع : ذكر أم أنثى . لكن حينما نقرأ هنا ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦)﴾ [النجم] نعلم علم اليقين أن الرجل هو المسئول عن هذه المسألة ، فالنطفة هى نطفة الرجل يلقيها فى رحم زوجته ،

فالزوجة إذن مُستقبلة تعطى ما أخذتْ .

وقلنا : إن المرأة العربية قد توصلتْ بطبيعتها وفطرتها إلى هذه الحقيقة ، فالمرأة التى تزوج عليها زوجها لأنها لا تلد له إلا البنات ، قالت :

مَا لأبِى حَمْزَةَ لاَيَأتينَا ... يظَلّ فى البَيْتِ الذى يلينا
غَضْبَانَ ألاَّ نَلِدَ البَنِينَا ... تَاللهِ مَا ذَلكَ فى أيْدينَا
ونَحْنُ كَالأرْضِ لِغَارسِينَا ... نُعْطِى لَهُمْ مِثْلَ الذى أُعْطِينَا

إذن : انتهتْ المرأة العربية بفطرتها إلى ما انتهى إليه العلماء مؤخراً ، ولابد أن نفرِّق بين النطفة والمنى : النطفة هى السائل الذى يعيش فيه الحيوان المنوى ، والمنى الميكروب نفسه الذى يكون منه الولد .

ورحم الله العقاد[1] حينما قال : إن نصف كستبان الخياطة يحوى أنسَال الدنيا كلها ، ويمكن أنْ نملأ نصف كستبان الخياطة بقذفة واحدة للرجل ، سبحان الله .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) ﴾

---

(١) هو : عباس محمود العقاد ، ولد ٢٨ يونيو ١٨٨٩ م بأسوان ، تخرج من المدرسة الابتدائية سنة ١٩٠٣ م ، كان مولعاً بالقراءة فى مختلف المجالات ، عمل فى أعمال كتابية فى عدة محافظات ، ثم اتجه للعمل فى الصحافة (صحيفة الدستور) ، دخل فى معارك أدبية مع زكى مبارك والرافعى وبنت الشاطىء . توفى عام ١٩٦٤ م عن ٧٦ عاماً .

يعنى : لا تظن أن الدنيا هى نهاية المطاف ، فالذى أنشأكم هذه النشأة فى الدنيا قادر على إعادتكم فى نشأة أخرى يوم القيامة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ أَفَعَيِينَا[1] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق]

والخَلْق الجديد سيكون فى الآخرة حين يبعث اللهُ الموتى ، والذى خلق بداية من عدم قادر من باب أوْلَى على الإعادة من بقايا الخَلْق الأول ، لذلك قال سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق]

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) ﴾ [النجم] لاحظ هنا التخصيص والتأكيد بإعادة الضمير المنفصل بعد الضمير المتصل ، وهذا يدلنا على أن مسألة الرزق والغنى والفقر لله وحده لا دخْلَ لأحد فيها ، فهو وحده سبحانه الذى يسوق الأرزاق ، ويجعل هذا غنياً وهذا فقيراً .

إذن : لما وُجدت الشبهة فى أن أحداً يشارك الله فى هذه المسألة جاءت الآية بهذا الأسلوب ، ألا ترى للآية قبلها ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧) ﴾ [النجم] هكذا بدون (هو) لأن مسألة النشأة الأخرى ليس فيها شبهة المشاركة .

معنى ﴿ أَغْنَىٰ .. (٤٨) ﴾ [النجم] أغناك أيها العبد بما ملكه لك عما فى يد غيرك ، فالغنى إذن كلّ ما أغناك عن الناس من مال أو قوة أو غيره ﴿ وَأَقْنَىٰ (٤٨) ﴾ [النجم] أقنعك وأرضاك بما عندك مهما كان قليلاً .

---

(١) أفعيينا : أى أعجزنا فعيينا بالخلق الأول ، والاستفهام للنفى ، أى لم نعجز ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثانى يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

وكثيراً ما نرى أناساً ضُيِّق عليهم الرزق ، ومع ذلك تراهم راضين بقسم الله ، بل سعداء به ، وربما كانوا أحسن حالاً من الأغنياء ، إذن : هذا عطاء وهذا أيضاً عطاء ، فالقناعة والرضا تساوى الغنى وسعة العيش .

ومن ذلك قالوا[1] : « القناعة كنز لا يفنى » فى حين أن كنز المال ربما يفنى ، فالغنى الحقيقى إذن فى النفس ليس فى العرض . وقالوا ﴿ وأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النجم] من القنية أى : ما يقتنيه الإنسان من المتاع والأثاث ونحوه .

﴿ وأَنَّهُ هو رَبُّ[2] الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النجم] الشِّعْرى[3] كوكب من الكواكب ، قالوا : إنه من الضخامة بحيث يسع مليون شمس مثل هذه الشمس ، وأنه لو اقترب من الأرض لاحترقتْ ، فكأنه يمد الشمس بالحرارة وهى تمدنا ، فلا نأخذ منها مباشرة مثل التيار الكهربائى .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٢٣٢) وعزاه للبيهقى فى الزهد عن جابر بن عبد الله ، وأخرجه البيهقى (١١٤) ثم قال : « هذا إسناد ضعيف » . قال الألبانى فى (ضعيف الترغيب والترهيب) (٥٠٠) : « ضعيف جداً » . وقال ابن حجر الهيثمى فى الزواجر (١/٤٨٤) : رفعه غريب .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥١٩) : « إنما ذكر أنه رب الشعرى وإن كان رباً لغيره لأن العرب كانت تعبده . واختلف فيمن كان يعبده ، فقال السدى : كانت تعبده حمير وخزاعة ، وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبى ﷺ من قبل أمهاته » .

(٣) الشعرى : نجم منه الشعرى الشامية وهو ألمع نجم فى كوكبة الكلب الأصغر ، يبعد عن الأرض بـ ١١ سنة ضوئية . وهناك الشعرى اليمانية فى كوكبة الكلب الأكبر ، وهو أقرب للأرض من الشِّعرى الشامية فهو يبعد ٨ سنوات ضوئية . [الموسوعة الفلكية ص ٢٢٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب] .

فلو أخذنا للبيوت من التيار العالى فى الأكشاك لاحترقتْ الأجهزة والمصابيح فى البيت ، لأن الضعيف لا يستطيع أنْ يستقبل من القوى مباشرة ، بل لابدّ من المنظم أو (الترانس) ، وهكذا تكون الشمس بالنسبة للشعرى .

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾

معلوم أن عاداً قوم سيدنا هود عليه السلام ، وقد أهلكهم الله بريح صرصر عاتية لما كذّبوا نبيهم ، ومعنى ﴿ عَاداً الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم] أن هناك عاداً أخرى ، قالوا : لما نزلت عليهم الريح أهلكتْ الموجودين منهم فى هذا المكان الذى حَلَّ عليه العذاب ، وكان منهم جماعات متفرقة تجمعوا ، والتمسوا مكاناً آمناً ، فذهبوا إلى مكة ، وهذه هى عاد الأخرى .

﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [النجم] فكما أهلك عاداً أهلك ثموداً بالصيحة ﴿ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [النجم] لم يُبْقِ منهم أحداً .

كذلك ﴿ وَقَوْمَ نوحٍ مِّن قَبْلُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النجم] أهلكهم الله ، ثم ميَّزهم عن سابقيهم بصفتين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النجم]

إذن : كان الظلم والطغيان موجوداً فى عاد وفى ثمود ، أما قوم نوح فهم (أظلم) أشد ظلماً (وأطغى) أشد طغياناً . ويكفى دليلاً على ذلك أنْ نبيهم لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما آمن معه إلا قليل .

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] معطوفة على عاد وثمود وقوم نوح . وهى قرى قوم لوط ، سُميت المؤتفكة ، لأن الله تعالى كفأها رأساً على عقب ، وجعل عاليها سافلها ، لذلك نسمى الكذب إفكاً لأنه يَقلب الحقائق ، ومنه حادثة الإفك التى تناولتْ السيدة عائشة فى سورة النور .

ومعنى ﴿ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] أنها هوتْ وسقطت ، لأن الملائكة رفعتها إلى عنان السماء ثم كفأتها على مَنْ فيها ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم] غشَّاها نزل بها وعَمَّها أو غطاها .

﴿ مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم] ما تعجبية تفيد الكثرة التى تفوق الوصف . أى : غشَّاها أمر فظيع عجيب وهول رهيب . نعم لأن الله تعالى جمع على قوم لوط ألواناً من العذاب فى وقت واحد أو متتابعة بعضها إثر بعض .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] أى : بهلاكهم ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود]

ومعنى ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود] أى : مُعلّمة ، كل حجر عليه اسم صاحبه فلم تكُنْ عشوائية ، بل كانت محسوبة بدقة ، فالحجر ينزل على صاحبه لا يتعدَّاه ، ومثلها الحجارة التى أمطر بها أصحاب الفيل : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾ [الفيل]

والعجيب بعد أنْ صرح السياق القرآنى بلفظ الحجارة أنْ نسمع مَنْ يقول ، بل هى ميكروب أو فيروس أصابهم جميعاً ، والميكروب له مدة حضانة لينشط بعدها ، أما هذه فنزلت عليهم فى لحظتها[1] .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطمئنه على نُصْرة الله له وتأييده الدعوة ، فسنة الله فى الدعوات أنْ ينتهى الأمر بنصرة الحق ، وها هى الأدلة باقية شاهدة على إهلاك المكذِّبين ، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] فآثارهم باقية ترونها ليل نهار .

---

(١) عمدة من قال هذا التفسير هو الإمام محمد عبده فى تفسير جزء عم طبعة دار الشعب القاهرة (ص ١٢٠) واعتمد فيما ذهب إليه على قول عكرمة ويعقوب بن عتبة أنه جدرى وحصبة ، وأن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام ، فقال : « قد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه » .

أقول : ليس هناك تعارض بين تفسير الإمامين الشعراوى ومحمد عبده ، فالمشترك بينهما أن هناك طيراً وأنها تحمل حجارة ، فجائز أن يكون هناك من مات بفعل الحجارة مباشرة ، وأنها فى ذات الوقت مسمومة ، فمن لم يمت بها مباشرة مات بفعل ما تحمله من جراثيم بعد يوم أو اثنين أو أكثر . وجائز أيضاً أن يكون الميكروب انتشر وظهر فى أرض العرب كما قالت الرواية ، وهذا يحدث بعد كل الحروب سواء من السلاح المستخدم أو نتيجة تحلل الجثث ، فلا تعارض [عادل أبو المعاطى] .

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) ﴾ [النجم] بأيِّ نعَم ربك يا محمد ﴿ تَتَمَارَى (٥٥) ﴾ [النجم] المراء الشك أو الجدال ، كأنه تعالى يقول له اطمئن فسوف يُتم الله عليك نعمه .

وفى سورة الرحمن : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] والحديث للإنس والجن ، والرسول ﷺ لما قرأها قال : لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم من الجن فكانوا أحسنَ استجابة منكم ، فلما سمعوا ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد[١] .

إذن : مشروع أن ننفعل للقرآن عند سماعه بما يناسب المقام ، فعند الحمد نحمد الله ، وعند التسبيح نقول سبحان الله . وعند ذكر الجنة ندعو الله بها ، وعند ذكر النار نستعيذ بالله منها وهكذا .

وفرْقٌ بين إعجاب صامت مكبوت فى النفس ، وإعجاب منطوق معُبَّر عنه ، ثم إنك حين تعبر عن تفاعلك مع القرآن باللفظ تكون قدوة فى ذلك لمَنْ يسمعك .

كلمة (أى) هنا تفيد الكثرة و (آلاء) نعَم جمع (ألَىً) أى : نعمة[٢] . والمراء أى : الجدال ويكون بين طرفين يجتهد كل منهما لإقامة حجته على الآخر . والمراء فى اللغة مأخوذ على معنيين : مرو الحبل يعنى فتله لتقويته ، وبحسب مهمة الحبل يكون عدد الخيوط المفتولة . أو مأخوذ من يمرى الناقة . أى : يحلبها ويأتى بكل ما فى ضرعها .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥٣٢) من حديث جابر بن عبد الله وكذا الترمذى فى سننه (٣٢٩١) فى كتاب التفسير ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه للبزار وابن جرير وابن المنذر والدار قطنى فى الأفراد وابن مردويه والخطيب فى تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر .

(٢) وقد يكون المفرد (إلْىٌ) و(إلىً) .

إذن : تجادل لتقوى حجتك ، أو تجادل لتخرج كلَّ ما فى جعبة الخصم .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) ﴾[١]

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا .. (٥٦) ﴾ [النجم] إشارة إلى النبى ﷺ ، وما جاء به من دعوة الحق ، والنذير هو الذى ينذر الناس ويحذرهم من الشر قبل أوانه ﴿ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ (٥٦) ﴾ [النجم] النذر الأولى . أى : التى خلتْ قبل رسول الله من مواكب الرسل السابقين ، فعظمة النذارة فى سيدنا رسول الله أنه آخرُ نذير وخاتم الرسل أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم] أى : اقتربتْ الساعة فكأنه ﷺ جاء على فم الساعة ، فبعد أنْ قال ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ (٥٦) ﴾ [النجم] أعقبها ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) ﴾

لذلك جاء فى الحديث الشريف : «بُعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى»[٢] فبعثته ﷺ تُعد من علامات الساعة .

وقد خاطبه ربه تعالى بقوله : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) ﴾ [النازعات] أى : من ذكرى الساعة وعلاماتها . وما دام أزفت الآزفة

---

(١) فيه قولان : أحدهما : أنه القرآن نذير بما أنذرت الكتب المتقدمة . قاله قتادة . والثانى : أنه رسول الله نذير بما أنذرت به الأنبياء . قاله ابن جريج . [قاله ابن الجوزى فى زاد المسير] . ومثله فى تفسير الماوردى ، وتفسير الكشاف للزمخشرى .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٨٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢٤٤) من حديث سهل بن سعد الساعدى . فهو حديث متفق عليه .

واقتربتْ فانتبه ، فهذه آخر الرسالات فتعلّق بها وتمسّك بهذا الرسول الخاتم والنذير الأخير الذى ليس بعده نذير فانْجُ به .

ونفهم من معنى ﴿ أَزِفَتِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النجم] اقتربتْ أنها هى التى تسعى إليك وتطلبك بخطوات حثيثة تسرع إليك . وبعد قليل فى أول القمر سيقول : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر]

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النجم] يعنى : إذا جاءت أهوال الساعة لا أحدَ غير الله يستطيع أنْ يدفعها ، فأنت فى أحداث الدنيا وخطوب الحياة قد يوجد مَنْ يكشف عنك الكرب أو يدفع عنك السوء .

أما فى الآخرة فالخطب جلَل ، ليس لأحد قدرة على دفعه ، وإلا كيف يدفعها ، وهى الطامة الكبرى التى تعم الجميع ، كيف يدفع عنك وهو لا يستطيع أنْ يدفعها عن نفسه ؟

إذن : استعدوا لهذا الموقف ، وخذوا لكم دافعاً من الله ، فهو وحده لا شريك له القادر أنْ يدفع عنك فى هذا اليوم .

ولا غرابة فى أزفتْ الآزفة واقتربت الساعة ، وقد ظهرت لنا فى واقع الحياة علاماتها الصغرى التى أخبرنا بها سيدنا رسول الله من وجود نساء فى مجتمع المسلمين كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة[(١)] البخت المائلة[(٢)] .

---

(١) كأسنمة البخت : أى كظهور الجمال جمع سنام . قال فى لسان العرب : شبَّه رؤوسهن بأسنمة البخت لكثرة ما وصلن به شعورهن حتى صار عليها من ذلك ما يفيئها أى يحركها خيلاء وعجباً .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٨٣١١) والبيهقى فى شُعبه (٥١٢٤ ، ٧٥٥٤) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٦٥٤٩) وابن حبان فى صحيحه (٧٥٨٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله : إذا أُسندَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[(١)] ، وقوله : « وإعجاب كل ذى رأى برأيه » ،[(٢)] «وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان »[(٣)] . إلى غير هذه من العلامات التى شاهدناها بالفعل ، فلِمَ العجب إذن ؟

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

الهمزة هنا استفهام للتعجب ، فهم يتعجبون من ﴿ هَٰذَا الْحَدِيثِ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النجم] أى : من القرآن وهو يتعجب منهم ، يقول لهم : أتتعجبون من القرآن ؟ الأوْلَى بكم أنْ تتعجبوا من حالكم وما أنتم فيه من لهو وغفلة وانصراف عن الحق ، وهذا يُفوِّت عليكم الفرصة ويحرمكم خيراً كثيراً .

ونفس المعنى فى ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النجم] تضحكون سخرية واستهزاءً ، وكان الأوْلَى بكم أنْ تبكوا على أنفسكم

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » . وفى رواية عند البخارى (٦٠١٥) والبيهقى فى سننه الكبرى « إذا أسند » .

(٢) أخرج نعيم بن حماد فى كتاب الفتن عن أبى ثعلبة الخشنى عن النبى ﷺ قال : « إذا رأيت إعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك ودع عنك أمر العوام » وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٠٣٣) والبيهقى فى شعب الإيمان (٩٣٩٧) وابن حبان فى صحيحه (٣٨٦) ولكن ضعفه الألبانى فى صحيح وضعيف الجامع الصغير (٦٠٩٤) .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٩) ، وأبو داود فى سننه (٤٠٧٥) ، والترمذى فى سننه (٢٥٣٥) ، والنسائى فى سننه (٤٩٠٤ ، ٤٩٠٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وعلى ما فاتكم من الخير ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم] لاهون غافلون .

وهذا حال مَنْ قستْ قلوبهم وغلبهم الشيطان والنفس ، تراهم إلى جانب انصرافهم عن الحق يسخرون من أهله ويضحكون استهزاءً بهم .

كما قال تعالى فى تصوير هذا الموقف : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين] سماهم مجرمين ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [المطففين]

نعم ، هذا حال أهل الباطل الذين يقلبون الحقائق فى الدنيا ، لكن الدنيا ليست هى الغاية ، وليست هى نهاية المطاف ، فهناك اليوم الآخر الذى يفصل فيه بين الظالم والمظلوم ، كما قالوا : وعند الله تجتمع الخصوم .

فالله يُطمئن أهل الإيمان : ﴿فَالْيَوْمَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين] أى : يوم الحساب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين] ومَنْ يضحك أخيراً يضحك كثيراً ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين] وعندها نقول : نعم يا رب جازيتهم بما يستحقون .

وقوله سبحانه : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾ [النجم] نلاحظ

(١) فكهين : بطرين أشرين . والفكه : من البطر والأشر والاستكبار والاستهزاء بالآخرين . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

أولاً أسلوب الاختصار فى الأداء القرآنى الذى يترك مجالاً لفطنة المتلقى ، فالمعنى : فاسجدوا لله واعبدوا الله ، لأنه وحده المستحق للعبادة لا شريك له ، فالأمر بالعبادة لا ينصرف إلا إليه سبحانه ، حتى لو لم يُذكر المعبود سبحانه .

الحق سبحانه وتعالى حينما يأمرهم بالسجود والخضوع والطاعة كأنه يقول لهم : كان أوْلَى بكم البكاء والخضوع والتضرع ، وأنْ تتمسكوا بهذا الحق الذى جاءكم ليأخذ بأيديكم ، فهو حبل النجاة فلا تقابلوه بالسخرية .

وهنا ملحظ فى نهاية السورة يأتى الأمر بالسجود ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾ [النجم] كأن الله يتودد إلى عباده حتى الكافرين يقول لهم : يا عبادى أنتم صنعتى وعيالى ، فتعالوا إلى ساحتى .

انهوا الخلاف والمعارضة ، واخضعوا لى بالسجود والعبادة ، فأنا أريد لكم الخير ، وهل هناك صانع يريد الشر لصنعته ؟ لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا بن آدم ، أنا لك محب فبحقِّى عليك كن لى محباً »[1] .

ولله المثل الأعلى : أرأيتَ لو أن رجلاً غنياً وسَّع الله عليه وعنده ولد فاسد ، فينادى عليه : يا بُنى تعالَ انتفع بمالى ، فأنت أحقُّ به ،

(١) أورده القشيرى فى تفسيره فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم] قال : فى بعض الكتب المنزلة على الأنبياء وذكره . وذكره إسماعيل حقى فى تفسيره [النحل ٧١] من كلام كعب الأحبار عن التوراة أوله : « يا بن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب » وكذا فى المستطرف (١/٦٩) فصل القناعة .

كذلك الحق سبحانه ينادى على الخارجين عن منهجه : تعالوا فالخير ينتظركم .

وإذا كان الأمر فى ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) ﴾ [النجم] للكافرين ، فهو أيضاً يكون للمؤمنين : اسجدوا شكراً لله الذى هداكم إلى الإيمان ونجاكم من الكفر .

سورة القمر

سورة القمر[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ ﴾

الساعة من أسماء يوم القيامة ، فهى : الساعة ، والحاقة ، والصَّاخة ، والواقعة ، والطامة ، وغيرها ، وكلٌّ وصف من هذه الأوصاف فيه جانب من الفزع والإخافة .

ونلاحظ المناسبة بين أواخر النجم وبداية القمر ، فهناك قال : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ۝٥٧ ﴾ [النجم] وهنا قال ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ . ۝١ ﴾ [القمر] وقلنا : إن مجرد بعثة رسول الله ﷺ من علامات الساعة ، نعرف أن الساعة لن تقوم إلا على شرار الخلق حين لا يقال فى الأرض : الله ، الله[2] .

(١) سورة القمر هى السورة رقم (٥٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجمهور ، وهى خمس وخمسون آية ، نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص ، فهى السورة رقم (٣٦) فى ترتيب النزول .

(٢) أخرج الإمام مسلم فى صحيحه (٣٥٥٠) أن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشىء إلا رده عليهم . فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر ، فقال له مسلمة : يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله ، فقال عقبة : هو أعلم وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك . فقال عبد الله : أجل ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسُّها مسّ الحرير فلا تترك نفساً فى قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة .

أما أهل القبور من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى مَنْ مات قبل قيام الساعة ، فكما قلنا إن الزمن فى حقِّهم متوقف ، لأن الزمن فرع الأحداث ، فإذا لم توجد الأحداث لا يوجد الزمن .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات] أى : القيامة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات] والرجل الذى حاجّ إبراهيم فى ربه أماته الله مائة سنة ، وقال بعد أنْ أحياه الله ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

وقالها أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، لأن هذه هى الفترة التى يمكن أنْ يستغرقها النائم فى نومه ، كذلك ستمر فترة البرزخ على أهل القبور هكذا ، وكأنهم ناموا نوْمة وقاموا منها .

والله سبحانه وتعالى هو مالك الزمن ، وهو القابض الباسط ، يقبضه لمَنْ يشاء ويبسطه لمَنْ يشاء .

ومعنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ﴿١﴾ ﴾ [القمر] يعنى : هى قريبة منك على المستوى الشخصى ، فلا تنظر أنت إلى العلامات الصغرى ، ثم إلى العلامات الكبرى وتقول : ما زال الوقت طويلاً بيننا وبين القيامة ، لا ليس كذلك يكون تصور القيامة .

فالقيامة للإنسان هى أنْ يموت ، ليستْ بعد آلاف أو ملايين السنين لقول سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ مات فقد قامت قيامته »[1] .

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٦١٨) : رواه الديلمى عن أنس رفعه بلفظ « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » . وللطبرانى عن المغيرة بن شعبة قال : يقولون القيامة وإنما قيامة الرجل موته . ومن رواية سفيان عن أبى قبيس قال : شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته . وذكره الفتنى فى تذكرة الموضوعات وعزاه لابن أبى الدنيا وقال : هو من قول الفضيل بن عياض ، وفى المقاصد هو للديلمى عن أنس رفعه .

نعم لأنه انتقل من مرحلة الدنيا إلى مرحلة الآخرة ، وانقطع عمله فى الدنيا ، والحق سبحانه أبهم وقت الموت ومكانه ليظل الإنسان على ذِكْر له فى كل لحظة .

وقوله تعالى : ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر] انشقاق القمر آية كونية ثابتة بالكتاب والسنة ، فقد ورد أن القمر انشقّ لرسول الله حتى ظهر حراء بين الشقين[1] ، وقد رأى هذه الآية أهل هذا الزمان ممَّنْ تيسر لهم الرؤية فشاهدوه على هذه الصورة .

لا نقول رآه العالم كله ، لأن الآيات الكونية معجزات يُراد منها تثبيت الرسل ، وبيان صدقهم فى البلاغ عن الله ، فليس بالضرورة أنْ يرى هذه الآية كلُّ أهل هذا الزمان ، كيف ونحن الآن مع التقدم العلمى الهائل وتوفر وسائل الاتصال نسمع عن حدوث خسوف أو كسوف فى وقت كذا وكذا ، وفعلاً تنقله القنوات المختلفة ، ومع ذلك ومع الإعلان عن الظاهرة مُقدَّماً إلا أن القليل هم الذين يتمكنون من رؤيتها . والقمر آية ليلية فى وقت معظم الناس فيه نائمون .

ثم إن المعجزات والآيات الكونية للرسل لا يُقصد منها المعجزة الدائمة ، بل معجزة لمَنْ شاهدها ليثبت على إيمانه إنْ كان مؤمناً ، أو يؤمن بالله إنْ كان كافراً .

لذلك قالوا : هى كعود الكبريت لا يشتعل إلا مرة واحدة ، وهكذا

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٧٩) وعن جبير ابن مطعم قال : انشق القمر ورسول الله ﷺ بمكة ، حتى رأيت حراء بين شقتيه . أخرجه الفاكهى فى أخبار مكة (٢٣٦٤) .

كل معجزات الرسل ، فلولا أن القرآن أخبرنا بعصا موسى ما كنا عرفنا عنها شيئاً .

والآيات الكونية هذه خَرْق للنواميس فى لحظتها ، ثم تعود الأمور إلى طبيعتها ، فالقمر انشقّ فعلاً وخرق العادة ، ثم عاد إلى ما كان عليه بعد أنْ رآه كفار مكة المكذبون لرسول الله ، ليس كل الكفار بل بعضهم ، فهذا البعض الذى شاهد المعجزة كاف لإثباتها .

وقالوا : معنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ① ﴾ [القمر] أى : ساعة كل إنسان وأجله الذى ينتظره ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ [القمر] أى : ينشقّ عنه ويغيب ويعتزل حياته .

وما دام أن الله تعالى قال ﴿ اقْتَرَبَتِ .. ① ﴾ [القمر] فقد اقتربتْ بالفعل ، ولا تبحث فى هذه المسألة .

والحق سبحانه قال أيضاً : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① ﴾ [النحل] فقال (أتى) بلفظ الماضى كأنه حدث بالفعل فكيف يقول ﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ① ﴾ [النحل] قالوا : لأن الله هو الذى قال (أتى) ولا أحدَ يستطيع أن يعترض عليه أو يمنعه أنْ يحقق ما أخبر به .

كذلك فى قوله ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ① ﴾ [القمر] فقد اقتربتْ بالفعل ، إما ساعة كلّ إنسان حينما يأتى أجله وهذا قريب ، أو الساعة العامة فهى أيضاً قريبة ، لأن انشقاق القمر من علاماتها وبعثته ﷺ من علاماتها .

ويُروى أن المكذبين لرسول الله قالوا له : إنْ كنتَ صادقاً فيما

تخبر به فأت بآية الآن تدل على صدْقك ، قالوا : الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ، والعاص بن ربيعة ، والأسود ابن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب ، وربيعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث .

وكل هؤلاء وغيرهم حضروا هذه الواقعة ، حيث دعا رسول الله وسأل ربه فانفلق القمر نصفين ، نصف على جبل أبى قبيس ، ونصف على قينقاع حتى ظهر غار حراء بينهما ، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا سحر ، أما أهل التعقل فقالوا : نسأل المسافرين فى الصحراء بعيداً عن هذا المكان ، فلما سألوهم قالوا : نعم رأيناه وقال آخرون : لم نره[١] .

وقد أرجع الإمام على رضى الله عنه هذا الاختلاف إلى أن آية انشقاق القمر آية ليلية ، البعض رآها بالفعل ، والبعض بل الأكثر لم يرها[٢] .

وباستقراء الآيات التى وردت فى قيام الساعة وما يسبقها من علامات ، نقرأ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ② ﴾ [التكوير] وغيرها كثير مما يُصوّر لنا انهدام هذه الكيانات .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية قال : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد النبى ﷺ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ، فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السفار فسألوهم . فقالوا : نعم قد رأيناه ، فأنزل الله ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ [القمر] .

(٢) قال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : « انشقاق القمر وقع فى الليل وزمان الغفلة وكان فى زمان قليل ، ورؤية القمر فى بلد لا تستلزم رؤيته فى جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ومكسوفاً عند قوم غير مكسوف عند آخرين » .

أما القمر فلم يأت فيه إلا قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ ﴾ [القيامة] والخسف أهون ، وأقل من تكوير الشمس .

ونفهم من هذا أن حادثة انشقاق القمر فى الدنيا ستُدخر له فى الآخرة ، فلا يحدث له ما يحدث لغيره من النجوم .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر] إذن : هناك مَنْ يُصعق وهناك مَنْ ينجو .

وفى تصوير سيدنا رسول الله ﷺ لموقف القيامة يقول : فلما أفقتُ وجدت أخى موسى آخذاً بعضد العرش . وهذا يعنى أنه عليه السلام لم يُصعق فيمَنْ صُعق - لذلك تعجب رسول الله[1] .

ثم بيَّن أنه صُعق مرة فى الدنيا وهو على جبل الطور : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] وما كان الله سبحانه وتعالى ليجمع على نبيه موسى الصعقتين ، فلما صُعق فى الدنيا نجّاه من صعقة الآخرة .

وهذا هو الاستثناء ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

وهكذا الحال فى مسألة انشقاق القمر ، وهذا يعنى أن الانشقاق كان حقيقياً وآية كونية أخرجتْ القمر عن طبيعته وكيفيته ، لذلك لا يصيبه ما يصيب النجوم الأخرى فى الآخرة .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٢٣٤) أن رسول الله ﷺ قال : « لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش جانب العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله » وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٧٧) كلاهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهرس آيات المجلد الثالث والعشرين

سورة الفتح	الصفحة	سورة الحجرات	الصفحة	سورة ق	الصفحة
الآية : ٣	١٤٣٧٤	الآية : ٤	١٤٤٤١	الآية : ١٥	١٤٥١٧
الآية : ٤	١٤٣٧٨	الآية : ٥	١٤٤٤١	الآية : ١٦	١٤٥١٨
الآية : ٥	١٤٣٨١	الآية : ٦	١٤٤٤٣	الآية : ١٧	١٤٥٢٢
الآية : ٦	١٤٣٨٤	الآية : ٧	١٤٤٤٨	الآية : ١٨	١٤٥٢٢
الآية : ٧	١٤٣٨٦	الآية : ٨	١٤٤٥١	الآية : ١٩	١٤٥٢٣
الآية : ٨	١٤٣٨٧	الآية : ٩	١٤٤٥٣	الآية : ٢٠	١٤٥٢٥
الآية : ٩	١٤٣٨٧	الآية : ١٠	١٤٤٥٥	الآية : ٢١	١٤٥٢٥
الآية : ١٠	١٤٣٨٩	الآية : ١١	١٤٤٥٧	الآية : ٢٢	١٤٥٢٥
الآية : ١١	١٤٣٩٣	الآية : ١٢	١٤٤٦٦	الآية : ٢٣	١٤٥٢٦
الآية : ١٢	١٤٣٩٣	الآية : ١٣	١٤٤٧٣	الآية : ٢٤	١٤٥٢٦
الآية : ١٣	١٤٣٩٦	الآية : ١٤	١٤٤٨٠	الآية : ٢٥	١٤٥٢٦
الآية : ١٤	١٤٣٩٦	الآية : ١٥	١٤٤٨٣	الآية : ٢٦	١٤٥٢٦
الآية : ١٥	١٤٣٩٩	الآية : ١٦	١٤٤٨٤	الآية : ٢٧	١٤٥٢٩
الآية : ١٦	١٤٤٠٠	الآية : ١٧	١٤٤٨٥	الآية : ٢٨	١٤٥٣٠
الآية : ١٧	١٤٤٠١	الآية : ١٨	١٤٤٨٦	الآية : ٢٩	١٤٥٣٠
الآية : ١٨	١٤٤٠٢	سورة ق		الآية : ٣٠	١٤٥٣١
الآية : ١٩	١٤٤٠٢			الآية : ٣١	١٤٥٣٢
الآية : ٢٠	١٤٤٠٣			الآية : ٣٢	١٤٥٣٢
الآية : ٢١	١٤٤٠٣	الآية : ١	١٤٤٩٣	الآية : ٣٣	١٤٥٣٢
الآية : ٢٢	١٤٤٠٤	الآية : ٢	١٤٤٩٨	الآية : ٣٤	١٤٥٣٦
الآية : ٢٣	١٤٤٠٤	الآية : ٣	١٤٥٠١	الآية : ٣٥	١٤٥٣٦
الآية : ٢٤	١٤٤٠٤	الآية : ٤	١٤٥٠٣	الآية : ٣٦	١٤٥٣٨
الآية : ٢٥	١٤٤٠٥	الآية : ٥	١٤٥٠٥	الآية : ٣٧	١٤٥٤٠
الآية : ٢٦	١٤٤٠٦	الآية : ٦	١٤٥٠٨	الآية : ٣٨	١٤٥٤٢
الآية : ٢٧	١٤٤٠٧	الآية : ٧	١٤٥٠٨	الآية : ٣٩	١٤٥٤٤
الآية : ٢٨	١٤٤١٣	الآية : ٨	١٤٥٠٨	الآية : ٤٠	١٤٥٤٤
الآية : ٢٩	١٤٤١٦	الآية : ٩	١٤٥١١	الآية : ٤١	١٤٥٤٨
سورة الحجرات		الآية : ١٠	١٤٥١١	الآية : ٤٢	١٤٥٤٨
		الآية : ١١	١٤٥١٤	الآية : ٤٣	١٤٥٤٩
الآية : ١	١٤٤٣٥	الآية : ١٢	١٤٥١٥	الآية : ٤٤	١٤٥٤٩
الآية : ٢	١٤٤٣٨	الآية : ١٣	١٤٥١٥	الآية : ٤٥	١٤٥٥٠
الآية : ٣	١٤٤٤٠	الآية : ١٤	١٤٥١٥		

سورة الذاريات	الصفحة	سورة الذاريات	الصفحة	سورة الطور	الصفحة
الآية : ١	١٤٥٥٥	الآية : ٣٣	١٤٥٨٨	الآية : ٣	١٤٦٢٧
الآية : ٢	١٤٥٥٥	الآية : ٣٤	١٤٥٨٨	الآية : ٤	١٤٦٢٩
الآية : ٣	١٤٥٥٥	الآية : ٣٥	١٤٥٩٣	الآية : ٥	١٤٦٢٩
الآية : ٤	١٤٥٥٥	الآية : ٣٦	١٤٥٩٣	الآية : ٦	١٤٦٢٩
الآية . ٥	١٤٥٥٧	الآية : ٣٧	١٤٥٩٣	الآية : ٧	١٤٦٣٠
الآية : ٦	١٤٥٥٧	الآية : ٣٨	١٤٥٩٥	الآية : ٨	١٤٦٣٠
الآية : ٧	١٤٥٥٨	الآية : ٣٩	١٤٥٩٥	الآية : ٩	١٤٦٣١
الآية : ٨	١٤٥٥٨	الآية : ٤٠	١٤٥٩٥	الآية : ١٠	١٤٦٣١
الآية : ٩	١٤٥٥٨	الآية : ٤١	١٤٥٩٩	الآية : ١١	١٤٦٣١
الآية : ١٠	١٤٥٦٠	الآية : ٤٢	١٤٥٩٩	الآية : ١٢	١٤٦٣١
الآية · ١١	١٤٥٦٠	الآية : ٤٣	١٤٦٠٢	الآية : ١٣	١٤٦٣٤
الآية : ١٢	١٤٥٦٠	الآية : ٤٤	١٤٦٠٢	الآية : ١٤	١٤٦٣٤
الآية : ١٣	١٤٥٦٠	الآية : ٤٥	١٤٦٠٢	الآية : ١٥	١٤٦٣٥
الآية : ١٤	١٤٥٦٠	الآية : ٤٦	١٤٦٠٣	الآية : ١٦	١٤٦٣٥
الآية : ١٥	١٤٥٦٢	الآية : ٤٧	١٤٦٠٤	الآية : ١٧	١٤٦٣٦
الآية : ١٦	١٤٥٦٢	الآية : ٤٨	١٤٦٠٤	الآية : ١٨	١٤٦٣٦
الآية : ١٧	١٤٥٦٢	الآية : ٤٩	١٤٦٠٤	الآية : ١٩	١٤٦٣٦
الآية : ١٨	١٤٥٦٢	الآية : ٥٠	١٤٦٠٦	الآية : ٢٠	١٤٦٤٠
الآية : ١٩	١٤٥٦٢	الآية : ٥١	١٤٦٠٦	الآية : ٢١	١٤٦٤١
الآية : ٢٠	١٤٥٧٢	الآية : ٥٢	١٤٦٠٩	الآية : ٢٢	١٤٦٤٣
الآية : ٢١	١٤٥٧٢	الآية : ٥٣	١٤٦٠٩	الآية : ٢٣	١٤٦٤٣
الآية : ٢٢	١٤٥٧٧	الآية : ٥٤	١٤٦١١	الآية : ٢٤	١٤٦٤٤
الآية : ٢٣	١٤٥٧٩	الآية · ٥٥	١٤٦١١	الآية : ٢٥	١٤٦٤٥
الآية : ٢٤	١٤٥٨١	الآية : ٥٦	١٤٦١٢	الآية : ٢٦	١٤٦٤٥
الآية : ٢٥	١٤٥٨١	الآية : ٥٧	١٤٦١٢	الآية : ٢٧	١٤٦٤٥
الآية : ٢٦	١٤٥٨٦	الآية : ٥٨	١٤٦١٢	الآية : ٢٨	١٤٦٤٧
الآية : ٢٧	١٤٥٨٦	الآية : ٥٩	١٤٦٢٠	الآية : ٢٩	١٤٦٤٧
الآية : ٢٨	١٤٥٨٧	الآية : ٦٠	١٤٦٢٢	الآية : ٣٠	١٤٦٥١
الآية : ٢٩	١٤٥٨٧	سورة الطور		الآية : ٣١	١٤٦٥١
الآية : ٣٠	١٤٥٨٧			الآية : ٣٢	١٤٦٥٣
الآية : ٣١	١٤٥٨٨	الآية : ١	١٤٦٢٧	الآية : ٣٣	١٤٦٥٤
الآية : ٣٢	١٤٥٨٨	الآية : ٢	١٤٦٢٧	الآية : ٣٤	١٤٦٥٤

سورة الذاريات	الصفحة	سورة النجم	الصفحة	سورة النجم	الصفحة
الآية : ٣٥	١٤٦٥٦	الآية : ١٥	١٤٦٨٠	الآية : ٤٧	١٤٧٣٢
الآية : ٣٦	١٤٦٥٦	الآية : ١٦	١٤٦٨٧	الآية : ٤٨	١٤٧٣٢
الآية : ٣٧	١٤٦٥٧	الآية : ١٧	١٤٦٨٧	الآية : ٤٩	١٤٧٣٢
الآية : ٣٨	١٤٦٥٨	الآية : ١٨	١٤٦٨٨	الآية : ٥٠	١٤٧٣٥
الآية : ٣٩	١٤٦٥٨	الآية : ١٩	١٤٦٨٩	الآية : ٥١	١٤٧٣٥
الآية : ٤٠	١٤٦٥٩	الآية : ٢٠	١٤٦٨٩	الآية : ٥٢	١٤٧٣٥
الآية : ٤١	١٤٦٦٠	الآية : ٢١	١٤٦٨٩	الآية : ٥٣	١٤٧٣٦
الآية : ٤٢	١٤٦٦٠	الآية : ٢٢	١٤٦٨٩	الآية : ٥٤	١٤٧٣٦
الآية : ٤٣	١٤٦٦١	الآية : ٢٣	١٤٦٩٩	الآية : ٥٥	١٤٧٣٧
الآية : ٤٤	١٤٦٦٢	الآية : ٢٤	١٤٧٠١	الآية : ٥٦	١٤٧٣٩
الآية : ٤٥	١٤٦٦٣	الآية : ٢٥	١٤٧٠١	الآية : ٥٧	١٤٧٣٩
الآية : ٤٦	١٤٦٦٣	الآية : ٢٦	١٤٧٠٣	الآية : ٥٨	١٤٧٣٩
الآية : ٤٧	١٤٦٦٣	الآية : ٢٧	١٤٧٠٥	الآية : ٥٩	١٤٧٤١
الآية : ٤٨	١٤٦٦٤	الآية : ٢٨	١٤٧٠٥	الآية : ٦٠	١٤٧٤١
الآية : ٤٩	١٤٦٦٤	الآية : ٢٩	١٤٧٠٦	الآية : ٦١	١٤٧٤١
		الآية : ٣٠	١٤٧٠٦	الآية : ٦٢	١٤٧٤١
سورة النجم		الآية : ٣١	١٤٧٠٩		
		الآية : ٣٢	١٤٧١٢	**سورة القمر**	
الآية : ١	١٤٦٦٩	الآية : ٣٣	١٤٧٢٠	الآية : ١	١٤٧٤٧
الآية : ٢	١٤٦٦٩	الآية : ٣٤	١٤٧٢٠		
الآية : ٣	١٤٦٧١	الآية : ٣٥	١٤٧٢٠		
الآية : ٤	١٤٦٧١	الآية : ٣٦	١٤٧٢٠		
الآية : ٥	١٤٦٧١	الآية : ٣٧	١٤٧٢٠		
الآية : ٦	١٤٦٧١	الآية : ٣٨	١٤٧٢٢		
الآية : ٧	١٤٦٧٧	الآية : ٣٩	١٤٧٢٢		
الآية : ٨	١٤٦٧٧	الآية : ٤٠	١٤٧٢٢		
الآية : ٩	١٤٦٧٧	الآية : ٤١	١٤٧٢٢		
الآية : ١٠	١٤٦٧٩	الآية : ٤٢	١٤٧٢٨		
الآية : ١١	١٤٦٧٩	الآية : ٤٣	١٤٧٢٩		
الآية : ١٢	١٤٦٨٠	الآية : ٤٤	١٤٧٢٩		
الآية : ١٣	١٤٦٨٠	الآية : ٤٥	١٤٧٢٩		
الآية : ١٤	١٤٦٨٠	الآية : ٤٦	١٤٧٢٩		